

الحروب الصليبية

الجزء الأول

تأليف : وليم الصوري

ترجمة : د. حسن حبشي



الهيئة العامة للأرشيف والكتابات



رئيس مجلس الإدارة
د. سمير سرحان

رئيس التحرير
د. عبد العظيم رمضان

مدير التحرير:
عبد العظيم الشبلي

اهداءات ١٩٩٨

مؤسسة الأهرام للنشر والتوزيع

القاهرة

الحروب الصليبية

(١٠٩٤ - ١١٨٤ م)

الجزء الأول

تأليف

وليم الصوري

ترجمة وتقديم

د. حسن حبشي



١٩٩١

هذه ترجمة لكتاب :

A
*HISTORY OF DEEDS DONE
BEYOND THE SEA*

BY
WILLIAM OF TYRE
TRANSLATED BY
EMILY ATWATER BABCOCK
&
A C. KREY

Columbia University Press
1943

تقديم

يسرني أن أقدم للقارئ هذا العمل العلمي العظيم ، مؤلف عظيم ، ومترجم عظيم . أما العمل فهو تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصوري ، الذي يعرفه طلاب الدراسات التاريخية كأحد أعظم المصادر في تاريخ هذه الحروب الخالدة ، وكأقدمها أيضا ، فقد رأى النور في صورته الأصلية في القرن السادس عشر الميلادي . وهو يعالج الفترة التي امتدت من عام ١٠٩٤ إلى عام ١١٨٤ ، أي على مدى تسعين عاما من عمر مصر والشام ، فضلا عن بعض أقاليم أعالي العراق وآسيا الصغرى . وهذه الفترة والتي نلها على مدى قرن ونصف آخر من الزمان ، هي التي أخذت سدق فيها من عرب أوروبا تلك الهجرات الشعبية المسلحة المتمثلة بمسوح الدين والمتمسحة بالصليب وهي التي عرفت باسم الحملات الصليبية .

أما مؤلف الكتاب فهو ولیم الصوري ، الذي ولد في ١١٣٠ م ، والذي بعده بعض المؤرخين الأوروبيين واحدا من أعظم مؤرخي العصور الوسطى قاطبة . وقد توفرت له من أدوات الكتابة التاريخية ما لم يتوفر لغره ، فإلى جانب إتقانه للغة اللاتينية والفرنسية واليونانية ، وإلمامه بالعربية ، فقد كان تحت يده من الوثائق ما يجعله مبرزاً في الكتابة التاريخية وحجة في عصره . وقد سغل من المناصب ما جعله جزءاً من الأحداث التي يؤرخ لها ، فقد كان مشرفاً على ديوان الإرسائل في بلاط مملكة بيت المقدس ،

وسفيراً للملك عمورى فى بلاط امابول امبراطور بيزنطة ، الى جانب شغله لمرآكر دينسة تدرج فيها حتى بلغ الذروه فى سلك الكهنوت ، وصار رئيس أساقفة صور . ومعنى ذلك أنه وصل الى أسمى المناصب غير الحربية فى الدولة بعد الملك .

أما المرحم فهو الأستاذ الدكتور حسن حبشى ، أستاذ تاريخ العصور الوسطى ، الذى حصل على درجة الدكتوراه من جامعة لندن . واختير للتدريس فى كلية « ساوث ايلنج » بلندن ، ودرج فى سلك المدرس الجامعى فى جامعة عين شمس ، مدرسا فأسنادا مساعدا ، فأسنادا لكرسى التاريخ بكلية الآداب ، ولعروفه باللعه اللاتينية والعربية العديده ، فقد رجم العديد من الكتب الى اللغة العربية ، فترجم عن اللاتينية أول وثيقة عن الحروب الصليبية ، التى سماها بالعربية « تاريخ الفرنجة وسجاج بيت المقدس » ، ثم أتبعها بترجمة حياة الملك لويس التاسع وحملاته على مصر والشام للمؤرخ العرسى جوانفيل ، كما ترجم عن الفرنسية القديمة كتاب « فتح القسطنطينية » على يد الصليبيين لروبرت كلارى . كما نشر مخطوطه « مضمار الحقائق وسر الخلائق » لنقى الدين الحموى ، ابن أحمى صلاح الدين الأيوبي ، وفيه جزء يتعلق بمعركته فى سبيل اسرداد بيت المقدس . ثم ترجم مذكرات « حودفرى فلهاردوان » الفرنسى عن الحملة الصليبية الرابعة

ونعد ترجمة الأستاذ الدكتور حسن حبشى لكتاب « الحروب الصليبية » لوليم الصورى ، التى سوف نعرضها فى أربعة مجلدات ، من أهم الأعمال العلمية التى ينبت بها الأستاذ الدكتور حسن حبشى مكانته العلمية الرفيعة فى بلدنا وفى العالم العربى ، وهى دليل على عظمة هذا الأستاذ الكبير الذى كرس حياته لخدمة علم التاريخ ، وتفرد الى حد كبير بقدر عظيم من الدقة العلمية التى

نرسم للجيل الجديد من مؤرخينا الشباب الطريق السليم والوحيد
للاوصول الى الأستاذية بمعناها الصحيح .

لذلك لا يسعى الا أن أعرب عن شرف هذه السلسلة من
« تاريخ المصريين » بشرف هذا العمل العلمي العظيم ، الذي يهم
المتقف والعالم المخصص ويضعه في أكرم مكان من المكتبة العربية .

والله الموفق .

رئيس التحرير

١٩٥١ . عبد العظيم رمضان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

يتعلق هذا الكتاب الذى بين يدي القارىء بحفبه من الزمن امتدت من ١٠٩٤ حتى ١١٨٤ أى على طول تسعين عاما من عمر مركزى التقل فى الشرق الاسلامى وهما مصر والتمام ، وينسحب ذلك - الى حد ما - على بعض أقاليم أعالي العراق وآسيا الصغرى ، وقد شهدت هذه الفترة والتي نليها - لمدة قرن آخر ونصف قرن من الزمان - جموعا كثيفة وجيوشا حرارة فى الواقع هجرات شعوبية أخذت تتدفق - على وجه الخصوص - من غرب أوروبا ، متسرلة بمسوح الدين ، ومتخذة لها شعارا زائفا هو « انقاذ بيت المقدس من أبدي المارقين » ، ولو صدقت لقاتل امتلاكه لنفسها واحتلالها منطقة الشرق الأدنى تأكملها بعد بفرعها من أصحابها الحققةن إبا كان دينهم ومنهجهم .

والواقع أنه كانت هناك دوافع أعمق من هذه الشعارات الخادعة ، ذات الرنين الدينى المحرك للسهور الغربى لا سبما بين العامة ، وكانت هذه الدوافع تكمن وراء الزحوف التى عرفت بالحملات الصليبية .

أما مؤلف هذا الكتاب فيعرفه المؤرخون منذ عصره حتى اليوم باسم « ولم » ، فإن رادوا في التعريف به قالوا « الصوري » ، وإذا رحنا سألته من يكون أبوه فلا نحظى منه ولا ممن فوجموا له وكتبوا عنه - وهم كثيرون - بإجابته ما ، إذ يمسكون عن الرد ولو بسىء يكون مثار حوار وجدل ، وما نعه بالصوري إلا نسبه إلى المدينة المعروفة باسم صور بالساحل الشامي والتي لها تاريخ - وأى تاريخ - في العصور المختلفة قدمها وحديثها ، فصد صار مؤرخا « ولیم » رئيس أساقفتها سنة ١١٧٥ أي بعد دخول الصليبيين بلاد الشام بأكثر من ثلاثة أرباع القرن وبعد بضع سنوات فلانل من فتح الصليبين للمدينة .



أصله ونسأته :

إذا كان الناس لم يعرفوا سلسلة نسب « ولیم » فابهم لم يعرفوا أيضا سنة مولده بل اختلفوا فيها اخلافا بسا ، فمنهم من عدوها سنة ١١٢٧ وعلى رأس هؤلاء المؤرخ الانجليزى « بيورى » وذلك حين قام بسر كتاب « ادوارد حيبون » عن « ندهور وسقوط الامراطورية الرومانية » ، وهو الكتاب العظيم المعداد من عمون التراب الكلاسيكى فى الادب والتاريخ على السواء .

وأخر غيرهم سنة مولده فجعلوها سنة ١١٣٠ دون أن يجزموا جزما باتا بتلك السنة ، وذلك أبهم حين يشيرون اليها يسرددون فى كلامهم عنها ويسبقونها بقولهم « حوالى سنة ١١٣٠ » ، وأيا كان عام مولده فالمتتبع لأحداث عمره التى نعرف جزءا كبيرا منها لا سيما منذ أن قارب سن التسباب يرى أنه عاش فى هذه الدنيا أكثر من نصف قرن من الزمان صرف الشطر الأخير منه طالبا للعلم سواء فى

مملكته بيت المقدس اللاتينية أو في فرنسا وإيطاليا ، ومكيا على الدراسات الدينية ومسرفا على ديوان الرسائل في بلاط مملكة بيت المقدس اللاتينية وسفيرا للملك عموري إلى بلاط « إمامويل » إمبراطور بزنطة ، إلى جانب شغله لمراكز دينية تدرج فيها حتى بلغ الذروة في سلك الكهنوت المسيحي اذ صار رئيس أساقفة صور ومات وهو ينطلق في حسره لأن يكون بطرك بيت المقدس . ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه . فإذا عرفنا ذلك كله عساه نملكنا العجب من جهل التاريخ لأسرته جهلا حمل بعض المؤرخين المحدثين على القول بأنه كان من أسرة من عامة الناس في القدس ، ويريد هذا العريق أن يقول أنها لبسب من الفرسان ولا النبلاء ولا الأشراف ، بيد أن ذلك كله لم يمنعه أن يكون في القمة من المؤرخين إذ كسب ما كسب ، وأن يشغل أسمى المناصب غير الحربية في الدولة اللاتينية بعد الملك . وأن يسبق أقرانه في العلم والذكاء والمعرفة وسعه الاطلاع ودراسة أعماق النفس الانسانية سبفا لم يجاره فيه أحد من أئداده ومعاصريه .

على أية حال فقد أدى جهل المؤرخين بأسرته إلى التضارب البين في أين كان مسؤؤه والاختلاف الكبير فيه فقال بعضهم أنه ولد بالقدس بعد أن صارت مملكة ضلبيية ، ودرج على ثراها فأحبها حبا تمثل في أن جعلها مركز كتاباته التاريخية التي اتسعت مساحتها القلمية ولكنها كانت تصدر عن تلك المدينة المبجلة في التاريخ والموقرة عند جميع الأديان السماوية ، والتي هي عنده واسطة العقد ، لذلك نراه يطيل في دراستها ويجعلها مسنهل كتابته التاريخية منذ أن فتحها المسلمون زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب وإن كان قد أوحز إيجازا شديدا في عرضه للفترة الممتدة منذ الفتح العربي لها عام ٦١٤ م حتى اغتصبها الصليبيون سنة ١٠٩٩ م .

فإذا أخذنا بالرأى الفائل بمولده في المملكة جاز لنا أن نقول أنه كان من أبناء فلسطين بعد الغزو الصليبي ، وهو قول غير بعيد عن الصحة ، لكن هذا يدفعنا للسؤال : أكان أبوه هو أيضا من أهلها ؟ ، أم أنه كان وافدا عليها ؟ . فان كان وافدا ومتى كان ذلك ؟ وكيف كانت هيئة حضوره ؟ وهل كان مجيؤه اليها صحبة الجماعات الطارئة عليها من بلاد العرب الأوربي ؟ .

وفد ثارت هذه السساؤلات في أذهان كثيرين ممن ترجعوا له وذهبوا في ذلك الموضوع مذاهب شتى ، فمنهم من رد أباه الى أصل فرسى ، ومنهم من قال انه ايطالى ، وزعم آخرون انه انجليزى ، وقال غير هؤلاء وهؤلاء أنه ألماني ، دون أن يبين أى واحد من هؤلاء علام كان اعتماده في تقرير نسبه الى هذا القطر أو ذاك .

هذا التصارب الكبير في تحديد مسقط رأس الأب يرجع الى سكوت الابن « وليم » عن هذا الجانب سكوتا مطلقا ، مما حمل مؤرخيه على أن يخلفوا في أصله حيث لم يشر هو اليه من قريب أو بعيد ، هذا على الرغم من أنه هو نفسه كان شديد الحرص على أن يورد أكثر القادة والزعماء ورجال الدين وأصحاب الأمر الذين وردت الإشارة اليهم في كتابه الى مواطنهم الأولى حتى ولو كانوا شرقيين ، مع ذكر أنسابهم في معظم الأحوال ، لكنه لم يفعل ذلك بأصله هو دانه ، مما فتح باب الاجتهاد والكهس واسعا أمام من لبسوا عنه فكان اجتهدهم أقرب الى الخدس والتخمين منه لأن يصل الى أمر مقرر ، وصار هؤلاء المجهدون شيعا وأحزابا يذهب كل منها في هذا الموضوع مذهبا يخالف ما يذهب اليه الآخرون ، وردته كل طائفة الى بلد أوربي غير البلد الذي ردته اليه الأخرى ، هذا الى جانب من جعلوا القدس مهبط رأسه .

فإذا استعرضنا آراء هؤلاء الذين يردونه الى اصل أوربى عجريا معهم عن تحديد ذلك الأصل تماما ، وأول من نطالعهم هم من قالوا أنه المسمى الأصل ، غير أن المطالعة الدقيقه لكتاب « وليم » التاريخى هذا تحملنا على استبعاد هذا الرأى ، لأنه حين يعرض لبعض من اشركوا فى التجريدات الصليبية من السويون « الألمان » نراه يندد بهم سديدا بالعا بسبب سوء مسلكهم وهمجيتهم التى يسيطعها اللئام دون تحرج من جانبه أو رعايه لهم وهم على دينه ومذهبه . كما أنه يشير الى أن بعضهم كانوا لا يورعون عن الافساد فى بلاد « اخوانهم » المسيحيين الأوربيين ، مدمرين للأرض وهاتكين للعرض وهم فى طريقهم لاقاذ اخوانهم « المسيحيين الشرقيين » ... فلو كان وليم جرمانى الببعة لما ساولهم هذا المناول المر ولاعصى عن بعض متخازيمهم أو قلل من حدته عليهم .

ومما يؤكد عدم سريان السم الألمانى فى عروقه أنه حين يعرض لمن ساهموا من الألمان فى الحملة البانيه فانه يقدم الدليل - على غير قصد - على جهله بأكبر المدميين من وجوههم .

☆☆☆

إذا كما قد استبعدنا أن يكون ألمانيا فهل يمكن أن يكون انجليزيا ؟

هناك لفيف من الناس يعتقدون أنه من هذه الجريه ، وهم معذورون فى اعتقادهم هذا اذ خلطوا بينه وبين شخص آخر انجليزى كان يحمل نفس الاسم ، كما أنه صار رئيس أساقفه صور ويعتد أيضا لذلك « بوليم » الصورى ، ولكنه كان غير صاحبيا مؤلف هذا الكتاب ، ويحق لنا - بناء على ما سنقدمه حالا - أن نسميه « بوليم » الصورى « الأول » على حين نسمى مؤلف كتابنا هذا بوليم الصورى

« السانى » . ولقد كان هذا الوليم الصورى الأول انجليزيا وحا وكان يسقط وظيفه حارس القبر المقدس فى باب المقدس والقيم عليه ، وكان مؤلفنا يعرفه ويكتب عنه فى تاريخه (١) ويسى على أخلاقه ومهجه فى الحياه ثناء عاطرا ، ويقول عنه بصريح العبارة أنه « انجليزى المولد » ، ثم يابح بعد قليل كلامه عنه فيسماه « بسلمنا وسلف جميعا نحن الدين جئنا من بعده » . أى فى رياسة أسقفية صور السى كان وليم الأول رئيس أساقفها سنه ١١٧٠ ، لذلك يؤرخ له مؤرخا ويعتبه « بسلمنا العظيم صاحب الذكر المجد » ، ثم يشير الى ذهابه الى روما لبسليم عصا الرعويه من البابا بعد أن مسح بطرك القدس بالزيت .

هذا هو بعض الحبر عن وليم الأول الصورى .

ثم ان مؤلفنا وليم الصورى السانى (صاحب الكتاب الذى بين يدى العارى، ترجمته العربية الآن) يتابع كلامه عنه مع ايراده لكامل الوثيقة السى كتبها أدريان بابا روما حيثذاك لتأييد وليم الصورى الأول والتي يقول فيها الجالس على كرسي بطرس برومة موجه الخطاب الى بطاركة المشرق وأساقفته ومطارسه : « ٠٠٠ اما نؤمن ايماننا جازما بأن كنيسةكم الأم فى صور ستجنى منه (أى من وليم الانجليزى) أحسن الثمار ٠٠٠٠ » .

ويكتب نفس البابا خطايا الى « جورموند » بطرك القدس يقول له فيه شأن هذا الأسقف « ٠٠٠ ابناء الى خطاب محبتكم الأخوية فقد رحبا بأحبنا وليم (الأول) الذى اخترتموه رئيسا لأساقفة الكنيسة فى صور » (٢) .

(١) الكتاب ١٣ ، الفصل ٢٣ .

(٢) نفس الكتاب والفصل .

لقد كان هذا الاسم « وليم » ، ونعته « برئيس أساقفة صور »
 ثم ياربع هذا الحدث ووقعه في السبعينات من القرن الثاني عشر
 دافعا الكثيرين على أن يربوا زلة تاريخية كبرى ، ادخلوا بين الاسين
 خلطا يدحضه المنتبع لماريخ كل منهما ، ولقد رعبوا ان وليم الاول
 ، الانجليزى ، هو نفسه وليم مؤلف ياريجا هذا ، فقالوا أن البانى
 « انجليزى » الأصل وما هو بانجليزىه .

وبناء على هذا التصحيح الذى سقناه فان هذه النسبة سمط
 عن صاحبها وليم ، كما أن هذا التصحيح يحملنا على أن نعول مع
 القائلين بنفى هذا الأصل الانجليزى ، كما أنه يؤيدا فى هذا البنى
 ما نراه فى كتابه هذا الذى بين يدى القارىء الآن من سديده بالانجليز
 مبدلين فى شخص البابا أدريان الرابع - وهو انجليزى - حيث
 يصفه وليم بالمرشى ويتهمه بالمحاباة فى الانتخابات الكنسية
 مما يسلّم كرامته كرجل دين يفترض فيه أن يكون الحق منهاجه (٣)،
 وكان هذا الهجوم العنّف من صاحبها وليم حين أتر هذا البابا
 « الانجليزى » الأصل أحد مواطنيه وهو الكاهن « رالف » بمصّب
 ليس من حقه فيقره سنة ١١٥٦ أسقف لببت لحم ، ويرى وليم أن
 بجاح رالف هذا فى « تولى شئون هذه الكنيسة العظيمة راجع الى
 عطف مواطنه البابا أدريان الرابع (الانجليزى) » (٤) .

ولا يصح هنا قول وليم فى رالف « الأسقف » وبكى يهما
 بهجته على رالف « الانجليزى » ، وهذا ما نسبته أيضا من ثسايا
 كلامه عن هنرى الأول ملك انجلترا ، ووصفه اياه « بمغتصب العرش
 المستحوذ عليه بالخديعة » ويشير الى أنه فى سبيل الاحتفاظ بهذا

(٣) ك ١٨ ، ب ٨ .

(٤) ك ١٧ ، ب ٨ .

العريس حبس كل قوى المملكة لدفع أحبه صاحب الحق اسرعى (٥)

يخلص من هذا ومن كثير غيره مما ورد في الكتاب الذي بي
أيدينا الى نهجم مؤلفه على الانجلز أو على الامل بقده اللادع لهم
مما يباعد بينه وبين أن يكون له عرق فيهم ، والا كان أخف نقدا
في محومه عليهم .

★★★

ودهب آخرون للقول بأنه « فرسى » الأصل ، معتمدين في
ذلك على أنه فلما يرد ذكر فرسا الا ويكون لسان ثناء عليها ومحمد
لها (٦) ، وسرى المطالع لهذه الترجمة العربية ذلك المديح في مواضع
متعددة منها . وفي رأينا أن هذا المديح هو الذي حمل دائره المعارف
الأمريكية (٧) لأن نذكر في نبذة قصيرة أنه من أبوين فرنسيين ،
على أنه يبدو أن هذا الأصل الفرنسي لم يجد استجابته من دائره
المعارف البريطانية (٨) فلم نقل به وآثرت السكوت عنه تماما ،
ولعلنا خافت ان نزل في هوة لبس لها فرار ، ان هي ذكرت
بالنحديده ما يمكن أن يكون موطنه الأصلي ، ومن قال لا أدري فقد
أفتى ، كما أن الدائرة لم تعتبر فرنسا الا موطن ثقافة له ، وهو
قول حق .

★★★

(٥) ك ، ٥ ، ف ١٣ ، واطر .

Private Orton . The Shorter Cambridge Medieval History vol 1,
pp 591 et Seq.

(٦) وسرى في مقدمتنا هذه أن هذا كان موقفه أيضا اراء ايطاليا .

American Ency Art William of Tyre (٧)

Ency Brit. Art William of Tyre (٨)

على أن ذهابه الى فرنسا كان - كما نعرف - لمنابعه دراسه
للعائون ، غير أن هذا لا يهبط دليلا على أنه ذو عرق فرسي والا صح
أن نقول أنه إيطالي ، اذ المعروف أنه ذهب الى ايطاليا هي الأخرى
أكثر من مرة ، ولكن كان ذهابه اليها هي الأخرى من أجل دراسه
القانون أيضا ، كذلك ذهب الى رومة لحضور مجمع كان منعقدا بها
فى أكتوبر ١١٧٨ على رأس وفد كهنوتى يضم طائفة من كبار رجال
الدين منهم هرقل رئيس أساقفة قيصرية ، الى جانب أساقفة بيت
لحم وسميساط وعكا وطرابلس وغيرهم (٩) .

حقيقة أن مطالعة ما كسبه ولیم عن إيطاليا يبين معرفه العميقه
بها ويرسم لها صورة طيبة فى ذهن القارىء ، ثم أنه كان لا يدع
فرصة تمر الا وينسب اليها حتى لو لم يكن الموضع موضع حديث
مباشر عنها ، ونستدل على ذلك مما قاله حين عرض لهجوم المسلمين
على أحد موانئ صقلية ، اذ وجد الفرصة مناسبة للإشارة الى ايطاليا
وذكر أنها ملجأ الأمان (١٠) لقوات روجر كونت صقلية ، كما أنه
كان كثير النساء على الجالبات الايطالية ومساعى المدن التجارية
الايطالية الحمدة فى خدمة الصالح المسيحى ، فبذكر أن طائفة منهم
وهم الأمالقيون كانوا قد قدموا النماسا للخليفة العاطمى بسألونه
السماح لهم بقطعة من الأرض فى القدس - وقت أن كانت القدس
تابعة لمصر - لتقيموا لهم كنيسة فيها ، ولما كان هؤلاء الأمالقيون
« أصدقاء لمصر ويحملون اليها المواد المفيدة » فقد أجابهم الخليفة
لما سألوه وكان عطفه عليهم جملا تمثل فى ضخامة ما منحهم إياه ،
فشبهوا ديرا عرف بدير مريم المجدلية مما جعل مؤرخنا ولیم بشى

(٩) ك ٢١ ، ف ٢٦ .

(١٠) ه ١٣ ، ف ٢٢ .

على الأمافيين ثناء مستطابا ، وانسحب هذا الثناء بالنال عنده على
إيطاليا (١١) .

لكن هذا كله لا يمكن أن يحلنا على نسبه هائله الى إيطاليا .

إذا كنا قد رفضنا أن يكون فرنسيا ، ونهينا عنه أن يكون
ألمانيا ، وأنكرنا عليه أصلا انجليزيا ودحضنا الرأي القائل بأنه كان
إيطاليا ، فلا يسعنا الا أن نقول - على الترجيح - أنه كان من مواطني
مملكة بيت المقدس بل ومن مواليد القدس ، بل ونضيف الى ذلك
أن أباه كان واحدا من اثنين أما أنه ولد هو الآخر بفلسطين ونسأ
بها فكانت القدس وطننا له ولولده ولیم ، وأما أنه كان من آلاف
الناس من طبعة العامة الذين وفدوا مع الجيوش الصليبية وسباهم
في حروب الفرنج ثم شاء القدر أن يتخطاه القتل فيمن قبلوا في
معاركها فصار مواطننا عاديا ثم تزوج فأنجب - فيمن أنجب - مؤرخا
ولیم في سنة ١١٣٠ ، وإن قال البعض أنه ولد سنة ١١٢٧ .

وسواء أكان مولد ولیم الصوري في هذه السنة أو تلك - وإن
كما نرجح سنة ١١٣٠ - فقد تفتحت عيناه على القدس التي كانت
أول أرض مس جلده ترابها ، حتى أنه لينعنها في كثير من المواضع
" بوطني ، وقل أن يسير اليها الا في اجلال وحب " .

وحبب أوطان الرجال اليهمو مآرب قضائها الشباب هنالك

وحسبنا أن نقرا في تمهيدته لتاريخه في هذا الجزء الأول لنرى
كيف سيطر عليه حب القدس ، كما يعزو تأليفه كتابه هذا الى ذلك

الحب » وأنه استجابة لارادة هذا الوطن ونداءه شرع في مهمة يابى الشرف التنحي عنها » (١٢) ويقصد بها وضع تاريخه .



اذا لم تكن قد وصلنا الى رأى فاطح في أبيه : هل كان واحدا على القدس أم انه من أهلها فان رأينا حبال الابن أنه كان من مواليد القدس ، لان سنة ١١٣٠ (وحتى ١١٢٧) متأخرة نسبيا في تاريخ الجريادات الصليبية ، اد كان قد انسلك من عمر الزمان منذ مقدم اولها ثلث قرن ، تضاءلت فيه أعداد الجماعات الأوربية الوافدة ، كما أن المسيحي الأوربي الذى عاش في فلسطين منذ أول الحملات الصليبية عد نفسه فلسطينيا ، وكان يرفض في سريره في بادىء الأمر بقاء الوافدين الأوربيين ولا يعتبرهم الا حجاجا ، فأما من أقاموا وانحدوها سكنا لهم بدلا من ديارهم في اوربا فقد عدتهم دخلاء مطلقين ، لسس لهم حق في الإقامة الدائمة بها ، وأن واجبهم - اذا فرغوا من حجهم - العودة من حيث جاءوا ، لأنهم لم يجيئوا الا حجاجا وزوارا ، فاذا انتهوا من أداء سعاثرهم ومناسكهم وحب عليهم العودة الى ديارهم .

ان ذلك الحب الذى فى نفس مؤرخنا ولهم لهذا البلد يجعلنا نرجح أن القدس كانت مهبط رأسه في أحد عامى ١١٢٧ أو ١١٣٠ ، أو فيما بينهما وان نشأته بالقدس جعلته يعرف كل نواحيها الطوبوغرافية والتاريخية ، فهو يذكر وقوعها في منطقة جذباء شحيحة بالماء (١٣) كما يعرف أماكنها الأثرية وما تنضج به من

(١٢) نظر التمهيد الذى قدمه وليم بن يدي كتابه هذا .

(١٣) ك ٨ ، ف ١ ، ع ٤ ، ٧ .

ذكر ياب قديمه قد يرجع الى زمن النبي يوح (١٤) ، كما أنه دل
ان يسير الى القدس - كما قلنا - الا بكلمة « وطني » ، ثم انه
يخصص مواضع كثيرة من صفحات كتابه هذا لذكر بطاركتها
وما أحاط بكل واحد منهم من ظروف كانت تؤيده أو تعارضه (١٥) .

هذا هو مجمل القول في وليم من حيث نسبه الى القدس .

★ ★ ★

أظهر وليم منذ نعومه أظفاره ميلا كبيرا للدرس والتحصل .
ولابد أنه الحق ببعض مدارس عصره التي كانت ملحقة بالأديرة
والكنائس ، وبعضها بقصر الملك ، وكان تلاميذها بطبيعته الحال
وفي الغالب من أبناء الطبقة العليا في المجتمع اللاتيني الغربي في
المشرق ، ثم سننى له أن يتم تعليمه في فرنسا .

ويبدو أنه أظهر ولعا متزايدا بدراسة الفقه المسيحي مما جذب
اليه أنظار الكبار من رجال الكنيسة ورجال الدين ، الذين كان
أكثرهم اهتماما به بطرس من أهل برشلونة باسبانيا وسنسمبه
هما بطرس الاسباني أو البرسلوني وكان فيما على الأناضول المسيحية
والعصر تكسسه السامه ، ثم انتهى المطاف أخيرا به ليكون رئيس
أساقفه صور (١٦) وكان بطرس هذا حعا يوليم راعيا له ، محيطا
بناه منذ وقت مبكر برعايته ، مسيغا عليه عطفه ، كما أنه فربه اليه
ادراكا منه تمكن أن تكون لهذا الساب من عد مرموق إن وجد من

(١٤) ك ٨ ، ف ١ .

(١٥) ك ٩ ، ف ١٥ ، ك ١١ ، ف ٤ ، ١٥ ، ك ١٢ ، ف ٦ ، ك ١٣ ،

ف ٢٦ ، ك ١٦ ، ف ١٧ .

(١٦) الكتاب ١٦ ، ف ١٧ .

بأخذ بيده . وبدلما هذه العصابة من حبيب بطرس الاسباني على أنه رأى فيه نوعاً - في جعل الدراسات الدينية - لم يلاحظه بمسل هذه الصور عند عبه ، لذلك اعزم أن يكون هو رابعه والآخذ بيده في طريق التقدم ، فكان له ما اعزم ، وحفظ ولهم له هذه الد السواء عليه وأشاد بلك المكرمة التي اخبصه بها ، ومن هنا تعددت اشاراته اليه بالاجلال في صفحات عدة من تاريخه ، ثم ان ولم كان يرى نفسه اليه في ميدان العمل الكنسي شرفا كبيرا له ، وراد سي قدره - بعد حين - أنه كان أحد من تولوا قبله أسقفية صور ولذلك كان كبرا ما يسر اليه بقوله « سلفاً » ويرى في ذلك معخرة له .

وهكذا وجد ولیم في بطرس الرجل العالم الذي يساعده على زيادة حظه من العلم والبروز في مجال اللاهوت ، هذا الى جانب أنه كان عوناً له في الاطلاع على أمور كانت من خبايا السياسة في المملكة .

★★★

كذلك وجد ولیم - منذ فجر شبابه - حدياً من رجل آخر من رجال الدين اعقت نظرتة اليه مع نظرة بطرس الاسباني ، ذلك هو « فولشرز » بطرك القدس ورئيس أساقفة صور أيضاً الذي يكثر مؤرخنا من الاشارة اليه والاشادة بفضلته عليه (١٧) وقد ساعده فولشرز هذا على أن يكون من بين رجال الكهنوت الذين بعث بهم الى ايطاليا لينهلوا مزيداً من الثقافة الدينية ، فذهب الى بعض معانها الكبرى في بسطة طالمت مدتها حتى بلغت عامين وذلك من عبد فصيح ١١٦١ حتى سنة ١١٦٣ ، حيث انكب مؤرخنا في هذين العامين على

(١٧) انظر على سبيل المثال الكتاب ، ١٦ العصول ١٧ و ١٨ و ١٩ ، الكتاب ١٨ ، الفصل الثالث .

دراسه القانون والآداب ، ثم رجع الى المملكة ليعاود سباطه في
استقمية صور ، رئيس شمامسة لها « (١٨) » .

ولقد اتسع مجال ثقافته بفضل اتصاله المباشر بأماكن بعد من
مصادر المعافه ، رادت من اطلاعه الشخصى ، ذلك أنه نسنى له
الدعاب الى بيرنطه ١١٦٧ موفدا من الملك عمورى سفيراً له لدى
الامبراطور « مائويل » حتى يضمن انضمام القسطنطينية اليه في
مسروعه الضخم لمهاجمة مصر ، وعهد اليه بأن يفره بتوقيع اتفاقيه
بين بيرنطه وبين باب المقدس ، وانطلق ولهم الى وجهه (١٩) ليجد
امبراطورها مسغولا في الصرب من نواحي البلقان ، ولكنه أنجر
ما عهد به اليه على أحسن صورة ، وعاد في خريف ١١٦٨ بمعاهده
بين المملكة اللاتسيه والامبراطورية الاغريقية حسب نسمية أهل ذلك
الوقت لها (٢٠) ، وقد وقع وليم من نفس الامبراطور مائويل
موفا كريماً بجلى فيما أبداه له من ود وما أعدده عليه من
الهدايا .

لم يكن لرحل مل وليم أن يمضى وفه في برنطه دون عمل
لا سيما أن هذه الإقامة طالت حتى بلغف - كما يقال - ستة أشهر
فقضى جزءاً منها في الاتصال برجال الكنيسة اليونانية وان كانوا
على غير مذهبه وزاده هذا الاتصال انقانا للغة اليونانية .

ومن هذا نستطيع القول بأنه كان واحدا ممن يمكن أن يقال

(١٨) الكتاب العشرون الفصل الثاني .

(١٩) وليم الكتاب الثاني عشر .

(٢٠) الكتاب ٢٠ ، ف ٤ .

فيهم أنهم من علماء عصره وأعرفهم بالسياسة المحلية والدولية .
كما يمكن أن يقال أن ذهابه الى القسطنطينية كان كسبا علميا الى
جانب نجاحه الدبلوماسي .

ويتجلى لنا ما كان عليه من علم ومعرفة وثقافة من أنه استطاع
أن يبرى ساحته عند البابا مما رماه به فردريك رئيس الأساقفة
من بهم ظالة ، كما استطاع بقوه حخته ودلافة لسانه ، ووضوح
بيانه أن يعود من عند حليفه بطرس منصورا صرعا من كل مذمة
ونقيصة .



وأدرك من حول وليم كفاءته التي لم تغب عن عموري فعهد اليه
سنة ١١٦٩ بأن يؤلف كتابا عنه يساؤل عنه حكمه ، بمعل ذلك
عن طيب خاطر ، وحين سرع في تدوين هذا التاريخ الذي سماه
Gesta Amalrici regis رأى فجوة لا يعرف عنها سببا الا الباقه
اليسير والنادر الذي تلقفه سماعا من أفواه الناس دون أن يكون
واقفا منه تمام الثقة ، أما هذه الفجوة فكانت خلال عيبه هو ذاته
في بينة ثم انشغال الملك في حملته على مصر التي بادر الى القيام
بها غير منظر عودة سفيره من القسطنطينية (٢١) لذلك رأى وليم
أن الأمانة التاريخية تفرض عليه أن يقف على أخسار هذه القصة
منلقا اياها من مصادرها الأولى وفي مقدمها عموري كساهد العيان
لها وهو الذي شارك في رسمها على حين غاب هو عنها ، فلم يتخل
عليه مولاة بما أراده لا سيما وقد توثقت بينهما مودة عميقة رفعت

(٢١) لم يخف على مؤرخي القصة المسلمين الدواعي والصعوبات التي كان يعرض
لها عموري حتى تسجل الخلف على مصر ، فساو لها ابن الأثير في كتابه الكامل
وأمانة الموصل ، وأبو شامة في الروستين .

سهما كل حجاب وحملت عمورى على أن يصرح له فى ذات مرة عن مسأله خطيره جدا كزعيم للنصرانية وحام للصليبيه ألا وهى ما اضطرب فى صدره من حاله السكك فى أمر أجمع عليه جميع الأديان السماويه ويكون أساسا من أسس الايمان ، ألا وهو البعث والسنور بعد الموت .

وكان نعه الملك فى مؤرجا عظيمه حتى أنه عهد اليه - حين كلفه بوضع كتاب عن حكمه - أن يقوم على تربيته ولده وولى عهده بولدوين الرابع الذى لم يجاوز حينذاك التاسعة من عمره ، فاقبل ولم على هذه المهمه بنفس راضيه وظل يرعى الفلام فكريا وخلقيا وحساسا أربع سنوا مساليات لم يقصر فيها على بدل ما ينبغي عليه بذلك لتصبح الفلام مؤهلا لحكم المملكه ، بل راد فكان من بين ما درسه له الآداب الكلاسيكه القديمه ، وعلمه هو وعلمان فى مثل عمره من أولاد النبلاء والأشراف ما ينبغي أن يتعلمه هؤلاء من الفروسية وركوب الحبل والعباب القوى التى تقوى فيهم الصبر على احمال الآلام ، وأنه ليعول عن هذه القصره « لقد كرسب نفسى طول مدة اشرافى على تلميذى الملكى على رعايته وبذلت من أحله عاده جهدى وحاولت تربيته خلقيا وأديبا » ثم يصف حادثا نجم للصبي ذات يوم وهو بلعب مع أنرايه تكشف له عن اصابته بمرض خطير استلزم من أبيه علاجه بسنى الأدوية والمراهم فما أحدث نعا . ثم بعث فى كل ناحيه فى طلب أحسن الأطباء لكنهم لم يسعفوه فى وقف هذا الداء الذى كان قد استشرى ببليدوين الصغير ، « فقد عرفنا بعدئذ أنه سلك من ذلك الداء الخطر الذى لا رجاء فيه » (٢٢) على حد قوله ويعنى بذلك الجذام .

هكذا تولى ولم تربية الصبي بلدوين .

على أن الذى يهمنا من فصره فيما به بسيف الغلام أنها أناحب
له الفرصة لأن يكون أكثر اتصالا بالعديد من رجال البلاط وببلاء
المملكة ، وساعده هذا الاتصال على زيادة الوقوف على ما بمطلع اليه
من المعلومات التى ساعده فى تأليفه التى مسعرض لها حالا وكان
الجزء الهام من بعضها يتعلق بأحداث وقته لذلك كان عمله يطلب
منه الاطلاع على الوثائق والمعاهدات والمراسم التى صدرت إبان تلك
الفترة ، وكذلك المراسلات التى وردت الى المملكة أو صدرت عنها
وكان عند هؤلاء الرجال الذين أتسح له زياده الاتصال بهم ما يساعده
على أداء مهمته على أكمل وجه .



وشغل وليم وظيفة المستشار الملكى التى كان يشغلها قبله
« رالف » رئيس أساقفة ببت لحم الذى كانت وفاته فى ابريل
١١٧٤ (٢٣) ، واد ذاك وقع الاحسار على مؤرخنا ليحل مكانه ، وأنه
ليقول فى ذلك « ولكنى يكون هناك من يحل موضعه فى وظيفة
المراسلات الملكة ، فقد استجاب عمورى لمسورة باروناته وعينى
فى هذا المكان وخلع على وظيفته المسنار » (٢٤) .



(٢٣) الكتاب ٢٠ ، ف ٣٠ و ٣١ .

(٢٤) الكتاب ٢١ ، ف ٥ .

مؤلفاته

لقد خللت ولیم مؤلفاته التي فعد منها ما فعد وبقي منها ما بقي ، ولولا كتابه الحالي لما عرفناه الا واحدا من كبار رجال الدين لا نذكرهم الا حين نقرأ عنهم في ثبايا الكتب ، أما هو فقد بقي اسمه على ألسنة طلاب الدراسات التاريخية لا سيما في تاريخ الحروب الصليبية بفصل هذا الكتاب الذي نترجمه الآن الى العربية ، والذي رأى النور لأول مرة في صورته الأصلية في القرن السادس عشر أي بعد أكثر من ثلاثة فرون من وفاة مؤلفه .

ولقد نوفرنا أدوات التأليف عند ولیم من سعة اطلاعه على ما وصل الى يده من كتب نعدنا اليوم المصدر الأول للحروب الصليبية خاصة باللغة اللاتينية وما توفر لديه من الوثائق مما هبنا له الفرصة لأن يكون بارزا في الكتابة التاريخية وحجة موفوا به فيما ألف ، حتى لقد عداه العالم رسما « واحدا من أعظم مؤرخي العصور الوسطى » على الاطلاق (٢٥) . هذا الى جانب انقائه لكثير من اللغات الغربية والشرقية وفي مقدمتها اللاتينية وفرنسية العصور الوسطى واليونانية كذلك المامه باللغة العربية الماما ساعده على الاطلاع على بعض ما كتب فيها ، كما يذكر هو وكما سنسدر اليه في موضعه ، ولن نقول مع بعض القائلين بأنه كان عارفا بالعبرية والفارسية فذلك قول لا نستطيع أن نؤكداه ، وزيادة على ذلك كله فقد كان

كبير النظر في الآداب والمؤلفات القديمة لا سيما اللاتينية و على كتابات كبار رجالها أمثال « أوفيد » و « شيشيرون » الذي يسميه أحيانا بصاحبنا مما ساعد على أن يكون له فلم سيال ولغة مطوعة وقدرة على التعبير في غير عسر على ما يريد أن يوصله الى قارئه .

★★★

والمعروف أن وليم وضع ثلاثة كتب تاريخية ذات سمه معيه .
مصل انسان منها عن حرب بالحروب الصليبية ، هذا الى جانب كتاب آخر سجل فيه أعمال المجمع الكنسى المنعقد في روما في نهايه سنة ١١٧٨ ، وحضره مؤرخنا على رأس وفد من كبار الأساقفه والمطارنه ، الى حاسب ممسل لبطرك بيب المقدس الذي سال مرضه اد ذاك بيه وبين حضوره هذا المجمع الذي يعبر أكبر المجمع السى سهدتها المسيحية الغربية ، وشارك وليم فيما دار فيه من مناقشات حطيرة ، وقدم بفربرا عن وضع الكنيسة والدولة في مملكة بيب المقدس اللاتسيه ، وقال البعض من مؤرخي هذا المجمع - وهم صادقون سما قالوا - ان المجمع أعجبوا بوليم وعرفوا فيه رجلا فقهيا ، وحجه في المللة ، وملما بما ينبغي أن يلم به من يهنهم بدراسة أحوال اللاتين في الشرق دينا ووضعنا ، كما رأوا فيه محدثا لبقا ومجادلا يحسن الحدل ويفهم معارضيه ان احتاج الموقف الى الافحام .

وعاد وليم من هذا المؤتمر الدينى وقد سبقته أخباره ، فسأله رفاقه كما سأله رجال من البلاط البابوى والكنائس اللاتينية أن يضع كتابا عن أعمال المجمع ، فنهض بما التمسوه منه ، وجمع في ذلك سفرا قبل انه أودع نسخة منه في ارشيفات صور لكن الباحثين في تاريخه وأعماله أجمعوا على ضياع هذه النسخة للأسف، كما ضاع اثنان من مؤلفاته الأخرى .

وعلى الرغم من عدم وجود نسخه من هذا التعرير في الأيدي
الا أن الأمر الذي لا يرمى الله السك هو أن « بعض » جلسات
المؤتمر نصمت بعض ما في تعرير وليم ، والعكس صحيح ، خصوصا
وأن وليم كان أحد مقرري المؤتمر (٢٦) .

★★★

إذا كان رفاى وليم قد التمسوا منه وضع هذا التعرير الذي
صار كتابا من كتب تاريخ المجامع الكنسية فإن الفضل فيما ألفه من
كتب أخرى في ميدان التاريخ يرجع الى الملك عمورى الذى كان
حريصا على أن ينفى اسمه حيا على السنة الملائمة من أهل عصره والأجبال
التي نلهم ، لذلك فإنه سأل صاحبنا وليم أن يضع كتابا عنه هو
ذاته حاكما لمملكة بيت المقدس اللاتينية ، وترك سظم هذا الكتاب
لمؤرخنا واثقا من أنه بفضل كفاءته وألمعته - سوف يطاع على الناس
بكتاب يرضيه .

واسعجاب ولم لرغبة الملك لما رأى فى تحقيق هذه الرغبة من
حفظ لتاريخ مملكته بيت المقدس فى قمره كان هو نفسه . -أهدى
وعرض لما قد يقوم به عمورى من حروب برفع رايه المسجحة اذ كان
الأمم معهودا على أن ينصر الملك على القوة الإسلامية ممثلة فى مصر
فتخلص له سبوطها وجه السرى الإسلامى بأجمعه .

وأقبل وليم يخطط للكتاب الذى كلف بوضعه والذى سماه
« انجازات الملك عمورى » *Gesta Amalrici regis* ، ثم جاء يوم
بدا للملك أن يهد لهده بعرض شامل لتاريخ ملوك مملكة بيت

(٢٦) ادين بالعمل فى سظم هذه المعلومات الى مقدمه الترجمة الإنجليزية لهذا
الكتاب الذى اشتمل الى جانب مادته التى كتبها ولم ما أصافه المرحومان من حواش
وتعليقات لبر رحمت لكات وحدها كتابا كبيرا فى حد ذاته .

المقدس مند « جودفروى دى بويون » الذى رأى عاية مفاحره أن يعال له حامى القبر المقدس فكان له وحده ما أراد ولم يشاركه فى هذا اللقب غيره ، اد نعت الذين جاءوا من بعده بالملوك حتى سم لهم بطبق النظام الاقطاعى على الصورة المعروف بها فى أوربا العربيه .

صارع عمورى مؤرخه برأيه فيما سنكون عليه صوره الكتاب الذى يريده .

وفى رأينا أن عمورى كان يعتقد اعتمادا جازما - ويساركة ولیم الى حد ما - بأن مصر لا بد واقعة فى يده - بعد العهد أو قرب - وكان يرى أن فتحه اباهها واستسلامه عليها سيكونان بطة اسقال كبرى فى تاريخ العوى الصليبيه وأنه يعادل فتح اللابن لبنت المقدس ان لم يرد عنه ، وبذلك يكمل حلقات الحصار حول العالم الاسلامى ، ولعله كان يرى أن استيلاءه على مصر يسر له الطريق الى مكة والمدينة ، ولعل هذا كان فى سريره الامر الصليبيى . « رينو دى شاتيون » الذى نعرفه المراجع الاسلاميه باسم « أرناط » ، والذى كانت نهايته ونأديه على يد صلاح الدين بعد قليل .

ونعرف أن شروع ولم فى وصح تاريخ الملك عمورى كان سنة ١١٦٧ ، ونمئلت الخطوة الأولى منه فى اتصال مؤلفه بالقادة وكبار الشخصيات التى ساهمت فى الحملة على مصر ، وأما الخطوة البانية فكانت جمعه كل ما سسر له أن يجمعه ممن صحبوا الحملة وشاهدوا أحداثها وكان لهم نصيب فيها ، ولم يقصر اهتمامه على الأحداث السياسية والحربية بل حاورها الى وصف الحكومة فى مصر والبلاط الفاطمى وعرض لأولى الأمر من مخططى السياسة المصرية اد داك ، وبلاحت أيضا أن نساط الاسكندرية الحجارى استلقت انتباهه .

على أنه إذا كان هذا الكتاب أصبح الآن في عداد الكتب
المفقودة فلا بد أن بعضه لا سيما ما يتعلق بمصر وارد في الأقسام
الأخيرة من تاريخه الكبير الذي توجد الآن ترجمته العربية بين يدي
فارئى هذه الصفحات .

ثم افترج عمورى على ولیم أن يكتب تاريخا للمملكة منذ قيامها
على أيدي اللاتين ، وصادف هذا الاقتراح قبولاً عند المؤرخ ، وصفق
له قلبه اذ لبس أحب الى نفسه من تأليف كتاب عن القدس ، يحلده
اسمه هو ويسرف قدره ويكون تاريخاً لأحب بلد الى فؤاده .

وهكذا نلاحظ ما لعمورى من فضل على طلاب التاريخ
والناظرين فيه حتى الآن اذ فكر فى أن يكون هناك كتاب عن
المملكة ، وأن يفهم بوصفه الرجل الذى رأى فيه الملك كل ما يحببه
اليه سمناً وخلقاً وديناً وكفاءة وقدرة تساعد على انجاز هذا العمل
الذى أدرك عمورى انه يجمع بين ثلاثة أمور كبرى ، أولها روعه
الموضوع اذ هو عن بيت المقدس ، وثانيها شأن عظمة عمورى ذاته ،
وثالثها دقة جامعته ولیم .

على أن قبول ولیم اقتراح مولاه كان معناه ارجاء ما شرع فيه
وما أنجزه منه عن عهد الملك عمورى ، كذلك كان لابد له من أن
ينصرف الى تدوين ما قبل هذا العهد جاعلاً نقطة الابتداء هي قيام
بطرس الناسك بالحج الى الأحرار المسيحية فى بيت المقدس ثم رجوعه
الى أوروبا حاثاً أمراءها وشعوبها والبابا اربان الثانى لمساعدة مسيحيي
الشرق وارسال الحملات الى أرض فلسطين وبلاد الشام .

كان عمورى هو الدافع لولیم لكتابة كل ما كتب من كتب فى
التاريخ ، فقد اقترح عليه القيام بوضع تاريخ لعهد ثم زاد فطلب
اليه أن يكتب له مجلداً عن تاريخ ملوك المسرى ، ولكى يسر عليه

المهمة وقد روده كتاب في هذا الموضوع لأسقف مسرى . يعرف العربية هو أوغوستوس سعيد بن بطريق اسعصر في العالم الاسلامي منذ ظهور النبي عليه الصلاة والسلام حتى السنة الخامسة من خلافة الراصي العباسي ، وهي سنة ٣٢٦ هـ (= ٩٣٧ م) (١) واستجاب ولیم لطلب مولاه ووصح كتابه الذي سماه كما قال - أو قال من وقفوا عليه اذ ذاك - « بأعمال أمراء المشرق » "Gesta Orientalium Principum" ولنا أن سوف أن جزءا كبيرا منه لم يكن سوى ترجمه لكتاب ابن بطريق ، وان لم يستطع الجراء بما نصمه كتاب ولیم هذا لعدم وصول نسخة منه إلينا ٠٠٠ لكن ٠٠ أين يوجد هذا الكتاب الآن ؟ ٠٠٠ ذلك ما لا نعرفه مما يدفعنا لاعتياره في عداد الكتب المفقودة بناء على خلو فهرس دور الكتب العامة من أية اشارة إليه أو الى صفحات يرجع إليها منه (٢٧)، هذا على الرغم من أن مقدمة الترجمة الأمريكية لتاريخ ولیم نسير الى أن « ماتيو باري » ذكر في «مختصره التاريخي» وجود كتابي ولم : التاريخ الكبير وتاريخ أمراء المشرق في مكتبة سانت البانز التي حاو بها ما حاو بمعظم المكسبات الديرية في القرن السادس عشر ، وتمضى هذه الاشارة فنبين أن نسخة من تاريخه الكبير وحده - التي نترجمها الآن - هي التي قدر لها النجاة فانتقلت الى مكتبة المتحف البريطاني ولا تزال محفوظة به حتى اليوم ، أما مخطوطة أمراء المشرق فقد فقدت ولم يوقف لها على أثر حتى .وما هذا .

★★★

(٢٧) ولم نشر ولم الى عنوان كتاب سعيد بن بطريق الذي هو التاريخ المجموع على التحقيق والمعروف بنظم الطاهر . وكان في مكتبة الملك وهو الكتاب الذي نشره المستشرق الاسعري « ادوارد بوكوك » في اكسفورد سنة ١٦٥٩ وأرفقه بترجمة لاتينية ، كما طبع مرتين بعد ذلك بعربي ووصف قرون من الزمان في مطبعة الآباء السوعيين بيروت الأولى منها سنة ١٩٠٥ والثامنة سنة ١٩٠٩ .

تاريخه الكبير

على أنه بدأ للملك في سنة ١١٧٠ - أي قبل وفاته بأربع سنوات - أن يهدد لحكمه بكتاب يؤرخ للمملكة اللاتينية منذ بدء الدعوة الصليبية حتى مسهل حكمه سنة ١١٦٢ .

وان اسفراء ما جرى - وما بين أيدينا - ليفصح في حلاء عن أن هذا الافراح قد وقع موقع الرضا من نفس وليم الصوري لأنه رأى أنه حين يعرغ من هذا الكتاب فإنه يكون قد أرخ - كرجل دهن أولا - لما يعتبره جهادا دينيا مسيحيا من وجهة نظره ، فيرضى بذلك مهوله ودراساته التي بؤانه مكانة كبيرة في عالم الكنيسة في القرن الثاني عشر ، كما أنه يكون قد أرخ لخمسة من حكام وملوك المملكة اللاتينية قبل عموري (٢٨) ، كما يكون قد أرخ للتشاطر الصليبي بعد استقرار اللاتين في الشرق ، وما كان بينهم وبين الجماعات المسححة الأخرى من غير مذهبهم كالأرمن والسريان والباقية والأرثوذكس ، ثم ما بين هؤلاء جميعا وبين المسلمين من صلات سلسلة أحيانا وعنوانية أحيانا أخرى .

لذلك قبل وليم ما افترحه عليه عموري مما اسفر عن تأليفه لتاريخه الكبير "Gesta Hierosolymitorum regis" الذي لم يقف به عند سنة ١١٦٢ (وهي بداية حكم عموري) بل حاوزها

(٢٨) وحتى بهم حودري دي مودون وان لم نلعب بالملك ، ثم بولفوس الأول هالتاني ، ثم فولك داجر مودون الثالث .

فتمثل كل عهده ، ثم طالت حتى وقعت عند سنة ١١٨٤ ، أي بعد موت الملك بعسر سنوات تناول فيها حكم ولده بولدين الرابع

والواقع أنه اعتمد في القسم الأول الذي يمتد حتى سنة ١١٢٧ على مصادر لاينة عاصر أصحابها أحداث العرة من ١٠٩٥ حتى ذلك التاريخ ، ويمكن أن نقول أنهم كانوا ثلاثة أو أربعة ، في مقدمهم من نسميه بالمؤرخ المجهول الذي كان من غير شك من أهل ايطاليا ، والذي رافق حملة بوهيمند بن روبرت حسكارود وكان بوهيمند هذا مؤسس أول اماراة صليبية هي انطاكية منتزعا اياها من أيدي المسلمين .

وقد نبعثت أوراق كتاب هذا المؤرخ المجهول ولم يبق منها الا القليل الذي جمعه الباحثون وسماه باسم *Gesta Francorum Hierosolymitanorum* وقد ترجمناه الى العربية بعنوان « أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس » (٢٩) .

والى جانب هذا فقد نظر وليم فيما كتبه روبرت داجيل الذي ترجمه الدكتور حسين محمد عطية باسم « تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس » (٣٠) .

كذلك نرى وليم يعتمد على ما سبقه اليه فولسر دى سادبرر ويعرف كتابه باسم *Fulcheri Carnotensis historia Hierosolymitana* (1095-1127) ، وهو آخر ما لدينا من تاريخ ساهد عمان لفترة

(٢٩) فيما يتعلق بصاحب هذه المذكرات فانا نحيل القارئ الى ما قلناه عنه والى دراستنا لمذكراته في مقدمنا للترجمة العربية المشار اليها وقد نشرتها دار الفكر العربي ، الطبعة الثانية سنة ١٩٦٢ .

(٣٠) نشره دار المعرفة بالاسكندرية سنة ١٩٨٩ .

امتدت ما يقرب من ثلاث وثلاثين سنة تقريبا منذ أن حطب البابا
ايرنان النسائي خطبه الباريجية المشهورة في كلبز هونت بجنتوب
فرنسا فاشتعل نيران حروب استمرت عدة قرون .

ويتبين لنا - من سرد هؤلاء المؤلفين - ان المادة التي تضمنها
مذكراتهم أو أوراقهم وقعت عند سنة ١١٢٧ م ، وكانت مادة وفيرة
راح يقارن بعضها ببعض ، فما صح منها في بقية أبعاء ، وما أنكره
بحل عنده ولم يأخذ به .

★★★

ولعل السمة البارزة في كتابات ولسم عن هذه الفترة بالذات
هي أخذة بوحية النظر الغربية في سرده وعليقه على الأحداث ،
وذلك راجع كما قلنا الى وجهة نظره في الأصول التي خلفها كتاب
مسيحيون وقساوسة ورجال صلبوا الجيوش الصليبية المكررة على
اختلاف جنسيات زعمائها وقوادها ، ونرى هذا الطابع واضحا في
نقده الملامماتورية البيزنطية ولا سيما امبراطورها الكسوس
كومنين (٣٥) ، وهو نقد أميل للهجو المقتدع أكثر فيه من نعتها
« بالحيانة » حتى فضل عليها المسلمين في بعض الأحيان وقد ترسبت
هذه النهمة القطعة في نفوس الأوربيين حلا بعد حبل لمدة قرن
من الزمان حتى انعجب في سنة ١٢٠٢ م فيما عرف بالحملة
الصليبية الرابعة التي توجهت الى القسطنطينية وأزالت امبراطوريتها

(٣٥) يشير هنا الى اعراضا نادى الله شر ترحمتا العربية لكتاب « ألكسياد »
للمؤلفة أنا كوميني Anna Comnena بعد فراغنا من شر كتاب ولسم الصوري
هذا .

للعود - رعم أنف الصليبيين العربيين - للوجود بعد ما يبيع على
نصف قرن (٣٦) .

وقد غيرت هذه الحملة الصليبية الرابعة المصهوم الصليبي
وبدلت معالم الوضع عامة والخريطة الجغرافية لبلاد اليونان وحاولت
بديل الناحية الديموجرافية بصورة ملحوظة .

كانت هذه في الواقع هي صفة المرحلة الأولى من تاريخ ولم
الكبير أما المرحلة الثانية فبدأت من تكوين مملكة بيت المقدس
واستكمال البنية اللاتينية بأسس الرها وأبطاكنه وطراباس
كامارات لاتينية استبعدت كلها القاعدة الأساسية التي كان يجب أن
ترتكز عليها لتضمن بقاءها لأننا نراها أصحلت تماما أهل البلاد
الأصليين حتى من كان منهم مسيحيين ، إذ عدهم المحلون طبقه
ثانية في المجتمع الجديد وربما وضعهم في مرتبة أدنى من هذه
أضاً فلم يطوروا لهم الا كملاء أو فعلة أو صناع . بدلون الجهد
لنحقيق مأرب السادة الوافدين الذين لم يسمحوا لأهل هذه الطبقة
الثانية بأن يكون لهم رأى في توجيه السياسة بل صيروها أوربية
افط عمه ، وظلموا أهم قادرون بذلك على الاحتفاظ بها الى الأبد ،
ناسين أن هناك أجيالا - من بين اللاتين - سنظهر على مر السنين
ونخدم في نفسها الكراهية لأهل البلاد ، كما يعلى عليها الزمن
والطور أن تباعد الرابطة بينها وبين اللاتين ، على حين تزداد هذه
الرابطة بين هذه الأجيال وبين الأهالي الأصليين .

على أن ولیم يشير في أكثر من موضع من تاريخه الكبير الى
اطلاعه على وثائق ومراجع عربية دون أن يذكر موضعها وسكت عن

(٣٦) انظر مع القسطنطينية لروبرت كلاري ، رحمة حسن حشفي وبشر مكتبة
الشرق الأوسط ، وانظر أيضا مدكرات فلهااردوان ترجمة حسن حشفي ، وقد نشرته
جامعة الملك عبد العزيز بحدثة سنة ١٤٠٥هـ .

تسميتها كما هو شأنه في مراجعته بعير هذه الله لا سيما اللاتينية .
وما بحسب هذه الوثائق الا أنها كانت موجودة في أرشيفات القصر
الملكي بالقدس وكذلك ربما استعان بها في مكتبة الملك عموري التي
لا بد وأنها كانت حافلة - الى حد ما - بكتب عربية وقد اشار أحد
المؤرخين (٢٧) الى أن سفينه كانت تحبل فيما تحبل كلبا لاسامة
ابن منعد جبح قرب صور فاستولى عليها بولدوين الثالث وأضافها
الى مكتبة القصر .

أما الفترة الثالثة من كتابه فهي التي تميزت بظهور المنازعات
بين الصليبيين أنفسهم وبكيرهم تفكيراً بوسعيها لم يقف عند حدود
بلاد الشام وشمال العراق بل جاوز هذه الحدود الى ما وراءها من
قوى اسلامية صاعدة ، وبلغت هذه العكرة دروبها عند الملك عموري
في تخطيطه لتوسع رقعة مملكة بيت المقدس الى خارج حدودها
الحدودية حسب مصر الفاطمية فالأيوبيية بل ان بعض هؤلاء الأمراء
اللاتين كانوا من المحاطرين الذين ذهب أحدهم مذهبا حروبيا بعيدا
منطلق الى مكة والمدينة .

وكان رجال هذه الفترة الثالثة يرون أن فتح القدس والاسلام
عليها سنة ١١٠١ هو الخطوة الأولى على طريق دعم الصليبية في
السرى الاسلامي وأن هذا الفتح قد أدى مهمته وأنجز غايته بالاسلام
على بعض الامارات في الشام ، وأن الخطوة الثانية لهذا الدعم
الصليبي هي فتح مصر ، وساروا في هذا الطريق خطوة عملة
ملحوظة في هجوم عموري أكثر من مرة على مصر ، وهو هجوم أطل

(٢٧) راجع: Hitti A Syrian Gentleman, p 61. حيث اشارت اليه
مقدمة الترجمة الانجليزية لكتاب ولم .

ولم فى عرضه وان عاد منه الغزاة مغلبى الأظفار ، مهوكى القوى ،
 ويدر لولسم ان يشاهد أوليات هذا الانهاك ممسلا فى ظهور
 صلاح الدين الأيوبي بعد أن استقر فى مصر وحمل راية الجهاد النى
 ورثها عن نور (٣٨) الدين محمود بن زنكى صاحب حلب والموصل
 وتمرب هذه الأحداث بعكس ما كان يرحوه دعاة الغزو اذ أدب الى
 بفكك الهيكل الصلبي ، ولعد واكب وليم فى أحرىات أيامه هذه
 الفرة بل وكان فى ركب بولدوبى الرابع فى محاربته لصلاح ببلاد
 الشام ولم نعتة الاشارة الى ذلك كله مما يشكل الجزء الأكبر من
 الكتب الثلاثة التى ختم بها مؤلفه حتى رحرحب ما عداها ، مما يخيّل
 الى قارئة أنه يكسب تاريخ مصر - من وجهة نظره - أكثر مما يكتب
 تاريخ القدس .

ان مباحة الكلام عن هذا التاريخ الكبير الذى سرجه الآن الى
 العربية هى فى الوقت ذاته كلام عن سيرة مؤلفه الذى لو كان قد
 وقع فيه عند سنة ١١٧٤ التى مات فيها عمورى وهو فى الثامنة
 والملاثين من عمره لما لاهه أحد ، اذ يكون بما كسه حتى ذلك العام
 قد أوفى بعهده للملك الراحل فى ادراج عهده عى هذا الكتاب
 التاريخى وألحقه بتاريخ المملكة منذ تأسيسها .

لكن كانت هناك ثلاثة أمور تحمله على متابعة الكتابة عن الملك
 الصغر أولها أنه هو ابن مولاة الراحل ، وثانها الوفاء لذكرى أبيه ،
 وثالثها أنه هو نفسه كان ولا يزال معلم الملك الجديد ومثقفه ، وهكذا
 كان وليم يعيش فى جو يعبق بكل ما يذكره بعمورى ، وهل هناك

(٣٨) انظر حسن حشى . نور الدين والصلبيون او حركة الاقافة الاسلامة
 فى القرن السادس الهجرى .

أكثر من أن يكون ولده بولدوين الصبي قد حل مكانه يوم ١٥ يوليو
١١٧٤ (٣٩) .

وعاش وليم بعد موت عموري ليكيب عن بولدوين الرابع ثلاثة
أيام أو « كسب » كما يسميها (٢٠) ، ولا يحسب الفاري أنه أطال
في الكتابه عن عهد لميحه الملك ، بل لقد خالف كل ظن اد أوجز
حين كان الاسهاب موفعا منه ، وكان ظن الدين لا يدرون شيئا عن
بواطن الأمور ولا يعرفون منها غير ظاهرها أن له دالة على بولدوين
لمربه منه ، وأنها سيج له فرصة أكبر مما قد سماح لغيره في الوقوف
على كل أسرار الدولة ، لكن الوضع الجديد في المملكة كان مهيئا
الفرصة لهم حاولوا جهمهم إبعاده عن الملك أو فرص رقابة عليه
حتى لا يبعد الى تكوين حزب موال لبولدوين يفسد بطلعات الطامعين
في الوصاية على الملك .

ورأى وليم سماء المملكة تتلبذ بالغيوم والعواصف السياسية .
كما هاله استعجال القوة المصرية استفحالاً شجع أهل دمشق على أن
يسلموا بلدهم وما حوله الى صلاح الدين ما جعل المملكة توشك أن
تقع بين سفي الرحي من الشمال والجنوب ، ورأى من الخير أن
يتسل نفسه بالاهتمام بالأمور الكنسية والانصراف الى معاودة الاهتمام
مكتابة تاريخه الكبير وكان يجد بين هذا وذاك ساعات يعاود فيها
هوايه العديمة ، ونعى بها مطالعه كسب السراب القديم الغربي .

وقد أحس وليم بالحزن الشديد يسيطر عليه وزاد ألمه أن
يضيع أمله في أن يصبح بطركا لبيت المقدس في أعقاب وفاه بطركها

(٣٩) الكتاب ٢١ . الفصل الثاني .

(٤٠) في الكتب ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ .

أماريك فقد تمكن منافسه هرقل يوم ٦ أكتوبر ١١٨٠ من أن يسلبها منه بفضل الملكة الأم « أحنس » وحريها . ومما بطهر الله الشديد لصياع أمه هذا أنه سكنت سكونا سبه مطبق عن ابداء رأيه في هذا الانتخاب لما برره في نفسه من آلام وأحزان فكل ما قاله في هذا الصدد « ٠٠٠ مات أماريك بطرك بيت المقدس بعد عشرين سنة من توليه بطركه القدس ، واد ذاك أخير مكانه هرقل رئيس أساقفة قيصرية » (٤١) .

منهجه :

سار ولبي على نهج القدامى في تقسيمه لمؤلفه هذا الى ما سماه بـ « الكتب » التي هي في مصطلحنا اليوم « الفصول » أو « الأبواب » ، كما قسم كل كتاب الى ما سماه « بالفصول » ، ومعنى بها « الفقرات » التي تضمنها هذا « الكتاب » .

وقسم ولبي تاريخه الكبير هذا الى ثلاثة وعشرين « كتابا » تكاد تكون منسوبة في الطول الا الآخر منها ، كما يبدو أنه خص كل ملك من ملوكها « بكتابين » لم يستثن من ذلك سوى « جودفروي » فقد أفرد له كتابا واحدا ، وطبعي أن يكون ما خصه به قاصرا على كتاب واحد لأن فترة حكمه لم تتجاوز سنة واحدة ولم يكن معدودا بين من تولوا حكم مملكة بيت المقدس وسمى كل واحد منهم بالملك ، إذ انفرد هو عنهم جميعا بلقب حامي القصر المقدس .

كذلك خص بولدوين الرابع بثلاثة كتب ، أما الفصول التي يشتمل عليها كل كتاب فكانت فقرات بسيطة قد لا تتجاوز الفصل

(٤١) الكتاب الثاني والمشرون ، الفصل الرابع .

مها - حسب تسميته - صفحة واحدة فان راد كان صفحتين ، وكان كل كتاب يشمل على ما يقرب من ثلاثين « فصلا » الا الأخير فلم يشمل على أى فصل بل كان ملخصا شاملا ترجم فيه عما يشعر به من احباط .

وقد مهد لذلك كله بمائية كتب قبل أن يبدأ بكتابه عن جودفروى أسار فى أولها الى ما أسماه بصحوة المسيحية لتخليص القدس وبين فيه نساط بطرس الناسك وطلائع الحملة الأولى غير المطاميه ثم ثنى سحمةاب الصليبى فى العسطينيه بالاستيلاء على بيقية والزحف على آسيا الصغرى ، فاذا كان الكتاب الرابع قد تناول احياح الصليبيين لسمال الشام وبده حصار أنطاكية التى استغرو حصارها عنده والاستيلاء عليها الكتاب الخامس أما السادس فيتعلق بما لاقاه الصليبيون من حصار وانصارهم الذى مهد للاستيلاء فى صغوفهم لولا أنهم تابعوا زحفهم الى بيت المقدس وهو ما استغرو بأجمعه الفصل السابع . أما المامن فهو بهانة رحلة الحج والاستيلاء على القدس ثم يلى ذلك ما كتبه عن جودفروى فالملك بولدوين الأول وبوسع الملكة فى عهده واتساع رقعة أنطاكية ثم بولدوين الثانى والاضطرابات فى شمال الشام وهذه اصغرو من أربعة كتب هى السابع والعاشر والحادى عشر والثانى عشر وهما ينهى الجزء الأول من هذا التاريخ كما رسمه ولم لبدأ الجزء الثانى والاستيلاء على صور وامداد النفوذ الملكى على الامارات اللابينية أما الكتاب الدلى لذلك وهو الرابع عشر فمن عهد فولك دانجو ويليه الخامس عشر عن محالوت الامبراطور البزنطى حنا لبطس نفوده على الامارات الصلبيه ثم يجرى عهد بولدوين الثالث والملكة الأم « ملرند » وحبر الحملة الصلبيه الثانية ويرتبط بذلك مباشره الاستيلاء على عسقلان وفصل الحملة المذكورة

حالا ثم السطوع الى مصر وكل ذلك بضمه الكتب . السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر فاذا كان الكتابان السابع عشر والعشرون فهما امتداد لترجمة هذا التطلع الصليبي الى صراع مع مصر حول مصر ومحاولة عهد بحالف صليبي بينظلي لصحها وذلك في عهد الملك عموري ، ثم يبدأ الكتاب الحادي والعشرون ببولوين الرابع الأبرص ونازع المصالح الشخصية بين الجماعات الصليبية ثم ختام ذلك كله في الكتاب الثالث والعشرين وفيه نرى ولم ينسأل : أمن الممكن أن يتم انقاذ القدس على يد ريموند صاحب طرابلس ؟ وبدل هذا الاستفهام من جانبه على أنه كنبه في أثناء الصراع بين الأمراء الصليبيين في محاولة كل منهم السيطرة على بيت المقدس ، وكانت الأحوال لا سيما ظهور القوة المصرية الصلاحية يمثل خطرا على الصليبيين أدركه ولم وصرح به ثم أثبت سير الأحداث صحة توقعاته .

★★★

وبعد فهذا تعريف عاجل بولم الصوري وكتابه الذي كان الحافز لي على ترجمته هو فاسي بتدريس الحروب الصليبية في كلية الآداب (جامعة عين شمس) بعد عودتي من إنجلترا ، ثم شاعت الظروف أن أقوم بالمحاضرة في نفس المادة في قسمي الكالوريوس والدراسات العليا بكلية الآداب والعلوم الانسانية بجامعة الملك عبد العزيز بجدة ، واعتبرت هذا الكتاب - وهو وثيقة تاريخية معاصرة لبعض الأحداث والتجديدات الحربية على العالم الاسلامي - من متطلبات محاضراتي هناك ، ثم طرأت فكرة تقديمه للنشر بالكلية بجدة ، فرأى زميلي وصديقي الدكتور حمد محمد العريزان أن تكون « مذكرات فلها ردوان » عن الحرب الصليبية الرابعة هي مذكورة ما تنشره لجنة البحث العلمي بها ، وحظي الكتاب بموافقة المجلس العلمي للجامعة هناك .

وان كتاب رلسم الصورى هذا لهو واحد من مجمرة الكتب
والوثائق المتعلقة بهذه الحروب والمكوبة بافلام معاصرين لها من غير
العرب والمسلمين ، وحيدا لله ان مكسى من تسر خمسة مصادر منها
حتى الآن ، وهى الطريق - ان شاء الله - اثنان ، أحدهما هو
« الاسنيلاء على دمياط » لبادربورن ، والآخر هو « الكسبياد »
أو نارينخ الامراطور البيزنطى الكسيوس كومين بفلم ابيه
« أنا كومين » .

ولقد اعتمد فى ترجمتى العربية هذه على النسخة الانجليزيه
السى اضطلع بترجمتها والعلق عليها المؤرخان النسخه اعلى اتوانر
بانكوك ، و أ . كراى سنة ١٩٤٣ وهى فى مجلدين ضخمين ، وقد
بصقلت مكتبة جامعة القاهرة وأدنت لى بتصويرها .

ولقد عشت من جانبى بالمحافظة على مفهوم النص وروحه بقدر
الامكان ، مع مراعاة الجانب العربى من حب اللغة والأسلوب ، غير
أننى أبحت لنفسى أن أستعمل لفظ « الصليبين » فى مواضع خاصة
حين رأيت سباق الموضوع يتطلب ذلك حتى لا يخلط الأمر على
القارىء ، فلا يعرف أى الجماعات المسيحية يقصدها المؤلف .

أما ما أضفه الى الترجمة العربية - وهو قليل - فقد وضعته
بين حاصرين على هذه الصورة [٠٠٠] ، لكن حذفت من الترجمة
العربية بضعة أسطر أملها على المؤلف طبيعة العصر والأحداث
ومركزه الدينى ، وهى سطور قد تكون لاحتها العصب وسداها
الحمل بالاسلام وعدم ادراك كنهه ، ولم يؤد هذا الحذف الى فراغ فى
سباق الموضوع أو اختلال به .

وسيصدر هذه الترجمة باذن الله في أربعة أجزاء بدلاً من
اثنى كما في الانجليزية وأرجو من الله التوفيق والهداية .

القاهرة في :

د. حسن حبشي

التاسع من المحرم سنة ١٤١١ هـ

الحادي والثلاثين من يوليو ١٩٩٠ م

كلمة شكر

أرى لراما على أن أعدم بالسكر الخالص للصديق الكريم
الأساد الدكتور عبد العظيم رمضان اد بفضل فجعل هذه الترجمة
من سلسله مطبوعات « تاريخ المصريين » التي يشرف على إصدارها .

كما أشكر الصديق العالم الأب جورج قنواى بدير الآباء
الدومنيكان بالعباسيه فقد أعاسى بكثير مما يعرفه هو وأجهله أنا من
إرسادات العهدين القديم والحديد وأدن لى فى الرجوع الى مكتبه
الدير .

والله فى عفى لمكنه جامعه القاهرة اد أدنب لى تصوير
الرحمه الانجليزية كامله وبذلك يسرب لى العكوف على نفسه الى
العربية أنى كتب ، وشكرا للقوامين على مكيبات جامعات القاهرة
واسكندريه وعين سمس والملك عبد العزيز بجده ، ولزملائى وتلاميذى
وأصدقائى فى مصر والخارج ، وللميذى القديم نركى هزاع
الركانى من السعوديه فقد طالع معى مخطوطه هذه الترجمة
وبفضل نسخها ثم كتابتها على الآلة الكاسه .

ح ح ح

الحروب الصليبية

(١٠٩٤ - ١١٨٤)

التمهيد

من وليم - الذي لولا رحمة الرب ما استحق أن
يكون خادما للكنيسة المقدسة في صور - الى الاخوة
المسيحيين الموفرين الذين قد يصلهم هذا الكتاب
لكم الخلاص الأبدى من أجل السيد .

لا يشك اسنان عاقل في أن تدوين أعمال الملوك مهمة محفوظة
بالصعاب والمخاطر ، وإذا نحينا جانبا ذكر الجهد الذي لا يسهر
والمعاناة التي لا تنفسي ، وما يتطلبه عمل من هذا النوع من التحلي
بالبفظة الدائمة ، فإن هوة سحيقة تفتح فاما أمام كاتب التاريخ
الذي يلقي المشقة العظمى في محاولته تجنب هذا الأمر أو ذاك ،
ذلك لأنه في الوقت الذي يحاول فيه النجاة من « خاربيديس » ،
فالأرجح أنه سوف يقع في براثن « سكيلا » التي تعرف كيف تدمره
الدمار الشامل وهي محاطة بكلاهما ، ذلك لأن الكاتب اما أن يؤح
غضب الكثيرين ضده وأثناء جريه وراء حقيقة ما وقع ، واما أن يلتزم
الصمت ازاء مسيرة الأحداث أملا منه في أن يقلل ما أمكن من

الامعاص منه ، حتى يبدو بلا أخطاء ، وذلك لأن نعمة مجاوزة الصدق
واخفاء الحقائق عن قصد يعبر أمرا مخالفا تمام المخالفة للواجب
الملقى على عاتق المؤرخ ، ومما لا شك فيه أن فصل الفرد في أداء
الواجب المفروض عليه إنما هو خطأ ، إذا كان مفهوم الواجب في
الواقع هو « مطابقة سلوك كل فرد لما يفيق وعادات بلده ونظمه » .

ومن ناحية أخرى فإن أخرى وراء سلسلة من الأحداث دون
احتمال يصير عليها أو تحريفها عن محبة الصدق إنما هو مسلك ينير
الفصيص على الدوام ، إذ يقول الملل العديم « إن النفاذ عن الحق
يكسب المرء الأصدقاء ، أما التصريح به فبورث الكراهية » وينرتب
على ذلك أمران :

أما أن يتراخي المؤرخون في أداء الواجب الذي تقتضيه مهمتهم
فيبالغون في اظهار التوقيف الذي يجاوز كل حد ، وأما أنهم في بحهم
الجاد عن حقيقة مسألة من المسائل يجلبون على أنفسهم الكراهية
التي تنجم عن قول الصدق ، ومن ثم فإن السائد هو أن من سمة
هذين السبيلين أن يخالف كل منهما الآخر ، وأن يصبح مصدر
نعم لا نفعه من مسنلمات لا ماض منها .

لقد قال كاتبنا شيسبيرون « لئن كان الحق مضميا لما ينجم عنه
في الواقع من كراهية مطبقة للصدق فإن الاستسلام أتت رزية » ،
وذلك لأن تعامل المرء بلين مع الصديق يحمله على الاندفاع في
التهور المؤدى للخراب ، وهذا احساس ينعكس على المرء الذي يجوز
على مقتضيات الواجب فيكم الحقائق الثابتة رجاء أن يكون أريحا .

إن الكتاب الذين ندفعهم الرغبة في المداينة الى أن يُضَمِّنُوا
عن قصد في ثابا مؤلفاتهم التاريخية ما ليس بحق إنما يسلكون
مسلكا شائبا ، والأحرى أن لا يُدرجوا في عداد المؤرخين ، وإذا كان

اختفاء الحقائق النابتة المتعلقة بأمر من الأمور يعتبر أمرا شبيهاً يافض
مهمة الكاتب سام المافضة ، فالأسد سبأه منه هو أن يحلط الحق
بما ليس بحق ، فيقدم للأجيال القادمة الى نفعه فما قول الحق
ما هو كذب صراح على أنه حقيقة ثابتة .

وزيادته على هذه المحاطر فان كاتب التاريخ كثيراً ما يغال
مثل هذه الصعوبة - بل وما هو أشد منها - مما يحتم عليه أن يبدل
قصارى جهده لتجيبها بقدر الامكان ، وأعني بذلك أن كرامة الأحداث
التاريخية الشامخة قد تنهار بسبب ضعف العرض ونقصان البلاغة ،
لذلك ينبغي أن يكون أسلوب الكاتب في عرضه للأحداث على نفس
المستوى العالى للأخبار التى يروىها ، ولا يسعى أن تكون له الكاتب
وطريقة عرضه للموضوع دون المستوى الرائع الذى يجب أن ينوفر
للموضوع ، ومن ثم فان أكبر ما يخساره المرء هو أن يؤدى العرض
السقيم الى افساد عظمة الفكرة ، فتبدو الأعمال الجوهرية وكأنها
نافهة عديمة القيمة بسبب الضعف الذى يعتور سردها ، وهذا
لاحظ الخطيب المصنوع (شيسرون) فى القسم الأول من كتابه
« الحوار التوسكاني » أن تدوين المرء لأفكاره - بدون أن نكون علمه
القدرة على حسن ترتيبها أو إبرازها فى جلاء تام ، أو جعلها شقة
تجذب القارئ اليها انما هو عمل رجل يسىء الى الأدب بجهالة وببند
وقته هباءً » .



ويبدو أننا فى كتابنا الحالى هذا قد وقعنا فى محاذير متعددة
وشبهات حمة ، ذلك لأن سرد الأحداث بطلب مما أن ندرج فى هذه
الدراسة التى نقوم بكتابتها الآن كثيراً من التفاصيل عن أخلاق الملوك
الشخصية وحائهم وطباعهم الذاتية ، غير ملقبن بالا عما اذا كانت
هذه الحقائق حميدة فى حد ذاتها ، أم أنها خليقة بالنقد الذى

تستحقه ، ومن المحتمل أن نجد الأجيال التالية لهؤلاء الملوك - حين
مابيعهم هذا الكتاب - صعوبة في قبول ما احواه بين دفتيه ، أو
قد نغضب هذه الأجيال من المؤلف غصبا لا يستحقه . وحينذاك
سوف يصبروه أحد رجلين : إما أنه كذاب أشر ، أو حاسد كفور .

ويعلم الله أننا بذلنا جهدنا كي نجنب النهمين نجيب المرء
للطاعون .

أما ما سوى ذلك فما لا شك فيه أنه كان اندفاعاً منا أن
نحاول القيام بعمل هو فرق طافسا . كانت فيه لعنا لا ترقى بحال
من الأحوال الى روعة الموضوع وحلالة قدره ، ومع ذلك فقد نسنى لنا
أن نجز شيئاً ما ، شأننا في ذلك شأن الذين لا دراية لهم بالرسم
ولم يقفوا على أسرار هذا الفن حين يسمح لهم في العادة برسم
الخطوط الأولى لصورة ما فيضعون الألوان غير المناسبة ، ثم نجىء
بعد ذلك يد الفنان الصانع العارف بالألوان قبضيف لمسات جمالية
أحسن من هذه اللمسات ، ولذلك فنحن - مع شدة تمسكنا بالصدق
الذي لم نجد عنه قط - قد قمنا بمحاولات كبيرة لوضع الأسس
التي يمكن للبانى الذى يبرزنا بمقدرته الرائعة - أن يقيم عليها
صرحاً متكاملاً .

وربما كان الأحدى أن أئوذ بالصمت بسبب القصور الخطير
والعثرات الجمة التى تنتظر هذا المجهود ، وكان الأخرى بى أن أصمت
وأرغم فلى على الكف عن الكتابة ، غير أن ما تملكنى من حب دائم
لوطنى قد دفعنى لولوج هذا السبيل ، اذ كانت احباجات الوقت
تطلب رجلاً مطبوعاً على الاخلاص ، مستعداً لبذل حياته فى هذا
السبيل .

وأعود فأكرر أنه من حق الوطن ألا تظل تلك الأعمال التى
أنجزها هذا الوطن معطوبة فى زوايا الجهل وطيات الاهمال على مدى

قرن من الزمان ، وأن يسمح للنسيان أن يسحب عليها ذيلوله من غير حق بل ان هذا الوطن بأمرى بعكس ذلك اد يأمرنى بالحفاظ عليها عن طريق علمى من أجل نفع الأجيال القادمة .

لذلك فقد استنجبت لارادته ، وشرعت فى مهمة يأبى الشرف التحنى عنها ، ونهضت غير غابىء بعد الأجيال النالية ، ولا مكثرت بأى حكم بحكم به على أسلوبى الضعيف فى معرض تناول مثل هذا الموضوع الجليل .

وليس من شك فى أننى لبیت بداء الوطن بنفس الحماسة التى بذلها هذا الوطن ، عسى أن يكون العمل جديرا بالشاء الذى يتفق مع الاخلاص .

لقد انجذبنا بروعة تراب وطننا ، ولم نعبأ بضالة امكانياتنا ، ولا الجهد الذى يبذل ، من غير اتكال على مساعدة ما ، ولكننا فصا بهذا العمل مدفوعين بالود الصادق والحب الخالص .

يضاف الى هذه الخوافز ما أمر به الملك عمورى الاول فليس الله روحه وصاحب السجل الباهر فى الجهاد من أجل السيد .

ولقد حفزنى هذا الأمر - وأسباب هامة أخرى - على أن آخذ على عاتقى القيام بهذا العمل ، أضف الى ذلك أنى تمت بوضع تاريخ آخر غير هذا التاريخ استجابة لأمر الملك الذى أمدنى بالوائى العربية الضرورية ، وكان المصدر الرئيسى الذى اتخذناه لذلك هو استعملنا كتاب تاريخ بطرك اسكندرية الموقر سعيد بن البطريق الذى يبدأ من زمن [النبى] محمد [صلعم] متضمنا أحداث خمسمائة وسبعين سنة ، أى حتى عامنا الحالى هذا الذى هو عام ١١٨٤ من مولد المسيح ، ومع ذلك فليس بين أيدينا لهذا الكتاب الحالى مصادر مكتوبة سواء فى اليونانية أو العربية للاسترشاد بها .

واما كان اعما دنا على الرواية السفهيه وحدها ، الا فى ايراد قليل من الاحداث اللى ساهداها بنفسها ، ونسبها سير الحوادث ، فيبدأ الكتاب بسفر أولئك الرجال والرعماء المعساير الدين أحبهم الله فخرجوا استجابة لنداء السيد من ممالك الغرب ، واستولوا - بيد فويه - على أرض الميعاد ومعظم بلاد السام ، ولقد نابعا باخلاص عظيم التاريخ ابتداء من هذه النقطة لفترة تجاوزت أربعة وثمانين عاما ، انتهت بعهد بلدوين الرابع - وهو السابع فى ثبوت الملوك ، اذا أدرجنا معهم لورد جودفروى الذى كان أول حاكم هناك ، ورغبه منا فى أن يرداد ويكمل علم أى راغب فى مزيد من التفاصيل . بأحوال البلاد السرمه بعد وصفا أولا - فى ايجاز واحصار - مى كان احلال هذه البلاد وكم كانت المأسى التى نجمتها كثرة ، كما ألمنا أيضا بوصف حال المؤمنين من أهل تلك الحبة الوسطى الذين كانوا يعيشون بين مارقى هذه الأرض .

ثم ذكرنا كيف نهض أمراء ممالك الغرب لتحمل مسئولية الحج بهدف تحرير احوانهم بعد طول الأسر الفنى عانوه .

★★★

فادا قدر العارى المهام المعددة المتباينة اللى تقع على كاهلنا فانه سوف يكون على يقين من أننا قد قاسينا مشقة كبرى ازاء نوع هذه المهام ، اللى كان أولها المسئولية الضخمة المتعلقة بأمور نتصل بأسقفية صور الشهيرة الداخلة تحت حماية الرب ، واللى تم اختارها لنوليها ، لا لميزة خصصنا بها دون سوانا ، ولكن فضلا من الله وحده .

واما ثانيها فقد وكل الى القيام بأعمال خاصة بجلالة الملك حبت تطلت بى - فى قصره الشريف - وظيفة المستشار ، هذا بالإضافة الى ما كان هناك بين آونة وأخرى من شتى الأمور التى تتطلب

اهتمامنا ، فاذا أخذ القارئ هذه الأمور بعين الاعتبار فإنه سوف يكون أكثر تسامحا معنا ان هو وجد في الكتاب الذى هو الآن بين يديه شيئا لا يقبله ، ذلك لأنه حين يكون المرء مسعولا بمساعل مبيّية فإنه من المستحيل على الذاكرة أن تنسب على الوجه الأكمل ، كما يشق عليها أن تولى كل موضوع ما هو صميم به من العناية ، كما أنه من المستحيل على الانسان أن يصرف عنايته الكلبة الى شئى المواضع ، وأن يوزع اهتمامه عليها جميعا ، ثم يطلب منه أن يكون له من النشاط الذهني مثل الذى يفرض أن يكون له لو أنه كان قد صرف همه الى أمر واحد فقط .

ومن ثم فإن المرء اراء هذه الطرؤى يكون أهلا لتسامح أكبر .
ان هذا العمل فى مجموعه يحتوى على ثلاثة وعشرين كتابا ، وينقسم كل منها الى عدد معين من الفصول حتى ييسر للقارئ أن يجد ما يبحث عنه فى الأجزاء المختلفة من الرواية وانى أعزم — ان مدت لى الحياة — أن أضيف من وقت لآخر الى ما كتب أحداثا ومنا التى قد تتمخض عنها نظورات المستقبل وأن أزيد عدد الكتب بفدر ما يسمح به الموضوع .

★★★

واننى أعتقد ولست مخطئا فى هذا الاعتقاد — أن هذا الكتاب يقسم بنة واضحة عن تجربتنا ، كما أننا وقد كتبناه استجابة لتجربتنا — قد أمطنا اللثام عن سلبيات كان لابد لها أن تظل مخفية لو أننا لذنا بالصمت ، غير أننا نؤثر أن لا نجد ما يزهينا على أن نكون فى حاجة الى ما يهذب النفس (١) .

(١) أشار وليم فى النص هنا الى قصة لا يدرك معناها الا من يعرف الإصحاح الثامن والعشرين من احمل متى (١ - ١٢) من أن ملكا صنع عرسا لابنه وأرسل =

وأدعو الرب القصاد وحده على كل ذلك أن يكلأنا برحمته
فلا يحبس بنا هذا المصير ، كما نعرف معرفة تامة أن للخطأ في العادة
العاظا كبره « وأن يخفى العصى فسفاه كادبان ومسبح المذمة
جاهل وكثرة الكلام لا تخلص من معصية » .

ومن ثم فاننا بروح من المحبة الأخوية ندعو مطالع هذا الكتاب
في الله ، اذا وجد ما يسحق البعد ألا يتردد في نبيه في رحمة
صادقة وأن يعوم ما اعوج منا فيكسب لنفسه نعمة الحياه الأبدية .

كذلك نرجو مطالع هذا الكتاب أن يذكرنا في صلواته فيكسب
عطف الرب علينا ، فان وعما في ثابا هذا الكتاب في خطأ فترجوه
ألا يتمنى لنا الموت ، عسى أن ينفضل مخلص العالم - بفضل طيبته
الوفيرة ورحمته التي لا تفشل أبدا فيتغمدنا بغفرانه ، ذلك لاننا
نحن التسعساء والخدم الذين لا جدوى منهم في بيته مخطئون كل
الخطا أمام ضميرنا ، وبحسب يوم الدنونة حسنة عظمى .

هنا ينتهي التمهيد

= عبيده ليدعو المدعوين الى العرس فلم يريدوا أن يأتوا ، فأرسل عبيدهم الى آخرين
يدعهم للولية « لكنهم تهاونوا » فقد مضى سهم الى حقله من مصر ، والى بحاره
من كان يتاجر ، اما الذين بقوا فقد « أمسكوا عبيده وشتموه وقتلوه » ، فلما
سمع الملك غضب وأرسل حدوده وأهلك أولئك القاتلين ، وأحرق مدينتهم ، ثم
قال لعبيده « أما العرس فمستحق ، وأما المدعوون فلم يكونوا مستحقين » ثم
أرسلهم أمرا أيام ليدعوا كل من وحدوه الى العرس ، فجمعوا له « كل من
وحدهم » أشرارا وصالحين . فامتلا العرس من المتكئين ، فلما دخل الملك ليحضر
رأى هناك انسانا لم يكن لاسناس العرس فقال له « يا صاحبي كيف
دخلت الى هنا وليس عليك لباس العرس ؟ » ، ثم يكمل وليم الصورة بالاشارة الى
ما جاء في الاصحاح العاشر من سفر الأمثال (١٩) في « أن من يخفى العصى فسفاه
كاذبان ، ومشيخ المذمة حامل وكثره الكلام لا تخلص من معصية » . كما جاء في
النص . وقد ساق وليم هذا كله في استشهد قصير ليبرر موقفه ، وكان قصير
الاستشهد حاملا ايانا على هذه الحاشية في حقه الترجمة العربية .

الكتاب الأول

المسيحية تهب لاستخلاص بيت المقدس ، وبطرس
الناسك يبدأ في الزحف مع جماعات أخرى •

فصول الكتاب الأول :

- ١ - ذكر قيام عمر بن الخطاب ثاني خلفاء محمد
(صلعم) بالاسنبلاء على بيت المقدس زمن
الامبراطور هرقل •
- ٢ - الظروف التي مكنت عمر بن الخطاب من
الاستيلاء على الشرق ولم تكن في الحسين ،
وكيف أنه لما جاء الى بيت المقدس أمر باعادة بناء
هيكل السيد •
- ٣ - كيف نجمت سورية طويلة اسر الرق تحت
حكم الولاة المختلفين ، وكيف أحلت صداقة
الامبراطور شارلمان العظيم مع هرون الرشيد ملك

فارس(*) على المسيحيين الذين كانوا يعيشون في
كف المسلمين .

٤ - كيف انتعلب المدينة المقدسة الى نفوذ خليفة
مصر ، وكيف أن نير عبودية المؤمنين صار غير
محتمل زمن الخليفة الحاكم [بأمر الله) ، كذلك
ما يتعلق بهدم كنيسة القيامة بالقدس .

٥ - عرض للطروف التي كانت سائده حينذاك بين
الصادقين الذين كانوا يعيشون بين غير المخالعين .

٦ - الخليفة الطاهر يخلف أباه الكريه كحاكم لمملكة
مصر ويعيد تشييد الكنييسة بناء على النماس
رومانوس امبراطور القسطنطينية وبجهود
« جون كاريانين » و « مسططين مونوماحوس »
ويدهما بالمواد اللازمة .

٧ - القول في أصل الجبس الركي وباريخه العديم .

٨ - ذكر أنواع الأهوال الكبيرة التي خضع لها العالم
يومذاك .

٩ - كيف تمكن الفرس من احتلال كل البلاد .

١٠ - ذكر ذهاب كل جيوش المؤمنين معا الى المدينة
المقدسة ، وما لقيته من المعاملة داخل القدس
وخارجها ، وكيف وقعت المدينة مرة ثانية في
أيدي الترك .

(*) هكذا يسميه مؤرخنا ، والمقصود خليفة المسلمين وبغداد .

- ١١ - ذكر مجيء رجل الرب بطرس الناسك واللقاء
بينه وبين سيمون الموقر بطرك بيب المقدس .
- ١٢ - الوحي الذي جاء لبطرس الناسك هذا في كبسة
القيامة المباركة .
- ١٣ - السعاف بين الامبراطور هنرى والبابا جريجورى
السابع ، وكيف كان استقبال اربان الثانى
- خليفة جريجورى - لبطرس العائد من القدس
استقبالا كريما .
- ١٤ - مجيء البابا اربان الى مناطق ما وراء الجبال وعقد
المؤتمر فى كلرمونت .
- ١٥ - عظة البابا [ايربان الثانى] للناس بشأن الحج
الى بيت المقدس .
- ١٦ - الزعماء الذين خرجوا للحج وكانوا حاضري
الاجتماع ، وذكر علامة الصليب التى وضعها من
أزمعوا السعير - على ملابسهم - رمزا لايمانهم
وحجهم المقبل .
- ١٧ - أسماء أمراء مملكتى الفرنجة والتبويون الذين
قاموا بالحج .
- ١٨ - وولتر المغلس يصل الى القسطنطينة .
- ١٩ - مجيء بطرس الناسك بـسدثـد ، ومعرفة -
أثناء اجتيازه المجر - بخيانة أهلها .
- ٢٠ - نشوب شغب خطير بين الحجاج والبلغار فى
« نيش » إحدى مدن بلغاريا .

٢١ - بطرس الباسك يستدعى قواه الهاربة ويحاول الوصول من جديد الى نفاهم سلمى مع البلغار ، ولكن يحدث شعب جديد - أنكى من سالفه - ويفرق كئاثب بطرس .

٢٢ - بطرس يجمع سرادم جيشه المهروم ويمضى الى القسطنطينية ، ثم يعبر البسفور ويعسكر في سسنا .

٢٣ - جيش بطرس يستولى في غيابه على الماشية من الاقليم الواقع حول مدينة نيقية ويحبل احدى القلاع القريبة منها .

٢٤ - فلج أرسلان - أحد أمراء البرك - يسرد المكان المذكور آنفا ويقتل بالسيف كل من وجده فيه .

٢٥ - الجيش الصليبي يحرك بكافة عساكره ضد قلج أرسلان لقتله اخوانهم التنوون ، ولكنه يلقى الهزيمة وهو يحاربه .

٢٦ - فلج أرسلان المنصر على شعبا يدمر المعسكر ويأخذ من وجده فيه ما بين قنبل وأسير ، ثم يمضى لمحاصرة مدينة سيفسوت ، غير أنه يرند على أعقابها حين يسمح بمرسالة الامبراطور .

٢٧ - القسيس اليوناني خوتشوك يصل الى المجر وهو يقود جيشا ثانيا ولا يردد في ارتكاب أعمال فاضحة في حق المجريين يعف اللسان عن روايتها .

٢٨ - رساله ملك المجر الى المدعو جوتشوك وجيشه والقضاء على هذا الجبس قضاء مبرما .

٢٩ - كيف أن جمعا كبيرا من العوم المفونين الذين
خرجوا في أعقاب الجماعات الأولى راحوا يفلون
اليهود ويسيرون في غير نظام .

٣٠ - فلعة فيزنبرج ومصرع سبعائة معرى ، ثم
بيان كيف هلکوا أخيرا بأرادة الهية وفتلوا جميعا
تقريبا على يد العدو .

هنا يبدأ

الكتاب الأول

المسيحية تهب لاستخلاص بيت

المقدس وبطرس الناسك يبدأ

الزحف مع جماعات أخرى

- ١ -

تذهب التواريخ القديسه والرواية السرفبة للقول بأنه فى زمن
الامبراطور الرومانى هرقل يدأب بعالم محمد [صلعم] قنبت
أعدامها سبيتا فويا فى السرفى .

ولما عاد هرقل من فارس متوجا بأكاليل النصر عاد أيضا
بصليب المسيح ، وأقام فترة من الزمن فى بلاد الشام رسم خلالها
« موديستوس » المبجل أسقفا لمدينة القدس التى كان خسرو - كسرى
فارس الطاغية - قد خرب كنائسها ، فعهد الامبراطور الى
« موديسنوس » هذا باعادة ترميمها ، أخذ العهد على نفسه أن ينفق
من ماله الخاص كل ما يتكلفه هذا الترميم .

فى هذا الوقت بالذات كان عمر بن الخطاب - ثانى خلفاء محمد
[صلعم] فى مملكته وملنه - فد اسولى على عزه - احدى مدن فلسطين
الشهيرة - بجيش لجب من العرب لا يحصيه العد ، ثم ما لبث أن

نمكن بما يحب يده ، من الكنائس والحسود التي جمعها أثناء زحفه أن يفتح بلاد الدماشقة ويستولى على دمشق ، كل ذلك والامبراطور هرقل في فيليقية « لا يعمل شيئاً سوى مراقبة الأحداث في بطورها ، فلما جاءه الخبر بأن العرب قد دفعهم أعدادهم الكبير يجمعهم الضخمة الى غزو الأراضي الرومانية ولم يترددوا في ضم مدنها المهم أدرك أن فوه ليست كافية لصد مثل هذا الجيوش وقمع غلوائه ، فآثر السلامة بالرجوع الى بلده ، بدلا من أن يقاتل قوالب لا تكافئها قواه ، وألا يفاخر صدها في حرب لا يعرف ما سمحى عنه ، وكان الأهالي المغلوبون لا يطعمون الا في حمايته اياهم ، لكنهم غادرهم فازداد بأس العرب شدة مما ساعدتهم في رمس وجير على الاسيلاء على جميع البلاد الممتدة من اللادقية بالناسام حتى مصر .

ولقد شرحنا في كتاب آخر ، وفي دفعة بالغة ، ما كان من شأن محمد [صلعم] ومضى كان طهوره ، كما ألحنا بالأحداث التي اسهب الى أن يعلن أنه النبي المرسل من الله ، كما وصفنا هناك أسلوب حياته ودعوته والأراضي التي بسط عليها سلطانه ، وكم عاش من السنين وذكرنا حلفاءه وكف ائبوعا طربعته في شر هذه المبادئ في أرجاء الدنيا .

- ٢ -

لقد كانت هناك ظروف خاصة سهلت فتح الشرق ، ذلك أنه قبل سنوات قلائل من هذا الفتح قام خسرو - الذي أشرنا اليه حالا - بغزو بلاد الشام بالسيف ، فدمر المدن ، وأحرق ما حولها من البقاع ، وهدم الكنائس ، وزج بالناس في السجون ، ثم استولى على المدينة

المندسة . وقبل يجد السف سف وبلدين العا من ارضيا ، ثم
رجع الى فارس حاملا معه الصليب الأعظم ، هذا الى جانب استصحا به
ايضا « رلربا » اسف بب المندس اسرا وكذلك من بهى على فند
الحاء من سكانها ومن اهالى السواحى المجورة .

كان هذا الحاكم العارسى الجبار قد تزوج من ماريه احدى
بنات الامبراطور [البيزنطى] موريس الذى كاتب بربطه روابط
الصداقة القوية بالبابا المبارك جريجورى [العظيم] الذى عمد أحد
أطفال الامبراطور عند حوض المعمودية ، كما أن خسروا عمه هو
الآخر ارضاء لحاظ روحه وطل محفظا على ما ببسه ويز الروم
من الصلاقات الودية طيله حياه موريس الذى مات فعلمه على العرس
العصر فوكاس بعد أن غدر بموريس فاعتاله ، واد ذاك أعار الملك
حسرو على الامراطوره ورحف علمها بجنس حرب الاراضى السابعة
لها ، وذلك بسبب تعززه من خيانة أولئك الذين ارضوا أن يولوا
أمورهم رجلا دينا قد لطخب يداه بدم مولا ، فعدهم خسرو شركاء
لعوكاس فى اتفاق سرى واعبرهم حلفاء فى الجرم دانه ، كما أن
زوجه ماريه راحب هي الأخرى نزيد ما بصدرة من غضب من أجل
البار لابسها ، فلما فرغ كسرى من فتح بقية الاراضى التى كاتب بحب
الحكم الرومانى كانت بلاد النمام هي آخر ما اسنولى عليه كما فلما ،
فقتل من أهلها من قتل ؛ وأسر منهم من أسر وساقهم معه الى فارس .

لذلك لما دخل العرب بلاد [النمام] وجدوها خالية قد غادرها
أهلها ، فبادروا لاغنام الفرصة التى لم يكونوا سوفعوها
لبسط سلطانهم ، وفرضوا نفس المصير على مدينة القدس الجببه
الى الرب وان منوا بالحياة على سكانها القلائل ممن لا زالوا مقسمن
بها عماهم يفعونهم فى جمع الجزية التى فرضوها عليهم ، غير أنهم
سمحوا للمفلوبين أن يمدوا ترميم ما دمر من الكنائس وأداء

سعائهم الدينية ، كما أبقوا لهم أسقفهم ، وأذنوا لهم بممارسته
الديانة المسيحية بلا قيد .

★★★

وفي أثناء اقامة عمر [بن الخطاب] ببيت المقدس راح يستعصى
في دفة عن موضع هيكل (١) السد ويسأل عنه الأهالي لا سيما
الأسقف الموصى « سغرونوس » حليفه « موديسوس » الطبيب
الذكر ، ويقال ان الأمير الروماني « تبتس » هو الذي دمر هذا
الهيكل أثناء تخريبه المدينة ذاتها ، فدل القوم [عمر] على موضعه
وأشاروا الى ما سعى من أطلال ضئيلة تشير الى هذا الأثر القديم ،
واذ ذاك أمر [عمر] بإعادة بنائه ، ورصد فدرا كبيرا من المال
للفتة على ذلك الغرض ، كما حلب لبائنه العمال ، وحبل اليه
- عن طيب خاطر - شتى مواد البناء اللازمة له من الرخام والخشب ،
فما لبث الهيكل أن كمل في زمن قصير ، واستوى على الصورة التي
رسمها عمر له في ذهنه ، والنبي يراها اليوم زائر القدس .

ثم أوقف [الخليفة] على الهيكل كثيرا من الأملاك الفسيحة
الغنية التي كان دخلها كافيا للحفاظ عليه سليما ، وللصرف على
تجديد أجزائه القديمة ، وزوده بمصاييح لا تطفئ أنوارها أبدا
بفصل أولئك الذين يقومون بالخدمة فيه .

لكن لما كان كل واحد يعرف تمام المعرفة شكل هذا البناء
ونفاسة صنعه فإن تفصيل ذلك ليس من شأن هذا الكتاب الحالي .

على أنه توجد داخل هذا البناء وخارجه آثار قديمة قيمة ،
ونقوش عربية محلاة بالفسيفساء التي يعتقد أنها راجعة الى هذا
العهد ، وهي توضح اسم بانيه ، وما أنفقه عليه وتواريخ ذلك كله
منذ البداية حتى كمل البناء .

(١) يقصد بذلك كنيسة القيامة .

لقد دانت المدينة المقدسة - حبيبه الرب - لحكم الأعداء بسبب خطايانا وبحملت على مدى أربعمائه وسعين سنة فيدا لا سنحقة وعانت المشقة على الدوام رغم اخلاف ظروف هذا الاسر بعضها عن بعض ، وكان تغير الأحداث المستمر يتمثل في تبدل ولايتها وحكامها الواحد بعد الآخر ، كما مرت عليها فترات وضاعة وأخرى كاللحى تبعاً لطبيعة كل حاكم نؤول اليه معاليد الأمور بها ، وكان حالها أنسبه بحال مريض نتحسن صحته تارة ، وسوء أخرى بغير الأيام ، ولكن السقاء كان أمراً مستحيلاً ما دامت فى قبضة حكام طغاة وشعب لا يدين بدينها ، بيد أن السلام رفرف بجناحيه على شعب الله أبان عهد ذلك الحاكم الجدير بكل ساء ، وأعى به هرون الملقب بالرشد الذى دان له الشرق ، والذى لا زال تسامحه وعطفه النادرى المثال وطبيعته الرائعة محل تقدير عميق وثناء لا ينقطع فى السرى حتى اليوم .

ولقد قامت العلاقات الطيبة بين هرون وبين المسيحيين على أساس من التفاهم الرائع الذى أرمى دعائمه الامبراطور الورع الخالد الذكر « شارلمان » عن طريق السفراء المستمرين جيئة وذهاباً ، وكان الود العظيم من جانب ذلك الخليفة مصدر راحة كبرى للمؤمنين ، حتى لكأنهم يعيشون فى ظل حكم الامبراطور شارول وليس نحت حكم هرون ، ونطالع فى سيرة ذلك الخليفة الشهير قول القائل « ان علاقات شارلمان مع ملك الفارسيين (١) هرون صاحب السلطان على كافة أنحاء العالم - باسنثناء الهند - كانت علاقات كريمة حتى ان الأمير [شارلمان] كان يؤثره بمودته على سائر ملوك الدنيا وحكامها ، وكان يرى أنه لا ينبغي أن يكون التعظيم والاحلال الا له وحده دونهم جميعاً ، ولما وفد على هرون الرسل الذين بعثهم شارلمان لزيارة القصر

(١) بعدد بذلك المسلمين .

المقدس وكيسه القيامة ودخلوا عليه بالهدايا والحف ، واعلموه
 بما جاءوا من أجله ، وافصحوا له عن رغبة مولاهم لم يذهب هرون
 بإجابتهم الى كل ما سألوه اياه بل راد فمكتهم من ملذيه هذا المدن
 واعتباره من امرك سارلمان ، فلما حن موعد اوبه الرسل الى مولاهم
 اوفد الرشيد سفراء من قبله الى سارلمان ، حاملين اليه هداياه السمييه
 من الباب الحريري والبوابل وغير ذلك من مسجات الاقطار السرفيه ،
 كما كان قد أرسل قبل بضع سنوا من ذلك انباريح الى سارلمان
 - بناء على رجائه - فيلا كان الوحيد عنده اد ذاك :

وكان سارلمان يند يد العون السحي على الدوام لم يعيس في
 القدس من المؤمنين الموجودين تحت حكم المارون ، كما سمل بره من
 كان منهم يسكن مصر وافريقيا التي يحكمها السرفيون المعصبون ،
 وبها في ترجمه حياته « انه لما كان سديده السقوى فقد جرب عادته
 على بسط يده بالمال للفقراء في سحاء باله ، سماء الاعريق بالركاه ،
 أحدا نفسه بهذا العمل عطا منه عليهم لشد حاجتهم ، ولم يقصر
 فعله هذا على من هم في ملكته ، بل تعداهم الى كافة المسيحيين
 الذين يصسون في مربة حتى ولو كانوا وراء البحار في بلاد الشام
 وصر وبنت المقدس واسكندرية وقرطبة .

أما الدافع الخاص الذي حمله على عقد أواصر الصداقة مع
 الملوك فهو طمعه في أن يتمكن من مد يد الغيوب والمساعدات لم
 يعسون تحت رحمة هؤلاء الحكام .

وإذا أراد الماريء الوقوف على ما كات نكايده القدس : مدنة الله
 وما حولها من شدة بسبب كثرة التغيرات للظروف والأحوال خلال
 هذه الفرة الانتقالية ، فليقرأ كتابي المسمى « تاريخ أعمال أمراء
 المشرق » فقد أجهدت نفسي في أن يكون سجلا شاملا لأحداث حوليات
 خمسمائة وسبعين من السنين ، أعني منذ زمن محمد [صلعم] حتى
 الوقت الحاضر . وهو سنة ١١٨٢ من مولد المسيح .

كان هناك في ذلك الوقت صراع موصول الحلقات بين المصريين والعرس اشعلت جذوته المافسة الضاريه بينهما حول الزعامه ، على أن الامر الذي لا يكره احد هو أن كل واحد من هاتين الامم كذب بعضى مذهبا يخالف المذهب الذي تعسفه الأخرى سام المحالعه ، مما أدى الى حد كبير الى اثاره شعور البعض بينهما ، ولا يرال احصلاف المذهبين الدينيين بينهما حتى اليوم هو موضوع الجدل الناشب بين هاتين الامم نسويا أفصى للقضاء على كل براحم بينهما، حتى ان كل واحد منهما تعتبر الأخرى كافرة ، وقد ذهب هذا الشعور مذهبا بعيدا أدى برعية كل منهما فى محالعه الأخرى حتى فى الاسم ، فيطلق أتباع المذهب السرقى على أنفسهم اسم « أهل السنة » على حين أن الذين يؤثرون اتباع المذهب السرقى المصرى - وهو أقرب ما يكون اليها - يظلمون على أنفسهم اسم «السبعة» غير أن سرح الاخلاف فى الخطأ بينهما لا يدخل فى نطاق هذا الكتاب .

وقد أخذت مملكة مصر برداد قوة يوما بعد يوم اد استولت على الولايات والأقطار الممدة حتى أنطاكية ، كما وقعت فى يدها مدينة القدس وغيرها من المدن التى خضعت لنفس العواتين ، وربب على ذلك أن خفت بعض الشئ متاعب المسيحيين الذين دخلوا تحت سيطرتها ، شأنهم فى ذلك شأن سجناء يسمح لهم بالنمىع بعلى من الاستنجام ، وأخرا أصبح الحاكم [بأمر الله] خليفة لهذه المملكة حزاء وفاقا للزم الانسان ، فجاوزت خطايا هذا الخليفة خطايا جميع سابقيه ولاحقيه على السواء ، حتى غدا اسمه مضرب الأمثال عند الأجيال التالية التى تطالع خبر جنونه ، وكان هذا الرجل مشهورا بشئى ضرؤب الاثم والاجترأ على ارتكاب المعاصى مما جعل حياته - وهى كربة تنند الله والحلى معا - سسحق رسالة خاصة فائمة

بداها ، فكان من الافعال الذميمة التي اجترحها قيامه بهدم كنيسة القيامة التي شيدها في الأصل « ماكسيموس » الموقر أسقف بيت المقدس بأمر الامبراطور قنسططين بم أعيد ترميمها - ذمن هرقل - على يد « موديسوس » الموقر .

وكان والى الرملة واسمه « يازوق » وهو أحد رجال الحاكم بأمر الله - فد أخذ على عاتقه تنفيذ أمر الخليفة ، وسرعان ما أعمل معول الهدم فى البناء حتى سواه بالأرض ، وكان رئيس الكنيسة يومذاك هو «أوريسوس» المعظم حال من هذا الخليفة السعبد ، وتقول الرواية ان الخليفة اتخذ هذا الاجراء البعيد المدى ليبرهن لأهل مله على مدى اخلاصه للمله ، اد كانوا ينعتونه بالنصرانى قدحا فيه وبلا منه لانه ولد من أم نصرانية ، ومن ثم حملته الرغبة فى محو هذه التهمة منه على أن يقترب تلك الجريمة ، ولما كان يعتقد أن لن يكون هناك بعدئذ اتهامات توجه الى شخصه وان خصومه لن نواسهم الفرصة بعد ذلك لشن حملات ضارية عليه فقد هدم مهد الايمان الكاثوليكي الذي تصدر عنه الديانة المسيحية .

- ٥ -

أخلى أحوال مسيحيي بيت المقدس منذ ذلك الوقت تزداد سوءا ، ولا يرجع ذلك فحسب الى ما يشعرون به من حزن دقم بسبب هدم كنيسة القيامة المباركة ، بل وأيضا الى الأعباء المترابدة التي يفاسونها من جراء مخلف الخدمات المفروضة عليهم ، فقد وجدوا أنفسهم مطالبين بدفع اتاوات وضرائب باهظة ينوء بها كاهلهم ، ويرفضها العرف وتشجبها الامتيازات التي منهم اياها حكامهم السابقون ، هذا بالاضافة الى منعهم من أداء شعائرهم الدينية التي

كانوا يمارسونها سرا وجهرا تحت حكم الولاة المحلفين ، وكانوا كلما ران عليهم ظلام الأيام ألزموا بالبقاء داخل بيوتهم فلا يجروون على الخروج بين الناس ، بل انهم لم يعودوا يرون بيوتهم ملجأ أما لهم ، فقد كان خصومهم يحصونهم بالحجارة ، ويرمونهم بالمادورات ويسبون عليهم هجمات وحشية ويلاقونهم من الازعاج أشد ، لاسيما في أعينهم الخاصة ، وكانت الهمة العابرة يرمهم بها أى فرد كافية لجرهم بالعنف وتوقيع القصاص عليهم وتعذيبهم من غير محاكمة ، كما تصدر بضائعهم وبجاراتهم ، وسلب أموالهم ، ويحطف الناس ابتداءهم وبناتهم أمام أعينهم ويرغمون بالجلد تارة والكلمات المعسولة والوعود الكاذبة نارة أخرى على جب دينهم ، فان لم يفعلوا ذلك صب خصومهم عليهم حام غضبهم ، وأذاقوهم العذاب ألوانا وبصوا لهم المشاقق .

وكان بطركهم الموجود آنذاك هو الذى يتحمل فى بادى الأمر هذه البلياء وتلك الاهانات ، ثم أخذ بعدئذ يحض أهل مله - سرا وجهرا - على النسيك بالصبر ، ويعددهم بأكاليل الشهادة - فى العالم الآخر - نعتقد على رؤوسهم حزاء ما تحلوه من الشرور الدنيوية ، فكانت كلماته الهاما لهم ويلسما لجراحهم فاقتدوا به ، وراح كل منهم يواسى الآخر ويسد من عزمه ، يفعلون ذلك فى حب متبادل ، فاستهانوا بالأهوال الدنيوية بلقوها فى سبيل المسيح .

وان الأمر لبطول بنا جدا لو تكلمنا عن الحالات الفردية ، أو تحدثنا عن ضروب التعذيب الجثمانى الذى تحمله خدام المسيح هؤلاء بصبر يرجون منه أن تزلف لهم الجنة ، لكننى أسوق مثلا واحدا من أمثلة جمة لتدرك جلالتهكم لماذا كانت أتفه الأسباب تؤدى بهم الى ورود حوض الردى ، ذلك أنه كان يعيش بين ظهرائى قومنا فى مدينة القدس واحد من الأشرار الفجرة الذين انطوت نفسه على كراهة سوداء لاهلنا كانت تحمله على الدوام لاضطهادهم ، فد

هذا الرجل مكبته فيها هلاكهم ، اد انسل جلسه ذاب ليله حاملا
حيفة كلب ثم ألقاها في ساحة الجامع الذي كان القوامون عليه
- كذلك أهل ادينه كلهم - حريصين أشد الحرص على تطاؤه
الناسه ، فلما أهل فجر اليوم التالي أجبل المصلون على المسجد لافامه
الصلاه ، فوجدوا حقه الحيوان الجس يصاعد منها المس ، فارب
بأثرهم ، وبعالت صرخاتهم حتى صحت المدببه كلها على صياحهم ،
وأسرع الناس الى المسجد ، فأجمعوا الرأي كلهم - دون أن يسد عنه
أحد - على أن مسئولة الحادث نبع على كاهل المسيحيين وحدهم .
فماذا كان بعدئذ .

لقد تمرر اعدام جميع الصاري باعتبار أن الموت ولا شيء سواه
- هو وحده الذي يمكن أن يكفروا به عن هذا الدس ، فاعجب
المؤمنون - وكلهم ثقة ببراءه ذيلهم - لنحمل الموت من أجل المسح ،
وبمسا كان الجلادون يتقدمون مسهرين سيوفهم ويوشكون أن يعفوا
الأوامر الصادرة اليهم اذا بساب ياقع يفيض قلبه بالنحوه لعدم
الجوع جاعلا نفسه الفداء لهم ويقول لهم :

« ايها الاخوة .. ستكون أكبر نكبة أن يهلك الكسسه كلها
بهذه الطريقه ، وانه لأجدي أن يقدم واحد حيانه فداء للناس جميعا
فلا يهلك الشعب المسيحي جميعه ، فعدونى أن نكرموا ذكرى
سويا ، وأن توقروا أسرته الى الأبد ، وتخصوها بالنسريف ، ان
خلصتكم بأمر الرب ، فان عاهدتموني أن نفوا بهذه الشروط خالصكم
جميعا بأمر الرب من هذه المذبحة » .

وانصت المسيحيون الى كلماته في فرح شديد ، وأبدوا
استعدادهم للوفاء له عن طيب خاطر بما سألهم ، وقطعوا على أنفسهم
العهد أن يخرج في يوم عند الشعانين موكب مهيب من هم من ذريته ،
يحملون الى المدينة أغصان الزيتون رمزا لسيدنا يسوع المسيح :

حبيدك اسلم الساب نفسه لوجوه أهل بيت المقدس ، معلنا
لهم أنه هو الذي اعترف ذلك الجرم ، فبرأ بذلك ساحة المسبحين
الآخرين ، اذ ما كاد القضاة يسمعون قصته حتى صفحوا عن يمينه
قومه ، أما هو فقد ملوه بالسيف ، وهكذا قدم حياته من أجل
اخوته ، وقابل الموت بعزم كريم ، وبأن أطلب نومه مباركه وهو واثق
كل الثقة أنه قد حظى بعطف الرب .

- ٦ -

ولقد نأى أحيرا أن حلب السفغة الالهية والعطف الرباني على
هذا السعيب المنكوب حين وفاء العون الكريم بالرحمة بوضعه البائس ،
اذ فارق الأمير الخبيث الدنيا ، وولد من بعده ابنه « الطاهر » معاليد
السلطة ، فاجتث الاضطهاد من جذوره ، وجدد الاعاقبة التي نفضها
أبوه ، وأحكم روابط الصداقة مع رومانوس امبراطور القسطنطينية
الملقب بالهيوبوليس ، الذي استجاب الظاهر لرجائه فأذن للبصاري
بإعادة وسيد الكنيسة ، لكن على الرغم من حصول مؤمنى القدس
الأنقياء على هذا الاذن الا أنهم أدركوا أن مواردهم المالية وحدها
عاجزة عن اعاده بناء أثر عظيم كهذا الأثر ، ومن ثم أرسلوا سفارة
الى « قنسطنطين مونوماخوس » الذى ولى العرش بعد « رومانوس »
وصار اليه القسطنطين والناج فتضرع اليه السفراء باكين بين يديه ،
ووصفوا له ما تكبدته الناس من حزن ممض وسفاه بالغ بسبب
تدمير كنسيتهم . وضرعوا اليه أن يعينهم سخاؤ الامراطورى
لتمكينوا من إعادة بسيد الكنيسة ، وكان القوم قد عهدوا بيده
السفارة الى رجل من أهل القسطنطينية اسمه « جون كاريايسيس » جمع
بين شرف الأصل ونبل الخلق ، قد نبذ وراءه ظهريا جميع مباح

الدينا من أجل خدمة المسيح وصرف همه لرعايته الله . وكان جون هذا يعيش يومئذ في بيت المقدس ، عارفاً عن الدنيا ، فاهجاً بهج القراء من أجل المسيح ، فباط القوم به هذه المهنة فأدأها صابراً غير مقصر، وأخلص في عرصها بين يدي الامبراطور المبجل حبيب الله . ورجع في مسعاه ، اذ وعده فيسطنطين من ماله بالمال اللازم للسير في اجراءات اعادة البناء ، وزاد فجعل هذه النعقة المالة من جيبه الخاص ، فلما أنجز جون مهمته على الوجه الأكمل آب الى بيت المقدس والفرحة نصره لحصوله على الوعد الذي كان المؤمنون يلهفون عليه .

وعلم القاصي والداني بنجاح رحلته ، وتوفيقه فيما حصل عليه ، فارتفعت معنويات رجال الدين والناس جميعاً ، وبدوا وكأنهم قوم أبلوا من مرض خطير ، وكان رئيس تلك الكنيسة في ذلك الوقت هو البطرك « نقفور » .

لم يكد الناس يتأكدون من منحهم الاذن بالبناء وحصولهم على المال من الخزانة الامبراطورية حتى شيدوا كنيسة القيامة المجددة التي لا تزال حتى اليوم في القدس ، وكان ذلك سنة ١٠٤٨ من ميلاد المسيح ، أعنى قبل تحرير المدينة بواحد وخمسين عاماً ، وبعد هدم الكنيسة سبع وثلاثين سنة ، فلما كمل البناء واستقام عاليها رأى الناس فيه عزاء لهم عما كابدوه من الأهوال والأخطار القاتلة التي تعرضوا لها من قبل .

بيد أن الشعب المؤمن لم يخلص تماماً من المتاعب والبلايا التي لم تتوقف عن أن تصيبه بين آن وآخر ، فكم تعرض للبصق والصفع ، وطالما زح به في السجن وكبل بالقيود ، ولم يقتصر الأمر في الاضطهاد على من كانوا بالقدس وحدها من المسيحيين بل تعداهم الى من كانوا يسكنون في بيت لحم « وتكوا » أيضاً ، ولم يحض

أن جاء وال جديد أو ارسل الخليفة نائبا عنه الا تجددت الاحباب
تنصب على رأس شعب الرب المتدين الذى لم يقصر أبدا فى الوفاء
بكل ما هو مفروض عليه ، ثم يهدد بعد ذلك مباشرة بهدم الكنيسة ،
حتى صارت هذه المعاملة عادة تتجدد كل سنة تقريبا .

واصطنعت شتى الطرق لابتزاز هذا الشعب ، فاذا أراد
مضطهداه اغتصاب أى شئ منه أو من البطرك وتلكا هؤلاء فى
الاستجابة هددوا فى الحال بهدم كنبتهم .

وكانوا يعانون كل سنة على وجه العريب هذه المعاملة ، فيدعى
النواب الجدد أن أوامره ولاهم صريحة بتسوية الكنائس بالأرض
فى الحال ان تجرأ أصحابها على التأخير فى دفع الجزية والضرائب
المفروضة عليهم .

لكن على الرغم من ذلك فإن المسيحيين نعموا - على طول مدى
حكم المصريين والفرس - بأحوال معيشية أطيب من التى عاشوا فى
ظلها بعد أن بسط الترك سلطانهم ومدوا نفوذهم على ممتلكات
المصريين والفرس ، اذ أخذت أحوالهم تزداد سوءا مرة أخرى منذ
أن أصبحت المدينة المقدسة تحت اشراف الترك ، كما قاسى شعب
الله (على مدى ثمانية وعشرين عاما من الحكم التركى) مشاقا أعظم
هولا من المشاق التى عانها تحت نير المصريين والفرس التى بنت
فى نظره أقل فداحة .

وسوف نحدث كثيرا عن الترك في هذا الكتاب وعن عبدواهم على شعبنا كما سنقص أيضا أخبار البطولة المجيدة التي طاملا فما بها ضدهم ولما كانوا قد دأبوا منذ ظهورهم حتى الآن على الإندفاع الطائش في مهاجمتنا فانه يبدو من الأوفق في الكتاب الحالي أن نعدم موجزا عن نشأة هذا الجنس وتاريخه القديم ، ونتكلم كذلك عن بيوته مقعد العظمى التي شهد الأخبار أنهم حافظوا عليها آمادا طويلة .

لقد جاء جنس الترك أو التركمان (وهما من نبعه واحد) في الأصل من المناطق السهلة ، وهم قوم مفرطون في العظاظة ولا يقيمون في مكان واحد ، بل كانوا يجولون على الدوام ههنا وهناك سعيا وراء المرعى النضير لقطعايتهم . ولم تكن لهم مدن أو قرى أو أماكن معينة يستقرون فيها ، فان رأيت إحدى القبائل أن تغير مكانها شئت بأجمعها رحالها وخزنت سعي وقد نصبت عليها شتعا يكون أكبر رجالها سنا ، وهو الذي يرفع اليه القبيلة سبي مشاكلها فيقضى فيها بما يرى ، ويلتزم المحاصمون بطاعه فما قدر وقرر ، لأنه لم يكن مسوحا لأحد ما أن يسع هوى ذاته ويحالف ما يقضى به السخ ، وكانوا يأخذون معهم أثناء تجوالهم جميع ما يحتاجونه من علف الجناد ، ويستصحبون معهم الماشية والعصم وكذلك عبيدهم ونساءهم ، وذلك كله هو حميم ما يملكون .

وهم لا يهتمون بالزراعة ، ولا يعرفون البيع ولا الشراء ، وليس لهم من وسيلة في الحصول على ضرورات الحياة سوى المقايضة فان أعجبهم موضع معشوشب لطيف وأرادوا النزول به فترة من الوقت دون اضطراب أرسلوا من قبلهم طائفة من أعقل رجالهم الى صاحب الساحة يسألونه أن يأذن لهم بضرب خيامهم هناك ، فاذا انتهوا الى

اتفاق مرض على دفع قدر معين دفعوه لحاكم هذه الناحية ، ثم يقيمون
بعد ذلك فى العابات والمراعى وفق الشروط المبرمة .



وحدث ذات مرة أن انفصلت طائفة من هؤلاء الناس عن سواها
ودخلت بلاد فارس ، فوجدت الإقليم ملائما كل الملائمة لاحتياجاتها ،
فدفع للحاكم ما اتفقوا به عليه فى البداية ، وأقاموا هناك ردحا
من السنين أطول مما جرت به عادتهم ، ورايد خلال هذه الفترة
عددهم زياده هائلة ، والواقع أنه لم يكن هناك حد يقف عنده
كدهم ، حتى انتهى الأمر أخيرا بملك فارس والأهالى أن يخوفوا
من نزايد عددهم الكبير ويوجسوا حيفه منه ، فراحوا يقلبون الأمر
فيما بينهم حتى انتهى بهم الى وجوب استعمال القوة فى طرد هؤلاء
الدخلاء من مملكتهم ، لكنهم ما لبثوا أن رأوا بغير هذه الحطة ،
فأضافوا مطالب جديدة زادت من المصاعب المراكمة دون أن يخف
الضغط المعاد ، وكانوا يطمحون أن يؤدى هذا الأمر الى ارحاقهم
ارهاقا يحلهم على الزوج من تلقاء أنفسهم ومن غير ضغط عليهم ،
ومع ذلك فقد ظلوا أعواما طويلا بعد ذلك متحملين عبئا ثقيلا من
المصاعب ، كما أرهاقهم الاناثوات المقروضة عليهم ، وأخيرا نشأوروا
فيما بينهم فقر رأبهم على أنه لم تعد لهم طاقة على تحمل ما هم فيه .

فلما علم الملك بذلك أمر المبادئ أن ينادى بوجوب رحيلهم
جميعا من أرجاء المملكة فى فترة معينة لا يتجاوزونها ، ومن ثم عبروا
نهر « كوبار » وهو حد المملكة فى تلك الباحة ، واغتنموا الفرصة
اذ ذاك لاقامة جموعهم الكثيفة ، فلما تهيأت لهم الحياة فى فبسحة
من الأرض وفى رقعة أوسع مما كانت لهم من قبل تأملوا ما هم فيه
من الكثرة ، فراعهم أن يستبكين جيش كبير لا يحصيه العد كجيشهم
هذا لصلف أى أمر ، وعجبوا من أنفسهم أن يتحملوا شتات الخلبة

ودفع الجريه وكان من الجبل انهم يسألون العرس وغيرهم من السعوب في العدد والبأس ، وبدا لهم أن العقبة الوحيدة التي تقوم أمام إحلال الأراضي المجاورة بالقوة إنما يرجع لعدم وجود ملك تتولى أمرهم ، كما هو الحال في بقية الأمم الأخرى .

لذلك قرروا أن يولوا عليهم ملكا فاستعرضوا قومهم جميعا فوجدوا من بينهم مائة أسرة لها الصدارة على غيرها ، فأمرؤا أن يخرج رجل من كل أسرة ومعه قوسه ، فتجمعت بين أيديهم حزمة فيها مائة قوس بعدد العائلات ، واذ ذاك استدعوا صبيا صغيرا وأمرؤه أن يسحب سهما واحدا بعد أن غطوها ، وكان الاتفاق بينهم على أن يتم اختيار الملك من الأسرة التي منها السهم الذي يسحبه الصبي ، وشامت الصلدة أن يكون السهم المسحوب هو سهم السلالة فكان الملك الذي على أمرهم في المستقبل من هذه الأسرة حسبما جرى عليه اتفاقهم .

ثم أمرؤا باختيار مائة فرد من السلالة اشترطوا فيهم أن يكون كل واحد منهم أكبر رجال عشيرته سنا وأعظمهم خلقا ، وأحسنهم طبعا ، وأكثرهم اقداما ، ثم يتقدم كل واحد من هؤلاء برمح عليه اسمه وجعلوا من هذه الرماح مرة أخرى حزمة وأحسنوا غطاءها ، ونادوا ثانية على الغلام ذاته (أو آخر في مثل براءته) وأمرؤه أن يسحب رمحا فكان الرمح الذي سحبه الصبي يحمل اسم سلجوق .

وكان سلجوق هذا رجلا جميل المنظر من أسرة مرموقة ، قد ذاع أمره وصيته في عشيرته ، وعلى الرغم من كبر سنه إلا أنه كان قوى البنية . قد طال بمرسه فن الحرب ، وكان كل شيء فيه يشير إلى أنه أمير عظيم .

نُصَّبَ الرجل باجماعهم كبيرا عليهم ، ووسعوا في يده
السلطة الملوكية ، ووفروه التوفير الواجب نحو الملك وامتسوا على
طاعته ووطعوا له يمين الولاء الصادق بنفيد كل ما يعصى به فيهم ،
فبادر هذا الملك في الحال الى استحداث السلطة الموكلة اليه بعمل
على ما فيه خير المملكة وبعث المنادى في الناس المجسمين أن يعبروا
النهر من جديد بكل كتائبهم وأن يحتلوا أرض فارس التي غادروها
منسفة قليل ، كما أمرهم بالاسيلاء على المملكة المجاورة حتى
لا يضطروا في مستقبل أيامهم أن يهيموا على وجوههم في أرض
الغير ، وحتى لا يكونوا عرضة لاسنبداد غير محتل من الشعوب
الغريبة عنهم .

وتمكنوا في مدى سنوات قلائل من اكتساح بلاد فارس وجميع
الممالك الشرقية والتغلب على بلاد العرب وغيرهم من أصحاب النفوذ
والسلطة من الأمم الأخرى ، وهكذا أتبع لهذا الشعب البسيط التافه
أن يسم فجأة معارج الذروة ويثبوا القمة حتى ملك الشرق كله .

وكان حدوث ذلك قبل ثلاثين أو أربعين عاما من قيام أمرائنا
الغربيين بحمله الحج التي هي موضوع هذا الكتاب .

ولكي نفرق على الأقل في الاسم بين هذه القبائل التي نصَّبت
عليها ملكا فنالنها الشهرة العظيمة وذيوخ الصيت وبين أولئك الذين
لا زالوا محتفظين بأسلوب حياتهم الخشن الفطري فانا نقول ان
الجماعة الأولى تعرف الآن بالترك ، وأما الثانية فتعرف باسمها الأصلي
وهو « التركمان » .

ولما ترك للترك عرو جميع ممالك الشرق بطلعوا لفتح مصر
القوية فزحفوا على بلاد الشام ، واستولوا على بيت المقدس واحتلوا
عدة مدن قريبة منها فزادوا من متاعب المؤمنين الساكنين هناك
زيادة أرهقتهم كل الارهاق لما فرضوه عليهم من أعمال يؤدونها لهم ،
كما أشرنا الى ذلك حالا .

لم يكن المؤمنون في السرى وحدهم هم الذين أباح عليهم
الطعام بكلمتهم بل لقد ضعف الايمان ووصى نبي العرب ووصى دابة
ابناء الارض ، لا سيما بين من كانوا يسمون بالمؤمنين فلاسبت
حسية الله من فلوب الناس ، وضاع العدل من الارض ، وابعدمت
الطمانية اذ فسى العنف بين الامم ، وساد العس وعيب الخيانة
والحديعة والاحتيال كل صفع وباد ، وطويبت كل فصيله ، دام يعد
وجود لها وصارت عدما واربعب رايه السر مكابها ، والذى لا وراء
فيه هو أن الدنيا قد بدت وكأنها متجددة في هوه الطلام ، وأنه
قرب الموعد الباني لظهور ابن الانسان « فقد أمسك الكيرون عن
عمل الخير ، وأصبح الايمان في العالم غريبا ، وعيب العوصى ، ولم
يعد أحد يراعى مكانه صاحب مكانه ، وخل للباطر أن العالم يريد
أن يعود العهري الى الورا الى وصعه الأول من العوضى الذى كان
عليها ، كما لم يعد الأمراء الكبار الذين كانوا ملزمين بالسير برعسهم
نحو السلام مكتربين بانعافيات السلام التى تعد بين بعضهم ولبعض
الآخر ، وراح كل منهم يعامل حتى لأنفه الأسباب ، وعادوا في الأرض
فسدا يحرقون كل ما يلاونه ، ويسمون على العسائم التى
وجدوها ، ومكوا أبساعهم السفله الأوعاد من اعصاب ما بملكه
العراء ، ولم يعد وسط الكوارث الجحه طمأنينه على أية ملكيه ، وكان
مجرد الشك في حيازة الشخص لسيء ذى قيمة سببا كافيا لتقييده
والزج به في السجن حيث يلقي من العذاب الجنامى ما لا يحتمل ،
ولم تعد أسمع الأديرة والكنائس بمنجاة من هذا الشر ، كما لم يعد
أحد يراعى ما لمتلكات هذه الأماكن الطاهرة من امتيازات منحها
الأمراء الأنقباء لها ، وانعدم التقدير الذى كانت تضفيه عليها مكانتها
الرفعة التى كانت لها من قبل ، فاقتحمت المعابد وانتهكت حرمانها ،
وبهت الأوعه المعدة للخدمة الديسة ، ولم يرق بد الإتهاك بين

الطاهر والدسي ، وانعدم التمييز بينهما وشملت الأسلاب
 فيما سملت أكسيه المدايح والأردية الكهنوية والأواني المخصصة
 لخدمة السيد ، ويعقبوا اللائدين بأقصى الأماكن الدينية والمعصية
 بالاحرم المقدسه واللاجئين الى ساحاب الكنائس فطالبهم ايديهم
 وساقوهم الى التعذيب ، وجرعوههم كأس الردى دهاقا ، هذا الى
 جانب اللصوص الظلمه الذين سلبوا بالسيوف في الطرق العامه
 وراحوا ينصبون الكمائن لنصيد المسافرين ، فلم ينج من بطشهم
 حاج ولم يسلم من شرهم رجل دين ، ولم تكن القرى هي الأخرى
 بمحاة من الأحطار لأن السفاحين المحليين أجالوا جميع السوارع
 والدروب الى أماكن نيب الخوف في نفوس الأبرياء ، وربما كان أسد
 الناس عرصه للوفوع في المهالك هم أبعدهم عن السهات .

ومورست شنى أنواع العجور جهرا ومن غير حياء كما لو كانت
 أمرا مشروعا . ولم تعد نراعى روابط القرى من الدم والروح ،
 وبخلى الناس عن العفة - وهي غاليه عند الله وملائكته - فنبذوها
 بد البواه ، وصارت الصدارة للدعارة والانكباب على السراب والهالك
 على ألعاب المسر والعمار التي تحتساح الى سهرات ليلية طويلة ،
 فمارسوا ذلك كله فى ساحات المعاند ، وانعدم التدبر والتعفف
 وساوى رجال الدين بقية الناس فى ممارسة الحناء غير السرهه
 وصاروا كمن نقرأ عنهم فى الأنساء حب يقال :

« كما الشعب هكذا الكاهن ، وكما العبد هكذا سيده » (١)
 فقصر الكهنه فى أداء واجباتهم « وكلهم كلاب بكم لا تقدر أن
 تسبح » (٢) ، فكانوا لا ينورعون عن مقابلة أى أحد « ولا نأبى رؤوسهم

(١) هوشع ٦ : ٩ ، واتسما ٢٤ : ٢٤ .

(٢) اتسما ٥٦ : ١٠ .

رب « (١) انجد . وعساروا كالرعاة الذين أهملوا قطعان الماشية
الموكول النهم حراسها وبركوعها عرصة ليحتمل الدئاب ، وبأسوا
كلمات المسيح حسب يقول (٢) « مجاناً أحدم » مجاناً أعطوا » ،
ولم يدورعوا عن حطائه السموية ، فسلطوا نعار حصى (٣) .

فهل ثم حاجة لمريد من القول ؟

والخلاصة أن أصبح الصداه للردائل « اد كان كل بسر قد
أفسد طريقه على الأرض » . ولم يستطع يهديد الرب التي تحلب
كدير سؤم من السماء ولا الطواهر الأرضية أن يزجر من سلكوا
طريق السر ، فاسترب المجاعات وعيت الأوبئة وأرعبت السماء
بالندر (٤) ، وصربت الزلازل كبرا من الملاد المخلفة وطهر غير
ذلك من الدلائل التي عددها المسيح في الانجيل (٥) .

ومع ذلك فلم يرعو الناس عن غنهم بل طلوا يركبون سبي
الموتعات (٦) ، سأنهم في ذلك شأن الأعمام ننمخ في رويها (٧) .
وأهانوا الرب الرؤوف الذي يعدد طويلا فكان صلهم في ذلك
صل الذين قال فيهم السيد (٨) .

(١) التامير ١٤١ - ٥٥ .

(٢) مي ١٠ - ٨ .

(٣) انظر القصة والحبر كاملين في التلوك (نان) ٥ - ٢٠ - ٢٧ .

(٤) الكوين - ١٢ .

(٥) انساه الى ما ورد في مي ٢٤ - ٧ من قوله « لأنه يوم أمة على أمة .
ومسكة على مسكة » وتكون مجاعات وأوبئة وزلازل في أماكن » .

(٦) راجع قول السيد المسيح في لوقا ٢١ - ١١ .

(٧) راجع رساله بطرس الباسة ٢ - ٢٢ حيث قال « كأنهم كلف قد عاد الى
قيته ، وحزيره مفسلة في مراعاة الحماة » .

(٨) راجع أرميا ٥ - ٣ ، ٥١ - ٩ « صرهم فلم يرجعوا » أسيتم وأبوا
قول الباديب » .

- « يا رب اليست عيناك على الحق • صربهم فلم يوسعوا •
 أصيبهم وأبوا قبول التأديب • صلبوا وجوههم أكر من الصخر •
 أبوا الرجوع » ، وكذلك قوله « داوينا بابل فلم يسف » •

- ٩ -

حين فاض مرحل العصب بالرب من هذه الأمور فضى على المؤمنين الصادقين الموجودين فى أرض الميعاد أن يرسفوا فى بيد العبودية المتشار إليها من قبل ، وأن يقاسوا من السدائد ما يعجر اللسان عن وصفه ، وبالإضافة الى ذلك فانه أثار عليهم حصومهم وصب عليهم سوط عذاب فابتلى الدين ظلوا حتى هذه اللحظة سادرين فى غيهم ومعتقدين أن كل شيء سيظل سائرا وفق هواهم ذلك أنه بينما كان « رومانوس » الملقب بـ « ديوجينوس » يحكم الاغريق ويدير دفة أمور المملكة فى القسطنطينية على أتم صورة من النجاح اذا بوأه من حكام فارس وسورية الأفوايا واسمه ألب أرسلان ينهض من قلب الشرق بعساكر كنيعة جمعهم من سبى الأمم الحاحلة ، وكانوا من الكثرة بالصورة التى عطب - كما قيل - وجه السيطرة ، كما اصطحب معه العربات الحربية والفرسان ، ومشت حلعه قطعان الماشية والأغنام ، وكان معجها بكل شيء نجهيزا رائعا ، وتقدم حتى دخل الامبراطورية [البزنطية] وأخضعها كلها لسلطانها وسيطر على كل شيء خارج المدن من الحقول والبلدان المسورة والقلع المنسعة دون أن يحرج أحد لصده ولم يعرض زحفه أى معترض ، ذلك لأن كل واحد من الناس كان لا يعنيه غير سلامة نفسه ، ولا يكترت حتى بنسائه ولا أطفاله بل ولا بالحرية ذاتها ، وعلم الامبراطور فى هذه الأثناء بأن حششا قويا معاديا له كأنه السف المسلول يهدد تقطيع الرفاق قد شرع فى تخريب الامبراطورية المسححة ، فدفعه

شده انشغال باله الى استدعاء قواته من الفرسان وجميع المساه
الذين تستطيع الأمة تقديمهم ، استجابة لما يفرسه الموقف الحرج .

فماذا يقول أكبر من ذلك ؟

لقد رحف الامبراطور بكل ما يجمع لديه من الكنايب .
وما حشده من الفرسان الكثيرين ، ولكن زحفه كان على غير رضا من
الله فلاقى الخصم لكن بعد أن كان قد استولى على قلب الامبراطورية
واخذ يتوغل فى داخل البلاد .

ثم كانت المعركة التى سببت بعد ذلك فى ملازكرت معركة
ضارية ضراوة تناسب مع قوتين تعادل كل منهما الأخرى تقريبا
وتحرك كلا منهما كراهية يزيدها عنفا ايمان شديد الصلابة ،
وكراهية لمعتقدات تعتبر الواحد منهما أن خصمه يصدر عنها عن
دنس .

فماذا نقول أكبر من هذا ؟

لقد باد الحشش المصراني ، ودارب الدائرة على صفوف
المؤمنين ، وسفك العدو دماء فداها المسح بدمه ، وكان أسوأ النكبات
التي حاقت بهم وقوع الامبراطور فى الأمر .

وعاد من هذا الجيش من قيضت لهم الحياة لنقصوا نبأ الكسبه
الى ألب بهم ، فاسمع الناس فى ذهول لما يقولون ، وأدى بهم
الحرث الذى استولى على نفوسهم الى الأس من حياتهم وسلامتهم ،
فأسلموا أنفسهم للبكاء المعض .

فى هذه الأثناء انتسى العدو العظيم - وإن يكن كافرا - بنصره
الساحق ، وأخذ يساهى بما أحرز من الظهور ، فأمر [ألب أرسلان]

باحضار الامبراطور من يديه ، وجلس هو على عرشه الملوكنى ، ثم أمر بطرح رومايوس تحت قدميه ، وأراد اظهار احنقاره لكل ما هو مسموحى فاجد من جسد الامبراطور موطنًا لقدمه ، وراح يدوسه صعودًا ونزولًا ، حتى اذا رضببت نفسه بما ألحقه به من تحقر وازدراء أمر طائفة من كبار رجال الامبراطور الذين أسروا معه أن يرفعوه من على الأرض ، وأذن لهم جميعًا بالرحيل .



حين صك نبي هذه الالهانة سمع أمراء المملكة يادروا الى اخسار رجل آخر ولوه أمرهم ، شعورا منهم بأن رومانوس - الذى لقي هدم الالهانات الجسدية - لم يكن بعد أهلا لحمل الصولجان ، ولا حديرا بهالات السرف التى تلبق بأغسطس ، بعد أن فضح أفعال فصححة ، ثم سملوا عينه ، وان نكروا عليه بالحياة لمعيش ما بقى من أيامه كمواطن عادى .



لم يصادف ملك شاه أية عقبة فى تنفيذ أهدافه ، فقد نجح فما أقدم عليه ، اذ استولى على جميع البلاد الممتدة من لاذقية الشام الى مصب السفور الذى ينساب الى حوار القسطنطينية ، وكانت الأرض التى استولى عليها تقدر برحلة ثلاثين يوما طولا ، وعشرة أو خمسة عشر يوما عرضا واسترق جميع سكان المدن والقرى ، وهكذا (١) « غضب الرب على شعبه وكره ميراثه وأسلمهم ليد الأمم ، وتسلب عليهم ميفضوهم .

(١) الزامير ١٠٦ : ٤١ .

ثم كانت مدينته أبطاكيه الهامة آخر ما استولى عليه ، وكانت لها الصدارة بين كثير من الولايات في السبل والروعة . إذ كانت أول مركز لأمير الحواريين ، ثم أصبحت تدفع الحرية لحصوم ملها ، وهكذا دخل تحت سيادة المارفين - وفي زمن قصير سببيا - بلاد « كوليسيريا » بما استعملت عليه من ولايات فيلنبيه وايسوريا و « يامعليا » و « ليكنا » و « كبادوسا » و « علاطه » وأبضا ولاينا « يوموس » و « بسينا » و قسم من آسيا الصغرى ، وسهر كلها بكثرة مواردها ، وكان أغلب سكانها من الصاري لكن حري عليهم الأسر ، وعلت الكنائس على أمرها وامنت إليها يد التدمير ، واطلق الأعداء بطاردون الله المسحة لا يأخذهم في هذه المطاردة هواده إذ أحجموا العرم على استئصالها ، ولو كان تحت يد ملكساه فوه بحرية لم له ما أراد من عر حدال فتح المدينة الملوكية (أعنى القسطنطينية) ، ذلك لانه بت في نفوس الاغريق من الرعب ما جعلهم يستبعدون سلامة أنفسهم حتى داخل أسوار عاصمتهم ، ولم يعودوا يعسرون لتعلل البحر في أرضهم كافيا لضمان سلامهم تمام السلامة .

أدب هذه الأحداث - وأخرى متشابهة لها في طبيعتها - إلى سيطرة الفرس التامة على كافة سكان بيت المقدس وما حاورها ، فغمر الناس الناس من قمة رأسهم إلى أخمص أقدامهم ذلك أن عزاهم - كما قيل - كان تأتهم في وقت السلة من القصر الامراتوري يوم كانت الامراتورة نعم بالرخاء ، فكانت سلامتها وسلامة أحوالها وانعاش حال المدن المجاورة - وفي مقدمتها جميعا أنطاكية - تبع في نفوسهم أملا كبيرا في أن ينعموا بالنعش أحرارا في مستقبل أيامهم .

أما الآن فقد أصبحوا جرعين على أنفسهم وعلى غرهم فعمتهم الاشاعات المشؤمة حتى أصبحوا يودون الموت أكثر مما يرحون

الحياة ، وانهارت عزائمهم اعتمادا منهم أن قد قضى عليهم بالأسر
الابتدى .

- ١٠ -

حدث في أثناء هذه الأوقات العصبة الخطرة أن وصل إلى
مدينة القدس جماعة صحبه من اليونان واللاسن بحوا من سبي
صنوف الهلاك في أرض العدو ، وكان محيئهم لأداء مناسك العبادة
في الأماكن الطاهرة . ولكن حراس أنوارها لم ياذبوا لهم بدخولها
حتى يدفعوا قطعه البعود الذهبية التي حرب العبادة أن يدفعها كل
داخل ، عبر أنهم كانوا قد صرفوا في أثناء رحلتهم كل دابو كان
معهم ، ولم يسبق في ندهم شيء من بعد يؤدونه لسداد هذا الرسم
المالى ، وإن كانوا قد وصلوا - بسى النعس - إلى هدفهم الذى طال
سوقهم إليه ، فبلغوه سالمين .

ويجمع الحجاج ررافات أمام المديسه سيطرون الاذن لهم
بدخولها . وطال انتظارهم حتى مات منهم أكثر من ألف حاح بسب
الجوع والعري ، وكان هؤلاء الناس (الحجاج) - الأحباء منهم
والأموات - عشا ثقلا بسوء به كاهل الأهالى النعساء الذين حاولوا
المحافظة على حياة من لا يرال فيه نفس بتردد ، فراحوا بمدونهم
بما يدروا عليه من الطعام بسكون به ومقهم ، كما بذلوا من حاسبهم
جهدا فى دفن الموتى ، رغم أن مشاغلهم الحصوصة كانت فوق
طاقهم .

أما الحجاج الذين دفعوا الرسم النقدي المقرر ، وأذن لهم
بدخول بيت المقدس فقد أضافوا إلى المواطنين عشا زاد من أعبائهم

وحملهم مسئولية أضخم ، لما كان يهدد هؤلاء الحجاج من الأخطار أثناء بجوالهم الذى كان بسم نابعد عن الحذر بلهفا منهم على رbare الأماكن المقدسة ، وكانت هذه الأخطار تتمثل فى البصق عليهم ، أو لكميم على آدابهم ، أو ما هو أسوأ من ذلك ألا وهو حرقهم صرا . ومن ثم فانه لما راح الحجاج سرعون فى المصى الى الاعاكين المقدسة مصى المواطنون بسعونهم فى حبان أخوى مؤملين أن يتمكنوا بهذه الطريقة من دفع هذه الأخطار عنهم حرصا منهم على حبانهم وسلامتهم وحرعا من أن تقع لهم حادث مؤلم .



وكان فى المدينة دير ملكه « الأماليمون » لا يرال يعرف حتى اليوم باسم دير القديسة ماري وحامة اللانين وهو ملاصق للمارسان به كنيسة صغيرة أصمت تمجيذا لطرك الاسكندرية المبارك « جون المنر » وكان يقوم بالعناية بالمارسان رئيس أساقفة « الدير المذكور حالا » . كما كانت المعونة سذل به فى أى وقت للحجاج النساء الذين يحصرون فى مثل هذه الظروف فننقى عليهم مما نأنى من الدير أو من الهباب الى حدود بها المؤمنون وكان قل أن يجد بين الألف من الحجاج القادمين واحد يستطيع أن يكفل ذاته ونقم أود نفسه اذ يكون أكرهم قد فقدوا نفقة سفرهم ، وأرهصهم الصعاب المهلكة ، وما استطاعوا بلوغ غاينهم سالمين الا بعد عسر ومنقعة .

هكذا لم يكن ثم راحة للمواطنين فى بلدهم ولا فى خارجه ، وما كان من يوم يقضى عليهم الا ويحمل لهم نذر الموت ، الذى كان هناك ما هو أنكى منه ألا وهو حزعهم مما هو مائل أمامهم على الدوام من الاسترقاق الفظ الذى لست لهم قدرة على احتماله .

وكان هناك شيء آخر أدى بهم الى أقصى آيات الحزن ، وذلك ان العدو كان يدخل قسرا الكنائس التي أعيدت لأصحابها والتي بدلوها جهدا كبيرا في الحفاظ عليها وفتحها عليهم وهم في ذروة انضامهم في أداء طقوسهم الدينية غير عابىء فط بما لهذه الأماكن الطاهرة من حرمة واحترام ، فينحد من مذابحها مقاعد له ، ويبت الفرع في قلوب المصلين بصغيره وصياحه الجنوني ، ثم يقلب كنوس القرايين ويطا بأقدامه الأدوات الخاصة بالمراسم الدينية ، ويحطم التماثيل الرخامية ويكيل اللكمات لرجال الدين ويصب عليهم وابلا من اللعنات ، ثم يجذب البطرك المنولى الأمر من كرسبه ، ويجذبه من شعره ، ويأخذ بلحته ويطرحه أرضا كأنه مجرم خفي ، وكم من مرة ألقى به الأعداء في الحس من غير حريرة ، وعاملوه معاملة لا تجوز الا مع أحقر العبيد كل ذلك تعذيبا لأنواعه الدين شاركوه الألم باعتناهم اناء أباهم الروحي .

لعد ظل هذا السعب المؤمن بالرب - كما لنا - نغاسي ذلك القيد الفظ ، ولكنه أبى الا أن يطل مسنمسا بدينه رغم بلواه على مدى أربعائه وسعين سنة . وطالما جار هؤلاء بالسكوى الى الرب في صلواتهم التي لا تنقطع واستغاثوا به في أنات ناكبة ، وزفرات حرى ، واجين أن يخلصهم من العذاب الذي لاقوه حزاء خطاياهم ، وكم سألوه ، أن تنغمدهم رحمته العظيمة فتبعد عنهم سؤر عصبية عليهم لأنهم وقعوا في هوة السر كما يقول القائل « غمر بادی غمرا (١) ... كل ناراه وبلحه طمت عليه » .

واخيرا يعطف الرب عليهم وتحتن بنظرة منه وهو على كرسية المجبد ورغب في وضع حد لهذا الشقاء ، فأبى حنانه الأبوى الا أن يمنحهم الراحة التي يلتمسونها .

ان اهتماما في هذا الكتاب منصّب على بيان طريقة ونظم
هذه الحطة الالهيه التي ارادها الله لامعاذ شعبه من بلواه تمجيدا
للمخلص في المسيح .

- ١١ -

في هذا الوقت بالذات الذي كاتب فيه المدببة المحبوه من
الرب تمر بملك المعائب السابق وضعها ، كان هناك بين الجموع
الكثيرة التي سافرت الى الاماكن المقدسة من اجل العباده والصلاه
فيسس اسمه « بطرس » من أسعفه « أمسي » في ملكه افرنحه
ويعرف « بالناسك » ، وهو لمب طامس لعظه وادعه وكان هذا
الرجل قد سئدنه الى رب المقدس نفس الحماسة الروحية .

أما عن هشته فكان رجلا صمبثا ليس فيه ما يحذب النظر اليه.
لكن كاتب يسكن هذا الحميد الصنبل شجاعة عظمى ، هذا الى انه
كان امرا خفيف الروح دكيا ، حميل العينين ، ولا نقصه البلاءه
اد كاتب طسعة ركب فيه وخلقة فطر عليها .

وبعد أن دفع المقرر حبايته من كل مسيحي راغب في دخول
المدينة استضافه أحد الأنساء المؤمنين بالمسيح ، ولما كان بطرس
رجلا طلعة فقد راح يلقي على مصبغه السؤال نلو السؤال مسفسرا
منه عن أحوال النصارى فنجح لديه من تفاصيل حمة لا تقف عند
حد الأخطار الحالية بل تجاوزتها الى ذكر الاضطهادات التي قاساها
أحدادهم من قبل على مدى سنوات طوال غامرة ، أما الأخبار التي
قائه سماعها منه فما لاذن فقد أدركها بالملاحظة الدقيقة التي أسعفته

بها عيابه ، كما دلته استقصاءاته الخاصة دلالة حلية على صدق ما سمعه من الآخرين ، ومما يجمع لديه بعد مروره على الكنائس خلال اقامته في المدينة . ثم ترامى الى سمعه ما كان عليه بطرك المدينة من كثرة الورع وعظم الخوف من الله فسمى لو تكلم معه عن الأحوال السائدة اذ ذاك في المقدس ، كما طمع أيضا في الحصول على صورة كاملة أكثر وصوحا عن أمور معينة أخرى فمضى الى رؤيته ، حتى اذا صار في حصنه كان حوار طيب اسمح به كل من الرحلين وكان هناك مرحم أمس يرحم ما يقوله كل منهما .

أدرك الطرك « سمون » من كلام بطرس أنه أمام رجل فطس، ملم المأما واسما بكير من الأمور ، قادر على الاقتناع بالكلمة والعمل فأخذ يشرح له في اسهاب وصدق الأحوال الجمة المصيبة في وحشة على شعب الرب الساكن بيت المقدس ، فاثرت متساعرا بطرس الأخوية عند سماعه هذه الرواية نائرا لم يملك معه دموعه عن الانهمار ، ثم راح يسأل في لهفة عما اذا كان في الامكان ايجاد طريقة ما للخلاص من هذه المصاعب المحدقة بهم ، فأجابه الرجل الصالح « اعلم يا بطرس أن السد الحنون الرحيم يابى أن تكرب نانايا وآهاتنا الباكاة بسبب الخطايا التي كملنا بها أنفسنا ، ولنسب الآثام التي ارتكسناها ولم يظهر منها ، ومن ثم فلا محل في حاضرتنا لوقف القصاص منا ، ولكن رحمة الرب العطية لن تسمح بأن يمسننا صر ، وبقوة اخوانك المخلصين في عبادتهم لاسد هذا الى أن مملكتهم – التي تفرزع أعداءنا – تمتد امتدادا فسيحا شرقا وغربا ، فان هم تعاطفوا معنا في حب أخرى وشاركوا في موقعنا الحال وقدوموا من العلاج ما يدفع المصائب التي تنال علينا أو ان هم على الأقل تتفهموا لنا عند المسح فقد يراودنا الأمل في الحصول على أي عون من امراطورية الاغريق على الرغم من أنهم كانوا أكبر

ارتباطا بنا برابطة الدم والجوار ، هذا الى ما عندهم من ثروات
صححه اعظم الصخامة ، ولكنهم أصبحوا اليوم لا يقدرّون على الدفاع
عن أنفسهم اذ بلاشت قوتهم بددا ، كما أنهم فقدوا - حسبما سمع
حنانكم الأخوى - أكثر من نصف امبراطوريتهم على مدى سنوات
ملاّئيل » .

فرد عليه بطرس قائلا : اعلم ايها الأب المبارك أنه اذا بصر
لكنيسة رومة وامراء العرب مُبلّغ المني ثقة يخبرهم بالمصائب التي
تكايدونها ، فلا شك أنهم سوف يبادرون الى بذل الجهد لتقديم
العلاج بأسرع ما يمكنهم قولاً وعملاً لتخلصكم من هذه المساء .
وعليك أن ساير في الكتابة الى قداسة البابا وإلى الكنيسة في رومة
وأن تؤكد الخطاب بخاتم سيادتكم وأما أنا فلن أترافع من حبي
عن حمل هذه الرسالة رجاء خلاص روعي ، كما أنني مسعد
- مهتديا بالله - لزيارة الجميع والتوسل اليهم ، وسأكون الشاهد
عنهم على محبتهم التي تجاوز كل حد وأدعو الجميع أفراداً وجماعات
ألا يتوانوا عن اسعافكم بما فيه خلاصكم » .

نزل هذه الكلمات برول السلوى على نفس البطريرك وملانها
بالغيطة ، كما نقلتها قلوب الجميع قبولا حسنا ، وفرت عمون
المسيحيين فرحا لبطرس وشكروا رجل الرب شكرا حريلا على
عاطفته ، وناولوه المكتوب الذي سالهم اياه .

« حفا نارب نا مولانا ٠٠ كم أتب عطيم ورحمك بلا حدود

« حفا يا عسى السعوى لن يخيب قط من ناط أمله سايك ٠

« اد من أين جاء مثل هذه النعة لحاج بلا معين ومي غير مستند
كيدا الحاج بطرس وهو ناء عن مسقط رأسه حتى يأخذ نفسه
وبحمل على عاتقه مهمة فوى طاقته ؟ ثم هل له أن يطمح بعد ذلك
فى يحصى ما بطلع اليه ٠

« ان التفسير الوحيد هو أنه وجه أفكاره تحرك با رب وأتب
حاديه ، وعاض عليه بالحب المقدر فعاطف مع اخوانه ، وأحب من حوله
حبه لنفسه فسار للوفاء بما فرض عليه ، وعلى الرغم من ضعف قوة
كثائه الا أن المحبة كانت سد أرره ، كما أنه رغم ما ألقاه اخوانه
على عاتقه عن مهمه سافه ان لم يكن مسنحيلة الا أنها نيسرت عليه
وذلكت له بفصل ما طمح فى قلبه من حب لله ولجيرانه ذلك لان الحب
فوى كالموت « وأنه لا نفع الا الايمان الكامل بالمحبة (١) » ٠

« ان خادمك لن يتردد اد أظهرت نفسك له وشجعتته ببرأك
ولن تتذبذب ، ولكنه ينهض فويا لكمل عمل الحب » ٠



(١) اطر علاطية ، ٥ ٦ ٠

وحدث في أحد الأيام أن خادم الرب هذا الذي أتكلّم عنه كان مشغول البال على غير العادة بالتفكير في العودة إلى وطنه والوفاء بالمهمة التي حمّلها ، ثم دخل كنيسة القيامة وانجّه بقلب خاشع كل الحشود إلى مسبح الرحمة ، وأمضى الليل في الصلاة والبهجد ، حتى إذا فارت عاطفه سقط على الدرج واستغرق في اليوم العتيق استغراماً لم يحدث له من قبل ، وخيل إليه أنه يرى سيدنا عيسى المسيح واقفاً أمامه كالطيف وهو يقول له : « انهض يا بطرس وأسرع وانحر ما عهد به اليك من المهام غير حواف ولا وجل لأنني سأكون معك ٠٠٠ لقد جاء الوقت لطهر الأماكن المقدسة وللمساعدة خدمي » .

واسسقط بطرس مسريحاً إلى الرؤية التي رآها وصار أكثر ميلاً للطاعة ورأى - استجابة للإيذار الرباني - أن لا يهرب أكثر من هذا ، فدب الشاطئ في أوصاله وبأعجب للرحوع ، ولما فرغ من الصلوات المألوفة مضى إلى الأب البطريرك (سمون) بسأده في العودة فنفضه ببركانه فانطلق شطر البحر حيث وحد سفينة تجارية على وشك الانحار عن طريقه ، أبولوا فاستقلها فبلغ « ناري » بعد رحلة موفقة . وسما كان على وشك المضى إلى رومة إذا به يعلم بوحد البابا إيربان [الثاني] في تلك النواحي فرفع إليه رسالة البطريرك ومسحى القدس ، ووصف له ما تعانيه من الأهوال والماعب على أيدي الطغاة الموحدين في الأماكن الطاهرة ونقل إليه في دقة وبراعة ما عهد إليه به .

حدث قبل سنوات من هذا الوقت أن سب صراع عنيف بين
هيري ملك الألمان وامبراطور الرومان وبين البابا حريجورى السابع
سلف اربان السابى ، وقد دار هذا الصراع حول الحاتم وعباءه
الأسافعه الراحلين ، وكان العرف قد جرى - لا سيما في
الامبراطورية - على ارسال حاتم أسقف الكسسه الراحل ومسوحه
الكهنوسه الى الامبراطور الذى يقوم بعد ذلك بعزل نارسال واحد
من بطاقه أو أحد فساوسه وبكل الله مهام الرعويه في ذلك المكان
دون انتظار لعنام رجال الدين باستجابه ، لكن البابا - حريجورى
السابع [سمر نأ هذا العمل يخالف كل نوامس العدل لما فيه من
هدر لحقوق الكسسه ووطنها بالأقدام ، فقام من حابه منهى
الامبراطور عن عهده الكريه هذه ، تكرر منه مرارا هذا الهى
بالكف عما يفعل فلما رأى أن لا حدود من هذه المحذرات الهادئه
أصدر ضده قرار الحرمان .

غضب الامبراطور من هذا الاحراء أشد الغضب ، وسرع في
اضطهاد الكسسه في روما فعمد الى تنصيب جبهرت - رئيس أسافعه
راقبا - مكان البابا المعظم حريجورى ، وكان حسرت هذا كبر البراء
واسع المعرفة مكبه ثرونه الطائله واعتماده على بطس الامبراطور
من خاع حريجورى الموقر ونولى هو فسرا الأبرشمة الرسولية ، وكم
كان غشا غابة الغماء نقضه صحه التفكير حين اعتمد اعنادا حازما
نأنه هو البابا حقا لبعه زورا وبهانا بهذا اللقب .



كان العالم السقى الغارى في الرذيله يسير - كما فلما قبل
هذا - في طريق خطر خاسر فلما سب هذا الدراع ازداد تردى العالم

فى هوة أشد عما لنخله عى كل احترام واجب لله وللانسان .
وراح يجرى وراء كل ما دنسه الحطية ، ويباعد ما بينه وبين كل
ما ينطوى على الحر ، فصحب السجون أبوابها للأساقفة ، وكان
اذا جراً أحد من رجال الكنيسة على معارضة الامبراطور فى تسببه
هذا زح به الامبراطور فى الحس وصادر كل ما يملك ، كأنه محرم
فنى نساء ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد من صب الأهوال الدنيوية
على رجال الدين بل صاروا عرضة على الدوام للخلع من أبرشياتهم
وبعض سواهم فى أماكنهم هذه .

فمر حريجورى من نقمة الامبراطور الى « ابوليا » حسب لى
أعظم الترحيب ، وعومل أشرف معاملة من جانب دوقها روبر
حيسكارى الذى مد يد المساعدة الى البابا ونحاه من الوقوع فى يد
الامبراطور حتى تمكن أخيراً من الوصول الى سالرنو حيث وافاه
أجله بها ودفن فى ثراها ، فخلقه اذ ذاك على كرسى البابوية البابا
فيكتور الذى لم يحاور نابوسه شهرس فقط . ففلاه البابا ايربان
الثانى الذى أشرنا اليه من قبل والذي لحاً الى قلاع أتباعه النصارى
المخلصين لندراً عن نفسه غضب الامبراطور هنرى المذكور من قبل ،
لكنه لم يكن أبداً بحاجة منه اذ كان (الامبراطور الجديد) مصراً
فى عناد شابه عناد سلفه فى سلوك هذا الطريق الخبيث .

وعلى الرغم مما كان فيه البابا من بلاء عظيم الا أنه أحسن لقاء
المقر بطرس الذى شغل نفسه منذ رجوعه من القدس بسفند المهمة
التي ألقى على عاتقه ، فوعده ايربان وعداً من الرب الذى هو خادمه
انه مبادر لمساعدته فى مسعاه الذى حاه اليه من أجله متى لاح له
الفرصة .

حينذاك اشعلت حذوة الحماسة الزكية فى نفس بطرس الذى
راح يذرع كافة أرحاء ايطاليا وعمر حبال الألب ولم تترك أمراً من

الامراء الا راده ، غير مدخر وسعا فى صهم جميعا ويخدبرهم ولومهم .
فنجحت تحذيراته - بفصل الرب - فى حمل بعضهم على المبادرة
الى الخروج لمساعدته احوالهم الدبى مسهم البلوى ونزل بهم الصر .
رغبة منهم فى ألا يدعوا الأماكن المقدسة - وهى البقاع التى يعطف
السيد فسرفها بحضوره وصانها عن أن تدنس بالخبائث .

ولم يكف بطرس بما أثمرته دعوته بين الأمراء وحدهم ، لكنه
مطلع الى أن تؤدى تحذيراته القوية الى تحريك نفوس العامة وأهل
الطبقة الدنيا ، واشغال جذوة حماسهم للقيام بنفس الواجب .

وبنما كان يتشق طريقه فى بطاء بين الممالك والشعوب راح
- فى وفاء صادق لرسائلته وفى نشوة روحية مقدسة - يبشر بنفس
الرسالة بين أفقر الناس وأدناهم ، ورعى المسيح مسعاه البار فكان
من عطفه عليه انه لا يكاد يدعو الناس حتى يؤتى دعوته آكلها طمة .
وأصبح بشيره هذا صروريا أشد الضرورة للبابا الذى أجمع أمره
على أن يتبعه دون إبطاء الى ما وراء الحبال ، ذلك .لأن كلام بطرس
كان يفتح قلوب سامعيه لطاعته فلا يجد البابا صعوبة فى دعوتهم
الى نفس الأمر الذى يؤدى الى تحقيق هدفه تحقيقا يحمله قادرا على
التأثير فهم .

- ١٤ -

كانت السنة سنة ١٠٩٥ من مولد السيد المسيح وهى الثالثة
والاربعون من تتويج هنرى الرابع ملكا على الألمان ، وهنرى هذا
هو الثانى عشر من أباطرة الرومان ، كما كان يحكم فرنسا فيليب

الحروب الصليبية ج١ - ٩٧

الأول بن هيرى الأول ملك المربجه العظيم ، ورأى البابا ايربان
- وفـسـدك - ان خـبـ مـى ادم قد حاور كل مـدى ، وأن كل
سـى بـندى الى اسـعـل كما لو كان يـبـجـ الى السـر ، ومـى ثم عـفـد
مـجـمـعا لكل اـيـطـاليا مـى « بـياشـنـزا » فكان هـذا المـجـمـع خـطـوه احـسـج
اليها كل الاحـيـاح لرد غـلو النـاس ، فلما انـتـهـى هـذا المـجـمـع عـادـر
البـابـا اـيـطـاليا فـراـرا من غـضـب الامـبراطـور عـلـيه ، وعـبر جـبال الـالب
ودخـل مـمـلكـة فـرنـسا حـيـب نـسـلم نـاكـبـدا بـيـنا عـما سـمـعـه . حـالا مـن
الـأخـبار بـيـن مـنـه انـه لـم يـعـد أحـد ما فـى أـيـة نـاحـة يـكـرب بـالـبـدر
العـلـوبـة ، الى حـابـ اسـحـفـاف السـاس بـتـعـالـم الـانـاجـسـل وبـلاشـى
الـايـمان ، وبـانـت كل بـعـه وفضـلـة مـهـدـه بالمـطـر وفـعـرت مـمـلكـة السـر
ودولـه الطـلام فـاهـا لـسـبـلـع الجـمـيـع .

ونظرا لمكانة البابا ايربان الثانى بعد كان شديد الميعة بمعرفة
السبيل الذى يسلكه للقضاء على الرذائل والخطايا الفاحشه التى
كانت للأسف تزداد بشاعة حتى لتكاد أن تبتلع الدنيا بأجمعها .
لذلك عزم على الدعوة لمجمع عام عقد أولا فى « فريبلس » ثم فى
« بوى » ، حتى اذا حل شهر نوفمبر اجتمع باسم الرب فى كاترومب
- احدى مدن « أوفرون » - مجمع مقدس من الأساقفة ورؤساء الاديرة
من شتى النواحي والولايات الواقعة وراء جبال الالب ، تكلمهم
الرعاية الالهية .

وحضر هذا الاجتماع أيضا بعض أمراء تلك الولايات ذاتها .
كما تقررت فيه التنظيمات التى يمكن أن تؤدى الى التخلص من
الظروف غير الملائمة التى تمر بها الكنيسة ، وكان هذا القرار ساء
على نصيحة رجال الدين وأهل التقوى ، كما أذيعت المراسم التى
كان يرحى منها أن تساعد على تقويم الأخلاق وتصحيح الأخطاء
الجسيمة .

ولما كان بطرس الناسك يسهر بالمسئولة الكبيرة بحاه الرسالة
التي حملها ، فقد رأى أن هذه الاجراءات ربما أدت الى عودة السلام
الذي يبدو وكأنه قد تلاشى من الدنيا .

وأحيرا ألفي ابريان عطشه وهي كما يلي .

- ١٥ -

« اعلّموا أيها الاخوة الأعزاء ، وحي لكم أن تعلموا كيف أن
فادي الجنس البشري قد نزل في جباله هبكل بسري لخلاصنا
جميعا ، وعاش يسا كائنسان ، وكان مجبته نجيذا لأرض المبعاد
الى وعد بهما من قبل ، والتي داعب شهرها بأعمال الباموس
وبالمحزات المتكررة التي قام بها ، وهذا ما يسير اليه العهدان :
العديم والجديد في كل ما بصمناه بمرحبا ، وأن الواضح حقا أنه
أحب تلك الأرض حبا صادقا منذ أن عطف على ذلك الجرم من
الأرض - أو بلفظ أدق - على هذه البقعة الصغيرة قسماها بمراته ،
رغم أن للرب « الأرض (١) وملؤها المسكونة وكل الساكنين فيها »
ومن ثم فإنه هو القائل أيضا بصوت أشعيا (٢) « مرثي اسرائيل »
والقائل أيضا (٣) « ان كرم رب الحدود هو بيت اسرائيل » .

(١) مزمور ٢٤ ، ١ ، ٤٩ ، ١٢ .

(٢) أشعيا : ١٦ ، ٢٥ .

(٣) أشعيا ٥ ، ٧ .

وعلى الرغم من أنه كرس الدنيا بأجمعها منذ البدء لنفسه
 إلا أنه اسمى المدينة المقدسة على وجه الخصوص لتكون خاصة به ،
 وذلك بـسهادة النبي الغائله « الرب (١) أحب ابواب صهيون أكثر من
 جميع مساكن يعقوب » ، وقد نجل في هذه المدينة أحوال كبيرة رائعة
 فهناك أكد محضنا بـعاليه وعدابه وقيامه من بين الموتى أن الخلاص
 إنما يكون في أرضها . لذا فقد أخبرت تلك المدينة منذ البدء لتكون
 شاهدا على هذه الأمور ، ولتكون هيكل الأسرار ، واختبرت حقا لتكون
 خاصة لمن اصطفاهم بقوله : « اهتفي يا بنت اورشليم » هو ذا ملكك
 يأتي اليك من أجل اورشليم المدينة التي اخترتها لنفسى لأوسع
 اسمي (٢) فيها .

لكن على الرغم من أن خطايا أهلها حملت الرب العادل على أن
 يوقعها مرة بعد أخرى في أيدي الشريرين ، ويجعلها تكايد قضاظهم
 فترة من الوقت ، إلا أنه لا ينبغي أن يذهب الظن بأحد إلى أنه يخلى
 عنها وتبديها نذ النواء لأنه مكتوب (٣) « ان الذي يحبه الرب
 يؤدبه ويجلده » .

ولكنه يغضب على من يقول له (٤) « لذلك ... أحل غضبي
 بك فتصرف عيرى عنك فأسكن ولا أغضب بعد » ومن ثم فإنه يحب
 هذه المدينة حبا لا تطغى حدوته وأنه القائل (٥) « ستكونين أكليل

(١) مزايير ، ٨٧ ، ٢ .

(٢) ملو٢ أول ، ١١ ، ٣٦ .

(٣) عزرائيل ، ١٢ : ٦ .

(٤) حزقيال ، ١٦ : ٤٤ .

(٥) اشعيا ، ٦٢ ، ٣ ، ٤ .

جمال بسد الرب ، وناجا ملكيا بكف الهك ، ولا يقال بعد ذلك
هجوته ولا بل بعد لارصك موحنه بل ندعين حصصيه وأرصك
برعى يعوله لان الرب يسر بك (١) » .

وان مهد ايماننا ، ومهبط رأس مولانا ومبمع الخلاص قد
تملكها الآن عموة شعب غير ماله ، هو ابن الجارية المصريه [هاجر]
لدى يفرض على أبناء المرأة الحرة [سارة] ظروفًا بالغة السوء حتى
قالت : « اطرده هذه الجارية وابنها » .

لقد طل جنس الشرفيين (٢) البغيض عبر سموات طوال مصب
يبسط سلطانه على الاراضي الطاهرة التي مشى عليها السيد بقدمه ،
ثم خضع المؤمنون للمهر ، وراحوا ينخبطون في فيد الأسر ، فدحلب
الكلاب الأماكن الطاهرة ودنس الهيكل وضربت المذلة على عناد الرب ،
واليوم ها هو ذا الشعب المختار يحمل الأحوال التي لا يسحقها ،
وها هم رجال الدين مسروقون ، والكرامة ساقطة في الوحل والطين ،
وأصبحت مدينة الرب - التي هي فوق كل مدينة - محكومة
لا حاكمة ، فمن ذا الذي لا تنفطر نفسه كمدا ، ولا يذوب قلبه
حسرة حيث تخطر بباله هذه الإهانات !!

« أيها الاخوة الأعزاء : من ذا الذي يستطيع سماع هذا كله
ولا تبكي عقلاته ؟ »

« لقد غضب يسوع فطرده من هيكل الرب جميع من اتخذوه »

(١) سفر التكوين ، ٢١ ، ١٠ .

(٢) وقد يمكن ترجمتها بالمسلمين لأن لفظ Saracens أصبح في كتبه
الغربيين في الصور الوسطى وعند بعض المؤرخين المحدثين مرادفاً لكلمة «المسلم» .

مكانا للبيع والسراء ، حتى لا يصير بيت أبيه - وهو بيت الصلاة - معاره للصوم ومأوى للشياطين (١) .

« لقد كان هذا هو الذي أثار الحماسة الكريمة في نفس القديس مابوس - السلف العظيم للمكابيين الطاهرين كما يشهد بذلك هو نفسه اذ يقول : « لقد أصبح الهيكل شبه انسان فلا شرف ، وتلاشت كل المآثر الرائعة » .

« ان مدينة ملك الملوك التي نقلت الى الآخرين بواسطة الامم السلم قد دانت رغم انها الى برهاب الخوارج ، كما ان كسسه القمامة المجنونة التي هي آخر مكان رقد فيه السيد تقاسى حكمهم وساطح ناوساح أفوام لن يكون لهم حظ القمامة بل كتب عليهم أن يطلوا في الجحيم الى الأبد ، كابهم هسم النار لا ينطقى لهسها أبدا ، كما أن الأماكن الموقرة المخصصة للأسرار الالهية ، والمواضع التي عرف السند زائرا لها بسخصه ، وشاهدت آياته ، وباليها حسانه ، وبحسم فيها كل البراهين الدالة على ذلك في ايمان صادق قد عدت مداود للماضى وحظائر للبهيم ، كما أن أحسن الناس الذين ياركيم رب الأرباب قد تعالى أنسهم من حراء عبء الخدمات المفروضة عليهم ولا يستطيعون التحلل منها ، ولا يُنقدون عليها الا الأحـ السافه .

وان أبناء هذه المواضع - وهم أغلى مهر للكنيسة الأم - قد ألقى القصص عليهم ، وسبقوا أذلة ، وأرغموا على خدمة الخوارج الدسسين ، حتى ينكروا اسم الله الحي القسوم ، ويطلق شفاههم الطاعره بالمجديف فيه ، فاذا امنعوا ذعرا من أوامر الكفار الآثمة

(١) متى ٢١ - ١٢ - ١٣ .

دبحهم بالسيف دبح الأصاحي فيدخلون في عداد الشهداء الأبرار .

« ان الذين استهكوا حرمة المقدسات الديسه لا يهيمون حرمة
المكان ولا للناس ، ولا يسورعون عن فعل الفسوس واللاويين ،
ويرعون العذارى على ارتكاب الفحشاء والا كان الموت بالعذاب من
تصيبهن ولم يشفع عندهم للمجائز شيوخهن .

« الا فالويل لنا نحن الدين نعيش في نعاسة الرمن الخطير الذي
نبأ به الملك الطاهر داود المختار من الله ، وشكى منه اد قال (١)
« يارب ، ان الامم قد دخلوا ميراثك وبجسوا هبكل قدسك » ،
وقوله (٢) . « الخطاه يسحقون سمك يا رب ويدلوه ، حتى مى
الطعام يا ربى يسمون ؟ منى يا رب بغضب كل الفصب وسفد
كالار غرنك ؟ » « هل الى الدهور يرفض الرب ولا يعود
للرضا » « حتى منى يا رب نخشى كل الاخياء » « اذكر يا رب
مادا صار لنا ، اشرف وانظر الى عارنا » الويل لى حين ولدت
لأرى هذا البؤس المحق بسعى وبالبلد المقدس وأن يسام الى أيدي
الأعراب (٣) .

« أنت هو ملكى ، يا الله باسمك ندوس العائمن عاسا » (٤) .
« قبحب » لا نطنوا انى جئت لآلقى سلاما على الأرض بل سفا » (٥) .
« فسلحوا أنفسكم أبها الأحباب بحماسة السيد فبه نطح مضائقنا .

(١) مراير ، ٧٩ ، ١ .

(٢) مراير ، ٩٤ : ٥ .

(٣) راحح المكابيين ، ٢ ، ٧ .

(٤) مراير ، ٤٤ : ٤ .

(٥) مى ، ١٠ ، ٣٤ .

وإذا أحسن أحدكم بالحمية لسريعه الرب فليتنضم السنا ، وهيا بنا
نمضي لحطم العمود الى نكبنا ونلقى بعيدا بحبالهم عنا ، فالروح
نفسه سبه أيضا لأرواحنا أننا أولاد الله ، فإن كنا أولاده فأننا
ورثه أيضا ووارثون مع المسيح » (١) واذهبوا وليكن الرب معكم ،
ووجهوا السلاح الذي سجدتموه لصل بعضكم البعض الى صدور أعداء
الملّة وخصوم المسيح .

« ان مملكة الرب لن تكون لمن أحرموا فسرقوا ومن اتهموا
بإشعال النار عن عمد ، ولا لمن نهبوا الناس وسفكوا الدماء
ولا لأصحاب الحرائم الأخرى المسابهة لهذه في طبيعتها . »

فأطيعوا الرب الطاعة التي يرضاها ، عسى أن تتنزل عليكم
رحمه سريعا ويكون لكم سفاة القديسين فيغفر لكم ما اقترعتم من
خطايا أثرت بها حق الرب عليكم فاستسأط غضبا .

« وعلى ذلك فحن محذروكم وموصوكم باسم الرب بالعمل
على التطهر من خطاياكم وذلك بمشاطرة اخواننا سكان القدس
وما حولهم في مصائبهم وآلامهم ، وكونوا شركاء لهم في اوث ملكوت
السموات ، وعليكم أن تكبحوا بكل عضبة دينة وقاحة الكفار الذين
يحاولون اخضاع الممالك والولايات والدول ، وأن يحاربوا ما وسعكم
الجهد هؤلاء الذين أحجموا العزم على ازالة الاسم المسحي ، فإن لم
نفعلوا ذلك فإن كسبة الرب التي لم نرتكب اثما سوف تفقد الايمان
سريعا وتكون السيادة لجهالة الوثنية ، ولقد رأى بعضكم بعيني
رأسه هذه الأمور التي نكلم عنها الآن ، وعرف مدى الأحوال التي
يحياها أولئك الأسعاء ، وإن رسالتهم التي أحضرها بده ذلك الرجل
الموقر ، بطرس ، الموحود معنا الآن لتحمل نفس الأمر . »

« ومن ثم فنقة منا برحمة الرب ، وبمودة الحوار بين الطوبانيس بطرس وبولس لنعبر خطايا المسيحيين الصادق الذين يحملون السلاح لقتال الكفار ، وينحملون مسقة رحله الحج هذه . وبصع عنهم كل عقاب مفروض عليهم بسبب آثامهم ، ولسق الداهيون الى هناك بننه صادقه وبقة نامة بغفران خطاياهم ، وبحصولهم على النعمة الأبدية . »

« كما أننا في الوقت داه سوف تبسط حمايه الكيسه ورعايه المباركين بطرس وبولس على من ينهضون مسلحين بايمانهم الصادق لحمل عبء محاربة الكبار ، وسيدرجهم في عداد أبنائنا المطيعين المخلصين » ونرسم بأن يطمئنوا ، وألا يخالجهم أدنى خوف على أملاكهم وذويهم ، فان اجترأ أحد ما - أثناء هذا الحج - على أن يسبب لهم ضيقا أصدر أسقف ناحيته قرار الحرمان ضده ، ويظل فرارا مصاطا عليه عند الجميع حتى ترد المبروقات ، وحتى يقدم العويص الملائم عن الأتنياء المفقودة ، كما أن الأساقفة والعساوسة الذين لا يقفون موقفا صلبا ضد أمثال هذه الأحداث سساقبون بحرمانهم من ممارسة مهام وظائفهم حتى ينوبوا ؛ لنالوا رحمة الكنيسة الرسوليه ، هكذا نحيم [البابا ابريان الثاني] موعظه ، وأمر جمع الحاضرين اذ ذاك من رجال الكنائس بالعودة الى أبرشياتهم لكرسوا أنفسهم لما سمعوه ، ولسمعوا سعيا حنبنا لحت أتماعهم على النهوض الى الحج . »

ولما فرغ [ابريان] من هذه الرسالة أمسك عن الكلام واففض المجسم الذي راح كل من حضره يودع أخاه ويرجع الى موطنه ، وانصرفوا منصاعين في صدق واخلاص لسفينة قرارات المؤجر (١) وحب الناس جميعا على النواصي بحفظ السلام الذي أثلف الناس على تسميته « بسلام الرب » . وصدر الأمر بعدم اعاقه من عزموا

(١) أي مؤتمر كلرمونت .

على لرسله ، وألا نهم في وجههم العرافيل أساء اتخذهم الاجراءات
اللائمة للسفر .

- ١٦ -

وزياده على ذلك فانه نظرا للخدمات الجليلة التي أداها بطرس
للمدين ، فان الله انعم عليه - وهو الخادم المطيع المبشر . ذو الهمة
العالية الرائعة - بالملاعة والمصاحبة ، ووجهه القبول الحسن في عون
الحمص حتى ان كلماته كانت تبدو وكأنها وحى من الله ، اذ بلغها
القوم - صغرىهم وكبرىهم - بالرضا والامسال ، غير عابئين بما يبطوي
عليه تبعثها من مشقة .

ولم تكن الحماسة الدينية لهذا الحج فاصره على من استمعوا
اليه شخصيا . بل تجاوزتهم خطبته - حين داعب طولا وعرضا -
الى من لم يكونوا حاضريها ، فبنت فيهم رغبة عارمة للعلم بنفس
الرحلة ، كما صدع الاسدفة بما امروا به . مطهرين البدن الكريم
فدفعوا أبناعهم للسعر للحج ، ودأبوا على التنقل في ربوع أسعفانهم
يبدرون بدور الحياة بين الناس ، وما كان لخبه منها أن يموت اذ كانت
لا نفع الا ونؤي آكاها طيبة مباركة ، ومن الحق أن نقول أنه بحقق
كلمة السبند (١) اذ يقول « ما حثت لالهي سلا ما بل سبعا » ، فقد
افصل الروح عن روحه والمرأة عن بعلها ، وفارق الآباء أبناعهم
والأبناء آباءهم ، ولم يسقط أى رباط محبة أن يحول دون هذه
الحماسة . كما عادر كبير دن الرهسان أديريهم ، وفعل السناك

(١) مى . ١٠ . ٣٤ .

شعاعهم صرخوا صوامعهم الى اشدوها طواعة ملحا يصم فيه كل واحد منهم على افراد « حبا في الله » .

لكن الرب لم يكن مع الحبيب في عملهم هذا ، اذ لم يكن الحصافة - وهي أم المصائل كلها - محركهم الحقيقي ، فقد شارك البعض البعض الآخر حتى لا يفرقوا عن بعضهم ، ونهض آخرون حتى لا يهيموا بالترابي والكسل ، وساهم غير هؤلاء وهؤلاء بدوافع نافهه ، أو عساهم بخروجهم هذا يهربون من دائنهم الدين أنفلوهم بالديون العادحة ، وهكذا كاتب هناك أسباب مختلفة أسرع بالجميع الى نفس الهدف ، ولم يكن هناك في بلاد العرب أي اعراف بالسن أو الجنس أو النوض أو الظروف . كما لم يستطيع أحد منع أحد من الصام بالرحلة مهما زو له الكلام ، بل اشد البعض البعض دون سبب بين الواحد والآخر فكانوا جميعا يدا واحدة ، وأقسموا كلهم السمن بقلوبهم وأرواحهم ، وبدا الانجاز الحرفي لما جاء في الكتاب (١) من انه « سباني أم كورة من بعد تمتدح أورشلن وسجد لها ، ويحملون الهدايا في أيديهم » .

لقد تلقى الكسرو من حصروا مؤمر « كاسموب » هذه الكلمة الراسخة بفرح عظيم ، وكان على رأسهم « أديمار » أسقف « بوى » ذلك الرجل الطاهر الذبل العاطر الذكر ، والذي صار بعدئذ النائب للبابا ، فسار بسحب الرب في حملته هذه سرره ملؤها الصدق والاخلاص .

كما كان من بسهم أيضا « ولم أسقف أورنج » الصادي الاسان والذي يخاف الله .

(١) طويا ، ١٣ . ١١ - ١٥ .

ودبب (١) نفس الحماسة كذلك في نفوس أمراء جميع الممالك الذين لم يحضروا الاجتماع ، اذ راح كل واحد منهم يسجع صاحبه ويستعيدون للسفر الذي حددوا يوما معنا له يكون بعد انعام جمع ما يلزم من الاستعدادات وبعد ان يجمع كل رفاقهم ، والحق أنه يبدو كأن العناية الالهية هي التي رببت الحملة التي سلكم عنها . وكان الأوامر صدرت اليهم من الرب ، ذلك أنه لم يكن يشاع أن أميراً ما من الأمراء قد قطع العهد على نفسه بالحج حتى ينوافد الناس عليه زمراً اثر زمر ، يتوسلون إليه أن يسمح لهم بالانضمام الى جماعته ، ويعترفون بسيادته عليهم ، ويعطون العهد على أنفسهم بالطاعة والاخلاص له ، ولما كان المثل (٢) يقول عار على أن أنخلف عن الناس اذا كان الطاعون قد أخذهم حتى آخر واحد منهم « ، فقد أسرعوا الى تجهيز أنفسهم بكل ما يلزمهم ويحتاجون اليه ، وكانوا يتزاحمون ويسابق كل منهم الآخر ، والحق أنه كان تكرسنا إليها لان نار التطهر هذه كانت لازمة لمحو خطايا الماضي وحب آثامه التي كانت - وا أسفاه - كبره حدا ، كما كان الانصراف لتدبير السفر معبداً في منع ارتكاب الخطأ بعد ذلك ، بعد أن كانوا قد حادوا عن طريق الرب وأساءوا السر مع غيرهم .

وقد اتفقت الآراء جميعاً على قبول ما اشترطه البابا من قيام كل من أقسموا على السفر لهذا الحج برسم شارة الخلاص على ثيابهم ، ألا وهي الصليب الزاهي ، وبذلك يحملون على أكافهم

(١) جاء في الترجمة الانجليزية الى اعتمادها ، وبناء على ما ذكره . Man i Sacrorum conciliarum nova et impissima collectio, vol xx. col. 923.

ان كل ذكر طلع الثانية عشرة أو أكثر كان عليه أن يقطع اليمين كل ثلاث سنوات على حفظ سلام الرب ومراعاته .

(٢) رد المرحبان الأمريكان هذا المثل الى هوراس Horace . Ars Poet. 417

ذكرى الذى عزموا على رياره الساحيه الى سهدت آلامه ، وكانوا
فى عملهم هذا مغلدين للسيد الذى أسرع الى هناك من أجل خلاصه .
لانه : « يولد لنا ولد ، ونعطى ابنا ويكون الرياسه على كفه » (١) .

ويبدو كأن الآيه التالية من سفر أسعيا سیر الى هذه الحركة
حيث يقول ان السيد (٢) سوف يرفع رايه للأمم ويجمع منفيي
اسرائيل .

وظهر أيضا نمام كلام السيد حرفا بحرف مصداقا لقوله (٣):
«ان أراد أحد أن يأبى ورائى فليتكبر نفسه ويحصل صليبه ويسمى» .

- ١٧ -

عهد الأمراء التالية أسماؤهم من كلتا المملكتين الى نفويه
عزائمهم بعلامة الصليب ارتباطا منهم بالحج القادم :

السادة المشاهير : هيج الكبير شقيق قلب الاول ملك
الفرجة ، وروبرت كونت فلاندرز ، وروبرت كونت نورمندی ابن
وليم الاول ملك الانجليز ، وستيمن كونت شارنر وبلواوالد كونت
تيوبولد الكبير ، وأديمار أسعف بوى ، ووليم أسقف أورنج ،
وريموند كونت بولور وسمبل حيل ، مع آخرين غيرهم من الرجال
العظماء .

كما ذهب أيضا المحارب الباسل لورد جودفروى العظيم دوق
اللورين ، ورحل معه كذلك أخوه اللوردان بلدوين وأستاس ،

(١) اشعيا ، ٩ - ٦ .

(٢) اشعيا ، ١١ : ١٢ .

(٣) متى ، ١٦ - ٢٤ .

وصحبهم كذلك بلدوين الملقب بنورج وهو قريب الاحوه السلاطه
وابن لورد هيج كوت ريبيل ، وحاسه دى جراى ، وبلدوين كوت
هينولب ، وايزور كوت ديبى ، وروبولد كوت اوريج ، ووليم كوت
فوريى ، وكوت سسمن دوماال ، وروبرو كوت نرس ، وهيج كوت
سب بول .

ومن صحبهم من علسة القوم وان لم يكونوا من فئسة
الكونتات : النبلاء اللامعون الذين تقدموا طواعية من تلقاء انفسهم
وهم :

هنرى ديس ، ورالف بوحنسى ، وايفرارد دى بويسيه .
وجاسون دى بارف ، ووليم امانجو ، وجاستون دى نزيه ،
ووليم دى مونلييه ، وجارارد دى رويسلون ، وجارارد دى شريزى ،
وروجر دى بارثفيل ، وجى دى بوسسا ، وحى دى جارلانده سكال
ملك الفرنجة ، ويوماس دى لافير ، وحالن دى كالفوموب .

• ركلما: سار بطرس الناسك بطائفه كننفة من الناس جمعهم
يمشقة كبيرة من مملكة [فرنسا] وامبراطوريه [آلمانا] .
• وحاك من الحانف الآخر من حبال الالب بوهيموند امير مارنمو
ايندروبرت حسكرارد دوني ابولنا ، وابن اخيه تانكريد ، وكثرون
غيرهم لا نعي داكلنا اسماءهم ولا نحصيهم عدا .

وظل جميع هؤلاء - مع فواب ضحية من اهل القسال فى
انقظام الساعه الملائمة للاتضمام للكنائس الحربيه المسححه ، وهم
على اتم احمية لاسل: اربواهم لتحمل: احوال حج عظيم كهذا الحج
مرضاة للمسيح .

ومن ثم فما كاد الشناء ينصرم ونبدأ باشهر الربع فى الظهور
ونكسر سنده البرد ويعود الجو اللطيف يغمز: السقا حنى هنوا

حناهم ، وأعدوا سلاحهم ، وجمعوا ماعهم ، كما طل من أزمعوا
الحروج معا على اتصال بعضهم ببعض ، وحددوا موعدا دقيعا
فيما بينهم والساعة التي رأوها ملائمة لبدء مسيرهم ، وانفقوا أين
يكون ملتفهم ، واستعرضوا المسالك فاختاروا أيسرها عليهم
وأسرعها في إبلاغهم عاينهم . واد لم يكن في قدره أي أفليم أن يتفرد
وحده بتوفير المئونة لهذه الآلاف المؤلفه من الناس فقد رتبوا ترتيبا
دقيقا أن يقوم كل واحد من الأمراء الكبار بالسير على انفراد بمس
يبعه من القواب ، ويسلك طريقا لا يسير فيه سواه ، وانفقوا على
الا تلمفي هذه الحشوش الا في مدينة « نقة » .

لهذا - كما سنشرح فيما بعد - سار الدوق [حودفردى]
تكتائبه من طريق البحر ، واتخذ كويت بولوز وأسقف بوى طريقهما
عمر « دلاشيا » أما الزعماء الآخرون فاحترفوا « أبوليا » وبذلك
وصلوا في النهاية الى المعسطنطينية ، وان لم تكن بلوغهم حمعا في
وقت واحد بل في أوقات مختلفة . وأعدوا في الوقت ذاته العباد
الذى رأوه كافيا لرحلة طويلة كهذه الرحلة ، وراح كل منهم بغير
المال الذى نطلبه هذه السفرة بما يتناسب وطول الطريق ، كل
ذلك وهم ناسون أن الأمور كلها بيد الله وليس بيد البشر لأن
الانسان في ضعفه لا يعلم ما يأتى به الغد .

لم تكن ثم دار واحدة من دور جميع ولايات الغرب ساكنة
هادئة ، بل كان كل امرئ منهمكا حسب امكانياته في ترتيب ما يهمه
من أموره الخاصة ، فهنا الأب يدبر شئون أسرته ، وهناك الابن
وتم الأسرة كلها منصرفة لاعداد ترتيبات السفر .

وحامى رسائل كثيرة بعث بها أولئك الذين أزمعوا الرحيل
في وقت واحد ، سجع كل منهم الآخر ويحذره النأخر في الخروج .
ويصحه بالبكر فيه . ولما أخذ الذين قلنا انهم قادة الجماعات

المحلقة في دعوة البعية وقد انتزعوا أنفسهم من أحضان أعزائهم وسط العويل والرفرات ، وقد ودع كل منهم الآخر ونبادلوا القبلات فيما بينهم ، ثم رحلوا ، وكان خروجهم في جو من الانسحاب والولولة ، فرى الأمهات يصحبن الأبناء ويرى البنات يودعن الأبناء والأخوات والأشقاء ، أما الزوجات فانطلقن يودعن أزواجهن حاملات أطفالهن الرضع على أذرعهن .

فلما فرغن من الوداع الأخير رحل يامن بنظرات حادة من لا يسطم مصاحبهم أبعد من ذلك .

- ١٨ -

كان وولتر المجلس التتريف التبعة والمحارب الكمن أول من بهض للحج خبت بدأ رحلته في اليوم الثامن من سبر مارس عام ١٠٩٦ من موكد المسبح ، واستنصحب معه طائفة كبرى من الجند المساه ، أما الفرسان الذين كانوا معه فلم يزيديا عن سدرمة ضئيلة ، فلما عبر بهم مملكة النيوتون دخلوا بلاد مملكة المجر التي كان الوصول إليها أمرا عسيرا لكثرة المستقعات التي تغطي معظم بواحيها وأحداق الأنهار الكبيرة بها ، ومن ثم لم يكن في استطاعة المسافر الوصول إلى المملكة أو الخروج منها إلا من أماكن معنة شديدة الضيق .

كانت مملكة المجر حينذاك تحت حكم أشد الملوك نمسكا بالمسيحية ، ألا وهو الملك « كولمان » الذي ما كاد يعسم باقتراب « وولتر » وكان يعرف خبر رحله ويستنصوب هدفه الكريم حتى رحب بدخوله مملكته ، وسمح له أن تسير فيها بحملته ، كما أذن

له يعقد سوق عامه ، فسار « وولسر » في بلاده آمنا ، وبلغ نهر « ماروس » سائلا ، وهو الحد الفاصل المعترف به بين المجر والسرو ، ثم عبر النهر ووصل بقوانه الى ارض البلغار في مكان يعرف « بلجراد » .

لم يكن يدور بخلد [وولسر] أن طائفة من جماعه قد تحلف وراءه على الجانب الآخر من النهر في موضع يعرف باسم « سمان » لسراء الطعام وما لا غنى عنه في الرحلة ، فاعسك المجريون بهؤلاء الرجال وجردوهم مما عليهم من الساب وضربوهم ، ثم أرسلوهم بعد ذلك الى أصحابهم خاوى الوفاض ، فحزن القوم جميعهم حزنا عميقا للمحنة الطامة التي حاقت برفاقهم ، ومع ذلك فقد أقنوا تمام السبي أنه من الصعب عليهم - بل من المستحيل - أن يعودوا فمسرور النهر أخذا بالنار لما في ذلك من تأجيل مسيرتهم ، فأروا - في ظروفهم الراهنة هذه - أن النفاذ عن المضرة التي أصابتهم أحدى عليهم من المبادرة الى القسام بعمل طائس لا يستطيعون احرازه فاصبحوا على ما فعلوا نادمين . واذ كان أملهم في الله الذي ينصوا من أجله عظيما فقد انصرفوا عما أرادوه ايمانا منهم بأنه ما من مصيبة باقياها حيد المسيح الا والرب غر مهماتها بل معاقب عليها بمسليا لأنه وعد أتباعه بذلك اذ قال (١) : « تكونون مخزيين من الجميع من أجل اسمي ، ولكن شعرة من رؤوسكم لا تهلك ، وبصبركم افتتوا أنفسكم » . ومن ثم ساروا لطبهم ، ومضوا في طريقهم حتى حاصوا - كما قلنا - الى « بلجراد » فوجدوا « وولسر » قد سأل الدوق حاكم أهلها أن يأذن لهم يعقد سوق بنياعون فيه ، ولكنه رفض رجاها ، فلم يجد اذ ذاك بدا من أن يضرب معسكره أمام المدينة ، واذ كان عاجزا عن كبح حماح حسه الحائم فقد الكسر

(١) لوقا ٢١ . ١٨ - ١٩ .

من رجاله ، ذلك لأن عسكره لما وجدوا أنفسهم عاجزين عن الحصول على أى شئ من البلغار اطلقوا للبحر عن الطعام ولم يتخرجوا عن أية وسيلة لالتماسه دفعا للجوع الذين عضهم بابه ، فقدّر لهم أن يأتوا الى قطعان من الماشية والأغنام كانت للبلغار فأخذوها قسرا وسافوها الى المعسكر ، فلم يكذب أصحاب القطعان يعلمون بما جرى لهما من نهب حتى همّوا الى أسلحتهم وكروا على [اللادين] كرة ضاربه محميين العزم على اسرعاها ، وهاجموا اللصوص الذين كانوا يسوقون الدواب أمامهم ، وفتكوا بهم غير جباة فوامها مائة وخمسون رجلا قدرت لهم النجاة امصلوا عن بقية رفاقهم ولجأوا الى كتيسة صادقوها فى فرارهم فأضرم العدو فيها النار ، فمات حرقا من اعنصموا بها الا قلة لاذت بأذيال الفرار .

ولما أدرك « وولتر » أنه يقود جيشا عبيدا لا يعرف النظام ولا يكره بما يفعل فقد انفصل عن ابعوا شهواتهم اتباعا أعجزه عن كبح حماهم ، وسلك ببقية عسكره مسلكا فيه الحكمة والحرص ، فأحاز بهم غابات بلغاريا الكثيفة ، حتى انتهى السير بهم أخيرا الى « سرالكا » (١) وهى مدينة حملة من مدن « داكيا الوسطى » ، فصرح لحاكمها بما لحقه من الخسارة وشكى اليه الكبة التى حاقت ظلما بسبب الله على يد البلغار وطلب منه أن يعرضه عن ذلك كله ، فعامله هذا الدوق معاملة كلها عطف عليه ، لانه كان رجلا مستقيما يحاف الله ، وصرح لهم باقامة سوق يستطيع الجيش أن يشتري منه ما يحتاجه بثمن معقول ، وكبل لا تطفئ فيه ، وزاد قوعدهم أنه غير حاجب عنهم ما يحتاجونه مما يفرضه نوايس الانسانية ، كما أمدهم بمرشدين يدلونهم على بقية الطريق حتى يبلغوا المدينة

(١) رجحت الترجمة الانجليزية لهذا الكتاب أن تكون هذه المدينة هى « صوفيا » فى الوقت الحالى .

الامبراطورية ، ولما وصل « وولتر » الى القسطنطينية جئء به الى
حضرة الامبراطور ، ونجح في الحصول من جلالته على اذن يسمح
له بانزال جيشه قرب البلد وببعد سوق للتجارة ، على أن يكون
ذلك الى حين ، حتى يصل بطرس [الناسك] الذي كان قد آدد
للولتر أن يسير تحت قيادته .

- ١٩ -

ما كادت تنقضى فترة وجيزة بعد الأحداث التي ذكرناها حتى
زحف بطرس عبر « لوثاريجيا » و « فرانكونيا » و « بافاريا »
والاقلمس المسمى بالنمسا ، وكان تحت امره حشد ضخم يكاد يقرب
من أربعين ألفا جعل منهم جيشا على اختلاف أممهم وقبائلهم وألستهم
وشعوبهم ، فلما أشرف بهم على تخوم مملكة المجر بعث برسالة الى
ملكها ، فجاءه الاذن في أسر بالدخول ، على أن يسير في المملكة في
هدوء ، غير محدث ازعاجا ولا مسبب شغباً فاستجاب بطرس لما
اشترطه الملك ، وبادر بالانتفاع من هذا الاذن ، ودخل المملكة
بعسكره ، وأمدّه أهلها بكميات كبيرة من الطعام قدموها اليه بثمن
معقول ووفق شروط طيبة ، فنقدم العسكر في هدوء الى المدينة
« سملين » التي أسربا اليها ، حب حاصم بئاً ما حاق برعاهم الذين
سبوههم بقيادة « وولتر » وما عوملوا به من معاملة دنئة على أيدي
أهل تلك الناحية ، فلما طالعوا ما كان معلقا على أسوار المدينة من
أسلاب وسلاح رفاقهم ومزا لانتصار المجريين عليهم أغضبهم ذلك
كل الغضب وحينذاك انتصوا أسلحتهم واقتحموا المدينة عنوة ، فلقى
غالب أهلها مصرعهم اما قتلا بالسيف أو غرقا في النهر القريب
منها ، ويقال انه هلك في هذه الحركة الهوجاء ما يناهز أربعة آلاف

مجرى ، وكان ذلك غفابا يكافى جرمهم ، ويعول الأخبار أن « بطرس فقد في هذا اليوم مائة رجل فقط من رجاله ، فلما قرغ الحجاج من الاسيلاء على المدينه بهوة السلاح أقاموا بها خمسة أيام سوبا بسبب ما وحدوه بها من وافر الطعام .

★★★

كان دوق اللعار المدعو « نيكيناس » هو المسئول عن رفض السماح لولسر وجيسه بعقد السوق ، فلما ترامى الى سمعه خبر انقمام عسكر بطرس من مدينة « سملين » بسبب المعاملة التي كان قد صادفها حشى وولسر سرب الخوف الى نفسه من أن يزل به هؤلاء نفس العقاب لانه لم يكن بريئا من هذا الموضوع . ولما كان « نيكيناس » غير واثق تماما من وسائل الدفاع عن مدينة بلفراد التي يحكمها فعده عادرها ، وغادروها في انره سكاها جميعا عسكسجين معهم مواشهم ودوابهم ، ولاذوا الى الغابات فرارا الى ما بها من المحابي والأماكن السرية .

وبينما كان بطرس لا يزال مقيما بالمدينة المغلوبة على أمرها حاءه الأخبار بأن ملك المجر - وقد هزه نبا المذبحة التي حرب على شعبه - اسندعى اليه فوانه الحربة من شتى أرجاء تلك الناحة واستعد اسنعدادا جبارا للنار لهذه الدعاء المهرقة ، فبادر بطرس في لحظته الى الاستيلاء على جميع السفن الراسبة على طول النهر ، وأمر حشيه بركوبها والعبور بها على وجه السرعة . فاسجبنوا له وأخذوا معهم ما وحدوه بالمدينة المنهوبة من ماشة ودواب ، وحازوا ما بها من أغلى الأسلاب حتى توفر بن أيديهم من ذلك ككرة فوق الوصف ، ولما تم نقل كل شيء الى الشاطيء الآخر ضربوا عسكرهم أمام بالحراد التي وجدوها مهجورة من أهلها ، وسار بطرس من هناك بمن معه ثمانية أيام اجتاز خلالها غابة كثيفة بالغة الاتساع . خرج

مها الى « سئى » ، وسار من خلفه كل الجيش بما معه من عربات
ومركبات وقطعان الماشية والدواب .

ومدينة «نبش» هذه شديدة الحصانة بفضل سورها وأبراجها
التي يحتملها فوه كبره من السجعان والأبطال ، فعمر جيش [بطرس]
النهر الذى يجرى الى جوار المدينة من حصر صخرى ، وضرب معسكره
على مقربة منه .

كانت المئونة النني معهم فى الزحف قد آخذت فى النفاد ،
وأصبح العسكر يواجه نقصا بسا فى الطعام ، ومن ثم بعوا برساله
الى حاكم المدينة يتوسلون اليه فى لهجة رقيقة أن يأذن لهم باقامه
سوق بسروط كريمة وأسعار معسده ، وتكون السوق حافلة
بمطلبات الحياة اليومية الضرورية لهؤلاء القوم الحجاج الذين
خرجوا امتثالا للأوامر الالهية ، فأجابهم الوالى بأنه عر مسطع
الاذن لهم بذلك الا اذا بعوا الهه أولا برهائن من رجالهم تأكدا
لعدم قيامهم بأحداث أى أذى ، وأنهم لن يقدموا على أى عمل من
أعمال العنف تصيبون به الأهالى العاملين بالسوق ، وارضى الطرفان
هذا الشرط ، وأرسل [اللاتن] الهه الرهائن ، واذا ذلك مضى
المواطنون من المدينة حاملين معهم بضائعهم .

- ٢٠ -

توفرت كميات هائلة من الزاد لكل الجيش . وجرى التعامل
بين الجانبين بيعا وشراء على أحسن ما يكون التعامل ، وانصرم الليل
فى هدوء تام ، والناس من كلا الجانبين يتحدثون بعضا الى بعض فى
مودة ، حتى اذا بدت تباشير الصباح عاد الرهائن الى قومهم وأخذ

الجيس ينأهب للمسير ، وبينما كانوا على وشك الرحيل - أو بلفظ أدق - بينما كان الجانب الأكبر - ان لم يكن الجيس كله قد أخذ في الرحيل ، اذا بجماعة قليلة من طغام الناس ودعاة الفوضى يمر يستحقون لعنة الله عليهم قد حدثهم نفوسهم بأحداث سغب نافه في الليلة السابقة أثناء شائهم بعض ما يلزمهم من رجل بلغاري ، فاستحبوا ليلنا من الصعوف النني كانت قد رحلت وأضرموا النار في سبع طواحين كانت موحودة قرب الحسر وفوق الدهر المذكور ، فأنت النار عليها كلها حتى صارت رمادا .

كان أبناء الاعون هؤلاء - وعددهم قرابة مائه شخص - من سعب السويون الذين لم يكف العمل السري الذي اربكوه في اطفاء غصنهم المجنون ، بل رادوا عليه فراحوا يقذفون بالنار بيوت طائفة معنة من الناس تقع خارج الأسوار فأحرقوها هي الأخرى ، ونفوسهم ملأى بعس الضغنة . فلما فرغوا من حريصهم هذه أسرعوا للانضمام الى بقعة الحس البري ، مما فعلوه ، وساروا كأنهم غير ساعرين بما اربكوه من الاثم .

كان حاكم المدينة قد بلغاهم في الليلة السالفة لقاء بالغ اللطف . فلما رأى نكرانهم لأفضاله عليهم اضطر لدير حطة بعافيتهم بها بدلا من متابعة الاحسان اليهم ، وترمي هذه الخطة للقضاء عليهم قضاء لم يعرف النصفة فيه ، اذ عدهم جمعا لصوصا مخربين ، وأخذ الحس كله بحرمة سرذمة قللين ، ومن ثم اسلعي اليه الأهالي وأمرهم بحمل السلاح ، ولم يأنخر هو ذاته عن قاداتهم بنفسه فكانوا جمعا كبيرا ، وراح يسجهم بالقول والعمل على مطاردة الصليبين كما لو كانوا ماضين للنار من فجرة دنسين ، وأصبح أهل السلاذ كلهم رجلا واحدا ، قد توجلت منساعريهم ، ويقدموا مهاجمين القوات التي كانت قد سبقت غيرها ، ثم كروا على المؤخرة

كرة عنيفة وراحوا يعملون سيوفهم فيها . ثم جاءوا الى أولئك المعساء
الدين لم يكونوا قد انضموا بعد الى الجيش الأصلي فهاجبهم بسدة ،
وحرعوهم كنوس الموت دهافا ، كما أوقعوا نفس العقصاب ، ان
قصدا أو عموا - بكثير من الأبرياء ، فأخذوا البرىء بجربره المذنب ،
واسنولوا على العربات والمركبات المحصنة بسى أنواع المئونة ، وهدوا
السيوخ والعجزه والسماء والصبيان والبسات الذين لم يستطيعوا
اللاحق بشفة القوم ، وساروا بهم ، فسمى غلبهم ما سفك فى
المذبحة من دماء العلى ، ثم عادوا الى المدينة محملين بالفنائم .

- ٣١ -

راح بطرس فى هذه الأساء بتقديم بطلعة عسكره وكماز رجال
الحملة وهم على جهل تام بالكارثة التى أصاب رفاقهم حتى طالهم
فحاة رسول يخب به حواده على عجل ، حاملا لهم نأ الفاحقة ،
واسهب لهم فى شرح قصة القبض على رفاقهم اسهابا ما كاد يضافح
أذننى بطرس حتى نادى فى العسكر أن يوافوه ، واستجاب لتوصحة
أهل البحرية منهم ، فكروا راحعن عبر الطريق الذى تقدموا منه
طوال اليوم كله ، فلما طالعههم حذب اخوانهم الصرعى - وكانت
برهاننا على المذبحة - لم يستطيعوا امساك أنفسهم عن البكاء والعويل .
ثم وقفوا أخيرا للمرة السانة أمام المدينة فى البقة التى كانوا
معسكرين فيها الليلة البارحة .

لم تكن عند بطرس ومن معه من زملائه الذين كانوا أحسن
من غرهم فى سيطرتهم على انفعالاتهم الا فكرة واحدة وغرض
واحد بالسمة لهذه المسألة لقد عادوا لدكتشفوا

سبب العاجله . ولحاولوا ازالة دواعى الرعاع حتى تمكنوا من
مهاجرة رحله حجيم فى امان اكبر ، وذلك حين يسبب السلام
استسانا تاما وبعد على اكمل وجه بين السبعين ، ويصفو
النفوس من كل سائبة . فأرسلوا الى حاكم المدينة والى سوحها
من أجل هذه الرغبة رحالا أهل قطنه وادراك للمستولية ، وعهدوا
اليهم أن يقتصروا الحفائى والطروف التى أفضت الى ذلك السغب
العجائى ، واهراق كبر من الدعاء الرينة .

فلما وقف الرسل على سبب [هذا التشاق] بين لهم أن
الأهالى لم يعمدوا الى حمل السلاح جزافا بلا مبرر يدعوهم للغصب،
ولما لم يكن الوقت ملائما للمطالبة بالسار جزاء ما اركبوا من
الأخطاء ، فقد بذل الرسل غاية جهدهم لمحاوله اعاده السلام الى
محراء ، بأن يعاد الى رفاقهم كل ما فقدوه من الغنائم والمناج .

وبسبب كانوا يسمعون سحبا حسبا للوصول الى هذه الحامية
والى انفسا يرضى الطرفين ، اذا بهم يسمعون ضججة هوحاء فى
المعسكر سببها العواطف المناجحة النائرة ، وأدكاها تهور بعض
الأشخاص الذين لا يكثرئون بسىء ما ، ولكنهم أرادوا سلوك طريق
العنف للانتقام لما وقع عليهم من أضرار .

وطمع بطرس فى تهدئة ثائرتهم وإزالة ما قد يؤدى الى مذبحه
أخرى . فاختار رهطا من المسئولين أصحاب النفوذ القوى وأرسلهم
الى الرعاع فى محاولة منه لمنعهم - وهم فى سورة غضبهم الجوانى -
من مهاجمة الأهالى ، فما أحدث هذه المحاولة نفعا ، فقد رفضوا أن
يسمعوا الى تحذيره المجدى ، واذا ذلك أصدر أوامر صريحة الى
الجسر عن طريق المتادين أن يلتزم كل واحد بمن الطاعة التى فى
عنه له ، فلا تحاول بأى صورة من الصور أن يساعد أو يعضد الذين

يريدون المحرّض سلوكهم الطائش على سبب السلام الذي عاد
برفرق الآن من حديد عليهم .

واسجّاب الجيس لهذا التوجيه وعده أمرا لا مفر من الخضوع
له ، واذ ذاك ركن الجميع الى الهدوء انتظارا لانتهاء النوره الأولى
ومعرفة نتائج الأمر كله .

أما الرسل الذين كانوا ذهبوا الى الحاكم لعقد الاساءى دند
رأوا العكس من ذلك ، وأن الاهالى لم يمكن تهدئة ثائريهم ، بل ان
غضبهم راح يزداد عمفا بين لحظة وأخرى ، فلما أدركوا الا أمل
فى نجاح مهمتهم السى جاءوا من أهلها ببذوا هذه المحاولة وراه
ظهورهم ، وعادوا الى المعسكر لمساعدته رجل الرب بطرس فى احماذ
ناثرة الفسة ، لكن هذا كان ضربا من المسحبل ، فقد اندفع فرائه
ألف من الباس فى هذه المحاولة المجنونة ، وكانوا فى عددهم هذا
يمائلون عدد من هب من أهل البلد ، وبمخض الأمر عن مبركه
شرسة حرت أمام المدينة .

ورأى من بداخل المدينة أن السعاى قد بس من هم خارجها .
واد كانت العنة قد وقعت على كره من بطرس وعلى الرغم من أمره
الصريح ، فقد راودهم الأمل فى وقوف بقية الجيش بمعزل عنه
لا تمد له يد المساعدة ، واد ذاك فبحوا من البج الأبواب ، واندفع
جموعهم هادرة ففتك بما يقرب من خمسمائة رجل من رجالنا الذين
على الحسر ، والذين كانت بقيتهم كلها لا يعرف مواضع المحاضبات ،
ولا تدري شيئا ما عن الموقع بأجمعه ، فابتلعها النهر ، فلما رأى
العسكر هذا المطر هموا سراعا الى أسلحتهم لأنهم لم يعودوا قادرين
على تحمبل الأهوال التى انصبت على رفاقهم ، والتقى الجمعان
المتعاديان وجها لوجه فى معركة وحشية أسفرت عن مذبحه مروعة .

فكان الحطب فى هذه المرة أشد من سابقه ، ولم يستطع العمامه
ولا الرعاع غير النظاميين أن يصمدوا أمام ضغط البلعار عليهم ،
فتخلوا عن موضعهم ولاذوا بأذيال القرار ، فتأثر بهذا الهرب
الجنونى آخرون كانوا يحاربون ببسالة ، فاقفوا أثرهم وفعلوا
فعلهم .

على هذه الصورة هرب الجيس كله .

فلما تصدعت الصفوف وانفطرت عقدها ، لم يعد يوجد أحد ما
يحاول المقاومة ، وفى وسط هذا الاضطراب فقد بطرس كل ما كان
الأمراء المخلصون قد أهدهو إياه من الهدايا ، كما ضاع كل ما كان
عنده من مال كان قد اعزم بدله فى سد حاجات الفقراء وأهل الغاقة
فى أثناء الطريق ، وذلك بسبب استلاء العدو على العرة التى كانت
تحمل هذه البروة ، فضاع كل شئ بضياعها .

أما البلعار فقد حذوا فى أثرهم بعصونهم والعضب يملأ
حواسهم ، فقارب من قتلهم منهم عشرة آلاف مسبحى ، واستولوا
على العربات ، ونهبوا ما عندهم من المساع ، وسبوا كثيرا من النساء ،
واسرقوا العديد من الأطقال .

فأما الذين سلموا من الوقوع فى أيديهم فقد التمسوا النجاة
فى الفرار الى أعماق الأدغال التى لا يمكن الوصول إليها ، وكان من
أصعب الأمور استدعائهم للرجوع فى اليوم الثالث ، إذ أخذوا يدقون
لهم الطبول ، وينفخون الأواق ، حتى التفوا حول بطرس هم ومن
نجا منهم ، وارتدوا جميعا الى دل صغير يرتفع بعض الشيء عن
السهل .

ولما كان اليوم الرابع وقد جمعت القوات المسردة ، وأقبل الهاربون من الأماكن الخفية التي ظلوا متوارين فيها ثلاثة أيام سويا ، وصار عدد الجيش الذي عاد بعضه الى بعض يعرب من ثلاثين ألفا نهشوا من جديد لمتابعة الزحف ، وعلى الرغم من سلوكهم الطائس الذي أدى الى ضياع ما يقرب من ألفي عربة نعل ومركبه حمولة من أيديهم ، الا أنهم استنصروا العار ان لم ينجزوا حجتهم فعادوا لمواصلة رحلتهم تحت ظروف بالغة المشقة ، اذ بسما كانوا يهيمون بالسر رغم حاجتهم الملحة الى المثونة اذا بوافد من الامبراطور يصل الى المعسكر مزودا بالأوامر الامبراطورية الصادرة الى بطرس وغيره من قادة المعسكر ، فخطبهم الرسول غلاسة بقوله :

« أيها السادة السلاء العظام : لقد وصلت الى سمع الامبراطور شائعة بضمين ومكتم بهمه شسعة دات طمبسة نكراه ، ونقول انكم سرتن سررة خرفاء في امبراطوريه ، وانكم اركنتم أمرا اذا في حق سكان البلاد وحق رعاياه ، وأنرم القلائل والاضطرابات ، فاذا طمعتم في أى وقت في نوال عطفه ، وأن نفعا عند حالته موقع الرضا فاننا منهاكم - بأمره - ألا تفكروا في البقاء بأى مدينة من مدنه أمدا يحاوز ثلاثة أيام ، وعليكم أن تسدوا رجالكم سريعا الى القسطنطينية في انضباط ونظام نامن ، وسندل الجسس على الطريق ، ونعنكم بما تحاجونه من الطعام بمن مقبول » .

شدت هذه الكلمات من عزيمة القوم ودفعتهم حاجتهم للطعام الى التسرد ، كما أن رافة الامبراطور أنعشت الآمال في نفوسهم ، فراحوا يشرحون للمبعوث الامبراطورى بعض الظروف التي أدب الى الاضطراب الآخر مدافعين عن أنفسهم ، ومريئين عندل ساحتهم ،

وحدثوا عن تذرعهم بالصبر فى احتمال البلى التى أنزلها اللغات
بهم طلبا وعدوانا ، فلما فرغوا من كل ذلك ساروا - كما وجههم -
راسدس حى بلعوا القسطنطينية بعد راحة سافه . فاما بأحوها
وجدوا بها « ولبر المفلس » وفوانه التى كانت معه فى انتظار
قدمهم ، فانصم العسكران بعضهما الى بعض ، وخسوا فى الموضع
الذى حصص لهم ، واستجاب بطرس للاستدعاء الامبراطورى ،
فدخل المدينة ووقف فى الحضرة الملوكية التى سألته عن مقاصده
من وراء هذه الحركة الكبيرة ودوافعه اليها ، فاستهبط بطرس فى
شرح الأمر اسهابا دل على ما هو عليه من فصاحة اللسان وقوة
الحنان ، وأخبره أن أكبر أمراء العرب فادمون فى أثره ، وهم رجال
مخلصون فى خدمة الرب .

ولقد أظهر [بطرس] روحا عالية ، وامنلاكا لخاصية البلاغة ،
مما حمل كبار رجال العصر على الإعجاب بعظنته وشجاعته ، بل ان
الامبراطور دانه مال اليه كل الميل وأثنى على هدفه ، ثم صرفه بعد
هذا الاستقبال الكريم ، محملا بالهدايا الرائعة ، وأمره بالعودة الى
حنده الدبى معه .

★★★

كان الحس قد أقام فى هذا الموضع بضعة أيام أصبح لرحاله
خلالها أن يعموا بالراحة وبما طاب لهم من المأكول ، ثم صدر الأمر
الامبراطورى بتزويدهم بالسفن يعبرون بها البسفور الى «بسناس»
وهى أول الولايات فى منطقة آسيا ، ويحدها نفس البحر الذى باغوا
مكانا يقع عليه اسمه «سيفتوت» فأقاموا به وضربوا معسكرهم فيه .

كاتب البقعة الى عسكر فيها الحس نفع على تحوم بلاد العدو ، فظلوا مقيمين بها أمدا فارب السهرين اقامه طيبة ناعمة ، وفرب لهم بها سى صوب المثوة . كما أنه فى حلال هذه العره كانت هناك كميات ضخمة من البضائع تعرض عليهم كل يوم للبيع ، كما أنبحت لهم فرصة من الاستجمام الذى كانوا فى مسيس الحاجة إليه ، غير أن هذه النعمة العطية من الطعام والفراغ الكبير حولت هؤلاء التعمساء والجفاه الى قوم اسيد بهم الطيش ، ودفعتهم البلهنة الى يتقلدون فى مطارفها الى الصلف ، فكونوا من سبهم جماعات لا تأتمر بأمر أحد ، وراحوا يتوغلون فى البلاد - على غير رضى من رؤسائهم - لمسافة بلغت عسرة أمال أو أكثر ، فساقوا منها قطعان الماشية والدواب .

وطالما جاءتهم كتب من الامبراطور يحذرهم مقبه ما يعترفون ، وينهاهم عن التجرد على الابتعاد أو استفزاز العدو ، ويأمرهم بالبقاء فى الموضع الذى خصص لهم ، وأن يتهجوا النهج القويم الى حين وصول فوادهم الذين قيل انهم فادمون وراهم .

وخاف بطرس على من وكلت اليه رعايتهم فذهب الى المدينة الامبراطورية عساه يحصل على تخفيض ثمن ما يشترونه ، وعلى ظروف احسن فى المتاحرة ، فاغتنم العسكر المشاكس الذى لم يالف النظام قرصة تقبب بطرس ، وساروا سيرة رعناء حين قامت طائفة منهم ، فوامها سبعة آلاف جندى من المشاة الذين يمانلون من ذكرنا فى غنهم ، وانفصلوا عن الجيش الاصلى ، وضموا اليهم ثلاثمائة فارس وزحفوا جميعا على نقيبة من غير اكنرات باعراض رفاقهم الآخرين على مسلكهم هذا ، ورتبوا صفوفهم للحرب ،

واندفعوا فساقوا من صواحي المدينة عددا كبيرا من العظماء
والاعنام ، وعادوا بها سالمين الى المعسكر .

ورأى جماعه من السيويون وغيرهم من يكلمون لعنهم ما صادفه
اللائن من النجاح في غزويهم هذه ، فتملكتهم هم أيضا الرعدة في
مجازاتهم في السلب والنهب ، وأجمعوا العزم على القيام بسبل
هذه المحاولة ، مؤملين أن يحوزوا من العجر لأنفسهم مثل الذي حازه
هؤلاء ، وأن يرفعوا عن دوائيم فجمعوا من هذه الأمة [السيوييه]
ما يقرب من ثلاثة آلاف شخص ومائتي فارس . ورحلوا بهم على
نيقية .

وكان في ذلك الاقليم - وعلى بعد أربعة أميال من نيفة
نفسها - مدينة حصينة تقع على سطح أحد التلال ، فدنا منها هؤلاء
النيويون وهاجموها أعنف هجوم ، وأحدقوا بها من شتى النواحي ،
واسولوا قسرا على ذلك المكان رغم استبسال أهله في مقاومتهم .
لكمهم فكوا بهم وملكوا كل شيء في البلد ، ثم أعجبهم جمال الناحية
وغناها فحصنوها بحصنا قويا ، وأجمعوا العزم على البقاء هناك
حتى يصل القواد .

- ٢٤ -

كان [قلع أرسلان بن] سليمان [بن فطامس] صاحب هذه
الأرض وحاكمها قد علم قبل ذلك بآمد طويل بقدوم الزعماء
الصلبيين ، ومن ثم حشد جيشا كثيفا من السجعان الذين

لا يحصيهم العد من نواحي السرى ، نادلا فى سبيل ذلك كل وسائل
الاغراء والمال ، وعاد بهم الى هذه الجبهات ليمد يد المساعدة المنسودة
الى أمالى الناحية ابتغاء صد هجمات العدو ، فلما بلغه الخبر أن
التيوتون الذين ذكرناهم حالا قد استولوا على إحدى قلاعهم ، بادروا الى
الزحف عليهم ، وحاصروا القلعة حصارا شديدا ، وحكم السيف فى
رفاق كل من وجده فيها •

ووصلت أثناء هذه النكبة الى المعسكر [الصليبي] ، وسرعان
ما تردد الصدى بأن طائفة الميونيون الذين عادوا المعسكر منذ
قريب قد هلكوا عن بكرة أبيهم على يد فلح أرسلان . فأسبب الدعر
بنفوس القوم من هذا البيا ، ولم يستطعوا أن يكسوا ما اعلمت به
صدورهم من الأسى ، فأسلموا أنفسهم للبكاء والابى ، حتى اذا
أصبح الحريق فى النهايه معروفه لا حياء فيها عم الاضطراب جمع
الناس فى المعسكر ، وارتفعت صيحاتهم عالية تلج الحامى شديدا
الا يستكتوا عن هذه السكة التى نزلت باخوانهم ، وتنادوا بأن يهب
الفرسان والمشاة لحمل السلاح للخروج ثارا لسم رفاقهم المقوليين .
وكان أعظم رجال الجيش وأهل الخبرة فى مثل هذه الأمور راعين
فى اطاعة أوامر الامبراطور ، فلما أرادوا التغلب على هذا الموضوع
وكبح حماس العامة الطائشة ثار الناس ضدهم وتمردوا عليهم ،
ورأسوا عليهم واحدا منهم اسمه « حودفروى » ويلقب « بيوريل »
وكان صعلوكا ، وجعلوه قائد هذه العصابة ، وراحوا يصيئون اللعنات
على رؤوس أصحاب المكانة العليا ، زاعمين أن عدم اتاحة الفرصة
للانتقام بالسيف ممن قتلوا اخوانهم انما يرجع الى الجبن ، اكبر
من أن يكون صادرا عن تفكير سليم •

كانت العلبة أحيرا لمسته العناصر الشريفة ، فحملوا وراهم
النساء والأطفال والنسوح العزل من السلاح ، على حين سلح
القبائل . فجمع منهم رهط كانوا خمسة وعشرين الفا من المشاة
المدحج بالسيوف ، ومائتين من الفرسان المجهزين أحسن بجهر
بما عليهم من الرردباب ، وصعدوا صفوفهم للقتال ، ورحفوا في
الغابات المسار إليها ، وكانت وجهتهم ناحية التل في اعلم نيقة ،
وما كادوا ينقدموه ثلاثة أميال في الغابة حتى كان قد بلغها أيضا
قلح أرسلان على رأس جيش من قومه كالدبي كره ، وراح بعد
السبر سطر معسكرنا الذي ذكرنا موضعه من قبل ، قاصدا مباعسه
بالهجوم ، وترامب الى الاسماع صحاح وصحاح غير مألوفة صادرة
من العباب أنشأت أن الصليبيين قد غادروا مخسهم ، وأنهم في الطريق
لمهاصنه ، فبادر في لحظه الى مغادرة الغابة والنزول الى السهل
العسج ، ففعل رجالنا متلما فعل [قلح أرسلان] ، غير شاعرين
بأثرات العدو عنهم ، فلما اكسفوا أنه أدنى ما يكون اليهم هوا
للاقتضاض عله ، وراح كل واحد منهم بسجج الآخر وسد من
عريفه ، وأحاطوا به مسرعين سيوفهم لينقموا بأيديهم لدم اخوانهم
المراقدين لكن بسما كان رجالنا مندفعين الى الأمام بملوفا الحمة
والغريزة إذا استوف العدو نلقاهم ، وذلك لأن الترك - وقد أقتوا
أنه طرائع حتى الموت - قاوموا مقاومة عنيفة ، يذكها غضبيهم
العارم للأخيارهم بكنرة جندهم ، واستبسل الجانبان اسسبالا
قوتيا راتطيم لكن هارت الدائرة أخرا على الصليبيين بسبب كره
خصومهم ، ولما لم يستطع رجالنا أن يتحملوا شدة الحركة أكثر
مما تحملوا فقد اضطربت صفوفهم ولاذوا بأذيال الفرار ، فانقض
عليهم الترك بسيوفهم وتعقبوهم حتى معسكرهم ، وأعملوا فهم
مذبحة شتعة .

رأى دى حى عده المعركة بصعه رجل من دوى المتانه فى
معسكر بطرس ، منهم « وولير » الفليس ، و « ريسه دى بروس »
و « فولشر دى أرلمانز » وغيرهم .

أما الخمسة وعشرون ألفا من الجند المساة ، والخمسمائة
فارس الدين كانوا قد حرقوا من المعسكر ، فقد راح معطيهم ما بين
فيل وأسر .

- ٢٦ -

دبت الشوة الكبرى فى أعطاف فلج أرسلان ، وهزته العرحة
الطاغية لهذا النصر الذى حازه ، ولما لم يعد باقيا أحد قادرا على
مقاومته فقد حكم السف فى رقاب الأحياء ، عر مسبق تلى قد
الحياة أحدا مرصا كان أو محورا ، رحلا كان أو امرأة ، وهلك
الربان وجمع رجال الدين ، لم يمس من هؤلاء كلهم سوى من
لم يملعوا من الرشد من الصبان والببات الصغرات الدين كان
بعضهم عنده بهاء طلعيهم وصغر سنهم ، ولم تكن استنائه اياهم
الا لضرب عليهم الرق .

★★★

وكان على الساحل قرب المعسكر حصن قديم نصف حرب ،
ليس له أبواب ولا مزالج ، وليس من أحد يقم به ، فالبجان
الضرورة طائفة من الحجاج تقدر بثلاثة آلاف حاح الى الهروب الى
هذا الحصن والاعصام به ، اعتقادا منهم أنهم واجدون فيه الملاد
الأمين ، وحاولوا الدفاع عن أنفسهم فى موقفهم العصب هذا لسد

الحروب الصليبية ١ - ١٢٩

مداحاه بفروعهم رد لإحجار الصحه بدخروجها الى هناك . كى يحولوا بين أى أحد من الأفراب منه . ولكن الترك شددوا عليهم الحصار فلم تسح هذه السله المحصورين من الاستسسال دفاعا عنه حتى ردوا مهاجميهم على أعقابهم ، كما أرسلوا فى الوقت ذاته رسولا على حاح السرعة الى بطرس يخبره بهلاك جماعه ، وأن القله النافسه منهم على سد الحاة تكابدون حصارا شديدا ضربه العدو عليهم فى قلعة نصف خربة ، وأنهم فى مسس الحاجة للطعام والأسلح . فادر بطرس بالمضى من ساعته الى الامراطور ، واستطاع بوسلانه اليه وبصرعانه أن يحمله على أن يرسل فى لحظه هذه بعض الغراب الى هناك . وألقى لهذا العسكر أمره بانقاد الأحياء منهم من الخطر الذى يكسهم . فأنجروا ما كلفهم به على أنم وجه ، اذ ما كاد الترك يسمعون بأمر الامراطور حتى كفوا فى الحال عن مهاجمة ذلك المكان . واستحبوا ومن حلفهم أسراهم ، وعادوا الى نيقية ، كما حملوا بالاصافة الى ذلك أحسن الأسلاب والخم والفساطيط والحداد والمعال وجميع المجهرات التى يهبوها من الصلبيين .

وهكذا فان الطرس الجبوى الذى كان عليه هؤلاء القوم الجعاه عبر البطلمى ، انصرفوا عن الأحاد بمسوره من هم أحكم منهم قد أدى بهم الى الابادة الشاملة ، ولما لم يكونوا معتادين على النظام المحمود فقد سلكوا سبلا لم يجنوا من ورائه خيرا ، واصبحوا بها لسوف العدو .

بعد فترة وجيزة من وصول بطرس الى « سسبا » قام فسيمس
بوتوني اسمه « جوسوك » سار في أثر خطي بطرس يحده السرى
لأداء رحلته الحج هذه . ولما كان جوسوك قادرا بالطسعة على
اسمائه الناس اليه بكلامه فقد استطاع اعراء كبر من المديون
في جميع رحاب تلك المملكة على الاسنراك في هذه المهمة ، حتى نجى
لديه منهم فرامة خمسة عشر ألف حاج دخل بهم المحر ، لم داي
كندا . كما استجاب المجريون من حائهم الى أوامر ملكهم فعدهرا
المضائع بأثمان معقولة الى رجال جس « جوسوك » الذين انظرتم
وفرة الطعام بن أبدتهم ، فأسلموا أنفسهم الى البطانة والكسل ،
وانغمسوا في الشراب لعبون مه عبا ، وأساءوا السيرة مع الأهالي
والحقوا بهم شرورا كسرة اذ راحوا ينهسونهم ، وامدت أبدتهم
بالسرفة الى البضائع المعروضة للبيع في الأسواق العامة ، واخذوا
السينات فقتلوا الناس غير مراعين أصول الضافة .

فلما وصلت أخبار ما فعلوا الى الملك استبد به الغضب ، فأمر
أن ينادى في كافة أرحاء مملكته أن يحمل الناس وكبار ملاك الأرض
السلاح للقضاء على هذه الأخطار الكبيرة ، لا سيما وقد ارتكب في
كبر من الواحي تحاوزات مهلكة ، بلغت من العار حدا يهوى
الوصف ويعف اللسان عن ذكرها ، وكان من المسجل على الملك
أن يفض الطرف عن مثل هذه الجرائم والا اتهم بالجبن ، وحلب
على نفسه كراهة شعبة له ، ومن ثم تجمعت قواب الماكة ، وكروا
كرة رجل واحد غاضب على الصليبين ، باعناهم أعداء يستحقون
الاستئصال الدام ، وأجمعوا العزم على الفتك بهم انقاما مما احدثوا
من الآثام .

وأخيرا ننسى لهوات الملك أن يعير على طائفه من هؤلاء المجائين
 القوضويين فى مكان يعرف « ببلجراد » يقع وسط تلك المملكة .
 وكان هؤلاء (السونون) قد سمعوا بزحف الملك ، وأبقوا تمام
 البعير من حقه السديد عليهم ، كما أزعجهم شعورهم بما اقترفوا
 من الحرم ، ورأهم المجريون - وقد حملوا سلاحهم - عازمين على رد
 القره بأمره فأرادوا درأ الخطر عن أنفسهم ، لكنهم أدركوا إستحالة
 الاشتباك معهم دون أن يفعدوا الكنديين من رجالهم ، ذلك لأن هؤلاء
 المسحجين [السونون] كانوا على الواقع رجلا دوى بأس وشجاعة ،
 وهيمه فى استعمال السلاح ، فأبوا أن يسلموا أرواحهم من غير
 قتال ، ولذلك فإن المجريين - حريا على مألوف عاديتهم - حاولوا أن
 ساءوا بالحصاه ما يعجزون عن ببله بالعنف ، فأرسلوا وفاده الى
 « حوسوك » وزعماء حصه ، يطمئنون خواطرهم - خديعة -
 بالكلمات المعسولة .

- ٢٨ -

لقد قالوا لهم .

« أنه نراهم الى سمع الملك الشكوى المريرة من فعال جنسكم ،
 وصل له انكم أنزلتم برعاياه الخاضعين له كثيرا من الأضرار البالغه
 والأهوال التى يعجز اللسان عن ذكرها ، وأنكم ساربنتم حسن
 المعاملة التى عومل بها عسكريكم بأسوأ ما يكون الجزاء ، ومع ذلك
 فإن الملك يدرك بحكمته تمام الإدراك أنكم لستم حميما نحملون ودر
 هذه الجرائم ، وهو واثق أن فيكم رجلا حكما ممن تمتلئ قلوبهم
 بحسه الله لم يرضهم فعال الآخرين الشريرة ، وأن هذه الجرائم

الى آثاره عن حق الحق الملكي قد نمب على غير رضى هؤلاء وأنها حدثت وعم اسسكارهم ، ولا كانت رغبة الملك ألا يؤدى خطايا المسمى الى تأنيب الكل ، وألا يؤخذ البرى بحريه المذهب فقد قرر أن يكبح جماح غضبه حتى لا يصيب اخوانه فى الملة المسححة بضرر ، ومن ثم فإننا نشير عليكم أن سسسلموا وسسلموا كل ما معكم الآن ، بما فى ذلك سلاحكم ، دون قيد أو شرط ، واضعين ذلك كله فى يد الملك حتى يذهب عنه غضبه تماما ، فإن لم تفعلوا ذلك لم سسطلع أحد منكم النجاة من الموت - لأنكم - بوجودكم فى وسط ممالكه - لم سس أكفأ لها فى العوة الحرسية ، كما أنه لا قدرة لكم على الدعاة من بطسه » .

☆☆☆

ظهر منذ البداية عدم رضاء « حوسوك » ورؤساء حرسه عن المسلك الجنونى الذى سسله شعبهم العنيد ، لكن بساطة قلوبهم دفعتهم للقة فى اعبار رحمة الملك أمرا لا يخالف السك فيه أحدا ، ومن ثم فقد حملوا عسكرهم بالقوة تقريبا على الاذعان لفكره تسلم أنفسهم وسلاحهم وكل ما تملكه أيديهم الى الملك ، وبذلك يكفرون عما ارتكبوه من آثام حرجه ، وانتهى الأمر أخيرا برضائهم عن بكرة أسهم بما يفرر ، هذا على الرغم من احساحهم العنف ، ومماهم السديد للحرب دفاعا عن أنفسهم ، بيد أنهم ما كادوا يفرغون من تسلم أسلحتهم وجمع مناعهم لقواد الملك ورسله حتى وحدوا أبواب فى انتظارهم ، بدلا من العطف الذى كانوا يتوقعونه ، اذ قام المحريون صماغة التسوتون على غرة منهم ، وكروا عليهم فى الوقت الذى كان فيه هؤلاء عزلا من كل سلاح ، إباناً منهم برحمة الملك ، وثقة منهم به ، وأعمل المحريون قبيهم مدبحة من أسسع المذاييع فى السعد عن الانسانية ، دون تفرقة بين الصالح والطالح منهم وأسفر

الأمر عن عرق المكان كله في بحر الدم المطلول ، واملاته بحسب الصلي
واسهى الأمر بهلاك هذا الجمع الكفيف الذى لم يبق منه سوى بحر
قليل نجوا من الهلاك السامل ، ممن سملتهم رحمة الرب فلم
تأخذهم سيوف الجريين ، فعادوا الى وطنهم يفصون حبر المدبحة ،
ويروون نبأ المصير المشئوم الذى لقيه اخوانهم على من اربطوا بالعهود
ممن كانوا على وسك القمام بذلك الحبح دانه وأسدوا الصبح لهؤلاء ،
الحبح الجدد يوحوب اصطباع الحكمة فى سرهم ، واتخاذ أكبر قدر
من الحذر من هذا الشعب الدنيء ، لما ارتكبه من خيانة لن نمحي من
الأدهان .

- ٢٩ -

فى هذه الأثناء - أو بعدها بقليل - نجتمع من بلاد العرب
رمر كسعه لا يحصنها العد من النساء ، كانت تحركهم نفس الرعدة
[فى الحبح] ، وانطلقوا لم يزعموا عليهم أحدا أو سجدوا لهم
مرشدا ، وزحفوا من غير هدى ولا نبصر أو حكمة ، على الرغم من أنه
كان بينهم فى الواقع رجال من أصل شريف ، أمثال « نوماس »
دى لافير « و » كلاربولدوى فندبل « ، و « ولهم الجار » وكوب
هارتمان وغيرهم ، غير أن القوم كانوا لا يعرفون الانضباط فلم يطيعوا
هؤلاء السادة بأى صورة من الصور ، وضربوا عرض الحائط
بما أشار به عليهم أهل الحجى والبصرة ، فانطلقوا على وحوهم
حبا وهناك ، مقرفين الفعال التى يرفضها القانون ، ويركبون
ما يمله عليهم شهوانهم ، ومن ثم فقد ركبوا من الجنون والسطط ،
مع أن واجبهم كان بحسب عليهم أن يحملهم خوفهم من الله على السير
فى هذه الرحلة الباهضين بها سيرا كله طاعة للأوامر الالهية ، وأن

يلتزموا تمام الالتزام بالنظام فى حجهم الذى يقومون به من اجل
المسح ولكنهم كانوا لا يمرون بمدينة أو قرية الا ونبوا على من فيها
من يهودها فذبحوهم من غير أن يأخذهم رحمة ، ولم يكن اليهود
قد أخذوا حذرهم منهم اذ لم يكن هناك ما يحملهم على أن يوحسوا
منهم سرا فتخافونهم .

وقد وقعت هذه الاعداءات على وجه الخصوص فى مدنى
« كولوبيا » و « مسز » حبس كان الكونت « امبكو » أحد سلا
ومسهورى تلك الناحية الأقوياء قد انضم بالكبرى من سعوه الى
عصابات الخجاج ، وكان [امبكو] بالنسبة الى مكانه ملزما
بما تعرضه عليه هذه المكاة من التمسك بالأخلاقيات ، الا أنه لم
يكن بالمسحس ائدى بسحب التماور فى السلوك ، فستار على
العكس من ذلك ، اذ ساهم فيما ارتكبه أتباعه من أعمال الفساد
والسر ، وزاد على هذا فراح يسجعهم على انحراف الحرائم .

اخبرفت هذه الجموع كلها « فرانكوسا » و « بافاريا » حمو
تلعب ناحية تدعى « مسسمورج » (فمزيلورج) على بحره المجر ،
وكانوا يوقعون السماح لهم بالدخول من غير صسعوية ، لكنهم
ما كادوا يرون المدخل مغلقا فى وحوهم حتى وقعوا على هذا الحادث
من الجسر .

وكان فى الناحية قلعة متديده الحصانة بفصل حماة نهري،
« الدانوب » و « لبثا » لها ، وكذلك المستنقعات العميقة المحطة بها .

وتقول الأخبار ان عدد الحس الذى رحف الى هناك قارب
مائى ألف حدى من المساة ، وثلاثة آلاف من الفرسان .

يضاف الى ذلك أن ملك المجر أصدر أوامره بعدم السماح
لهؤلاء العسكر الراغبين فى عبور بلده بدخوله ، فقد نذكر الأحوال

التي كان قد أوقعها بعوان « جوسنوك » فحاف ان هو ان لهذا
العسكر بالدحول أن يدفعوا الى القنال لأخذ البئر ، لا سيما وأن
خير المجزرة الدائمة التي جرت حديثا قد عم السهل والجبل ، ويردد
في جميع الآفاق ، فحملت شناعة هذه الفعال الملك على الخرب .

وعلى الرغم من ذلك فقد اتصل هؤلاء الحجاج بالموكروك الميم
حراسة المدينة وبقواد العرق القائمة بحماية هذه الباحة وكان
اتصالهم يتم لسؤالهم الاذن لهم بإرسال رسل من قبلهم الى الملك
لمسكون منه الحصول على اتفاقية بغيرهم عبور تلك البادية .

وفي خلال هذه الفترة كان الحسد قد ضربوا مسكونهم في
مرعى مسوسيب بهذه الباحة ، وأقاموا في اسطارها مسجون عنه
سفاريهم الى الملك .

- ٣٠ -

انقضت بضعة أيام عاد بعدها الرسل الذين كانوا قد ذهبوا
الى الملك ، وأعلموا فسل سفاريهم فسللا تاما ، وحسبناك أبقى زعماء
الحملة أن لا رجاء في خير يأتيهم من ناحية الملك ، لذلك أجمعوا
أمرهم على تخريب بلاده الواقعة على هذا الجانب من النهر ، واضرام
النيران في ضواحيها ، سالكن بذلك مسلك الأعداء في أملاكه ،
وبنما كانوا ذات يوم منهمكين غاية الانهماك في هذا العمل اذا
تكوكة من رجال الملك قواها سبعمائة فارس قد عبرت الى
لحماية المنطقة من أن يعيث الأعداء فيها تخريبا ، فصادفوا على غير
انتظار جماعة الحجاج فلم يستطع الفرسان تجنبهم ، كما حال النهر

بسيهم وبني العوده الى الناحية التي جاءوا منها ، فاتي فرسان الكوكبة
أو حلهم مصرعهم ، ولم ينج منهم الا امر قائل فتدوا حناهم ورأوا
الاحياء بحلقاء المستنقعات حفاظا على حياتهم رحمانه لأرواحهم .

تملك السحابة الحجاج بما أحرروه من نصر على عدوهم .
فصمموا على بناء بعض الجسور ومهاجمة القلعة حتى اذا تم لهم فتح
الطريق بحد السف عزموا على دخول المملكة ، لذلك اسندوا جميع
عسكرهم لتحقق هذه العاية ، وعبروا الجسر الذي ورعرا حالا
من اقامتها ، وتمكنوا من الوصول الى الحصون والقلاع ، ثم دفعنهم
الجرأ للاستعداد لسف الأسوار وسق طريقهم الى الداخل ،
محتذى من دروعهم وقاء لهم ، وبجحت محاولاتهم الحادة فى فتح
ثغرات فى أماكن كثيرة من الأسوار ، حتى اذا باح ، ملهم بقطه صار
دخول الحجاج فيها الى المدينة أمرا مقرا ، واستند الأسى بهوس
المبعين بها الذين لم يعد لهم أمل فى البقاء على حياتهم ، اذا
بالصلبيين المهاجمين يصهم رعب مفاجئ أرسلته السماء هلع
له فلوبهم فدخلوا عن الهجوم وفروا يركن وراءهم معظم ماعهم ،
وعلى الرغم من أن ظاهر الأمور كان يسر الى أن النصر حليفهم وأنه
ليس هناك ما يبرر فرارهم ، الا أنهم ولوا على أعقابهم منهزمين ،
مدبرين غير مفلين ، ويقال أنه لم يكن ثم سبب وحده الا أن يكون
أثمهم الجمة وخطابهم الكثرة قد حلت عليهم مخطط الله لأنهم
كانوا قد غرقوا الى الأدهان فى لجة الكفر الذى يزلزل بالخوف فارب
أصحابه مصداقا لكلمات الحكم « هرب الجبان دون أن يكون أحد
بطارده » .

تبدل وضع المجريين الى ما هو أحسن حين رأوا القواف
الصلبية تلوذ بأذيال الفرار فانطلقوا انطلاق الفالبيين يتعقبون هذه
القواف التى أنزل الغزع المض بهم منذ قليل وكانت هذه القواف

المعادية هي التي لم تكونوا بسطعون دفعها حتى وهم وراء الاسوار
فى حماية المستعقب ، أما الآن فقد راحوا يطاردونهم من خلفا .
انفسهم ، ولم يكتفوا بس الفرع فيهم . بل رادوا فراحوا يفتلونهم .



فر من هؤلاء كوت « ابسكو » ومعه الجانب الاكبر من فوانه
المدجورة ، وعاد بهم الى وطنه .

أما الأمراء الآخرون الذين أسرب اليهم من قبل فقد فروا عبر
« كاريسا » حتى بلغوا ابطالبا الى عمروها ووصلوا الى حدود
« أبوليا » ومن هنا انحدوا نحو بلاد اليونان فى أبر اولئك القرا .
الذين قاموا هم أيضا بنفس هذه الرحلة ، والذين كانوا قد اصرحوا
عليهم أن يركبوا البحر الى « دورازو » .

ولقد تأثر العرب كله عن حق بهذه الحركة وبغيرها مما على
شاكلتها ، وراح كل أمه على وجه الغريب يرسل فوانها على حده .
وقد انفصل الواحد منها عن الأخرى ، فمضى للحج جماعات تحت
امره عادة معس ، وجرح آخرون من غير أن يرثسوا عليهم أحدا
لكن كان من الواضح أن الطريق الذى سلكه القوم عبر البحر كان
أقصر الطرق . بيد أنه أصبح مسدودا فى وحوشهم . بسبب
ما أنزلوه سكان هذه البلاد من المصرة والسرور الى حاويز كل
مدى وبسبب ما ارتكبه الحجاج الذين سبقوهم من حرم ، فأصابوا
به الناس من غير انهم اقرفوه .

من أجل هذا السبب واحة الذين جاءوا من بعدهم هذه ،
بالمة فى الحصول على عطف ملك المجر .



هنا ينتهى الكتاب الأول

الكتاب الثاني

جيوش الحملة الصليبية الأولى تزحف الى القسطنطينية

فصول الكتاب الثاني :

- ١ - موعد رحيل حودفروى والنبلاء المصاحبين له ،
وكيف تقدموا حتى بلغوا المجر .
- ٢ - رساله الدوق الى كولمان ملك المجر على لسان
« حودفروى ديس » ، ورد الملك على الدوق .
- ٣ - الملك وقوادنا يعقدون مجلسا فيما بينهم
ويرسلون بلدوين أخا الدوق « رهينة » ثم عودته
بعد احتيازهم المجر ، والملك يتحف الدوق بكنيز
من الهدايا .

٤ - عسكريا يهدم فى أراضي الامبراطورية ، ووصف
الدخول وملاحظة عن أحوال بلاد الاغريق
العسة .

٥ - الدوى يرسل مبعوثين الى الامبراطور يطلبون
منه اطلاق هيج المقيم وغيره من البلاء
الموجودين فى السجون . قواساً نذهب الاقليم
ثم تصل فى النهاية الى القسطنطينة .

٦ - الامبراطور يدعو الدوى للحضور اليه ، لكن
الدوى يرفض الدعوة فبسبب العداوة العسة
بينهما فيعيد الامبراطور الى حيلة ماكره بفسل
بها الجبس الى مكان عسه له .

٧ - وصف موقع القسطنطينة . الدوى يرسل
رسلا الى الامبراطور ، وحسنا يكابد المناعب من
الكسائن التى لم يكن يتوقعها والتى تصبها
الاغريق له .

٨ - الحس يعود الى المدينة ونسب معركة كبيرة
تتمخض عن مذبحه فطلعة فى الاغريق .

٩ - الناس يهرعون لحمل السلاح ويعملون بد
التخريب فى الناحية كلها ، ويسفر الأمر عن
توفر كميات ضخمة من المثونة فى المعسكر .

١٠ - وصول رسل من ناحية بوهيموند الى الدوق
جودقروى يحملون اليه رجاءه بعدم الذهاب الى
الامبراطور ورد الدوق على بوهيموند .

١١ - الامبراطور يرسل ابنة حون بورفير وحسن الى
الدوق رهينة عسده ، ويدعو حودفروى اليه
فيهذب حودفروى فتنبأه الامبراطور ويسقر
السلام بين الاثنين .

١٢ - الدوق يستأذن فى المعادرة فمره من الوقت
فيرحل محملا بالهدايا . عهد سوى للحجاج
وعزير عسكر الدوق الى البسפור وضربهم
خامهم فى الاقليم المحيط بخلقدوسا .

١٣ - اسراع بوهيموند فى العدم ووصف من كان فى
معينه من الكبار ويدبر الامبراطور الحطط
السرية لصيدهم .

١٤ - رسالة الامبراطور الكسوس الى لورد بوهيموند
وفام حسن الامبراطور بهجوم سرى على معسكر
بوهيموند والعرض على أسير فصيح بوايا
الامبراطور السرير

١٥ - الدوق [حودفروى] يخرج لاسقفبال الامر
بوهيموند وبسسر به رغم انه الى الامبراطور
الذى يستقبله باحترام كبير ، كما أن تاكريد
بحرك فى الوقت ذاته كتابه فى سنسنا فننضم
الى حسن الدوق .

١٦ - وصول روبرت كوت فلاندرز بجسده ودهابه
محروسا الى حصرة الامبراطور بناء على استدعاء
الاخير له . وأعداى الهدايا الجملة عليه ثم
عبوره البحر وانضمامه الى الزعماء الآخرين .

١٧ - كونت نولوز وأسقف بوى بحرفان دلماسا
بجبوشنهما ، ويلاقبان كثيرا من الصعوبات في
عبور هذه البلاد .

١٨ - سفاره امراطوريه مقابل الكوب في دورارو .
والبلغاريون يلقون القبض على أسقف بوى ولكن
سرعان ما يطلق العنايه الالهيه سراحه ، وحين
وصول ريموند الى « وودسو » يصله رسل من
الامراطور ومى فادننا مرة أخرى .

١٩ - الكوب يترك حبسه ويذهب الى الامراطور تكده
لا يوافق على وجهة نظره ، فعتمد الامراطور
- خيانة منه له - الى اصدار الأوامر بمهادنة
حيس الكونت .

٢٠ - الاعريق يباغون حيس الكوب أثناء عساده
فيحدم الكونت غبطا من الامراطور الكسوس
الذى يندى ندمه على ما جرى وبدفعه خوفه على
نفسه الى أن يطلب من الأمراء التدخل ويمطاهر
ببرائته مما حدث .

٢١ - الكونت يضافى مع الامراطور بسبب وساطة
القادة ويدعوه لمرافقة القادة الصليبين في
زحفهم ، أما القوات التى عبرت البحر فنسرع
الى نقيية ويسير الكونت فى أثرهم فى الحال .

٢٢ - وصول روبرت كونت نرمندى وأستاس - أخى
الدوق - بكتائبهما الى القسطنطينة واستقبال
الامراطور لهما بالترحب ووصلهما بالهدايا

الحمة ثم عمورها المسموم ومحتئها الى الرعاء
الآخرين .

٢٣ - اتصال أحد موظفي الامبراطور - واسمه
تاييكبوس - بزعمانا وبودده الهم وكان رحلا
شديد المكر مطبوعا على الحب الدنيا .

هنا يبدأ
الكتاب الثاني
جيوس الحملة الصليبية الأولى تزحف الى الفسطنطينية

- ١ -

في نفس هذه السنة ، أعنى سنة ١٠٩٦ من مولد السيد المسيح ، وفى اليوم الخامس عشر من شهر أغسطس ، قام « جودفروى » دوق « لوثاريخيا » العظيم المبجل بجمع أصدقائه فى رحلة الحج ، وأعد أمتعته بالطريقة المألوفة ، وكان خروجه بعد رحيل « بطرس الناسك » أثر الطامة الكبرى التى حاصت به وأشرنا إليها ، وفى أعقاب مذبحة جماعة « هوتشوك » التى ذكرناها أيضا ، وبعد التكبىة الأخرى التى حرت على حدود المجر ووصفناها سابقا ، وقلنا انها نزلت بالجيس الذى جاء من بعده ولقد انضم الى معسكر « جودفروى » رجال من ذوى المكاة السامية ، الحديديين بخلود الذكر ممن ربطوا أنفسهم به ، وهم لورد « بلدوين دى مونس » كونت « هنتولت » ، ولورد هنج كونت « سنن بول » ، وابنه « انجراند » وكان شابا غرائقا عالى الهبة ، وكونت « حارنسه » المعروف بجرأى ، ولورد « رينار » كونت نول وأخوه بطرس ولورد بلدوين « دى بيرج » أحد أقارب الدوق [جودفروى] ، ولورد « هيرى ديش » وأخوه « جودفروى » ، و « دودو دى كونسى » ، و « كونون دى موباج » وكثيرون غيرهم ممن لا نعى اسماءهم ولا ندرك عددهم .

ولقد سار هؤلاء جميعا فى طريقهم فى هدوء مسيره طائفة واحدة مرابطة ، حتى اذا كان يوم ٢٠ سبتمبر بلغوا سالمين معاين ناحة فى ولاية النمسا نعرف باسم « مولنهورج » حيث يكون نهر « لبا » الحد الفاصل بين اقاليم الامبراطورية وبلاد مملكة المجر .

وحين بلغ هؤلاء هذه المدينة وقعت عليهم وقع الصاعقة احبار النكبة التى قبل انها حاف بجوسوك وعسكره ، فساور بعضهم مع بعض كنف ينسبى لهم السر فدما فى امان حتى يسم لهم احبار العمل الذى ازمعوا الصام به ، فانفق رايهم فى النهاية على وجوب ارسال سفارة الى ملك المجر تقضى منه السبب الذى ادى الى هلاك حسن اخوانهم الذين سبفهم فى تلك البلاد على هذه الصورة .

وزيادة على ذلك فقد كلف الرسل الموفدون بايجاد فرصة للنفاهم مع الملك حول اسباب السلام ، وأوصوا أن ينحلوا جانبا عن اثاره الشكاية من الخصومات السابقة ، حتى يتمكنوا من الحصول على اذن يملكون به سالمين عبر المجر ، لأنهم لو راحوا يبحثون على طريق آخر يسلكونه بعد أن بدأوا مسيرتهم فان خسارهم تكون فادحة . ومسقتهم التى يلقونها عطمة ، لذلك اخبروا لهذه السفارة الشريف « حودفروى ديش » أخا هرى ، مع طائفة معينة من دوى المكانة العاليه والرسم النبيله ، وكان احبارهم [حودفروى ديش] راحا الى روابط الود والصداقة التى كانت تربطه منذ سنوات طويلة سالمة بملك المجر ، فمما صار [حودفروى] فى حضرة الملك حماد بما تلقى مكانه ، ثم ألقى على مسامحه بما كلف أن يقوله :



قال :

« لقد جئنا الى جلالكم مبعوثين من قبل السسل السرى
جودفروى دوق لوئارنجيا » ومن فى صحبه من العاده الآخرى ،
عماد الرب المرافقين له ، والصادقن فى طاعهم للاراده الربانية .

« وابهى لنوافون أن نعرفهم السبب الذى من أحله عومل شعب
مسحى طالعتنا حنهم على طول الطريق هذه المعاملة الى بكرها
الانسانة على يدكم ، واسم أمة ذاعت شهرتها بين الأمم بأنها من
الشعوب المؤمنة المخلصة ، وكأنه كان من الأسلم لهؤلاء المسحجين
لو أنهم وازوا وحوهم شطر بلاد العدو فسلوكها ، فان كانت حرائم
هؤلاء الناس شعبة بشاعة اسحفوا من أحلها العقاب الشديد فان
الذى أرساوى الك مسعدون أن يحملوا - عن طيب خاطر -
اصلاح ما أفسدوه ، ذلك لأنه اذا كان الجرم يعادل العقوبة كان
ذلك عدلا ، ولن نثير غضبا كبيرا ، بل ننمى أن ننقبله فى صبر .

« أما اذا لم يكن الأمر كذلك ، ولم يكن هناك مبرر لمهاجمتكم
الأبرياء . فان زعماءنا لا يقبلون السكوت وغض الطرف عن النكبات
الى كانت من نصيب خدام الرب ، بل انهم مستعدون للنار لدم
احوانهم ولذلك فانهم ينتظرون أن نوافهم بالجواب عن كل هذه
الأمور ، وسوف سخذون قرأهم بما تنفق وخلصه ، يدكم » .

وختم جودفروى دبش خطابه بهذه الكلمات .

فأجابه الملك وهو محاط بكبار رجاله .

« أيها العزيز جودفروى ، يا من حبواته منذ زمن بعيد بمودتنا
الى هو أهل لها ، انه لسعدنا أن تكون قد أتيت لا لجدد صداقة

الايام الحالية فحسب بل ولتسمعنا ونحن نؤكد براءتنا أمام حكم
عادل مثلك .

« اننا - كما قلت بحق - في عداد المؤمنين ، واننا نستطيع
بأعمالنا أن نعلی من شأن هذا الاسم ، ولكن الذين سبقوكم من أساع
بطرس الناسك وذيول جوتشوك ومن بعدهم ممن حاولوا الاستيلاء
قسرا على إحدى قلاعنا القائمة على أطراف المملكة ، واقتحام مملكتنا
بالعنف ، لم يذكروا في الواقع من أساع المسح . ولا أهلا لحمل
هذا النعب ، فلقد احفلنا ببطرس وحسنه في بداية الأمر احنالاً
كريماً ووهبناهم ما عندنا من السلع مجاناً وبمن رخص . ولكنهم
رغم ذلك كانوا كالحية تختبئ في الصدر أو كالفأر في صوان
الملايس ، اد ردوا احسان المضيف أسوأ رد ، لانهم بدلا مما كان
بحسنه عليهم الواجب من مجازاتنا بالشكر على ما نفعلنا به عليهم ،
اذا بهم يقتحمون واحدة من مدننا الواقعة في أقصى نجوم المملكة ،
ويكون ناهلها فنكا دريما ثم يرحلون في حسة اللصوص . سائقن
أمامهم قطعان الماشية والأغنام ، وحاملن معهم ما سلبوه ، وعلى الرغم
من هذا الفعل الذمسم فقد أذا لجيوش حوتشوك بالدحول دون أن
تكلفة رهقا أو شيا ، كانتنا لم نلق أذى من الجيوش التي سبقه
في المجيء ، لكن رجاله لم يترددوا بدورهم في النهب ، ولم يكفوا عن
العنف ، ولم يتحروا عن اضرار النار ، بل انهم لم يتورعوا عن
سفك الدماء لأوهى الأسباب وأتفه العلل ، ومن ثم فقد أغضبوا الرب
منهم بسبب شناعة جرائمهم .

« ولما لم يعد في طوق صبرنا قدرة على تحمل ما أمرأوه من
البلايا برعايانا ، فقد صبح عزمنا على القسام ببعض ما فيه علاج
لهذه الظروف الخطرة ، فدللتنا تجاربنا الماضية على أن الحكمة
تقتضينا أن نوصد أبواب مملكتنا في وجه هذه الجماعات المؤلفة من
فجرة أوغاد ، حتى لا نككب للمرة الثالثة على أيديهم ، فكانت

محاربنا اياهم كأعداء خيرا مما يرلونه بنا من اهانات ، ويلحقونه بنا من الخسائر العادة .

« فليكن اذن فيما فصلت عذرا لنا عندك ، وأب الرجل العطر اللبيب ، فوالله لقد بنا الحق الصراح كما جرى » .

ولما فرغ الملك من قوله هذا أمر بإسنصافة الرسل أحسن ضيافة ، وأن يعاموا بوافر الاحترام حتى يسقط - بعد مساورة رحاله - اعداد رسل الى انعادهم [الصلبيين] يحمون الشهم الرد الملائم ، ثم تعب أخيرا الى الدوق والى القادة بعض أهل بيته صحبه السفراء ، وحملهم هذه الرسالة البالية .

« لقد سمعنا وحاءنا الأخبار الصادقة منذ أمد بعيد بأنك بعد عن حى أمرا عظيما حاملا ، كبر العذر في فومه ، كما أن العلاء - وان بعدوا عنك أرضا - لبينون على صدق ايمانكم ، وتباب حناكم نبانا مسكرون عليه ، وقد شدنا اليكم حسن الأحذوثة عنكم ، وبطولة أعمالكم فرأينا أن نحسبك حتى فى غيبابك ، وأن نجوكم بمطع أكبر . ونحن نعتقد أن الرجال النبلاء الذين أرسلهم ، والذين يعاملونكم أيضا فى بحمسهم للعقيدة المسححة ، قد قاموا كذلك بعمل كله بقوى . ولما كما عازفين كل العزوف عن أن يعنور القصور والبراخى ما يمتنا من ود بسبب عمل غير مرض ، فائنا على استعداد لأن نعمل كل ما يزيد هذه المودة نماء ، ونبذل العطف للجميع ، ونعاملهم معاملة تنطوى على الحب الأخوى » .

وها هى دى الفرصة قد وائتنا لندرجوكم أن تتفضلوا بالمضور الى فلعتسا « سيبيرى » لنعتقد وإياكم مجلسا طال اشتاقنا له وتطلعنا اليه ، وحى نكون قادرين على الوصول الى سلام ينلام مع رغباتكم » .

بعد استماع الدوق الى رسل الملك ومشاوراته اصدقاءه ،
غرب يوما معينا مضى فيه الى المكان الذى قسم له ، مستصحبا معه
ثلاثمائة فارس من الصفوة المسفأة من رجاله ، فلما احسار الحرس
وحشد الملك الذى استقبله أروع استقبال ، وخصه بأسمى آيات
الرحوب . وأبدى كل منهما لصاحبه الصداقة الحميمة . ثم انفقا
فى النهاية على تبادل الرهائن الذين يخاروبهم من عليه القوم ،
كما انفقا على ألا يطرؤ صدور الحائنين على كراهة بعضهم لبعض ،
وان يعود السلام بين الفريقين ، فلما تم قبول هذه الشروط أذن
الملك للدوق وعسكره بدخول المملكة .

ورغبة من الملك فى أن يزداد قلبه طمأنينة اذ يسمح بدخول
مثل هذا الجنس اللعوب الذى قد يحدث - بطريق الصدفة المحضه -
أن يوسل نأى ذريعة لاحداث ما يكون فيه مضايقة للملك اعنادا منه
على كثرة عدده وشجاعته فقد سألهم أن يعطوه بلدين - أخا الدوق -
وروحه وأهل به رهائن عنده ، فوافق الدوق على ذلك ، وأسلم
أخاه رهينة كما اتفق على ذلك من قبل ، ثم دخل المملكة راضى النفس
قرى العين بعسكره ، وحشدك أصدر الملك - وفاء بوعد - قرارا
يقضى بتقديم الطعام اللازم للحد فى كل ناحية يملكون بها من نواحي
المملكة لقاء سعر معقول ، وألا يطفف عليهم فى الكيل ، وزيادة على
ذلك فقد أمر بأن تصحب الحش سوق يناعون منها ما يريدون .

أما الدوق فقد أمر من جانبه أن يبادى المتأدبون فى أرجاء
العسكر ألا ينهب أحد شيئا ما أو يلجأ للعنف أو السده مع من
يأتون الى الحش ، والا كان الموت حزامه ومصادره كل ما بيده ،
كما أمر أن تجرى معاملات البيع والشراء فى جو من السلام والمحبة
الأخوية .

وهكذا قدر لهم - بفضل من الله - أن يعبروا كل بلاد المجر في سلام لم يعكر صفوه أحد من الطرفين ، ثم مسى الملك برهائنه إلى يسار الجيش على رأس قوة كبيرة من حرسه الخاص ، وهو على أم أخته لأن يخمد في الحال أي سعب قد يحدث ، فلما وصلوا أحرا إلى « سملين » التي تكررت الإشارة إليها بوقفوا على شاطئ نهر الساف . حتى تم اعداد ممر للعسكر [الصلبي] ، ولما لم يحدوا سوى بصبح فوارب قليلة لا تكفي لعمل قوم كثيرين كهؤلاء القوم فقد جهز أرمات لهذا الغرض ، وأقاموا ألف فارس في كامل سلاحهم لحراسة الشاطئ الآخر ضد ما قد يكون هناك من كمين بصصة العدو لهم حتى يسر للجيش - بعد عبوره النهر - أن يحد مكانا هادئا بوفرت فيه أسباب الراحة .

وحسبك أخد الحجاج يسفلون إلى الجانب الآخر في لهم وشوق .

ما كاد [الالاس] وبعض رعمائهم يحازون النهر حتى أسرع الملك بالقدم مسسحبا معه حرسا كثيرين ، وأسلم بلدين وزوجه وبقة الرهائن إلى الدوق وفق ما اتفقوا عليه في البداية ، ثم وصل الدوق ومن معه من العادة بالغالى الثمين من الهدايا التي وصلهم بها الملك مكرما لهم واحلالا لغدرهم ، ثم عاد الملك بعدئذ إلى قصره .

حسبك بادد الدوق مع القادة الآخرين وبقة الناس إلى السبر وراء الحند الذين كانوا قد عبروا النهر إلى الشاطئ الآخر ، حتى إذا وصلوا إلى بلجراد - إحدى مدن بلغاريا التي أشرت إليها من قبل - نصب الدوق خيامه ، فلما فرغوا من ترتيب مناعهم ، وبها الجند للرحيل ، شقوا طريقهم عبر غابات بلغاريا وأدغالها الشاسعة الكثيفة ، فملقوا أول ما بلغوا مدينة « نيس » ثم « سترالمكا » .

من اليسير على المرء أن يدرك ما عليه الاغريق من النعاسة وأن يعرف مدى الضعف الذى بلغت الامبراطورية حين يساعد أوصاع الأماكن التى كانت فى السالف ولايات غنية ، حافلة بكل ما سببه النفس من السلع والمجبر ، لكن حدث بعنه انهاء حكم أمراء القسطنطينة اللذين أن وقع الامبراطورية بسبب أخطائها ودماعها تحب ساطان اليونان بزعامة نغفور الأول ، فاعتمد شعوب المظفحة الفرصة فرصة ضعفها وبادرت فى الحال الى سن سلسلة من الامارات على الاراضى الخاضعة للامبراطورية ، وراحت تعامل السكان دوى هوراها .

كان من بين هؤلاء الغزاه جماعة « البلغار المبربرين » ، الذين لم يتخذوا نبط من الحصاره ولكنهم أغاروا عليها من الشمال . وبسطوا ساطانهم على حسم الاقطار الممتدة من الدانوب حتى مدمه القسطنطينة الامبراطورية ، وكذلك الى بحر الأدرياتك ، وبحم عن ذلك أن اضطرب أسماء الولايات واختلطت الحدود بعضها ببعض . وأطلق اسم « بلغاريا » على كل الاصقاع التى طولها مسيرة شهر ، وعرضها عشرة أيام أو أكثر . ولم يدرك الاغريق الاضعاء أن هذا الاسم بالذات كان دللا على اللعنة التى انصبت عليهم ، ذلك لأنه كان بمع فى القديم على بحر الأدرياتك ولايا « ابروس » وكانت عاصمة احدها الكبرى هى « دورازو » التى كانت فى وقب من الاوقات فصبة برهوس « ملك الأبروت » وكان رحلا شعاعا وكان موضع الاعجاب من الناس .

كان الافليم الذى يوشك أن يحارزه الدوق [جودفروى] على رأس جسده نائف من ولايتى « داكيا » وأعنى بهما داكيا (رېنيسس)

وهي التي تكون على يسارهم حين عبورهم الدانوب . وداكا المحررة
التي مروا بها في طريقهم ، ومنها مدينتا بيس وسبرالكوا
الرائعتان .

كذلك كانت توجد ولايات أخرى في نفس المنطقة هي اركاديا
وساليا ومقدونيا وأقاليم براضا الثلاثة التي قدر لها أن تسمى نفس
الخط العابر [الذي لنفسه الامبراطورية] لم تكن هذه الولايات كلها
هي وحدها الأملاك التي صاعق من يد الاعريق بسبب ضمهم ،
ذلك أنه لم يكن مسموحا لأحد ما أن يقيم في الأراضي الواقعة في
الولايات القاصية ، ولا يجوز له زراعتها حتى بعد أن أخصح الامبراطور
« باريل » الاعريق نفس السعب البلغاري . وكان واضحا على وجه
الخصوص في حالة الأراضي الماخية لحدود الممالك الأحيية والتي
كانت تمتد الى بلادهم وأعنى بها ولايس « داكا » . ولا يزال نفس
الوصف مطبقا حتى اليوم . ولما كانت الناحية بأحييها « مخطاه
بالغابات الكثيفة والنباتات المتناسكة قام نك ثم أحد بقادر على
اخراجها حتى ولو رغب في ذلك ، ورجع هذا الى أن اليونان وصعوا
ثمنهم الكمرى في العواثق التي تعود الى صعوبة الطرق وكثرة أسحار
العوسج والسوك التي كانت تعبر وسائل دفاعة بفوق ما يستطيعه
قوات اليونان الدفاعة .

ونهج اليونان هذه السياسة داتها فركوا « بروس نيموس »
أرضا عذراء خالية من السكان ، حتى ان الغابات المهجورة والأحراج
الموحشة أصبحت لا تنتج طعاما ، وصارت عقبة كداء في وجه من
ينبغي دخولها ، وكان هذا الافلم الذي لابد من أن يجنازه بقية
القادة الآخرين يبدأ عند « دورا زو » ويمتد مسرة أربعة أيام في
الجال المسماة بجال اللقان .



سار الدوق بمن معه من العسكر عبر داكنا البحريه المعروفه
أيضا باسم « موزيا » ، فلما احراز الأجراس المسماة عادة بمجر سابت
بازيل صادف ناحيه أكثر اساعا ورفاهة أمدته يكمناب وفترة من
المتنوه حتى جاء الى مدنه « فليسو بوليس » الجمبابة ، الآهله
بالسكان . وهذا علم بما فعله الامبراطور من رح هيج الكبير - أحي
ملك فرنسا - في السجن مع ثله من رفاقه النبلاء ، فأرسل على
جناح السرعة وفي لحظنه رحلا من قبله الى الامبراطور . ولاحه
بالرسل ملحا عليه أن يطلق سراح هؤلاء الرجال . ويلومه على
ما أنزله بهم - وهم الذين وهبوا أنفسهم لرحلة الحج نفسها - لكنه
سحين من غير حرم ارتكوه .

وكان هذا الرجل الوحه [هيج] أول القاده حمعا في الخروج
الى الحملة ، وفد احراز جبال الألب ودخل إيطاليا ، ثم عادرها الى
« أبوليا » حيث أبحر في حراسة قليلة ، وتوقف في « دورارو »
في اسطار القادمين وراءه ، ولم يكن يخطر بباله أبدا وقوع أي خطر
عليه ولا على من معه ، وهم في مملكة الاغريق المنظور اليهم بأنهم
يعتقون المسححة . عبر أن والى هذه الباحة ألقى العيص عليه وزح
به في السجن ، لسلمه الى الامبراطور كي يقضى فيه بما ساءه
ارادته الملوكة ، فحسسه الامبراطور كما لو كان لصا أو سفاكا
للدماء ، وكان الامبراطور سطر وصول القادة الذين قالوا انهم في
الطريق . فاذا قدر لهم النجاح في الحضور أطلق سراحه كند بمن
بها عليهم ، أما ان كان الأمر غير ذلك فاسوف سقنه أسرا طول
حياته .

كانت الامبراطورية النوبانية في هذه الآونة تحت حكم رجل
ماكر يدعى « الكسبوس » وبلغ « كومسوس » ، كان يعبس من
قبل في القصر الامبراطوري ، ويشغل وظيفة كبير الحجاب التي
تطلب به واحدا ، وهي وظيفة سميها نحن [اللاس] بحاحب
الحجاب ، أو مدبر شئون القصر ، ويجعله في مكانة بي مباشرة مكانة
الامبراطور ، مما أصبح عليه تقديرا كبيرا عند الامبراطور « نفور »
الملقب « سوبوناس » صاحب الصولجان في هذا الوقت ، لكن ذلك
الرجل [الكسوس] خان ولى نعمه [نفور] وكان ذلك قبل
مجيء شعما بحمس سنوات أو ست فخلع مولاه ونقله الأمر بدلا
منه في الامبراطورية ، وأصبح مالكا لها الآن اعصانا .

وجاء رسل الدوق الى الامبراطور ، وراحوا يتعذرون بالعلل
المقاه لهم ويسألونه في الحاف أن يطلق سراح هج ورفاقه ، فلما
رأوا اصرار الامبراطور على رفض رعايتهم عادوا الى الجنس الذي كان
اد ذلك عد حاور « أدنه » وبرل للاستجمام في أحد النيهول .

ولما علم الدوق والقاده الآخرون عن طريق معرنتهم أن
الامبراطور لم يمس بالحرية على هؤلاء الرجال [هج ورفاقه] انفق
رأيهم حصصا على الاذن لعسكرهم بنهب الافلم ، واد طالب اقامتهم
هنا ثمانية أيام سويا فقد دمروا الناحية دمارا شاملا . لكن ما كاذب
أنباء ما فعلوا تصل الى سمع الامبراطور حتى بعث رسلا من لده
الى الدوق يرحوه - عن طريقهم - أن يكف أيدي جنده عن أعمال
التحريب هذه ، ويؤكد له أنه مستجيب لرجائه ، ومطلق سراح
الأشراف الذين في حبسه ، فقبل الدوق هذا الإجراء بنفسه حزلي
وأمر جنده بالوقوف عن مباحة السلب والنهب ، ثم سار بعدئذ الى
مدينة القسطنطينة مسطحها قواته في أحسن نظام ، فلما صار

أمامها أمر جسده ، القوى الباس ، الكثيف العدد ، ينصب خيامهم
هناك وإقامة معسكرهم .

أما السلاء الدس أسريا النهم وهم : هيج الكبير و « دروحو
دى نيسل » - و « وليم » النجار . و « كلاريبولد دى فمديل » .
فقد قدموا من المدينة لمقابلته ، ثم ذهبوا الى المعسكر شاكرين له بده
عليهم فى تحريرهم من أسرهم ، فاستقبلهم الدوق استقبالا نفص
بالود ، وحباهم بما هم أهل له من التعظيم ، واستبقاهم معه بمرس
الوقت مسبغا عليهم عطفه ، ومواسمهم مواساة الأخ لآخوانه يساركيم
آلامهم التى بحملوها ظلما .

- ٦ -

لم يكن هؤلاء يعرفون من عناق بعضهم البعض ومن تبادل
الأحاديث الرفقة فيما بينهم ، حتى وصل واصل من جهة الامبراطور
[ألكسسوس كومين] بحملون الأوامر بوجوب اسراع الدوق للمول
بالقصر الامراتورى ولكن فى حرس قليل ، غير أن الدوق رأى - بعد
مساورة أصدقائه - أن يرجئ ذهابه اليه ، مما أغضب ألكسسوس
غضباً حمله على رفض الاذن لهم بعقد سوق يبتاع منه العسكر الوافد
مع الدوق ويشترون ، بيد أن ما صار فيه القوم جميعا من مسس
الحاجة الى المثوبة وولة ما لديهم منها ، حمل القادة مرة ثانية على
الانفاق على احناج تلك النواحي بجماعات مسلحة كبيرة ، وعادوا
بسوفون أمامهم قطعان الماشية والأغنام التى غنموها ، ورجعوا الى
المعسكر وقد فاضب أيديهم بشتى أنواع المأكولات ، حتى ان الرعاع
منهم أصابوا منها وفرة ضخمة أصابتهم بالكظة .

ولما رأى الامبراطور أن المنطة قد عرضت للحريق والنهب ،
خاف أن تتطور الأمور الى ما هو أفدح من هذا فأمر بعقد السوق ،
ولما كان يوم الأحزان لمولد سيدنا قد قرب مواعده ، وصار على
الأبواب فقد أصدر الزعماء - احتراماً للدين - قراراً ينهى الجند
عن النهب وارتكاب الموبقات خلال هذه الأيام الأربعة ، فانقضى العد
في أتم هدوء وسلام .

ثم جاءت بعد ذلك رسالة من الامبراطور سسل كلماتها رده
وعذوبة ، وإن انطوت على الخديعة ، يسألهم فيها أن يخرج الجيش
عن طريق الجسر المجاور للقصر المسمى بمصر . بلاشرباي « وأن
يقيموا في القصور المتعددة المتناثرة على شاطئ البسفور ، فاقبلوا
في يسر على تنفيذ هذا الأمر ، لأن طلائع النساء الذي كان على
الأبواب كانت تزعجهم أشد الأزعاج ، كما ضربتهم العواصف النلحة
بشدة لم يسبق لها مثيل ، حتى أن الخمام لم تمنع المطر من التسرب
اليهم ، فتولاهم الجزع من الخطر الذي يهدد الطعام وسائر معادياتهم
بالفساد والعفونة بسبب المعرض الدائم للرطوبة ، ولم يكن هناك
من انسان ولا حيوان ولا ذى روح بقادر أن يحمل أكثر من هذا
البرد القاسى الذى كان يخرق كل شيء ، وعجزوا عن مجابهة البلوح
الكترة ، ناهيك بالبلل والمتاعب التى لحقت بهم وكانت فوق طاقتهم .

وعلى الرغم مما كانت تحمله كلمات الامبراطور من العطف على
الحجاج ، الا أن هدفه الحقيقى كان يخلف عن ذلك تمام الاختلاف .
فقد كان السبب الجوهرى لهذا الانفصال هو أن يصحح العسكر أقل
حرية فى التحرك هنا وهناك ان هم صاروا فى بقعة محدودة ، كما
تزداد قدرة الامبراطور فى كبح حمايتهم والسطرة عليهم .

ولكى يكون هذا القول أكثر وضوحاً فلابد من إبراز بعض
الحقائق عن موقع تلك المدينة المذكورة أعلاه .

ان بحر بطس [البحر الأسود] الذى يحذ اسمه من الاقليم
المحاور له يقع على بعد ثلاثين ميلا من شمال القسطنطينية ، ويكون
جزء معين من هذا البحر على شكل نهر يتحد جنوبا عبر مسالك
ضيقة . ثم يسقط مجراه لمسافة قدرها مائتان وثلاثون ميلا ،
يخترق فيها مدينتى سيستون « وابيدوس » الموغلنن فى القدم
ونفع احدهما فى أوروبا ، والأخرى فى آسيا ، ثم يصب فى الهامة
فى بحريا الأبيض المتوسط ، وعند خروج هذا الماء من البحر الأسود
ينتشر لثلاثين ميلا فى مجرى يسد من الممر الأول الذى دخله ويكون
فى الناحية الغربية خليجا يعرب طوله من حيسه أمال الى ستة ،
وعرضه ميل واحد ، ويسمى هذا المجرى الضيق الذى يسد لثلاثين
وبلدين ميلا من البحر الأسود الى البحر الأبيض المتوسط بالسفور
أو « بروبونس » أو « هيليسبونت » ، ويشهد بذلك « مولوس »
فى الفصل السابع عشر من مذكراته حيث يقول « ان خليج أوربة
الرابع يبدأ عند الهيليسبونت وينتهى عند بحيرة « ماوتس » والعرض
الكلى لهذا المجرى المائى الذى يفصل أوربة عن آسيا يتحول الى
مضيق يتألف من سبعة روافد ، وهذا هو البسفور الذى عبره
اخرسيس على حسر من العوارب أمر باقامه ، ويجرى الماء من هنا
على شكل قناة الى مدينة « بريانوس » الآسيوية التى اسولى عليها
الاسكندر الأكبر أثناء مروره بجوارها حين كان يتطلع لعزو العالم ،
ويسع هذا المجرى المائى مرة أخرى ويتحول الى سطح واسع جدا
من المياه فسمى بروبونس [أى البسفور] - أما الآن فانه يضيق
الى مسافة عرضها خمسمائة خطوة ، ويصبح بسفور براقما الذى
نقل « دارا » حننه عبره .

وببدو أن هذه الأسماء ترجع فى أصولها الى الشعراء القدماء

فسمى البسفور بهذا الاسم لما يقال من أن جوبسر سكر في شكل
ثور حاملا عمر مدهه « أوربه » اسم أجسور .

وجاء اسم هيللسبوننت من « هله » أخب « مركسيس » الذي
تزعى الأسطورة أنه عبر هو الآخر البحر بأخيها على ظهر كس ،
وهو يعبر الحد الفاصل بين أوروبا وآسيا ، ويعرف عادة باسم ذراع
سنت جورج وقد ذكرنا طوله ، أما عرضه فلس منساويا في كل
الأماكن ، ونظرا لموقع الأراضي المحاورة له وطسعة نكويها فان عرضه
الآن يصل الى ميل ، ثم نسمع حتى يبلغ ثلاثين ميلا أو أكثر .

وأما الخليج الذي يمد الى الغرب فنكون - كما ذكرنا - واحدا
من أشهر موانئ الدنيا وله مرفأ رحب ، وأما المدينة التي تكلم عنها
فقع في راية بين هذا الخليج وبين السفور ، وكانت تسمى في
العديم بربطبة التي كانت موضعا لا يعتد به ، والأعلب أنها كانت
آخر المدن في براصا ، أما الآن فهي أسعد المدن حظا اذ تحمل اسم
الامراطور الذي راد فيها حتى أصبحت قصبة الولايات كلها كما
صار مقر الامبراطور ، وأصبح اسمها بفضل مكانها المسارة
صافسا لاسم سديتها رومة .

وتذهب الرواية الواردة في الكتاب الثالث « لبول أورسياس »
الى أن تأسس هذه المدينة كان على يد « ناوساوسوس » ملك
الاسرطس ، وهي على شكل مثلث عبر منساوى الأضلاع التي يمد
أولها من تلك الزاوية الواقعة بين البحر وبين هيللسبوننت حسب
نوح كيسة سنت جورج المعروفة باسم « مانحاما » ، وسند هذا
الضلع بأعنداد المناء الى القصر الحديد المسمى بقصر بلاشرباي .

أما الضلع الثاني فيمد على طول السفور من عند دير سنت
جورج الى البوابة الذهبية .

وأما القسم الثالث فيمد بطول الافليم من نفس البوابة الى قصر بلاشيرناى المذكور حالا ، وهو محصن بالأسوار والأبراج ووسائل الدفاع الخارجية ، ويوجد عنده نهر يصب فى الميناء وهو صحل جدا فى الصنف ، أما فى الشتاء فنغزر مياهه بسبب قنصان مياه الأمطار مما تصح الحصر معه ضرورة لاند منها .

★★★

ولما احار جيسا هذا الجسر مضى الى الواحى التى حصنت له فى بعض المانى الكثيره العائنه على امتداد ساطيء البسفور . وهى الدور الواقع بين مياهه ومياه البحر الأسود ، وحدث فى اثناء انتظارهم قدوم العادة الآخرين أن نسلم الدوق عدة رسائل من الامبراطور . برجوه فيها السخوص اليه ، غير أن عدم اطمئنان « حودفروى » الى صدق الملك وتخوفه من الاجتماع به حملاه على الاحكام عن استجابة دعواته ، وان شعر أن من سوء الأدب ومخالفه نواميس السرف ألا يبعث على الأقل أشخاصا ملائمين لمسئله عنده ، طالما هو عازف عن الذهاب بنفسه ، ومن ثم فقد أرسل البيل كونون دى مونساج وبلدون دى بورج وهى ديس يعسدرون للامبراطور عن عدم قدوم حودفروى . فلما أدرك ألكسسوس أن لا رحعة للدوق فما فرره وأنه لا سبيل أبدا لارغامه على الحضور الى مجلسه عاد فأمر بعض السوى ونقضه ، ولكن هذا الاحراء لم يحج فى ثنى هذا الرجل [حودفروى] عن عزمه ، واد ذاك اتخذ ألكسسوس اجراءات أشد صرامة ، فأرسل فى السر جماعة من رماه الأقواس عبر النهر ، فى قوارب الى المكان الذى كانت تعسكر فيه قوات الدوق ، فلما أهلت أولى تبشير الصباح قتل هؤلاء الرجال بسهامهم طائفة كبيرة من رجالنا لم نكونوا فحسب من بين الذين ذهبوا الى الساطيء ، بل وإضا ممن كانوا بطلون من النوافذ .

حين جاء نبأ ما جرى الى الدوق اسدعى في الحال رعاء
الناس لمساورتهم ، ونزل على ما أجمعوا كلهم عليه ، فوجه آحاه
[بلدوين] تلى راس كسبه من التمسك للاستيلاء على وجه السرعة
على الجسر الذي عبره الجسس ، حتى لا يفتد الكثرين من رجاله ، فخرج بلدوين
الأماكن الضيقة ، وحتى لا يعتد الكثرين من رجاله ، فخرج بلدوين
المنحاج على رأس خمسمائة فارس وأسرع بهم الى الجسر واسمزل
عليه عنوة ، ولم يعد الخطر فاصرا على من حاهوا بالموارب بل ان
المدنة بأجمعها أيضا حملت السلاح بربد الفك برحاليا .

رأى الصليبيون أن انتداعهم الاغريق بسطون في اقامه
الاستعدادات ضلهم ، كما حمل الأهالي السلاح للقضاء عليهم ، لذلك
أضرموا النار في جميع العصور التي كانوا يزلونها ، والتي بمد
مسافة ستة أميال أو سبعة على طول البسفور ، فسب الحرب في
جميعها ، سواء ما كان منها ملكا للأهالي ، أو كان للامبراطور .
والهمنها الديران حتى نهاوب الى الأرض ، وسمح رجالا ذو الطول
ونقر الأبواب بسررد مدويا في الأحياء المحيطة التي كانوا قد
انكفؤوا اليها التماسا للراحة ، فأسرعوا لحمل سلاحهم ، وسمروا
الدوق الذي أسرع الى الحسر هود عسكره وقد صفهم للقتال ، عر
أن أصحاب الخمرة الحربة الكبيرة خافوا أن بضن العدو الحناي
على الجسس وهو في مواضع الضيقة هذه ، فهلكون ان اسولى
الخصم على الجسر ، ومن ثم لم يريثوا في انتظار فرق المشاة ، بل
نادروا الى جمع كل الخيالة في تلك الناحية ، الا أن بلدوين - أخا
الدوق - كان كما قلنا - قد أسرع الى الامام واحتل الحسر رغم
محاولات الأعداء فأرغمهم أن بولوا الأديار هارين ، فسطر بذلك
على التساطي الآخر للنهر ، واستخلصه لجيشنا .

ومن ثم فقد تمكن الدوق وجميع رجاله من العبور بكل ما معهم
من المناخ والتجهيزات ، وأقاموا مره أخرى في موضع بالعراء ، وواجه
المدينة ، ويمند في كل اتجاه دون أى عائق .

ولما اقترب المساء من الدخول سببت معركة في البهجة الواقعة
عندما يعرف الآن باسم قلعه بوهيموند الموجودة بين كنيسة السيدس
الطاهرين كوزمو وداميين وبين قصر بلاشرباي الجديد ، القائم في
راوية من المدينة قرب الميناء ، وهلك في هذه الموقعة أعداد كبرى
من الأساس ، وعجز الاغريق عن حمل ضراوة القنال فكفروا عنه
وارسلوا الى المدينة .

حينذاك نزل عسكرينا المنصور في أروع بقعه من الساحة التي
اسولوا عليها بسجاعتهم ، ولولا سرعة دخول الليل ووضعه ديانة
للقاتل الدائر بين الجبشين لتمكن الأهالي من معاودة الحرب بسبب
ما صمرونه من الكراهية السوداء التي كانت تعس في صدورهم
بحونا ، وزادها حدة غضبهم علينا ، وكان من الممكن حينذاك أن
تجرى معركة ثالثة أسد وحسنة من سابقنها فتتمخض عينا خساره
في الأرواح أكبر من الخسارة السالفة .

هنا - ولأول مره - تحلى بوضوح للعنان مدى الشر الذي انطوى
عليه خطة الامراطور في اصدار الأمر بنقل المعسكر ، اذ كان ذلك
ناشئا عن رغبة منه في أن يضع هذا السعيب الصليبي الذي تساوره
الشكوك فيه في منطقة ضيقة محدودة ، فصيح بن المطرقة
والسندان -

ما كاد النهار يطلع على الكون حتى نودى غلاسة بين الناس بحمل السلاح ، وخرجت طائفه بقيادة رهط من الزعماء لفسس المنطقة التي حولهم ، والعودة بالأطعمة التي منع الامبراطور سميئا . وصدرت الأوامر لهذه الطائفة بالحصول على ما خرجوا من أحله ان عصيا أو بالسرا ، وألا يحلفوا وراءهم ماسية ولا عسا ولا عله ، ولا أى نوع من المثوثة .

كما صدرت الأوامر لغرهم ولطائفة من الغاده بالمقاء مع الدوق فى المعسكر لحراسته ، ذلك أنهم حين اكسفوا غدر الامبراطور وخيانة شعبه ، لم يدحروا وسعا فى الاسمعانه بكل الوسائل الممكنة لحماية أنفسهم من هذه المكائد الوضيعة ، فنهض اد داك كسه كبرة من العرسان والمشة ، وخرجت فى حملة لجلب التلغام وطالت غيبتهم سه أيام بلالها ، راحوا خلالها يهبون الحفول فى دائرة محيطها سنون ميلا ، فلما كان السوم النامن عادرا الى المعسكر بكلمات وفرة من المواد الفذاثبة لا بنصورها العقل ، والحق ان قطعان الماشية والأغنام ودواب الحمل - بله العربات - كانت كبرة حدا ، حتى لقد صادفوا صعوبة بالغة فى احضار كل ما نهموه .

سما كانت هذه الأمور تحرى فى المعسكر وصل الى [حودفروى] رسول من الأمر بوهسوند بحمل اله خطابا بقول فه :

« اعرف يا أعظم الرجال انك تتعامل مع أحقر الحيوانات ،
 ومع رجل خسيس كل الخسة ، لمس له من عرض أبدا الا الحديعة ،
 ولا ينور عن اصطناع أى وسيلة أو سلوك أى سبيل يكون فيه
 هناك كل شىء حر من أمه اللابس ، وسيمبرهن لك تفديرك الذاتي - أن
 أحاذ أو عاجلا - على صدق احساسى نحو هذا الرجل ، وذلك
 لاسى أعرف أن اليونان بضمرون السر والصعينة لكل من هو لاتينى ،
 ونلك طبقة متأصلة فيهم ما لهم منها من فكاك ولا يستطعون عنها
 حيلة ، ومن ثم فعلك أن تعادر المدسة - اذ شئت - وبرحل الى
 السواحى المحيطة بأدربة و « فيلسوفولس » ودع حسان الجنيد
 الدين عهد بهم الرب الك لمسجموا وينعموا بلذيد الطعام في
 منطقة أخرى خصصة ، واننى لقادم اليك - ان بأذن الرب - في مطلع
 الرسع لأقدم اليك - باعترارك مولاي - خدماى الأخوبة المطونة على
 الحب والنصحة صد أمر الاغريق اللئيم » .



درا الدول الرسالة ، وبعد أن تنصر ملسا فى وجوها عقد
 محاسن الصادة ، ثم أرسل الرد كناية وشفافا بهذه الصورة
 الحكيمة .

« اننى أعرف نا سيعقى الحب - كما حاءنى الأخسار منذ
 وقت طويل مؤكده صدق ما أحس - أن الجنس اليونانى المحتال
 بطوى قلبه على الكراهية العميقة لنا ، ويلتهدف للاضرار بشعبنا .
 واذا كنت فى حاجة الى شىء من هذه المعرفة من قبل فقد أكدنها
 التجربة يوما بعد يوم ، وليس أسك فى أن ما انطبعت عليه آفت
 من صادق القوى بحركك ضدهم ، كما لا أشك فى صحة احساسك
 الغربى بخسهم ، ولكننى اذ أضع خوفى من الله أمام عنى .

ولا أغمصها عن هدف حملى ، فان بدنى يقسم من أن أوجه صد
 أى شعب مسخى سفى الذى نطع العهد على أن أتابل به الكمار ،
 ومهما يكن الأمر فان الجنس الذى معا - أيها المحب لارب - دى
 شوا الى قدومك وقدوم الأمراء الآخرين المخاصين للسند » .

- ١١ -

استبد بالامبراطور وبجميع من حوله العزع الكبير حين رأوا
 البلد بأكمله عرضة للنهب ، كما أنه لم يعد فى قدره الامبراطور
 احمال أنين سعبه وبكائه ، وزاد الطين بلة ما عرفه من حبر مجيء
 رسل الأمير بوهيموند وقدومه حالا فى أنهم ، كما أنه خاف ان
 يتحد الأمراء الذين على وشك الوصول ويصبحوا يدا واحدة يعمل
 لدماره قبل أن ينجح هو فى استرضاء الدوق ونهضة مائره ،
 ومن ثم فقد عاود مرة ثانية ارسال مبعوضه اليه ، فانمسا مه زيارته
 وكان هذا هو السبب الذى حملة على أن يجهد نفسه كل الاجهاد فى
 أن يتم الوفاق بينه وبين الدوق قبل وصول هؤلاء الأمراء ، ومن ثم
 أرسل وقادة ثانية الى الدوق ياج عليه أن يبادر بالحضور الى النصر
 دون أى ابطاء أو تمهل حالما يصله ابنه « حنا برفرحمتس » الذى
 أرسله اليه ليكون رهسة عنده .

ولقد أبلج هذا الاتصال قلوب العادة [اللاتين] فأوفدوا
 اثنين من ذوى المكانة الرفيعة هما « كونون دى مونتاج » و « بلدوين
 دى بورج » لبيكونا فى استقبال ابن الامبراطور الذى عهدوا به الى
 الرعاية الكريمة من بلدوين أخى الدوق ، وما كاد ذلك الأمر يتم
 خلف الدوق أخاه فى قيادة الجنس وشخص هو الى المدينة ، يصحبه

القادة الآخرون ، ودخل على الامبراطور الذي كان يلهف أسد اللبنة على قدميه فاستقبله الامبراطور استقبالا كريما وكان محاطا برحاله الماربن وكلهم يوافون لرؤبة الرجل الذي طالما سمعوا به وعرفوا الكرم عنه من قبل .

وأكرم الامبراطور ايضا وفاده من كانوا في شرف صحة الدوق ، واحتفى بكل منهم الاحفاء اللائق بقدره ومكانته ، ثم قبلهم جميعا فداء السلام ، وأكثر من السؤال عن صحتهم ، مخاطبا كل واحد باسمه ، ورفق لهم ، وأبدى لهم العطف عساه يكسب ودهم . ثم المص الى الدوق قائلا له .

« أيتها الدوق المحبوب لقد سمعنا أنك أعظم من معك من الإمراء ساءا وقرة ، وما كنا حاحلين حماسك الكريمة فما عاهدت به نفسك الصام به من مسرور حاطتك التعوى الكريمة فيه برعايتها . أصف الى ذلك أن الأخبار التي ذاعت عنك شرقا وغربا قد أكذب لنا أنك رجل قوى الروح ، صادق الايمان ، ولهذا فقد اكسبت عن حق حب الكبرن حنى من لم نتج لهم الفرصة للعائك .

« ولما كانت رغبتنا أن نحوطك بكل آيات الحب ، وأن نخصك بالزد الصادق ، فقد صممنا أن نتمناك اليوم ابنا لنا فى حضره كمار رجل فصرنا المقدس ، ونعهد اليك بامبراطوريتنا ، عسى أن يظل تماسكيا عن طرفك صحبا غير منلوم فى نظر الجموع التي احسدت بها ، وكذلك فى عمون أثناء العصور القادمة » .

بهذه الكلمات التي صاحبها احتفال ملكي جرت العادة باتخاذها كلما كان هناك نبز من هذا النوع ، أمر الامبراطور أن يلبسوا الدوق الشاب الامبراطورية ، وتبناه حريا على عادة المملكة .

وبهذا عاد السلام وحسن النية بين الاثنين من جديد .

حين فرغ الامبراطور من هذا الحفل فتح خرائطه للدوق ورفاقه ،
ووصلهم بالهدايا الذهبية الرائعة ، وأغدق عليهم الحواهر والساب
الحريرية ، والمرهريات الغالية النعيسة التي يعجز الحال عن
تصويرها صغره وجملة ، وذلك لأن الامبراطور أراد - من وراء
اتخاذهم بالهدايا التي أكرمهم بها - أن سردهوليم واعجابهم بما هو
عليه من ثراء ليس له مثل ، كما هدف أن يحلب ألبانهم بفضله
الماء كذا ، ولذلك لم يصر كرمه الذي حص به الدوق على أن يكون
مره زاحف فحسب . بل أحد مند يوم العطاس حتى عند الصعود
برسل الله أسبوعيا من العصر الامبراطوري من القود الذهبية
ما نكل أكاف اربعة رجال أسداء عن حملة ، هذا الى جانب عسره
أقال من الدرامم المحاسبة ، عر ان الدوق لم يسنس من كل ذلك
شيئا لهسه ، بل حاد بما جاءه على النبلاء والجيش ، حسما سسلزم
حاجة كل فرد .

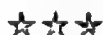
★★★

استأذن الدوق ومن معه ، بعدئذ الامبراطور في الرحيل .
ورجعوا الى المعسكر ، ثم ردوا اليه ولده يوحنا الذي كانوا قد
استبقوه في المعسكر رهينة الى حين أوبة الدوق ، وقد صحبه في
رجوعه كوكبة من حرس الشرف .

حينذاك أصدر الامبراطور بسانا عاما بقضى بتجهيز كل
ما يحتاجه حسن الدوق بمن معقول ، وكل لا جور فيه ولا طلم ،
ويودى بقمل كل مخالف لهذا القرار ، كما أعلن الدوق من فاحته
على لسان مناديه باعدام كل من يرتكب في معسكره عملا من أعمال
العنف ، أو يخطيء في حق رجال الامبراطور ، وبهذا استمر الحائبان

في تعاون متبادل بينهما في أمور البيع والسراء وسادهما حو من
الوقاي التام .

ولما آذن شهر مارس بالانصراف عام الدوق بوصول العاده
الآخرين ونزولهم بجيوشهم في تلك الناحية ، فأمر الامبراطور
بهيئه السفن وعبورهم البسفور ، بعد أن وافقه على هذا الأمر كبار
رجالاه آسيا ، واذا ذاك حرب [حردفروى] معسكره في خلدونية
في بيسيا التي كانت أول ولاية في آسيا بصل إليها .



وكان قد اعتد [في سنة ٤٥١] في خلدونية لى هي من
أعمال بيسيا ، وفي زمن كل من الدابا لبو الكبير والامبراطور
ماريان المجمع الذي الرابع التام ، وحضره سمائة وسة وثلاثون
من آباء الكنيسة ، فسجب المجدح هرطقات كل من الراهب
« اريستيبوس » راهب اسكندرية و « ديمسكورس » نظرهما .

كان هذا المكان [وأعى به خلدونية] أقرب ما يكون الى
القسطنطينية ، ولا يفصله عنها سوى البسفور ، ويسنطع الناظر من
هنا أن يطالع المدينة « الملوكية » ، حتى وكأنها الى حوار .

يضاف الى ذلك أنه كان في استطاعة من حجم عليهم أعمالهم
الذهاب إليها من المعسكر القمام بهذه الرحلة ذهابا وايابا ثلاث أو
أربع مرات يوميا .

عر أن كلمت الامبراطور المعسولة - في الإلحاح على الدوق بأن
يعبر هو وجسده البحر قبل الوقت الذي كان مجددا لذلك - لم تكن
صادره عن اخلاص وصدق طوبة ، بل كانت على العكس من ذلك نابعة

• لا دليلاً عليه من الحمل والرغبة في خداع الدوق حتى لا يصمم
• رآه الى هواب اللابن الآخرين عند وصولها ، كما أنه سلك سبيل
• الخبيث دانه حين احنال فارغم الآخرين الذين جاءوا بعدئذ على ركوب
• البحر . زاحداً بين الآخر ، حتى لا يفسى مطلقاً وجود جسمه من هنا
• في وقت واحد أمام المدسة .

- ١٣ -

هكذا كان الموقف بين الامبراطور والدوق في القسطنطينية ،
• رحلت في هذه الاسماء - وقبل دخول فصل النساء الفارس المرء -
• أن قام ليورد بوهيموند بن روبرت حسيكارد أمير ناراسو بصور بحر
• الأدرادك ، ووصل الى دورازو على رأس جميع أسكركه ، رداً مع
• من هناك - هو من معه - الرحف في بطة عبر عادات بلغاريا وكان
• قد انضم الى حمسه كبر من أصحاب المكانة المشاهة وأهل الدوة من
• ابطالها وغيرها من البلاد ، وقد أوردنا أسماء هؤلاء وعددهم لئلا
• ذكر اسم خالدة أبداً ، منهم تانكريد بن ولسم مارشمسوس ، وريسمارد
• الريمسماني بن ولسم دي الذراع الحدتبه أخو روبرت حسيكارد ،
• وأخوه ريسولف ، وروبرت انزي ، وهيرمان دي كاني ، وروبرت
• دي سورديفال ، وروبرت بن تستان ، وهيمفري ابن رالف ، وريبنشادر
• ابن كونت ريسولف ، وكونت ريبونولو مع اخوته ، وكذلك
• بويللودى شارترز ، والبيريدي دي كانسانو ، وهيمفري من هرب
• سكالوزو .

اخترط هؤلاء جميعاً حب راية بوهيموند ، حتى اذا بلغوا
• « كاسبورنا » احملوا بعد ميلاد المسيح .

لم يكن المدسه يعقد في هذا المكان أسواقا لم يسر بالمحبه
من الناس ، ومن ثم اضطرت [اللاتين] للاستيلاء فسرنا على قطعان
المدسه والدواب ، ونهب كل ما يحتاجونه للعسكر مما أدى الى
حساره الاهالي الذين نظروا اليهم بنظريه للأعداء .

ثم أخذ [اللاتين] بعد ذلك في مباحه رحلهم من هذه المحبه
حتى بلغوا مطلقه سديده الحصب والنماء ، ويعرف باسم
« بلا حرسا » فحربوا مصكرهم بها ، وهنا وافهم الأخيار أنه
يوجد على مقربه منهم مدينه حصنه يسكنها الهراطقة ، فأوسعوا
خطاهم نحوها ما وسعهم السرعة واستولوا عليها بالسلاح ، وأصرموا
الشار في مباحه . وراح ما بنا من بن هالك بالسيف أو صرب
البيعه البار ، ثم عادوا منها محملين بالغنائم الصخم والأسلاب
الوفيره .

ولما سمع الامبراطور أن كنيث بوهيموند سابع رحلها . أوعر
سرا الى مقدمي حموسه الذين كان قد أرسلهم في مسامي ذلك المكان
أن يطلوا سائرين مع جميع قوا تلك الناحيه الى حاسب القواب
المسححه حتى يصلوا الى نهر الوردار ، على أن يغسموا القرمه ان
لاحب لهم لئلا أو نهارا للاغارة على طلعه الجبس ، سرا أو جهرا ،
وذلك لما نعى الى علمه من أعمال القتل التي جرت عند مجيء القائد
بوهيموند ، وكان الامبراطور قد دأى منه ومن أبيه روبرت حسكراد
الأهوال الحمة في سالف الأيام ، لكنه استطاع بفضل ما طبع عليه
من الدهاء والمكر - أن يوفق غاية الوفى في سنر أغراضه وأخفاء
أهدافه . بارساله طائفة من كبار من حوله الى هذا الرجل العظيم
[بوهيموند] ألغى اليهم أن تكلموه بلين الكلام وأرقه ، وأن يصطنعوا
معه من الأسلوب المطمين ما يخفى غرضه ، وأن يستعملوا كلمات
تبث في نفسه الطمأنينة ، لكنها تخفى وراءها الغدر الذي لا مناص

منه ، كما أمرهم أن يبدلوا قصارى حيلهم لخديعه . وكانت لهجة الرسالة المكتوبة اليه وكذلك الكلمات التي جاء بها الرسل كالآتي

- ١٤ -

« قد علم جادلنا - رعانا الله - بما لا يدع مجالاً للسلوك أنك أمير جليل القدر ، قوى السكينة ، رفيع المكانة ، كما أنه يعلم أنك ابن أمير مبجل نوى لم يعرف الكلل اليه سميلاً ، وقد أنزلناك مما مبرك الحب ، وحبوناك من أقبالنا ما أنب أغل له . وإن كما لم نترك وجهها لوجه حتى الآن . »

« وقد علمنا أن طاعتك للرب حملتك على أن تهيب نفسك لخدمته ، وأن تسارك بقية الأمراء المخلصين في القيام برحلة الحج . وإن هدفنا هو أن نزيدك منا حباً ، وننزلك منزلة الود من نفسك لذا (فاما نلتهمس منك) أيها الصديق الحبيب أن نوعز الى أساعك بكف أيديهم ومنع أذاهم عن رعايانا ، وألا يرتكبوا عملاً من أعمال العنف أو النهب أو اضرار الحرائق ، ونسألك أن تبادر ما وسعك البدار للمجيء الى حضرتنا لا تخاف شيئاً ما ، عساك أن نعم بآلاف السرف ، وتحظى بالنعم التي نعتزم اغداقها عليك ، ولقد أصدرنا أمراً الى حامل هذه الهدايا على تهيئة كل ما هو لازم لجيشك ، بمن لا فصال فيه ، حتى تظل امداداتكم بأسباب العيش موصولة على الدوام . »

وعلى الرغم مما يوحى به طاهر كلمات الامبراطور هذه من الرد الكبير ، الا أنها كانت تخفى وراءها السم ، غير أن يوهيموند - وزير الرجل العطن اللصاح ، المدرك تمام الادراك ما سطوى عليه نفس الامبراطور من الشر - كم مساعره ، وأخذ حذره السديد ، وأرجى الى الملك آيات الشكر على ما أبداه من العطف والاهتمام بسلامته ، وبيع الدوى هؤلاء المرشدين ، حتى اذا بلغوا نهر الورداد وجدوا قسما من عسكرنا قد عبروا النهر حالا ووقفوا على ساطئه الآخر ، بينما كان هناك غيرهم يأهبون لصبوره ، فظن أتباع الامبراطور الذين كانوا يقتفون أثر معظم جيشنا ان قد لاحب الفرصة لهم ، فكروا فى وحشية ضارية ، وروح عدوانية كريهة ، على هذا الرهط من الناس الذين كانوا على وشك العبور .

فلما اضمح المكر السيء لسانكريد - وكان مسعدا للدوام للعمل - هب كأنه البرق الخاطف الى تلك الناحية ، مسصحبا معه ما يقرب من ألفى فارس وعبروا النهر المزد سباحة الى ساطئه الآخر الذى لم يكادوا يصلونه حتى وثبوا على العدو يسوقهم ، فمدرست صفوفه وأرغموه على الفرار ، ثم مضوا بمعقبونه بعض الوقت وفكروا بالكسرين من رحاله ، كما أسروا البعض منهم وجاءوا بهم الى يوهيموند الذى أمطرهم بأسئلته ، مستفسرا منهم عما وراء مطاردين حبشا مسحيا مثلهم واقتفاء أثره ، فقالوا له انهم رجال الامبراطور ومرتزنه ، وأنه لا بد لهم من الانصاع لأمره ، وتثال من أوصاهم بقتالهم .

وحينذاك اضمح للجميع بما لا يدع مجالا للشك والريبة زيف كل ما قاله الامبراطور لهم وأنه قول لحمته الخديعة ، وسداه الرداء .

غير أن يوهيموند لما كان يعلم أنه موشك على الرحيل ، وأنه فى حاجة لاستعمال كل ما يقدمه له الامبراطور من وسائل السفر ،

فقد تصدى للودود في وجه ارادة بقية رجاله ، ورأى أن يكس
أحاسيسه ، حتى لا يبر حتى ألكسوس من غير فائدة بحسبها .

- ١٥ -

بعد أن احتاز الحش مقدونيا وولاية الليريا كلها ، راح يحث
الخطي وهو تحت قياده جودفروى الحكمة حتى دنى من المدينة ،
فوقف قربها ، وكان ذلك قبل عند الميلاد بخمسة أيام ، وهما جاب
سعادته ثانية من الامبراطور الذي أرسل برحو من بوهيموند في
الحاح أن يحلف وراءه قوائمه ، ويبضى لزيارته في حرس ليل ،
فتردد بوهيموند فترة قصيرة وأجل سفن هذه الأوامر بعض الوقت ،
لأنه كان يسك في نوابا الامبراطور ويدرك ما بضميره من السر ،
وببما كان يبحث فيما ينبغي عليه اخذاه ، اذا باندوى العظم
جودفروى يعبل في أبهة عظيمة ، يحوطه كوكبه سرف من النبلاء ،
وقد وفد على بوهيموند - استجابة لرسلات الامبراطور الماحة عليه -
في محاولة منه لحمله على زيارته خلالته الامبراطورية دون خوف أو
وجل ، فعانق كل منهما الآخر ، وتبادلا قبلاط الحب ، ودارت
بهما الأحاديث اللطيفة وراح كل منهما يسأل الآخر عن أحواله ،
فلما فرغا من ذلك أشار الدوق جودفروى - بناء على ما لديه من
العلماء - على بوهيموند - بزيارة الامبراطور ، ولكن الآخر أظهر
في بداية الأمر اصراره الشديد على رفض هذا العرض ، غير عابئ
بتنصحه الدق ، لعدم ايمانه بصدق ما يقوله الامبراطور كما
ذكرنا ، مد أنه رضخ في النهاية لرجاء جودفروى ، ومضى مطمئنا
في حراسه المتوفى الى القصر ، فلما بلغه تلقاه الامبراطور بقبلة

السلام ، وأحاطه بكل ضروب العطف ، وبعد حوار آخرى طويل أصبح بوهيموند « رجل الامبراطور » كما يقول المل وأعلن ببعسه له ، وأقسم يمين الولاء له حريا على عادة الافصال لساداتهم اللوردات الاقطاعيين .

فلما فرغ من قسمه انبالت عليه الهدايا الغالبة التي لا تعدر بمن ، والتي حياء له نيا من الحزاة الملوكية ، حب قدمرا اليه الذهب والساب والمرهبات والاحجار الكريمة . وبذلك انعقد السلام بين الاثنين .



اما نانكريد - ابن آحب بوهيموند - وكان رجلا يسبر كل ما فيه الى عطشته - فقد كان حريصا كل الحرص على ألا يدعب الى الامبراطور حتى لا يتحدث اليه ، وبينما كان خاله [بوهيموند] لا يزال في البلاط الامبراطوري انتقل هو بكل عسكره الى بنينيا في اقليم خلفدونيہ الواقعة على لجانب الآخر من البسفور ، وضرب خايمة قرب جيش الدوق [جودفروي] الذي كان قد عبر البحر منذ قليل وأصبح الآن في انتظار الجيوش الأخرى .

ولما علم الامبراطور [ألكسبوس] بتجنب نانكريد المجيء الى حضرته اشد غضبه منه ، الا أنه نمسك بالعقل وكظم غيظه ، وراح يفتق - بين آونة وأخرى - الهدايا على الأمراء الذين يزورونه ، فاذا ما صدروا عنه الى معسكراتهم فيما وراء البسفور - وصلهم بآيات التسريف .

وأقام الجنسان هما في وئام واستقرا في انسجام على مقربة

من المدينة في اسطار وصول الجيوش الأخرى ، ثم اصبح الجميع بعضهم الى بعض في جيش واحد في السير الى الحج الذي اعزموه .

ولقد أمدت المدينة الملوكية والمنطقة التي حولها أهل المعسكر بكميات كبيرة من الطعام ، حتى أصبح الجميع قادرين على التمتع بالوفرة منه حسبما يساهون .

- ١٦ -

في هذه الأثناء ، وعند اقتراب دخول فصل الشتاء ، سرع روبرت كونت فلاندرز العظم في الإبحار من « ناري » إحدى مدن أوليا الساحلية ، وأرسي بعد إبحاره بجميع حسبه في « دورارو » وبحاسي زدهيرير النساء بنروله وسط القباب والمراعي وفي منطقة خصبة تزخر بشئى متطلبات الحياة ، فأقام بها ، حتى اذا دنى فصل الربيع تابع رحلته وهو أنسط ما يكون لتنضم الى القادة الآخرين الذين سبقوه فعبروا البحر .

وأنفذ الامبراطور - كما فعل مع القادة الآخرين - رسلا من جهة الى كونت فلاندرز قبل وصوله القسطنطينة ، يسرون عليه بترك قواه خلفه ، ومناعبة رحلته مع ثلة من رفاقه ، للمول بالحضرة الامبراطورية ، وأوقفه هؤلاء الرسل على كل صغيرة وكبيرة مما فعل سابقوه في هذا الموضوع مع الامبراطور ، فلما بلغ الكونت القسطنطينة مضى الى القصر في شريطة ضئيلة من حاشيته ، فلقاه الامبراطور بكل مظاهر الاحلال ، وعامله اطلب معاملة ، فلم يكن من [الكونت] الا أن نهج نهج الآخرين فقطع على نفسه يمين الولاء الذي

طلبه منه الامبراطور ، واذا ذاك انهال عليه من مظاهر الكرم والهدايا أكثر مما انهال على السابقين ، وكان حظ وفائه مثل هذا الحظ من الكرم ، وان نال كل منه حسب مرتبه .

وصل الى الادن لجيس كوت فلاندرز بالبقاء عدة أيام قرب المدينة منعما بأطبب الطعام ومسحما ، وقد أكثر الكوت في هذه الأيام من اجتماعه مع الامبراطور لبحث المواضع التي تلي ضرورة ، فلما فرغ منها استأذنه في الرحيل بعسكره فأذن له . فأبحر للانضمام الى اخوانه الحجاج الذين استقبلوه بالحب العظيم . وانضم الحسان بعضهما الى بعض .

أقام العاده بضعة أيام يقص الواحد منهم على الآخر الاحداث المخلفة التي جرب له في رحلته ، وقد سادهم روح البهجة . حتى اذا فرغوا من استعراضهم للصعوبات التي مرت بهم اسهوا اخيرا الى مناقسة المسائل الخطيرة ، وكان من الضروري بعد أن عقد كل منهم محادثات دنيقة مع الآخر أن يقرروا متى وكيف يكون احراز المسروع الذي أقدموا على النهوض به ، وبينما كانوا مهتمين في لوم رفاقهم الذين تأخروا في المحيـة وبحملهم مسئولية انصرام الوقت بلا طائل اذا ترسول بصلهم من كونت بولوز وأسقف بوى ننموهم نابهما على مقربة منهم ، وأنهما سرعان ما سيدخلان المدينة .

- ١٧ -

للازم هذان الرحلان العظمان منذ مسنهل السر ، وظلا حنبا الى حنـب بحوشهما ، فكأنما رفقى رحلة لم ينفصل أحدهما فيها عن الآخر ، وكان في ركبهما رجال بارزون من علة القوم خلها ومكانة ،

مهم : ولم أسقف أورنج ، ورينبولد كوت نفس المدينة [أوريغ]
وحاسون دى بيريه ، وجيرارد دى روسيلون ، ووليم كوت
مونتيليه ، ووليم كوت فورير ، وريموند بيليه ، وجاسون
دى ييارن ، ووليم أمانجسو وكثيرون غيرهم ممن لم تنع الذاكرة
أسماءهم ، الا انهم سيظلون من غير شك أحياء فى ذاكرة الزمان ،
ذلك لانهم آثروا الفقر عن رضا وطيب خاطر ، فهجروا ، مهبط
رؤوس آبائهم وفارقوا أحبائهم وأقاربهم ، ونخلوا عن أملاكهم
الفسيحة التى ورثوها عن أسلافهم من أجل اقتفاء خطى المسيح .

وصدقت النية من هؤلاء الناس جميعا فأخلصوا فى خروجهم
واقباعهم من ذكرنا من الرجال الموقرين ، وشدوا رحالهم الى ايطاليا ،
واجازوا لمبارديا ، حتى اذا حلفوا وراءهم الاقلم المسمى «فورم حيل»
دخلوا استريا القريبة من « آكويلا » فأفضى بهم السير فى
النهاية الى أرض « دلاشيا » الواقعة على امتداد الطريق الواصل بين
المجر وبحر أدرياتيك ، والتى توجد بها أربع مدن كبرى هى « زارا »
و « سالونا » (المسماة أيضا بسبالو) و « أنتيمارى » و « راحوذة »
التي يسكنها قوم قد أوغلوا فى الهمجية ، وبلغوا من الوحشية
أقصاها ، فهم يعيشون على السلب والنهب والقتل .

وأرضهم مكسوة كلها بالغابات ، وشققها الأنهار الكبيرة ،
وتحفل بالمراعى الفسيحة ، ومن ثم تقل بها الحقول الا ما تنثر منها
هنا وهناك .

ويعتمد الأهالى فى معاشهم اعتمادا تاما على الماشية والأغنام
باستثناء جماعات قليلة جدا تقيم على ساحل البحر ، وتختلف اختلافا
بيننا عن بقية القوم فى العادات واللغة ، فلسان هذه الجماعة هو
اللاتينى ، على حين يتكلم بقية الأهالى اللغة السلافية ، وسلوكهم هو
سلوك المتبربرين -

ولما دخل الكونت وأسعف بوى ورجالهما هذه الولاية صادفهم كثير من الصعاب على طول الطريق لا سيما بسبب طبيعة الاقليم الوعرة ، واصراب فصل الشتاء ، كما ظلوا بضعة أيام يكابدون وطأه الجاعة لقلة ما عندهم من الطعام والمتونة .

ولما طالع الأهالي وجوه دوما فزعوا فزعا شديدا ، حملهم على ترك مدنتهم والتخلي عن أماكنهم الحصينة ، وفروا فرارهم من وحوش كاسره ، واعصموا بالسلال والأدغال مستنصبين معهم نساءهم وأطفالهم ومساءهم وان ظلوا يتابعون في خلسه - وعلى بعد - آثار جيشنا الزاحف ، ويفكون بمن ترميه الأقدار في أيديهم من المرضى والمسبيين والعجائز من النساء ، ممن لم تسعفهم قواهم وخطاهم البطيئة بملازمة بقية القوم ، فانفصلوا عنهم .

ولما كان الكونت يسمر بالمستوليه الملقاة على عانقه عن هذا الحسد الكيف ، فقد ولى قيادة الطلعة الزاحفه أمامه جماعة من الزعماء . وأما هو فقد وقف فى المؤخرة على رأس الجانب الأكبر من الفرسان ، كما أنه هو ذاته كان آخر العائدين الى معسكره .



كان الجو ملثا بالضباب الكثيف ، والظلام شديدا كأنه قطع متصل بعضها ببعض حتى ليكاد المرء يحسها ، ومن ثم فقد كان من الصعب جدا على السائر فى الخلف أن يتبين الذين أمامه ، على حين أن طلعة الجيش كانت لا ترى قدامها أكثر من رمية حجر ، هذا الى جانب ما ذكرناه من أن الاقليم زاخر بالأنهار والقنوات المائية ، ونكثر فيها المستنقعات التى تعمل على زيادة الرطوبة والضباب الكثيف لحظة بعد أخرى ، حتى كاد الهواء أن يخنق الأنفاس .

يضاف الى ذلك أن المواطنين الدلماتيين والسلاف كانوا على

دراية بامة بالاغليم ، فراحوا يمايعون الجيش وهم على العمم الساعمة
وغى الغابات الكثيفة ، وكسبرا ما كانوا يبرزون فجاء من العانات
لمهاجمة الحجاج العزل من السلاح .

غير أن الكونت ومن معه من العاده طالما فاعوا أيضا من جانبهم
يردون على هجماتهم عليهم بسبلها ، فقصص حرايهم وسوفهم على
الكثيرين منهم ، وكان فى امكانهم أن يفخسوا العسل فبهم أكبر
مما فعلوا لولا فرار هؤلاء الدلاسيين الى الأحراج القريبة منهم .
مسخذين منها ملجأ أمينا لهم ، وحدث فى يوم من الأيام أن وقع بعض
هؤلاء الأشرار فى يد الجيش فأمر الكونت بقطع أيديهم وأرجلهم من
خلاف ، عسى أن يكون فى هذا العقاب زجر لغيرهم ، فكفون
- جزعا - عن متابعة الجيش وملاحقته .

ظل الحجاج ثلاثة أسابيع منناله يعبرون هذا الجزء من الاقليم
وهم فى كرب وضيق ، حتى انتهوا أخيرا الى موضع يقال له
« سكوتارى » وجدوا به ملك السلاف ، ولما كان الكونت رجلا رحما
رضى الخلق فقد سخرى فى تقديم الهدايا الى ملك السلاف راحا أن
يؤدى هذا الكرم من حانه الى نوثق روابط الصداقة بين الجانبين ،
وحتى يضمن لمن معه مودة الألبا عساهم يعقدون لهم سوقا يشترون
منها ما يحتاجونه من بضاعة .

لكن الكونت لم يستطع - حتى بهذا السلوك - أن يهدد من
وحشية هؤلاء القوم ، أو يخفف من قضاظتهم ، بل الواقع أنهم
ازدادوا شراسة عما كانوا عليه من قبل .

لكن سننى للجيس أن يصل فى النهاية الى دورازو بعد مسره
أربعين يوما داخل أرض دلاشيا كابد فيها كل الصعاب .

حاصرت المخاوف الكثيرة الامبراطور من مقدم الكونت ، لما كان عليه هذا الأمير من الفطنة والعقل ، الى جانب ما كان تحت قيادته من جيش بالغ الضخامة ، وكان الامبراطور قد أرسل منذ أمد طويل قبل وصول الصليبيين الى هذا المكان سفارة من كبار رجالاته لمقابلته الكونت في دورازو ، وعهد اليهم أن ينقلوا اليه تحياته الرقيقة النابضة بالود ، فامثلوا لأوامر مولاهم وذهبوا الى الكونت وخاطبوه بالفاظ سداها الرقة ولحمتها المداھنة ، وقلعوا اليه رسالة الامبراطور التي تضمنت الآتي :

« ايها الكونت العزيز ، لقد طبق الحافقين منذ أمد بعيد كبير من أخبار فطنتك ، وما اشنهت به من حسن الأحداث شهرة ذاعت شرقا وغربا حتى بلغت بلاطنا ، مما حملنا على حبك ، ومن أجل هذا الحب ، ورغبة منا في اظهار مودتنا ، فاننا ندعوك اليسا لتؤكد لك - بسبب فضائلك - وعلى رؤوس الأشهاد - تقديرنا الشخصي لما أنت عليه من الفضل ، ونحن نتطلع في لهفة الى قدومك علينا ، واننا نريد أن نناقش مع عظمتك - وأنت العزيز الغالي عند امبراطوريتنا - كثيرا من المسائل المتعلقة بالأمور العامة ، ونرحوك رجاء حاراً أن يكون سيرك عبر بلادنا من غير شغب ولا ازعاج ، وأن تبادر بالمحيى الينا معتمدا على محبتنا ، ولتكن واتقا مما عزمنا عليه من اغداقنا عليك آيات الشرف ، كما اصدرنا تعليمات الى حاملي هذه الهدايا أن يهيئوا موضعاً تبتاعون فيه ما تحتاجونه ، وأن يظل التعامل التجاري بين قومنا وقومكم موصولا ، تحت شروط ملائمة كل الملامة » .

حين تسلم الكونت هذا الخطاب انشرح صدره وصدور عسكره انشراحا كبيرا ، قعدروا متابعة السير ، فساروا اياما كثيرة

فاسوا حلالتها المساق في اجتيازهم الأحرار والجبال ، حتى اذا جاوزوا بلاد ايروس كلها نزلوا في الاقليم المسمى ببلاحوسا ، ناصين معسكرهم به لكثرة ما يزخر به مما تهواه النفس .

لما
وأما أسقف بوى الذى عاش حياته عفيفا طاهر الدليل بعد انتفى من دون الجند مكانا قصيا اينارا منه لراحته ، ونصب هناك معسكره ، لكن ما لبث البلغار أن هاجموه وأخذوه أسيرا ، غير أنه لما كان شعب الرب لا يزال فى مسيس الحاجة الى فسيس عظم كهذا القسيس فقد أبت رحمة الرب الا أن سداركه ، فأبقت على حياته ، وما كان ذلك الإبقاء الا عن طريق الصدفة النجاة وحدها ، اد طلب منه أحد اللصوص أن يسلمه ما معه من الذهب لييسط عليه فضل حياته ، فلا ياله أحد بضر ، فأعطاه ما طلبه ، فأغصب هذا بقية اللصوص ، فارب بينهم فتنة تعالى ضجيجها حتى سمعها عسكرنا ، فهبوا جميعا الى سلاحهم ، وكروا على المفسدين وأنقذوا الأسقف المجل ومن معه من بين أيديهم .



تابع العسكر بعد ذلك مسيرهم ثانية فعبروا سالونكا وكل بلاد مقدوسا ، وظلوا ياجعون زحفهم المضنى عدة أيام حتى بلغوا مدينة « رودستو » البحرية المطلة على البسفور ، والتي تبعد عن القسطنطينية مسرة أربعة أيام ، وهنا جاء الى الكونت وقد آخر من جهة الامبراطور ، كما وفد عليه رسل من القادة [اللاتين] الذين قدموا قبله يحضونه النصيح ، وبلحون عليه أن ياذن لجيشه بالسير ولكن فى بطء ، أما هو فعليه أن يبادر بالخروج فى شردمة ضئيلة من حرسه للذهاب الى الامبراطور ، حتى اذا فرغ من أمره معه يكون جيشه قد بلغ [القسطنطينية] ، واذا ذاك يستطيع ملاحقة الآخرين

بأسرع ما يمكن ، دون أى إعاقة للجيس الذى كان راعيا فى سرعة
الزحف .

وكان الكونت قد أرسل [الى القادة] من تلقاء نفسه جماعة من
عنده . فلما عادوا اليه شجعوه على اتخاذ نفس الخطوة .

- ١٩ -

بلاشى أحياء تردد الكونت أمام الالحاح المسنن من جانب
مندوبى كل من الرسل الامبراطورين والقادة [اللابى] الذين
المسوا هم أيضا مه أن يسرع الى قصر الامبراطور ، فاستجاب لهم
جميعا . وبرك جيسه تحت الحماية الدفينة من جانب الأساقفة وعمرهم
من الأشراف الذين كانوا فى المعسكر ، ومضى هو ملبا الدعوات
المكرره اليه ، ودخل القسطنطينيه فى رهط قليل من حاسبه ، وفى
حراسه مندوبى الامبراطورية ، فلما مثل أمام الامبراطور بالغ
الامبراطور ووجه رجاله فى الترحاب به واظهار التقدير العظيم له ،
لكن ما كادت تسهى كرمات البناء التى فلت لاسنمالتة وخديعه ،
والنى تضمنت الالحاح السديد عليه لقطع يمين الولاء للامبراطور
بالطريقة التى انبعاها القادة الآخرون الذين سبقوه ، أقول ما كادت
هذه الكلمات المعسولة تنتهى حتى رفض الكونت قطع اليمين
رفضاً باتاً .

بينما كانت هذه الأحداث تجرى فى القسطنطينية ادا
بالامبراطور قد استبد به الحق لرفض الكونت اعلان تبعيته له كما
فعل الآخرون ، وحينذاك أسر الى قادة جنده الموجودين فى تلك النواحي

بمباغة فواب الكونت وأخذها على عره ، وأمرهم ألا يدخروا وسعا في ازعاجهم ، حتى ولو أدى بهم الأمر الى اغتيالهم ، وقد سيجعه على ركوب هذا المركب وسلوك هذا السبيل التزام القادة الآخرين بيمين الولاء التي قطعوها له ، كما أغراه على ذلك أيضا أن جوسهم كلها كانت قد عبرت البحر ولم يعد من السبر رجوعها ، كذلك صدر الأمر الى جميع السفن المتجهة لنقل البجاريه أو الناس بحرا بعدم مفادره الساطي الآخر ، وبذلك تصبح كل فكره للرجوع ضرها من العيب لاعداء وسائل النقل ، وكان الامبراطور قد نجح بكلماته المعسولة الخادعة ، وما اصطنعه من اعراءات كبيرة في حمل الجيوس على العبور فردا بعد فرد حتى لا يجمعوا كلهم في المدينة في وقت واحد ، وكان الداعي له الى ذلك الأمر هو خوفه - كما سرحنا - من أن يجيء هؤلاء العسكر فسكون في تجمعهم كلهم خطرا ما بعده من خطر عليه . كما أن سخاء القادة لم تكن عن كرم أو حسن قصد ، بل كان سياسة خبيثة تنطوي على المكر وهي وليدة الناس ، ومع ذلك فقد أعدم زعمائنا على تلبية ما طلبه الامبراطور منهم لنقيهم فيه وتصديقهم لما يقوله ، وكان من أصعب الأمور اقناعهم بسوء طوبة الاغريق ، ولؤم نية الامبراطور وخداعه وختله الذي لا ينقضي ، لا سيما منذ أن بالغ في السخاء عليهم واکرامهم وتظاهره نحوهم بأقصى مظاهر حسن النية .

- ٢٠ -

راح الضباط الذين تلقوا أوامر الامبراطور - وهم من أمراء الخمسمائة وكذلك الموكل بهم قيادة القوات الحربية - ينفذون توجيهاته ، فقاموا سرا - والبلبل يلف الدنيا بظلامه - بمهاجمة

عسكر الكونت الذين لم يكونوا يتوقعون فط أى خطر يأتهم من هذه الناحية ، فراحى حراسهم ، وغلب عيوبهم ، وأخذهم الاغريق على غرة منهم ، وفتكوا بالكثيرين منهم فسكا دريما ، وذلك لأن المباغته أدت الى عدم اتاحة الفرصة لهم لانضواء سبوقهم ، فجرت فيهم مذبحة محزنة ، وفر من نجى فرارا مشييا لكنهم ما لبثوا أن رجعوا على أعقابهم حين تنصروا حالهم ، واستردوا شجاعهم وعادوهم بطولهم ، فانزلوا كثيرا من الحسائر بذلك العصابات الحربية من مبرقه الامبراطور ، ولقد أبدى الصليبيون مقاومة عبقرية آخذين بعين الاعتبار ظروف الزمان والمكان ، غير أن اليأس بدأ يسرب الى نفوسهم بسبب مشقة الطريق وما يلقونه كل يوم تقريبا من أخطار لا سبى ، تأتهم على غير انتظار منهم ، فراحوا يستسلمون للباس ، وطالما لاموا أنفسهم على ذلك ، وأخذت حاسنهم نفتر كل يوم عن الذى قبله بسبب الارهاق الذى نال منهم كل مال ، ومن جراء المصاعب الشاقة التى واحهم ، ودم الكثرون منهم على المغامرة التى أقدموا عليها ندما جاوز الكثيرون من العامة الى طائفة كبيرة من أبرز رجالهم الذين يشاؤونهم مكانة ، والواقع أن الرية ساورتهم فى قدرتهم على انجاز حججهم ، فنسوا ما قطعوه على أنفسهم من عهود ، وما أقسموه من أيمان ، وراحوا يعدون العدة للعودة من حيث حاموا ، ولولا أن أخذهم تحذيرات الأساقفة ورجال الدين من كل جانب ونصائحهم البهيم وحثهم اياهم على الوفاء بما فى أعناقهم من يمين فهجروا الحش وحاولوا الرجوع الى ديارهم ، غير مسالين بالخطب الذى يترتب على ذلك .

ولما سمع الكونت هذا النبأ عصر الحزن قلبه واستبد به الألم وبكى وأعلن أن قد غرر به ، ثم أرسل رهطا من أشرافه المخلصين الى الامبراطور يقولون له على لسانه انه خائن ، لأنه خرج على جميع مقتضيات اللياقة والدوق إذ أمر رجاله بمحاربة جيش الكونت

ريمووند فى الوقت الذى ذهب فيه ريموند الى الامبراطور اسجابه
للكتب العديدة التى حانه من القادة ، ونزولا على النماساتهم
الكثيرة منه .

كذلك لام الكونت القادة لمداومتهم الالاح عليه بالمضى الى
الامبراطور حتى ترك حبشه وشخص الى المصطنعية . وأعلمهم
ريمووند بالمصائب التى آلت بكتائبه وبخيانة الامبراطور لها ، ثم
طالبهم - كاخوة له - أن يثأروا لهذه العمال الشائنة .



لو ان قوة الكونت كانت مكافئة لرعبته الصادقة فى الاسقام
لرجاله لما كان لتهديدات الآخرين ، ولا لمدخل سواهم من القادة
قدره على ثنيه عما اعزمه ، فقد اشهر عنه انه كان رجلا صلب
الارادة ، قوى النسكيمة ولا يشبه ثان عما أحجم العزم عنه ، كما
أنه لا ينسى الاساءة أبدا .

وحين عرف الامبراطور المدى البعيد الذى ذهب اليه بدم على
ما بدر منه ، ورأى أن يبعث فى استدعاء القادة الذين لا رالوا
بجيوشهم على السواطى الأخرى طالبا اليهم المسول فى حضره .
طبعاً منه فى أن يؤدى ندخل هؤلاء القادة - وهم الدوق ويوهيموند
وكونت فلاندرز - الى اسمرضاء ريموند ، فاستجابوا كلهم لدعوه ،
وعلى الرغم من شدة حنفهم جميعاً على ما قد جرى الا أنهم رأوا عدم
ملاءمة الزمان ولا المكان لطلب الثأر . ومن ثم انفردوا بالكونت وحده
أن يحملوه على الا يصرح بالأخطاء التى يشعرون أنها قد حاقب به
وبهم أيضاً ، مبسين له أن اندفاعه فى طريق الانتقام قد يؤدى الى
ضئاع جهده أيام طويلة ، والى عرقلة زحف أولئك الذين يرغبون فى
السير فى طريق السيد ، فاستجاب الكونت لحججهم هذه ، ورضخ

لتدخلهم الرحم ، وكبت مساعره المريرة واحساسه بالآلم ، وحصح
لنصيحة القادة ، ووافق على ما رغبوه ، وحينذاك ذهبوا جميعا الى
الامبراطور نغوس راضية وان عبروا بالاجماع عما يسعرون به من
السخط على ما جرى ، فلما أدرك الامبراطور ما هم عليه من الاسماء ،
وقد رحدهم جميعا شعور حماعى عيبى ربط بينهم حسعا لم يحد بدا
من التنازل والاعتذار للكونت أمامه وفى حضور بطانته ومن لا تمت
الهم بصلة . وزاد فأقسم بأنه لم يعلم بما قالوه من خبر الإهانة التى
لحقب الكونت ، وأن شئنا من ذلك لم يصدر عن أمره . وقال انه
على الرغم من ذلك فانه راغب فى استرضاء الكونت لتؤكد له
براءته .

هكذا كانت تكشف للعبان - يوما بعد يوم - حذع الاعرق
وخيانة الامبراطور ، ولم بعد هناك أحد من الزعماء لم يصح له
وضوح الشمس فى وسط النهار ان نفس الكسوس منطوى على
كراسة سوداء لسعنا واحتقاره اناه ، ومع ذلك فلما كان يحقق
هدف الحجاج يدفعهم الى أمور أخرى . ولما كانوا هم أنفسهم نواقين
لأنحار ميمتهم على الوحه الذى يرضاه الرب ، فقد رأوا أن الحاوز
عما لحقهم من الأهوال أعظم من انصرافهم عن هذا المسروع المقدس
الذى جاءوا من أجله .

- ٢١ -

انصاع الكونت لنصيحة القادة فصافى مع الامبراطور ،
واقسم له يمين الولاء على الصورة التى أقسمها الآخرون ، فأصبح
الامبراطور منذئذ يحويه عطفه السامل ، ويسخو عليه بالهدايا

السمه الى لا يحصيها العد ، والننى تبلغ قبمتها فدرا لا يدركه
التصور ، كما مضى يصل الزعماء الآخرين بالمزيد من العطايا ،
واذ ذاك اسنادنوه فى الرحبل فأذن لهم ، والتمسوا من الكونت
- على وحه الخصوص - ألا يطفى فى اللحاق بهم ، بل عليه أن
يجئ النهم على جناح السرعة ، واذ ذاك انطلقوا عابرين المسعور ،
وانفسوا الى كائنهم الموجوده فى بيئتنا .

أما عسكر الكونت [ريموند] فكانوا قد بلغوا القسطنطينية
حينذاك ، فأمرهم الكونت بركوب البحر فى ساعنهم هذه فاسجباوا
لأمره . واضموا الى الجيوش الى سبقتهم وان لحلف ريموند عنهم
للطر فى ترنب أموره الخاصة ، وبصريفها نصريفا لم يحل بيه
- وهو الرجل الفطن - وبين الاهسام بالصالح العام ، اذ فعل ما فعله
العاده الآخرون من قبله حين راح يرحو الامراطور رحاء الملح أن
يصحب القوم فى زحفهم . على أن نكون له فمادة حس المسح ،
وبكون حينذاك صاحب الأمر فنه .

وعلى الرغم من أن جمع فادننا - لا سيما كونت بولوز -
طلما النسوا منه مرة بعد أخرى أن ينفصل بموافقتهم كقائد لجس
المسح ، وأن يأخذ القيادة العليا بده ، الا أنه ظل ينصل مسحلا
المعاذير ، بحجة أنه محاط بأعداء همجين كالبلفار والكومان
والبشناق الذين لا يكفون عن الحركة على حدود الامراطورية
لاعتنام الفرصة لسن هجماتهم الفجائية ، وتهديد سلم الدولة
وأمانها . وبين لهم أنه رغم رغبته الشديدة فى المساهمة معهم فى الحج
العظم . ومشاركهم فى النصر المقبل الا أنه لا يستطيع أن يتنحى
عن المسئولية الملقاة على عاتقه بمملكته ، والا أتاح الفرصة للعدو
المحقق بها لينزل الضر بها .

لكن كان جميع ما صرح به افكا وكل ما فاله بهتانا خسوه
الخدیعة .

وكانت غيرته من رجالنا هي التي دعتنا الى هذا الادعاء ، لانه كان يلتصق أى ذريعة يمكنه من كف مساعدته من شعبا واعافه تقدمهم بأى وسيلة تستطيعها .

وكان القادة الذين عبروا البحر حالا - وأعطى بهم جودفروى وبوهيموند وروبرت كونت فلاندرز وأسقف بوى - قد أعدوا حوائجهم وصاروا على أهبة الاستعداد لمواصلة الحج مرة أخرى ، كما أزمعوا السير على مهل الى نيقية فى انتظار رفاقهم القادمين وراءهم ، ومن ثم ساروا يومهم كله قاصدين نقوميديا ، التي هي أكبر مدن ولاية بيسسا ، واذ ذاك خف بطرس الناسك لمقابلة الكنائس المتقدمة وتحية الزعماء .

كان بطرس - تحنبا منه للجو القارس - قد أمضى الشتاء فى هذه الناحية مع الفئة القليلة الباقية من ظلوا على قيد الحياة . فانضم بهم الى زمر الحجاج الذين رحبوا به أجمل ترحيب ، ولما سألوه عما لقيه حيثه من الأحوال أسهب لهم فى تفصيل كل ما حاق بهم ، ولم يفته أن يصف لهم روح الفوضى والنمرذ التي كان عليها هؤلاء العصاة الرعاع الذين خرجوا فى صحبه ، ونسب الكفة الى ألت بهم الى سلوكهم الذاتى أكثر من نسبتها الى شيء سواء فشاركه القادة الحزن العميق فى مصيسته ، ثم وصلوه هو ومن معه بالهدايا الثمينة الجمة .

ازداد حينذاك عدد الجيش زيادة كبيرة بعون الرب ، وذلك لان الطوائف المختلفة اتحدت حتى صارب جماعة واحدة تابعت السر تحت قيادة حكيمة لسبة ، فبلغوا نبقية فى الوقت المحدد ، ونصبوا معسكرهم على شكل دائرة أحاطت بالمدينة ، وخصصوا أماكن معينة

للزعماء الذين لم يعدوا بعد ، حتى اذا كان اليوم الخامس عشر من شهر مايو [سنة ١٩٠٧] ضربوا الحصار على المدينة .

حين فرغ كونت تولور من انجاز شئونه في القسطنطينية اسأذن الامبراطور في الرحيل ، فسأخا عليه ثانية سحاء بالغا ، ووصله بالهدايا اكراما له ، فسار بمن كان قد ظل معه من رجال جيشه ، مقتفين أثر عسكر اخوانهم ومسرعين في زحفهم ، ومرعان ما بلغوا المدينة المذكورة آنفا .

- ٢٢ -

في هذه الأثناء قام لورد روبرت - كونت برمندي العظيم - وغيره من كبار النبلاء البارزين ممن كانوا في معينه ، ومنهم لورد ستيفن كونت شارتورز وبلوا ، ولورد أسباس أخو الدوق حودفروي ، بايقاد الرسل من جانبهم الى الامبراطور والى اخوانهم ، يعلنون النهم أنهم قادرون حالا .

وكان مع هؤلاء أيضا ستيفن كونت أومال ، وألان فيرجانت ، وكوتون ، أحد سراقه بربراني ، وكذلك روترو كونت بيرش ، وروجر بارنفيل .

وكان جميع هؤلاء النبلاء مع كثير من غيرهم من الأبطال البارزين وفيهم كونت فلاندرز وهييج العظيم قد وصلوا العام المنصرم الى أبوليا مع دخول فصل الشتاء .

وكان الآخرين قد عبروا البحر الى دورازو ، أما بعضهم فقد كان خوفهم من برودة الجو القاسية حاملا اياهم على فضاء السماء في ربوع أبوليا اللطيفة ، وعلى حدود كلابريا [قلهورية] .

لكن ما كاد الربيع يطل حتى استدعوا أنبساعهم الحجاج ، وجهروا مناعهم للسفر ، ويسموا وجوههم شطر الساحل ، سالكين الطريق الذى سلكه الآخرون ، فأبحروا الى دورازو ، وأرسوا بها ، ثم تابعوا سفرهم منها على جناح السرعة لتعويض الوقت الذى قضوه فى أبوليا ، وأعانهم الرب فأحسازوا الولايات الوسطى لا سيما « الليريكوم » ومقدونيا ومنطقتى تراسيا ، وكانت رحلة هادئة أبغضهم المسطنطنية آمنين ، فاستدعاهم الامبراطور استدعاه الزعماء الآخرين من قبل ، فلما دخلوا القصر تلقاهم جلاله وجمع من حوله من الرجال البارزين لقاء حارا مشرفا .

ثم أجرى الامبراطور محادثات طويلة مع الزعماء السلالة . مجتمعين تارة ، ومع كل منهم على حدة تارة أخرى ، ملاحظا انهم يكاماه الرقيقة ، ووعوده الجمة ، فقطعوا له على أنفسهم العبد الذى قطعه الآخرون له من قبل .

وكان هؤلاء القادة الآخرون قد أخبروهم - قبل ذهابهم الى الامبراطور - بكل ما ينبغى عليهم فعله فقالوا لأنفسهم ، لسنا أكبر من كبارنا الذين سبقونا ، ومن ثم فإنهم اقتداء منهم بهم بهجوا نهجهم وربطوا أنفسهم بالامبراطور وقطعوا له يميننا كاليمين الى قطعها له على أنفسهم من سبقوهم ، فكان الرد عليهم أن حطوا بعطف أكبر مما حظى به هؤلاء ، وأصبحوا جديرين بالحصول على منحة فاقت كل ما قدم من قبل ، فكثر المال بين أيديهم ، وحاهم من الهدايا ما لم يروا له مثيلا من قبل ، من الذهب والملابس الثمينة والوانى التى تشد الناظر اليها : مادة وصنعة ، وكذلك النسب

الحريرية ، فأذهلهم سخاء الامراتور الذى حاور عطاياه في طبيعتها وعدرها كل ما نصوره نحن ، ثم اطلقوا محملين بهذه الهدايا الرائعة بعد استئذانهم الامراتور في الخروج حتى لا يكونوا سببا في تأخير اخوانهم الحجاج . وعبروا البسفور ، وأمرعوا بجمعهم الى نيقية حسب كانت بقية الجبس الصليبي لا يزال بها ، فنلقاهم الأمراء بالأحضان ، ثم نزلوا جميعهم راضين في المكان الذى قسم لهم .

- ٢٣ -

انصل بمعسكرنا اغربي اسمه « نانيكوس » كان موضع ثقه الامبراطور . وكان لشم الطمع عذارا ، بدل أنه الأفطس على ما انطوى عليه نفسه من الشر ، وكان زعمائنا قد سألوا الامراتور أن يمد لهم مرشد لتكون رحلتهم أكثر أمانا ، فصدر الأمر الامراتوري بسعي [نانيكوس هذا] لتكون مرافقا ومرشدا لنا .

لم تكن معرفته النامه بناتك النواحي هي وحدها - كما فعل - التي دعت الى اختياره ، بل ان الامراتور كان كبير الاعتماد عليه لما كان عليه من فساد النية والتفاق الذى لا حد له ، فانضم بانتيكوس بقواته الحاصصة الى زعمائنا ، عساه يكون كالأوزة التي تصبح غالبا بين الدجاج ، وكالحبة الرفطاء بين ثعابين الأكل ، فكان أذن الامبراطور وعنه في كل ما يجرى بالحيلة ، وبسر له كل ملاحظة يديها أى شخص تفسيرا يرشح بالحقد ، وبيلقي من موله على يد الرسل الكثيرين المرددين بسهما غدا ورواحا موحزا للخطط التي يوحه اليها مشاريعه الشريرة .



ولقد نألف هنا - ولأول مرة - جيش منحد للسيد الحي ،
وكان في مجموعته مكونا من زمر شتى ألقت قيادتها الى رجال
تزعيموها في أماكن مختلفة وفي أوقات متباينة ، ثم انحدرت هذه
الجماعات الكثيرة حتى اذا وصلت الى ها هنا صارت جيشا واحدا ،
ذلك لأنه لم يثأث لأحد من قادة جيش الرب وزعمائه منذ مغادرتهم
أوطانهم حتى بلوغهم هذه المدينة وضربهم معسكرانهم بها ، أقول لم
يأت لهؤلاء رؤية بعضهم البعض ، ولم تسنح لهم الفرصة لمناقشة
المسائل المتعلقة بالصالح العام كما سنحت لهم الآن .

وأحصوا العسكر فوجدوهم سبائة ألف شخص ، ذكرا وأنثى
مشاه لا طهر عندهم ، أما الفرسان من أصحاب الدروع فكانوا
مائة ألف .

وقد عسكر هذا الجنس بأجمعه أمام مدينة نبقة ، مكرسا كل
نشاطه بنسي الطرق الممكنة للاستيلاء عليها ، وبذلك يهدون أول
ثمار عملهم للسيد في اخلاص .



هنا ينتهى الكتاب الثانى

الكتاب الثالث

الاستيلاء على نيقية والزحف عبر آسيا الصغرى

فصول الكتاب الثالث

- ١ - وصف مدينته نيقية وذكر أسباب شهرتها ، وكيف جمع حاكمها فلح أرسلان قوة كبيرة من الترك من كل نواحي الشرق لمحاربتنا ، وكيف أعدوا الكمين لمهاجمتنا .
- ٢ - قواننا بهاجم المدينة في ضراوة ولكن المواطنين يجدون سبيلا لهم للخروج عن طريق المجرة ، فيرسل إليهم قلح أرسلان رسالة يشد بها أزرهم .
- ٣ - القبض على حامل الرسالة وإفضاؤه إلى العاده بكل أسرار العدو ، ووصول كونت بولوز (الحروب الضلوسة ح ١) - ١٩٣

- وكان الفسائط الوحيد - على جناح السرعة
استجابة للزعماء الآخرين .

٤ - قلع أرسلان ينزل من النلال ويهاجم معسكرنا
بصف ، ولكن الهزيمة بحيق بحشه ويرسل
رجالنا بعض امارات انتصارهم الى الامبراطور
فيكافئ الرعاء على ما فعلوا .

٥ - اقامه المعادة في الأماكن التي خصصت لهم
ومهاجمة المدينة المحاصرة من كل النواحي وهلاك
طائفة من السلاء في المعركة .

٦ - أهل المدينة يحطمون آلة كانت على الأسسوار
فيهلك نحبها كبر من الصليبيين ، كما أن
البحيرة يعوى نجاح محاولنا .

٧ - الصليبيون ينقلون العوارب من البحر على
العربات ويسيطرون على البحيرة ، وينظر الأهالي
في يأس ودهشة الى براعة شعبنا .

٨ - معاودة الهجوم على بعية من كل الجهات ،
ومحاولات كونف تولوز التغلب على برج أمامه
واستعماله من أجل ذلك الآلات وشنى الحيل
الممكنة ، ولكن مقاومة الأهالي أدت الى فشل
جهوده .

٩ - البراعة العظيمة التي أظهرها جود فروى ، وقيام
أحد الأهالي بقذف النار وصب الزيت على الآلات

وما حدث اذ ذاك من المصير المحزن الذى لقيه
أحد رجالنا البارزين .

١٠ - أحد الصناع يقدم خدماته للزعيم اليائسين
فيبنى لهم آلة ويحدث تعباً بالسور الذى
سرعان ما ينهار .

١١ - زوجة قلع أرسلان مع فى الأسر هي وولداها
أثنساء محاولتها الفرار ويسولى اليأس على
الأهالى فيفاوضون تايكنوس الاعريقى كى
يسنسلوا ، ويبعث القادة الرسائل الى
الامبراطور بشأن هذا الموضوع .

١٢ - الامبراطور يوفد رسلا من قبله لتسلم المدينة ،
كما يبعث أيضا بالهدايا والشكر للقادة ، ولكن
السخط يسولى على الصليبيين ويشكون من
شجب الاتفاق بيه وبينهم ، وبصدر الامبراطور
أمره بسوق الأسرى الى القسطنطينة ويقدم لهم
الهدايا ويبيع بهم من هناك الى بلادهم .

١٣ - رفع الحصار عن نيقية ، والجيش يتابع زحفه
وينفرق القادة ، ويعوم قلع أرسلان باعراض
الصليبيين مرة ثانية يجيش كنيف .

١٤ - نشوب المعركة وهلاك وليم أخى تانكريد فيها ،
وأما جيش بوهموند فيصنع بأكمله فى خطر
عظيم ، كما أن تانكريد تنجو من الأسر باعجوبة .

١٥ - القادة الآخرون يصلون لجدة اخوانهم
المنهوكين ، فيفر قلع أرسلان ويحقق البوار

يجيشه ، ويعود الصليبيون وقد فاصب أيديهم
بالغنائم ، وينجمع العسكر كلهم مرة أخرى .

١٦ - الجيوش تسخل « بيزيديا » ولكنها تكابد هنا
الشدة بسبب قلة الماء ويصبح العسكر في حال
بالغة الحزن شديدة الخطورة .

١٧ - انفصال بعض القادة عن بقية اخوانهم وبحريهم
الاقليم المجاور ، وبجاة الدوق من الموت باعجوبة
من هجوم دب عليه .

١٨ - اصابة كونت تولور بمرض أشقى به على الموت ،
وأما الجيش فيعبر « ليكونيا » ويصل الى
« مرعش » حسب تموت روجة بلدوين أحي
الدوق .

١٩ - دهاب نانكريد الى فيليقية ومحاصره طرسوس ،
وزيارة بلدوين - أخى الدوق - لتلك النواحي
واستقباله بالتعظيم الذى هو أهل له .

٢٠ - بلدوين يطلب ائمال راية نانكريد من فوق
القلعة ليرفع راية مكانها ، فيرند نانكريد غاضبا
ويسنولى « جلف » على أذنة .

٢١ - استيلاء نانكريد عنوة على المصيصة وهى إحدى
المدن الواقعة فى نفس الاقليم .

٢٢ - استيلاء بلدوين على طرسوس وهلاك ثلاثمائة
صليبي أمام باب المدينة فى نكبة فادحة .

٢٣ - بعض المحاربين يحملون السلاح لمقاومة بلدوين ،
ولكنهم يهدأون أخيرا وبصل إلى طرسوس
اسطول من القرب محمل بالرجال .

٢٤ - بلدوين يزحف على المصصة بعد استيلائه على
طرسوس ، ونشوب معركة بينه وبين تانكريد
ثم يتصافى الاثنان ويتصالحان .

٢٥ - بلدوين يعود للجيش الاصلى أما تانكريد فيبقى
على كافة أرجاء قيلقية ويسنولى عليها ، تسرع
الحكام المجاورون لمهادنة كسبا لودده ويقدمون
الهدايا اليه .

هنا يبدأ

الكتاب الثالث

الاستيلاء على نيقية والزحف عبر آسيا الصغرى

- ١ -

كانت نيقية - وهي إحدى مدن بيسيا وعاصمة الإقليم -
خاصة في القديم لسوميديا ، ثم تحررت من سلطانها عليها على
يد الإمبراطور قنسططين . بعدد لما فرره أول مجمع ديسي مقدس
انعقد فيها ، فقد حدث في عهد كل من البابا سلعسر واسكندر
الموكر بطرك القسطنطينية والإمبراطور قسطنطين الذي اشربا اليه
حالاً أن اجتمع في بيقية مجمع مقدس حضره بلايائه وتمايون من
آباء الكنيسة لسحدوا قرارا ضد هرطقة آريوس وأباعه ، فمحصى
المخج عن سجب ما عليه هؤلاء من عقيدة فاسدة ضالة ، واسبغها
بالحق المبس على شهادة الكتاب المقدس ، وبذلك قدم المجمع الى
كنيسة الرب ايماناً نقي الجوانب ، كما عقد في نفس المدينة مجمع
عام آخر ، يعرف بالسابع ، في زمن الإمبراطور المؤمن قسطنطين
[السابع] ابن ايرين ، احتجاجاً على اللا أيفوسين أعى المهاجرين
للصور المقدسة ، وكان يحلس على كرسى رومه اذ ذاك البابا أدريان .
وكان بطرك القسطنطينية حينذاك ثاراتيوس الموكر ، ولقى
الهراقة المشار اليهم في هذا المجمع من الكتيسة الارثوذكسية
الحكم العادل الذى يستحقونه بسجب بهتانهم .

★★★

ورفع مدينة « بيعة » في الافليم السهلى ، وتنمى بموقع رائع كل الروعة ، وتشرف عليها الجبال التى تحيط بها من شى النواحي ، كما انها حافلة بأحسن الحمول فى المنطقة فأرضها خصبة ، هذا الى جانب المزايا العديدة التى سمحت بها عليها الغابات والاحراج ، ويوجد بالقرب من المدينة بحيرة عظيمة الاتساع ، وهى تسد شطر الغرب امتدادا كبيرا ، وكانت الأمواج اذا هاجت بها علت المياه وعسلت جدرانها .

وزباده على ذلك فان بيعة مكنته بالسكان الذين هم مساعير حرب ، ويعوم بحراسها حراسة تامة أسوار عريضة الاتساع . وإبراج ساهقة الارتفاع ، قدت من الصحر الجلود ، حتى ان الدهشة استولت على رجالنا حين أخذوا يقربون منها فرأوا وسائل دفاع ضخمة .

كانت المدينة وبعمه الافليم والولايات المناحمة لها فى هذا الوقت تحت حكم وال تركى شديد المراس قوى الشكيمة ، يدعى « قلىج أرسلان » ويكسى « بالشاء » التى يعنى الملك فى اللسان العارسى ، وكان قلىج أرسلان هذا على جانب كبير من الحنق ، وما كان يسمح بعزم فواتنا على المجيء حتى أخذ للأمر أهبة ومضى الى الشرق يلتمس العون والنجدة من حكام تلك النواحي ليعول بين الصليبيين وبين المجيء ، واستطاع بقوة اقناعه ، وبالمزيد من التوسلات ، وبالمال الذى بدله أن يجمع اليه من فارس وما تأخها أعدادا ضخمة من الأتراك الذين طمح أن يعينوه على انقاذ « نيقم » وتجنيب الناحية بأجمعها وبلات الخطر الذى يهددها ، وحدث قبل هذا بقليل - وكان على القسطنطينية الامبراطور رومانوس ديوجينيس وهو الثالث قبل الامبراطور الحالى الكسبيوس [كومنن] - أن تمكن أقوى ملوك فارس يومذاك واسمه ملك شاء - وهو عم قلىج أرسلان من الاستيلاء

عموه على جميع الأقاليم الممتدة من خليج السفور حتى بلاد الشام
ومسيرها رحلة ثلاثين يوما ، كما تمتد نفس المسافة من البحر الأبيض
المتوسط الى الشمال ، وقد آلت معظم تلك الأراضي في ذلك الوقت
الى فلج أرسلان الذي استغل ملكيه اياها ، فمطلع الى الاستيلاء
على كل الاقليم الممتد من طوروس في فئمية الى السفور ، ومن ثم
كان له - وهو على مدى رمة فوس من القسطنطينية ذاتها - بوابة
الذين يجنون له الصرائب من المارين بها ، كما كان هؤلاء النواب
يجمعون لمولاهم الجزية والاناوات من كل النواحي المحيطة بالاقليم .

كان هذا الحاكم يقم في المناطق الجبلية المحاذرة ، التي
لا تبعد عن قوائنا أكثر من عشرة أميال ، وكان يربط العرصة
المواصلة لمهاجمتها دون أن يعرض نفسه للخطر بفصل ما توفر له
من جيش بذل الجهد في جمعه ، وبهذا كان يأمل أن يذهب عن
المدينة الجزع الذي يؤرقها من هذا العسكر .

- ٢ -

لم تكن قواها تقف أمام المدينة حتى ست هجوما عيضا عليها
رغم عدم حسن تريب العسكر ، لأنه لم يكن قد تم تنظيمه بعد ،
ومع ذلك فإن عسكرنا الذين جاءوا أولا قد نبهوا لأنفسهم مواضع
محددة يقيمون فيها ، وخصصوا أخرى ملائمة للقادمين بعدهم .
وبذلوا غاية جهدهم لمنع الأهالي من دخول المدينة أو الخروج منها
غير أن البحيرة الملاصقة للأسوار المدينة - كما قلنا - كانت تقف
حائلا دون تنفيذ هذه الخطة بسبب ما كانت توفره السور الموجودة

فيها من السلامة من يريدون الخروج من البلد أو دخوله ، ويعلمهم
حيث شأؤوا ، ولما لم يكن لدى جيشنا قوة بحرية فقد كان عاجزا
عن تقييد حرية التنقل هذه ، ولكنه استنطاع بشىء الحيل أن يمنع
الوصول الى المدينة عن طريق البر بفضل عنايته الشديدة بمراقبة
جميع مسالكها ومافذها ، ولما عرفت فليج أرسلان أن مدينته تعاني
أهوال الحصار بعد إرسال اثنين من أتباعه ليدخل الطمأنينة في
قلوب أهلها ، وبشجعهم على الاستمرار في الصمود ، وقد أرسلهما
في فارب يعبر بهما البحيرة ، وبعد معهما عبارات التشجيع التي
جاء فيها حسب العادة .

« ان قدوم هؤلاء الماكند المبرزين الذين يظنون أنفسهم
قادرين على فرض الحصار على مدينا لا ينبغي أن يسبب لكم خوفا
كثيرا ، لأننى مرابط الى حواركم بقوة ضخمة من الرجال الأشداء
العتلاء ، كما أئننى في ارتفاع أعداد أكبر فادمة بعدهم ، وحين يلتم
شمل هذه القوات كلها في جمع واحد فسوف نفاحش معسكرهم
بالحجوم ، فاذا هاجمناهم نحن من الخارج فهبوا أنتم من ناحيتكم
لمساعدتنا ، وكونوا مسعدين لفتح الأبواب وانفضوا محدثي
لا يسعاكم شغل سوى مهاجمتهم ، ولا نرهبنكم ككرة عددهم اد
ليس عندهم من العدد والعدة ما بكافئ ما عند قوائنا النشيطة ،
لأنهم جاؤوا من أقصى بلاد العرب ، فأعياهم طول السفر ، وأرهقهم
بعد المسافة . وفيت في عضدهم ما صادفوه من المناعب ، وهم
لا يملكون سوى حياء لا تصمد للمقاتل الشديد ، ومن ثم فهم ليسوا
نظراء لقواتنا التي وصلت حالا ، ولا يبلغ نشاطهم نشاطها ، وعليكم
ان تذكروا كيف انتصرنا في يسر على جيشهم القوي ، وأوردنا
ما ينيف على خمسين ألف من رجالهم ورد الردى في يوم واحد ،
فقدروا نفسا واهدأوا بالا ، ولا يأخذنكم الجزع لانكم تلقون نهار
الغد تحلة كبيرة ، وسوف تتخلصون من العدو » .

ظل الرسولان مبحرين على طول الساحل سعيا لأحسن مكان
يرسوان فيه ، وبينما كانا يللمسان منعدا أمينا يدخلان منه اذا
برجالا يباعوبهما على حين غرة منهما ، فوقع أحدهما فى الأسر ،
وأما الآخر فقد فلح خلال الهجوم ، فأخذوا الأسير الى القادة لم
يمسوه بسموه ، فاعترف لهم تحت التهديد والخوف بما يعرفه وكشف
التفاب عن كل شئ وأحبرهم عن أرسله وعما حمله على إرساله .
فانصح من روايه أن فلح أرسلان بعث بالرجلين ليخبر الأهالى أنه
قريب منهم ، وأنه قادم اليهم بالجنه القوى الذى جمعه ، وقد
أجمع العزم على مباغنة معسكرنا عدا .

فلما عرف زعماء كنائسنا أن فلح أرسلان على وشك القدوم
أمروا بابقاء الأسر تحت الحراسة ، وبأدزوا فى لحظتهم فأرسلوا من
قلهم الى كونت بولور والى أسقف بوى - اللذين لم يكونا قد انضموا
الى بقية العسكر حتى هذه اللحظة - رجالا يللمسون منهما المجيء
على جناح السرعة ، فلما سلم هذان الصائدان تلك الرسالة من
أخوانهما جزعا عليهم حرجا عر هليل ، وندما على تأخرهما عن اللحاو
بهما . وخرجا وظلا سائرين طول الليل حتى بلعا المعسكر مع أولى
سائدر الصباح وقبل شروق الشمس ، ونفدما وحولهما الناس
ما بين مهلل وهائف ، والرايات ، تحفى أمامهما ، ويلمع الأسلحة
فى الجو ، وما كادا يضعان أنفاهما جانباً لسجدا مكانا مع بقية
الحيش فى المكان المقسوم لهما حتى انحدر قلح أرسلان من ناحية
الجبال - وكانت الساعة الثالثة طيقا لما قاله الأسير ، واجناز السهل
فى طريقه الى المدينة ، على رأس حشد كثيف من الفرسان ، ان تعدهم
بخدمه قرابة خمسين ألف رجل ، وما كاد رجالا برون العدو حتى
هوا الى أسلحهم فحملوها ، والى طبول الحرب فدقوها ، والى
الأبواى فنفخوا فيها ، وأيقطوا العسكر كلهم فرتبوا صفوفهم
استعدادا للقتال ، وأخذوا لكل شئ قد يعرض لهم أهيبته ، وتهيئوا

لمواجهة العدو القريب منهم في صورة الرموا فيها عاية الالتزام
بقواعد التنظيم الحربى الذى دربوا عليه ومارسوه طويلا .

- ٤ -

ارسل فلح أرسلان كتيبة قوامها عشرة آلاف رجل على خيولهم
لكربوا طليعه ، نحو البوابة الجنوبية التى وكلت حراسها الى
كونت بولوز ، لكن لما كان فلح أرسلان غير عالم بوصول ريموند
فقد توقع أن يجد البوابة كعهده بها فى السومين السالفين من غير
حراسة ، بيد أن أملة تبدد هباء اذ صادف عندها من الجود المرابطين
أكثر مما فى أية بقعة أخرى ، لكنه لم يكن عالما بهذه التحيزات .

ومن ثم أسرع فسن غارة شعواء على رجال الكونت الذين رعم
أنهم لم يتخفوا من أحبالهم الا منذ قريب الا أنهم صمدوا للهجوم ،
ويددوا شمل الصف الأول من عسكر العدو الذى أذبر حارباً ،
بيد أن ظهور فلح أرسلان على رأس امدادات قوية أحيى عزيمته
عسكره ، فعادوا الى ساحة القتال بعد أن كان قد انعط عقد نظامهم .

فى هذه اللحظات لاحظ الدوى وبوهيموند وكونت فلابندز
أن العدو قد عاد بقوات أكبر عدداً وأنها تعف صفوفها مرصاة ، كما
لاحظوا أن الارهاق بلغ من رجال كونت بولوز مبلغاً جاوز الحد ،
بسبب جيش كاسح بأسل الشجاعة قد اندفع اندفاع رجل واحد
لمساعدة رفاقه ، فقام [الثلاثة] قومة صادقة بمهاجمة معسكرات
العدو والقريبة ، وتناوشوه بالرماح والسيوف ، وعلى الرغم مما كان
يبلو على العدو حين طلوعه فى البداية من دلائل الشجاعة والبأس .

إلا أنه لم يمض غير ساعة واحدة من الصراع حتى معدوا أربعة آلاف
نفس ما بين قتيل وأسير ، مما حمل بقينهم على الفرار .

وهكذا أحرزت قواتنا هذا النصر الأول بمون الرب ، فاستمروا
يحاصرون الخصم حصارا أحاطوا فيه بالأسوار ، فلم يجرؤ قلب
إرسالن أو أى أمير آخر من أمراء العدو - منذ ذلك اليوم وأيام
الحصار التالية له - على القيام بهجوم كهذا الهجوم ، وإذا كان
رعمائنا المذكورون آنفا قد برهنوا على كفاءتهم ، فإن تانكريد وولتر
دى جار لاند صنيحان الفرنجة ، وجى دى بوسسا ، وروجر دى بار
نصل أبدوا من البسالة ما أذاع صيهم وأكسبهم حسن الأعدوة .

ورغبة فى زياده بب العز في قلوب الأعداء بعد صدر الأمر
لرجالنا بقدر أعداد كبيرة من رؤوس البرك المقولين الى داخل
المدينة ، قذفت بها الآلات اليهم ، وكما بعوا الى الامبراطور ألفا
من هذه الرؤوس وطائفة من الأسرى هدية ، فكان لذلك وقع طيب
فى نفسه ، وزياده على ذلك فقد قام ألكسيوس بسكافاة زعماء
الجيش ببالغ طائلة من المال ، وخلع عليهم شتى أنواع اليا
الحريرية المختلفة الأنواع ، ثم زاد فى كرمه فأرسل المواد الضرورية
لهم من غير ابطاء عليهم ، وأمر بجهيز سوق حادله بالمضائع من
أحلبهم .

أراد قواتنا تنفيذ غرضهم ، فأرأوا من الملائم فرض الحصار على
المدينة من كل جوانبها كما قلنا وذلك بوضع الفود فى أماكن
استراتيجية راحوا يصوبون منها وابلا من الأضرار على الأهالى ،
عساهم يحملونهم على الاستسلام دون مشقة نلقاها ، لذلك قسموا
منطقة السور الى أقسام متساوية ، عهدوا بكل قسم منها الى فريق
معين من الزعماء .

فربط الدوق وأخواه بقواتهم فى الجانب الشرقى .
 أما القسم الشمالى من المدينة فقد وقف فيه بوهيموند بجيشه
 ومعه تانكريد والقادة الذين تبعوه . والذين ذكرنا أسماءهم من قبل .
 وكان على هؤلاء فى الترتيب كونت فلاندرز ، وأمير نورماندى
 مع جندهما .
 كما خصص الشطر الجنوبى لريموند كونت تولوز ولأسعف
 بوى بمن معه .
 وقام سيفن كونت شارنرز وبلوا بنصب معسكره وراءهم .
 وكان معه هيج الكبير وبعض النبلاء الآخرين والرجال العظام .
 ولما تم الاحداث تماما بالمدينة على هذه الصورة أجمع القادة
 على وجوب الاسراع فى نصب الآلات اللارمة لسفويس الأسوار ، وهى
 الآلات المسماة بالآلات المحركة .
 كذلك صدرت الأوامر بالتعجيل ببساء آلات رمى المنجنيق
 وقذف الأحجار التى توفر الحصول على المواد الملائمة لصنعها من
 الغابات القريبة .

- ٥ -

وسار العمل سيرا حثيثا فجاء بالعملة الذين راحوا يتنافسون
 فيما بينهم فى انجاز ما بيدهم من عمل ، ليفرغوا لمهاجمة المدينة ،
 وظلوا على هذه الصورة سبعة أسابيع ، وان دأبوا خلالها على مراوحة

المدينة بهجمانهم بين آن وآخر ، حتى جاء يوم من أيام كرمهم طالعهم فيه نكد الطالع ، يوم فقدوا اثنين من محاربيهم الانساوس جمعا بين بيل المحند ورعة المكانة ، هما : بلدوين الملقب بكالديرون ، وبلدوين الغننى ، فقد هلكا وهما يقاثلان أروع قتال أثناء قصف المدينة ، اذ أصيب أحدهما بحجر أرداه صريعا ، وجاء الآخر منهم عرب أودى بحياته ، ومن ثم فرر العادة شس هجوم ثان ، ولكن هلك فيه وليم كونف فوريز ، وجالو دى ليل ، وهما يحاربان ببسالة ، فقد رميا بسهمين أصابا منها مقنلا .

وأصاب الرص هنا أيضا دى بوسسا أحد نبلاء مملكة الفرنجة ، وكان مرضا عضالا أودى به ، فذهب الذعر فى نفوس شعب الرب لهلاك هؤلاء المحاربين الذين شيعوا الى مواهم الأخير محاطين بالشرف والحرن العميق ، وكان موكب حنازهم موكبا حافلا لم يحزن العادة بميله الا لمن تسنموا ذروة الشرف الرفيع .

- ٦ -

وحدث فى مرة أخرى أن كان جمع العادة منصرفين الى الحصار ، وقد بذلوا أنفسهم أصدق البذل فى ذلك ، فلم ينالوا قسطا من الراحة أو قليلا من التمهل ، وراحوا يحاولون بكل ما فى وسعهم نصب آلاتهم على الأسوار ، عساهم يتمكنون من شق طريق لأنفسهم يفحمون منه المدينة .

وانصرف كوت هارتمان وهنرى ديش - وهما نبيلان من مملكة التيوتون - وانصرف أتباعهما وحواشيتهما ومعانئوهم الى

نصب آلة صنعت - على أحسن ما تكون الصنعة - من جدوع البلوط التي سدوا بعضها الى بعض شدا منينا ، وأحاطوا الآلة بأعمده غلاظ ، وربب عسى أن نسع في جودها عشرين من الفرسان الشجعان عهد اليهم بقويس السور ، فادا صار الفرسان في جوف الآلة آمنوا على أنفسهم حتى من أعتى الصخور الضخمة التي ترميهم بها الآلات . لكن حين أسندت هذه الآلة الى الجدار اشد الاهالى في رميها من فوق رميا أسفر عن عظمها تمام الحطيم ، بسبب ما ابهال عليها من القذائف الحجرية ، فنشرت أجزاءها بددا ، وهلك جميع من كانوا بداخلها فقد سحقوا سحقا فاشد حزن الناس على هؤلاء النلاء ، وعظم الكرب لصاع حد أيام كثيره صرفوها في بناء تهدم عن آخره ، ولم يعد له أدنى فائدة ، وحزن الناس على مصير أولئك الشجعان الذين نطرب القلوب للنهاية التي اسهوا اليها ، ومع ذلك فما زال الأمل يراد العوس ويهدد الجواح ، لفسهم الجارم بأن هؤلاء الذين خاطروا بحياتهم في سبيل المسخ في هذا العمل ؛ لما فازوا بحياة أسمى من هذه الحياة الدنيا ، ولادراكهم الحقيقي أن هؤلاء الرجال الذين ماتوا في ذلك الفبال ماتوا شهداء ، لذلك فقد ازدروا هم أيضا الموت واسهأوا بالحياة الدنيا ، واستمروا يواجهون سسى المخاطر بقلوب ثابتة الحنان ، ومن ثم فقد انفق القادة على الاستمرار في مضاعفة رمي جميع أسوار المدينة ، وراح كل قائد يبذل قصارى جهده في تشديد الحصار - في قطاعه الذي وكل اليه - شدة حملت بنية الناس على النحدث بما كان منه . وسار العمل قدما ، وان كلفهم غالبا ، كما أن المعارك الموصولة والكمائن شمة الدائمة ، لم تدع لأهل البلد وقا لالتقاط أنفاسهم .

ومع ذلك فان البحيرة المجاورة للمدينة كانت تقف أمام ما يجعله الصليبيون كأكبر عقبة أقسمت عليهم جنى الثمرة المرجوة التي بذلوا من أحلها جهودهم المضنية ، هذا الى جانب ان هذه البحيرة كانت

مصدر راحة وطمأنينة للمحصورين الذين يسر لهم بركوبهم ماءها
أن يجلسوا ما يشاؤون من الطعام والمثوبة ثم أنها كانت تمكنهم بين
آونة وأخرى من ادخال رؤوس كبيرة من الماشية الى المدينة سحب
بصر قوائمها التي كانت تقف مكتوفة الأيدي عاجزة عن منعهم
من ذلك .

- ٧ -

حينذاك اجتمع العادة أحباب الله للنظر في هذه المشكلة على
وجه الخصوص ، وتدير أحسن الوسائل لمعالجتها ، واستقر الرأي
منهم أخيراً على ارسال رهط من بينهم الى البحر ، بحرسهم كوكبه من
الفرسان ، ووكلوا الى هذه الطائفة من الناس أن ينقلوا القوارب من
البايسة الى البحيرة مفككة أو كاملة ، مستنضلين في ذلك ما يسر
لهم من عربات الحمل والعجلات وغيرها من وسائل النقل . وراوا
أن عدم تنفيذ هذا الاجراء لابد أن يؤدي الى فشل جميع مجهودات
الصلبيين وضرباع كل ما بذلوه من مال ولا تعود نمة جدوى لأي
شيء ما .

وخرج الرهط الموكل اليهم تنفيذ هذه الخطة فيسر السيد
طريقهم ، وكلاً محاولتهم برعايته ، اذ وجهوا السفن الراسية هناك
من الحجم المتوسط فحصلوا عليها في سهولة من الامبراطور ،
وجروها على اليايسة الى البحر بعد أن شدوا كل ثلاث عربات أو
أربع الى بعض حسب طول السفن التي يحاجونها ، وأمكن بهذا
النقل على مدى ليلة واحدة سحب هذه القوارب من البر الى

البحيرة ، مسافة سبعة أميال أو نريد ، بعد أن سدوا البحال الى
أكتاف الرجال ورفاب الجياد ، وكان من بينها سفن كبيرة الحجم
تسع الواحدة منها ما بين خمسين ومائة مقاتل .

ولما تم سحب هذا الأسطول على اليابسة ، وفرعوا من انزاله
الى البحيرة ، بلفظ فرحة الجيش الصليبي غايتها ، وأسرع الى
الشاطئ ، وحيء بالجدافين المهره والرجال المغنولى السواعد المشهود
لهم بالمهارة فى هذا الفن ، وسرعان ما املاأ قلوب الجميع بالهمة
فى اسئلائهم على المدينة .

ولاحظ أهل البلد وجود عدد من السفن أكبر مما اعتادوا
رؤيته ، فملكهم الدهشة ولم يدروا أهى بعض من الأسطول الذى
جاء لمساعدتهم أم انها من سفن العدو .

ثم أدركوا بعد حين أنها لنا ، فد نقلها رجالنا من البحر بعد
بدلهم مجهودات مضنية فى سحبها على اليابسة ، ثم أنزلوها الى
البحيرة فتملكتهم من الدهشة أكبرها من بأس الصليبيين ومهارتهم
اد يحصوا فى تغنذ عمل يعبر من المتوس منه وشبه مسجبل .

- ٨ -

أدى ادخال السفن الصايبية الى سد مخرج المدينه عن طريق
البحيرة ، ومن ثم نادى المنادى أن تحمل كل كتيبة سلاحها ،
وتقف بعبادة فائدها فى المكان المخصص لها ، كما فودى بتشديد
الضغط على أهل البلد ، وشن الهجوم العنيف على المدينة ، ومضى

كل فائد يشد من عزم رجاله ، ويحرج على رأسهم الى المعركة
وهم في اكمل سلاح ، فلما سم ذلك كله حرب معركة لم يكن في
الحسبان ، ابدع فيها رجالنا انما ابداع في استعمال الآلات ،
مدللوا على شجاعتهم ، وبينما كان بعضهم منصرفا الى ملصحه
الأسوار ، مضى غيرهم يقذفون الأحجار الصخرة على الحصون لضعف
صمودها .

أما القسم الجنوبي الذي عهد به الى كوت بولوز لمسخه
مركزا لهجماته فكان به برج يبرز كل برج سواء في ارتفاعه
الشاهق وبناؤه المحكم ، وفيل ان زوجه فلج أرسلان كانت نسيم على
مفرقة منه .



وظل الكوت بضعة أيام يبدل كل جهده لهدم هذا البرج فما
أفلح ، بل بات مساعيه كلها بالفشل اد على الرغم من موالاه ربه
بالصخور التي كانت تنصب عليه من ألين الا ان البناء الصلد أثبت
أنه من المستحيل رحضة حجر واحد منه ، فلم ينن ذلك الكوت
عن مضاعفة الضغط عليه كما زاد من عدد الآلات التي أعدها
لقصفه . غير أن موالاة قذفه بكل الصخر والأحجار الثقيلة أصابه
بالشروخ فوهب مقاومته ، وانتهى الأمر أخيرا الى اصعاقه ، فلما رأى
العسكر هذا المنظر البهيج وثبوا فرحين وثبة قوية عبروا بها الخندق
الملء بالماء حتى حاذوا الأسوار في محاولة منهم لتعويضه ، وكان
كل منهم يشجع رفيقه على الهدم ، فان أعجزهم الهدم فلا أقل من
مخ نغرة فيه .



كان الأهالي يدركون أن الخطر يهددهم ان انهيار البرج ، فانطلقوا يملؤون داخله بالأحجار والأسمنت حتى اذا زعزعت الآلات اسواره أو قوضتها حل الجديد محل القديم ، وأصبح عائقا في طريق الذين يحاولون فتح النفرة .

غير أن رجالنا نجحوا في هذه الأثناء في تثبيت سمار عيسى الى السور من عجمات العدو ، ثم قيض النجاح لهم أخيرا بعد أن بدلوا من الجهد عاينه ، وبفضل عددهم الحربية ، وبمكنتوا من فتح ثغرة كافية لادخال رجلين في غير مشقة كما أخذ الأهالي في الوقت ذاته يزدنون من معارمهم المنيعة ضد عدوهم ، وراحوا يقابلون الحيلة بالحيلة ، ويواجهون القوة بقوة مسلها ، وأظهروا روحا لا تقل عما عند الصليبين وحاربوا بكل ما يملكون ، وجاهدوا كأنهم رجل واحد ، فرموا بالنشاب والمنجنيق وكل سلاح تسر بين أيديهم تسنى لهم العشور عليه ، وتكاتفوا في رد العدو وغاى الأحوال المصصة عليهم .

- ٩ -

كان من بين المدافعين عن السور والفائمين بصد القوات المهاجمة رجل تميز من بين الرجال بضخامة جسمانه وشدة بطشه ، وكان نسيج وحده بما تنطوى عليه نفسه من كراهية لنا لم يحاول سترها ، وقد أذاق هذا الرجل رجالنا كثيرا من العطب بما كان يرميهم به عن قوسه ، وقد غره ما كان يصادفه على الدوام من كبد لنا ، ولم يعف عن نيل رجالنا بفاحش القول يرميهم به ، فلم يطق جود فروى العظيم احتمال هذا العار ، فتتكب قوسا ضخما ، وتخبر مكانا مناسباً ، وسدد رميته في دقة ، فأصاب السهم - وقد انطلق -

أحشاء هذا الحاسر فجندله صريعا على الارض قد فارقه روحه فلم ي
الحراء الحق الذى معا الاهانات الجمّة التى كان يصيبها على
الصلبيين ، وكان رفاق هذا الزنيم قد نسجوا على مواله فوصعوا
حطة محكمه كل الاحكام فى هذا الجزء من السور ، غير أن فرعهم
من الدوى اسيد بأكرهم فقللوا من رميهم رجالا بالسلاح ، وكفوا
عن ملاحقتهم بالاهانات ، على أن رحالا غيرهم لم يعلموا بآ هذه
الكبة فابروا على شواطهم فى الدفاع عن المدينه من أماكن أخرى
على طول السور من أخذهم الحذر الشديد ، ولم يكفوا عن اصابه
رجالا برموهم وهم على الأسوار والأبراج فتركونهم ما بين جريح
وقتيلى ، ولم يكفوا بأن بصصوا عليهم العار والريب والدهن وعمر
داك من المواد التى تؤهج النار ضراها ، بل رادوا على ذلك بأن راحوا
برمون النار المشعلة على آلاسا فئلف أكرها ، الا ما كان منها فى
أماكن سددت عليها الحراسة الدفقة .

★★★

أما رحالنا الذين كانوا فى الناحية الجنوبية فكانوا يشبون
هجومهم العنيف على البرج ، واستمروا على ذلك الحال من السباط
حتى الهامة ، لكنهم لما رأوا أنهم كلما تقبوا جزءا من السور نهارا
رمة العدو لئلا فأنهم سرعان ما تراخوا فى جهودهم بض الشيء ،
حتى اذا أيقنوا فشلهم التام كادوا أن يقلعوا عما هم فيه ، لولا أن
رحلا منهم شجاعا على المكانة - وهو فارس من جيش كونت نرمندى
قام بمحاولة بارعة ، مؤملا من ورائها أن يقتفى الآخرون منواله ،
فلس درعه ، ووضع خوذته على رأسه ، وعبر الخندق مستهنا بكل
خطر ، ودنا من السور مخذا من ترسه مجنا يقه العطب ، عادفا
من وراء ذلك أن يقوض البناء الحجرى الجديد الذى شيده الأعلى
فى الميلى ، وأن يعيد فتح الثغرة التى كانت موجودة فى اليوم

السابق ، فأصر أهل البلد أن يكون الهجوم الذى يشوبه من أعلى هجوما عنيفا ، فسأت محاولة [الفارس النورماندى] بالفشل اذا لم يجزأ أحد من الصليبيين على القدوم لنجده ، فردى قنبلا فد سحقه العذائف الحجرية الضخمة ، فهلك حب السور على مشهد من رفاقه الذين وان كانوا راغبين أسد الرعه فى انفاذه ، الا أنهم كانوا أعجز ما يكونون على مله بأى عون من جانبهم ، فجذب المارقون الجلة الهامدة بالخطاطف الحديدية ، وقذفوا بها فيما وراء السور ، حسب طلب موضع سخرتهم الملعنة ، ثم جردوه فى النهاية من درعه وسلبوه حوذنه ، وألقوا به الى قواننا فى الخارج ، فبكاه الناس وهم يسون عليه وعلى شجاعته ، ثم دسوه بما يلبى به من الاحرام وسحبوا حنائه فى قبره . ولم يشكوا أبدا فى أن متته هذه كانت عظمة فى عين الرب ، وأن روحه - وقد لقب هذه الخاتمة النبيلة - سوف تكون مع أرواح الصفوة المختارين ، لأن الجميع - كما قيل احبوا على أن من يسقطون فى ساحة القتال سبوا فى لهم ما وعدوا به من حياة أبدية محبذة بين القديسين .

- ١٠ -

قام فى هذه الأثناء رعاء جنوشنا الذين وهبوا أنفسهم لخدمة الرب بعقد مؤتمر على مألوف عاداتهم بعد ان اتضح لهم عدم احراز أى تقدم فى مشروعهم ، بل نبهوا أن واقعهم حرى على العكس مما رقبوا ، وأدركوا أنهم أضاعوا جهودهم وبعثوا نشاطهم سدى ، ومن ثم راحوا ينشاورون فيما بينهم بروح ملؤها الجدة فيما ينبغى عليهم عمله فى ظروفهم الراهنة هذه ، وبينما هم يقلبون الأمر على شتى

وجوهه بقلوب جازعة . اذا برجل لمباردى يأبىهم ويسبهم انه لاحظ
ألا جدوى من وراء جميع مشاريع مهندسهم ، وان جهدهم داهب
ادراج الرياح ، وذكر لهم ما هو عليه من مهاره فائقة فى هذه
الصنعة . وبين لهم أنهم لو وفروا له المواد اللارمه والمال الكافى
لاسام العمل بأخذه مما عندهم فى حراسهم العامه فانه بمشئته
الرب منحره فى ايام فلائيل معدودات وأنه مدمر البرج . وفاج فيه
بفره واسعه ، ان يشأ الجميع أن يفحموه منها لم يعسر ذلك
عليهم . وأكد لهم أنه منم ذلك العمل دون أن يفقد رجلا واحدا .
فأمدوه بما يكفى نفعانه مما أخذوه من الأموال العامة . هذا بالاضافه
الى تحصيصهم مبلغا مناسبيا مكافأة له على جهده .

وجيء له بالمواد التى أرادها . فعمل آله رائعه الصنع صمم
على هيئة بسيطيع من بداخلها - رغم مقاومة العدو - أن يلقوها الى
الرح من غير خطر يهددهم . فان دخلوها أحفهم وتمكنوا من مبادعه
عملهم فى تفويض المائى وهم آمنون . لا خوف عليهم .

وانجز الرجل صنع هذه الآلة كما أرادها ، فلما ضمت أجزاؤها
بعضها الى بعض وتم تحصينها من كل التواحي حسبما أشار
[صانعها اللومباردى] دخلها هو مع رهط من الرجال الشجعان ،
وبدأوا عملهم فى تفويض المائى وهم آمنون ، لا خوف عليهم .
ثم دفع القوم الآلة بمن فى داخلها من الصاع ، حتى اجتازت الخندق
ثم منوها الى الأسوار فى براعة ومهارة فائقين .

على أن الأهالى لم يفارقهم اندفاعهم الذى طبعوا عليه ، فراحوا
يرمون الآلة من عل ، ويقذفونهم باليران المسنعة فما أجدتهم هذه
القذائف ولا أضرت بالآلة ، ولا كان منها شر عليها لأن الانحدار
الشدبد لكل من السفف وجوانب الآلة حال بين هذه القذائف وبين

أن تسفر حيت رميت ، فسلم كل من كان في الداخل من الرجال ، وسرعان ما أخذت ثمة الأعداء شرعزع في أساليبهم العليديه ، وكان اعجابهم بعبقرة المخرع وقوة الآلة ، اعجابا بالغاً لما اتضح من فسل كل جيله حالها .

كان الدين بداخل عدا المحبا آمين ساما من مكائد العدو ، ومن ثم ظلوا يابعون عملهم في تقويض البرج وفي نقب السور بكل ما أوونوا من قوه ، ولم يكده الصدع يام بحجر الأساس فيحلعه حى وضعوا مكانه العروى والأعمدة الخشبيه خوفا من أن ينهار ما دوى السور على الآلة فيسحقها سحقا اذا ما نزع الأساس اذ لا تعود الآلة فادرة على تحمل كتلة ضخمة كهذه الكله ان هى انهارت عليها .

ولما انصح أن البرج قد نهب بسا يكفى لسقوطه ، اشعلوا الحيران فى الدعائم السى يعوم عليها الحائط الآيل للسقوط . وجرى أيضا بمواد ملهبة بحل على بهاء النار مشتعلة على الدوام ، واذا داك ترك العمال الآله وعادروها مسرعين الى رفاقهم ، حى اذا انتصف الليل أو كاد أنت النار على الأعمدة الخشبة فصر بها هسبا ، وانهار البرج وصحب انهياره دوى كأنه الرعد ، أثار فى الناس حسبا - حى من كانوا على مسافة قاصدة - فرعا وحف له قلوبهم ، ونبه صوب انهياره الجند فهوا الى أسلحتهم مجيعين العزم على اقتحام المدينة عنوة .

- ١١ -

طلب روجة فليج أرسلان - حى هدم اللحظة - صابرة صبرا شديدا على تحمل أهوال الحصار ، أما الآن وقد بلغ الفزع منها غايته بسبب انهيار البرج فقد أمرت - كعادة النساء - بأعداد السفن

وصحبت جواربها وكل أهل بيها ، وانقلب سرا من المدينه عازمه
على الناس مكان يكون أكبر أمنا وسلامة ، لكن الصليبيين كانوا
قد أقاموا حراسا فى القوارب الراسبه بالبحيرة لمنع المحصورين من
الدخول أو الخروج ، وإذا كان هؤلاء الحراس رجالا عفلاء قد أعدوا
لكل سوء عدته ، ويقطين أشد البغظة فى مرافقة أنه حركة فقد بكسف
لهم أمر هذه السند وحى على وسك الهروب . فاصكوها ومعها
ولداها الصغيران وساروا بهم الى القاهه الذين أمروا نوصعها وولديها
بحت الحراسة الكسفة .



أما الأهالى فقد مسهم المزع الشديد بسبب الغره التى يمكن
عدوهم من فتحها ، وبسبب القبض على سنده ليا هذه الخطوره .
وتملكهم الناس القاتل من قدرتهم ، فأرسلوا فى لحطهم وفاده الى
الرعاء يلتمسون منهم منحهم هدنه ليرتب خطه الاستسلام .

ولما كان نايكيوس الذى تكلم عنه من قبل رجلا سديد المكر
كبير الدهاء ، فقد أدرك أن الأهالى لابد أن يحلوا عن دفاعهم عن
المدينة . ومن تم دعا كبار رجال المدينة الى لقاء معه بصحبه منه أن
يسنسلوا للامبراطور احلالا له ، كما أشار الى ان حش الحجاج
الواقف الآن قبالة المدينه مشغول هذه اللحظة بابحار أمور أخرى .
وذكر لهم أن هؤلاء الرجال الذين كان اشتركهم فى الحصان عن
طريق الصدفة البجعة قد بعدوا تماما عن حطهم الرئيسة . كما
أكد لهم أن الامبراطور سوف يقف على الدوام الى جانبهم (وليس
الى جانب الصليبيين) ، وأن فى قدرتهم الاعتماد النام على رحمة
الجدرة بشكرهم ، وحسناك يحق لهم أن يأملوا أن تكون الأمور
أكثر يسرا عليهم وألقى اليهم أن الخير لهم أن يسسلوا - اذا

استسلموا - الى الامبراطور وأن يؤثروه على قوم مجهولين ،
وأفهمهم ان الاستسلام الذى لا مفر منه يجب أن يكون للامبراطور
الذى سوف يمكن اذ ذاك - بمعونتهم من اسرداد المدينة التى
انتزعت منه ظلما مد فريث بسبب بطش الأبرك .

آنت هذه الحجج القوية وأمالها اكنها فى حمل الأهالى
المجمعين على موافقه [ناسكيوس على ما طلبه] مسرطين عليه صمان
سلامتهم ، فلما استجاب الى ما طلبوه منه وما اسرطوه عليه فقد
آثروا أن يسلموا المدينة وأنفسهم وكل ما ملك أيديهم الى
الامبراطور .



لم يكن هذا العرض مرفوضا أيضا من جانب العادة الصليبيين
نظرا لأهم كانوا فى الواقع ينطلقون الى حامية تختلف كل الاختلاف
عن هذه الحامية ، ولم يكن من عرصهم أن يعيموا فى نيقية أطول
مما أقاموا ، ومع ذلك فقد طمعوا أن يطبق الاتفاق [المبرم سهم
وبين ألكسسوس] فندفع عنائم المدينة وأسلابها الى الجسس تعويضا
له عن المشاق التى كابدها والحسائر التى مى بها ونحملها .

على أن [الفاده اللابى] اسرطوا - قبل أن ييحبوا كل
ما يتعلق بالاستسلام . وقبل أن موافقوا على ما فيه تحقيق رغبات
الأهالى فى هذا الصدد - أقول انهم اسرطوا ان يعود الى الجسس
جميع اخوانهم من عسكر بطرس الناسك ، الذين أسرهم قلعج أرسلان
فى قلعة سيفنوت وكذلك من أسرهم الأهالى أثناء الحصار .

لذلك تمت موافقة القادة وأهل المعسكر على انفاذ رسل من
قلهم الى الامبراطور ، يحملون اليه الرسالة النالبة يقولون له فيها :

« لقد أخلص الجيش الصليبي وفواده السه في حصار نهمه
 محبة منهم في المسيح ، واستطاعوا بجهودهم الصادقة المدووبه ،
 وبعون الرب أن يرفعوا تلك المدينة على الحصوع ، وأبنا لنسلم
 من كريم حلالكم أن لا تآخروا عن إرسال بعض وحوه رجالكم الى
 تلك الناحه ، على رأس قوة كافية لتسلم هذه المدينة التي استسلمت
 بعددرا منها لاسيكم .

« وعلى الإهالي ان يلمروا هم أيضا بارجاع من في أيديهم
 من الأسرى وهم كيرون ، ذلك لأننا راعبون في الرحل في أعقاب
 سلم حلالكم المدينة ، ومعززون مناعة السر في طريق الحج
 الذي اعزمناه بفضل الله » .

- ١٢ -

ملأت هذه الرسالة قلب الامبراطور عبطه ، فأعذ في ساعه
 الى نفسه رهطا اختارهم من حاشيته ونفائه وأهل الحره من
 استطاع الاعتماد عليهم في سلم المدينة والقيام بنحصيلها ، وكلفهم
 بأن يحملوا اليه - كملك خاص له دون سواء - كل ما غم من
 الأسرى من ذهب وفضة وشتى أنواع المناع ، كما أرسل الى القادة
 هدايا ضخمة طمعا منه في كسب ودهم ، وزاد فأزجى اليهم شكره
 الخاص - كناية وقولا - على خدماتهم الجليلة والعطاء العظم الذي
 حصلت عليه الامبراطورية بفصل جهودهم .



على أن الحق بلغ غايه مداه بعامة الجند ومن دونهم ، لا
 بذلوه هم أيضا من أقصى الجهد في حصار المدينة : الأمر الذي كانوا

يتوقعون معه أن يكون لهم وحدهم ودون سواهم هذه العنائم التي استولوا عليها من الأسرى ، وما عسروا عليه من البضائع ، وما رخر به المخازن الموجودة في المدينة دانيها ، فيموصهم ذلك كله عن حصارهم لأهلاكم ، لكن بيبي لهم الآن أنهم لم يجزوا الجزء الأوفى على ما تكبدوه من المشاق فقد أصبح لهم ما عزم عليه الامبراطور من احتياز كل شيء لنفسه ولخزائمه الخاصة ، أعنى العنائم التي نص الاتفاق المبرم بينهم وبين الامبراطور على أن تكون عنيمة مساعه . فقدموا على ما بذلوا من جهد ، ونجلى لهم الآن أن كل المال الذي أنفقوه قد ضاع بندا .

كذلك دأب العاده على انهام الامبراطور [الكسبوس كومدين] ناه نكب عيمده ، وخالف بصوص الانفاقه التي نصب شروطها المبرمه بسهم وبسه على أنهم اذا استولوا أسماء رحفهم كلهم معا على بلاد النشام بارساد الرب على أى مديسه من المدن التي كانت تابعة لامراطوريه وحب عليهم ردها اليه هي وما يلحقها من السواحى ، أما العنائم والأسلاب وما شاكلها فتؤول من غير حبال الى العسكر مكافأه لهم على جهودهم ، ويعويضا عن النعاب التي تكبدوها .



بادر الصليبيون الى اخراج مرنزفة الامبراطور من المدينة وردوهم الى مولاهم صفر الأيدى ، وما كان لأحد أن يلومهم على هذا العمل الذي قاموا به ، بل اللوم يكون في التزامهم الوفاء بالعهد مع رجل نصص عهده معهم ، غير أنه لما كان الخوف من الرب بسلاما جوانحهم ، ولما كانت الرغبة في الاسراع بانحجار عمل أجل خطرا عن هذا وأبلغ أهمية مملأ نفوسهم ، ولما كان امام حجهم هو مقصودهم فقد كحموا مشاعرهم الحقيقية في صدورهم حفاظا سهم على الصالح العام .

ثم حاولوا بكل ما بهم الرقيفه بهدنة مشاعر العامة الدين كان
سخطهم شديدا على هذه المعاملة التى عاملهم بها الامبراطور .

★ ★ ★

ولما دخل المدينه الرسل الاعريق الدين اوفدهم الامبراطور
لاسلامها واخذوا سلاح أهلها وسلموا البلد منهم مضوا الى المعسكر
ووقعوا أمام العاده باعبارهم - أى الرسل - مستولين عن حياة
الأهالى وسلامتهم مصرحين بأن الأهالى هم الدين أعادوا المدينة الى
الامبراطور ، وانهم اسأمنوه على أنفسهم ، وأسلموه رقابهم .

بعد ان اسسسلمه مدينه بيعيه على هذه الصورة ، أقيمت فيها
قوة كافية لحمايتها ، وسيرت بعدئذ امرأة قليج أرسلان وولداها ،
وطائفة كبيرة من الأسرى الى انقسطنطينية ، فلم يكشف الامبراطور
بعاملتهم بالرحمة ، بل زاد فبالغ فى الاحسان اليهم واکرامهم اذ
لم تكذ تنقضى أيام قلائل على ذلك الأمر . حتى رد عليهم حريتهم
التي كانوا يتمتعون بها من قبل ، ويقال ان الدافع له على ذلك
هو ما كان يرأوده من الأمل فى اكتساب موده الترك ، وما كان
يطمح فيه من تحويلهم ضدنا من غير جهد ببذل ، وما كان يقدره
من أن قواننا لو حاصرت أى مدينة أخرى فلن يخامر أهل تلك
المدينة خوف منه ، ان هم استسلموا له على هذه الصورة التى
استسلمت له بها مدينة نيقية .

وكان الاستيلاء على مدينة نيقية فى العشرين من يونيو من
مولد السيد .

لم يكد الحصار يرفع عن بيعة حتى أصدر القباده أمرهم بمابعه السير ، فربب العسكر ماعهم ، وحرحت كنائهم يوم التاسع والعشرين من يونيو ، فى وجده مباسكه ، وظلوا سائرين لمدة يومين ، فلما كانت الليلة الثانية اتفقوا على النزول عند جسر معين لوفرة الماء عنده ، فافاموا هناك . حتى اذا أهلب طلائع العجر الولد وان كان الطلام لا يرال بيد رواجه على الكون نأهبوا للرحيل مره أخرى فعبروا الجسر . وهما حلت اما صدقه أو بانعاى من الفاده - أن مضى كل منهم بكتيبه معارفا غيره ، وادا ببوهيموند كونت بورماندى، وسيفن كوت بلوا ، وناكريله وهيج كونت سنن بول ييمون وجوهم ناحية المسار ، وساروا ذلك اليوم وحدهم لس معهم غرهم ، حتى انتهى بهم السر الى واد يسمى «بجورجون» فعبسكروا به حوالى الساعة التاسعه ، ونزلوا عند ضعاف نبع جار . كبير الكلا ، وافر المرعى ، وأقاموا الحرس حول العسكر ، ونعموا ببللة هادئة رغم انشغال بالهم .

★★★

أما القادة الآخرون فقد ابجهاو يمينا ضاربين معسكرهم - بعد مسرة يوم - فى ناحية لا يكاد يفصلهم فيها عن غيرهم سوى ميلين ، وقد توفر لهم هنا أيضا المرعى الطيب والماء الغزير .

فى هذه الأثناء كان قلع أرسلان - وفد أهله الخطب الذى نزل به - دائم التفكير فيما دهمه على أيدي الصليبيين من ضماح تلك المدييه الرائعة من قبضته ، وما كان من فقدته لزوحته والصبيين . فاستعلت نيران النار فى قلبه وأجمع العزم - ان أمكن - على نصب كمين لعدوه ، حينذاك حشده عندا كبيرا من العسكر ، منعبا بهم

الجيش الذى اعطف الى اليسار بنفس خطاه ، وكاتب عموده ثانية على الدوام بأخبار حركات العسكر الذى يسبقه ويبلغه لاغتمام الفرصة الملائمة لماعتهم ، وسرعان ما أعلمه كشاعبه بأغتمام الجيش سطرين ، وأن أهرتجا الهه أصعقهما وأقلهما عددا ، فأذكر فى الحال أن الفرصة الهى ينشدها منذ وقت طويل قد واقته فنزل من الحمل بجيشه الذى لا يحصه العد .

★★★

وما كاد الصياء يسرع فى بيديه عيسى الطلام التصف حتى بين للمراقبين ذلك لأن الجيش الصليبي كان قد وصح رجالا يرصدون من بعد مكائد العدو ، ويعطون الاساره فى الوقت المناسب ، فأعطوها ، فذهب الطول فى الحال محذره من امرايه ، فهب العسكر جمعهم الى سلاحهم وقد بههم دى الطول وبداء المتادين ، وأخرجوا حولهم واستعدوا للالهام فيما قرب من النواحي ، وكان ذلك فى الصباح الباكر من أول يوليو ، واصططع الصفوف للنقال ، سواء منهم أمراء المثين أو أمراء الحمسين ، ونقدم كل واحد منهم على رأس جماعه ، أما الزعماء فكانت أمامهم فى أحنية المشاة .

ولما كانوا يريدون أن يكون نفدم القوات للعمال من غير عائق يعوقها ، فقد أنزلوا فى غابات البوص المتكاثف القريبة منهم جميع العجزة والمسنين من الرجال والنساء ، والآلاف المؤلفة من لا جملوى ترنجى منهم فى الحركة وحعلوا معهم كل ماعهم ، وكان هذا المكان الذى اختاروه ، والذى تحصه العربات الخفيفة وغيرها من مراكب النفل ملاذا آمينا ، وبصوا بالرسى الى كتائب الجيش الأخرى الهى دفعها الطلش للانفصال عنهم حاملين اليهم نيا ما هم فيه من حرج وضيق ويحبونهم على المجيء اليهم على جناح السرعة لنجدتهم .

ومن ثم تمت احاده بنظم كل شئ في معسكر بوهيموند وفق ما نصى به اصول الحرب ، ولما فاربت الساعة الثانية بهارا ظهر قلع ارسلان ، يفود جماعة لا يحصنها العد من المرك . فاسولت الدهشة على حشيشا . اد لم ير في هذا الحشد انكسب الذى قيل انه حاور مائتى الف مقابل سوى الحماله . على حين كانت قواتنا - كما قبل - تآلف من حليط من العرسان والمشاة .

- ١٤ -

حين أخذ جيش المرك فى الاصراب تعالت فى المعسكر ضججه هائلة لم يعد أحد يدرك معها أو يستنبن منها كلمة مما يقال ، فلم يكن سماع الا صليل السلاح ، وصهيل الحبل ، وقرع الطبول ونفخ الأبواى . وصافات العسكر الحماسيه التى تعالت حتى حبل انبا ببلغ عنان السماء . مما أوقع الفزع فى قلوب من لم يألخوا شهود مثل هذا الموقف .

واحد صفوف المرك برمى بنفسها على فواننا ، ممطرة اياها بوابل هبان من السهام ، كأنها المطر الدفاى فسدت الافق ، حتى انه ما من أحد من المحاربين الصليبيين الا وقد أصابه جرح لتوالى السهام بعضها فى أرب بعض ، وكانت كل رهبة أكف من سابقتها ، فان قات سهم واحدا أصابه التالى بجرح واذا كان هذا الأسلوب من القتال عرييا على رحالنا وليس مألوفاً عندهم ، فقد صعبت عليهم مواجهته . وأخذت خيولهم بهارى بحبهم وأمام أعينهم ، وهم عاجزون عن نجدتها اذ كانوا هم أنفسهم مرمى صربات تأتيهم من حيث لا يحتسبون ، ومن نواح سدت عليهم فيها مسالك الفرار ، ومع ذلك فقد استمروا يقاثلون خصومهم بالسيف والحراب ، وبجاهلوتهم دفعا الى الوراء ، حتى اذا عجز الترك عن الصمود بسبب

شده الفاره عليهم ، فحوا صغوفهم عمدا لجيب الالبحام ، فبحار
الحيلة على الصليبيين اء لم يبحوا واحدا يصلى لهم ، ورجعوا
الى مواعهم فى الخلف دون احرار الببح ، وحبناك عاء المرء
نايه فصموا صغوفهم ، وكروا على رجالنا صابى عليهم سىلا جارقا
من السهام والنشاب ، حبى قل أن اسطاع صليبى واحد فى هءه
الحظه النحاء من غير حراح حطيره نافءة . وءه قاوموا ما وسعهم
المعاومة ، يحمىهم ما عليهم من الدروع والردىاء والخود ، ولكن
سافطت الجىاء على الأرض ، ووءه من لا سلاح معه واخنط الحابل
بالنامل .

ولءه سقط فى هءه المعركة مرابه ألعى من وجوه المرسان
والمناء على السواء ، كان من بىبهم « ولجم » ابى المركىر الطىب وأحو
ناكرىء ، وكان شابا ببسر يومه بما سكون عله فى عءه ، ءلك أنه
بىما كان مسنبسلا فى الءفاع عن جماعه ، اءا سبهم عرب أصابه
فصرعه .

كءلك لعى روبرء أوف بارىس نهايه ببس الطريقة ، وكان
محاببا بارعا مشهوءا له بالكفاءه .

بل ان ناكرىء ءانه – الءى لم نكن بكنرء بالحباه ولا بىنا
بمكائنه السامية – كاء أن بكون هو بفسه من الهالكىن ، وكان الموت
منه فاب قوسىن أو اءنى ، اء طوح بفسه فى ممعان القءال ،
صابا على العءو اءوال العمار ، ولكننه نجا بفضل ما بءله بوهموء
من جهء فانزعه من برائن الموت رعم أنفه . واسمرت كفه العءو
بءاء رجحانا ، على حبى شالء كماء الصليبيين وأءنء شوكتهم فى
الصعب ، واء ءاك شرع الترك فى مهاجمنا بالسوف ، وبضىق
الخناق علسا ، وهم أقرب ما بكونون لنا ، حبى لم تعد أبة حءوى

أخذوا يدم من هلك من اخوانهم ، مؤكدا لهم أن النصر لا يد مستعجم .
من السماء ، ودعاهم الا يكتنوا خصوم الله وأعداء اسم المسيح من
التباهى بأنهم أهلكوا المؤمنين . وظل رجال الرب يحنون الناس على
القبال بهذه الكلمات وأمنالها من عبارات الشجيع ، وببوا فيهم
الشجاعة .

ومن ثم شن الصليبيون فى حمة لم يهد فيهم من قبل ،
هجوما عنفا سلوا فيه سيوفهم على الأعداء ، مغررين صفوفهم حتى
حملوهم على الفرار ، وأعملوا فيهم مذبحة شرسة ، كما راحوا يعقبون
الغارين فى اصرار وعزم مسافة ثلاثة أو أربعة أمال الى ما وراء
معسكرهم الذى كان يقوم فيه واد شديدة الخصوبة ، وكان الفل
فيهم وطيعا .

وهكذا بيدد البرك أمام عدوهم مكبدين خسائر فادحة فى
الأرواح ، ثم عاد الصليبيون الى معسكر حصومهم فجاءوا منه ببعض
من قومهم [اللابن] ممن كان العدو قد أسره ، وعبروا فى هذا
المعسكر على كميات كبيرة من الذهب والعصا ، كما اسولوا على
كثير من الحمير وبغال الحمل ووافل الجمال (وهى دواب لم ييس
لهموا رؤسها من قبل) كما اسولوا على بعض الخيل ووجدوا فيما
وجدوا شسى أنواع الخيم والفساطيط المختلفة الألوان ، فأخذوا هذه
المخام الغالية كلها وقفلوا راجعين بها الى معسكرهم برورف عليهم
راياب النصر ومحملين بأغلى الأسلاب ، وسائقين أمامهم الدواب
والعبيد .

ويقال ان العدو فقد فى هذا اليوم ما يعرب من ثلاثة آلاف رجل
من رجاله الأفوايا البارزين من أصحاب المكانة الرفعة فى قومهم ،
كما سقط فى تلك المعركة أربعة آلاف من عامنا ، ومن الطيفات
الدنيا من الرجال والنساء على السواء .

ويقول أهل السنن - اعتمادا منهم على ما تعينه ذاكرتهم - أنه لم يهلك من وجوه قومنا سوى اثنين فقط ، ولقد حرب الموقعة يوم أول يوليو ، وكان الحظ فيها بين صعود وهبوط كما أنها حرت بس قوات لا بكافيء أحد الجانبين فيها الآخر في العدد ولا في العدد ، واستمررت من الساعة الساعة حتى الساعة من ذلك اليوم وقبل أن عدد العرسان وحدهم الدين أحصوا في جيش قلع أرسلان كان يربو على مائة ألف وخمسين ألفا ، أما عرسان الصليبيين الذين شاركوا في هذه المعركة فقد قاربوا الخمسين ألفا .

ولما فرغ الجيش من هذا النصر المشيب الذي هبته له العناية الالهية انضم رجاله بعضهم الى بعض مره تابه ، وانسحب لهم صرة راحة قصيرة صرفوها في مداواة جراحهم ، وأقاموا ثلاثة أيام سونا وسط المراعى الخضراء مستجمين معنيين بجسادهم ، وزاد في رفاهيتهم جميعا ما خلفه العدو وراءه رغم ارادته من متونه وأحمال صخرة من المأكولات الكبيرة .

★★★

وطهر قوادنا العظام ظهورا بينا في هذه الأثرة الخطيرة ، كما وابت الفرصة من هم دونهم لكسب المجد المؤمل ، لاسيما بلدوين بورج وبوماس لافير ، وريينو دي بوفيه ، وجالو دي شومونت ، وحاسنون دي بيرن وجيرارد دي شيريزي .

وعبر منذ هذا اليوم بالاجماع أن ننضم الكنائس بعضها الى جانب البعض وتنوحد ، وأن نسير مترافقة كالجسد الواحد حتى يقاسموا حمصه إقبال الحظ اذ يقبل ، وإدباره اذ يدبر .

أقام المحاربين مستحسب في هذه المأجيه ثلاثة أيام كما قلنا
وكانوا هم وحسادهم أحوج ما يكونون لهذه الراحة ، ثم لما ناداهم
النهر استعدوا مرة أخرى لمأجيه رحلة حجهم التي بدأوها ، وكان
طريقهم الذي سلكوه يمر عبر كل بلاد بسينبا الى بسنديا ، وقد
دفعهم رغبتهم في اخضرار زحمهم الى الترول عن عر قصد في افلم
جاف ، يكاد يكون بأكمله حلوا من الماء ، ولما صاروا قريبه للخطرين
الجليسين : الظما وسدة فيظ يوليو كما هي العادة ، فقد أخذت أعداد
كبيرة منهم في الهرب ، وتقول الروايات أنه هلك يوم ذاك أكثر من
خمسمائة من الحنسين من شدة العطس والحر ، وبمضى الروايه
مقول ان الحوامل من النساء طرحن ما في بطونهن من شدة الظما
والحر المهلك ، وكان ذلك حدثا لم يسجل الماريخ له مثلا .

أما النساء اللاتي كن يعانين غصص الكرب السديد ، فقد حلعن
أطفالهن في المعسكر ، منهم الأحياء ومنهم الموتي ، وفيهم من تعاون
سكرات الموت ، ودفعن الرحمة الانسانية غيرهن الى احتضان أطفالهن
في صدورهن ، عر آبهات أن يراهن الرحال وهن بطلقن
في الطرقات شبه عاريات ، لا يشغل بالهن شيء سوى خطر الموت
المروع ، عر حافلات بأنوثتهن .



ولم يحدد الرحال فنيلا قوبهم الجنمانية الهائلة ، فأعمى عليهم
من وطأة الحر ، ومما بذلوه من جهد ، قراحوا يلهون نافواه مفتوحة .
وأنوف تنلطف على نسمة ربيع ، ويسعون لالتماس الرطوبة ، عساه
تخفف بعض ما هم فيه من ظما ، لكنهم لم يجدوا شيئا مما ينسدونه .

لم ينصر مكابده هذه الأهوال على الآدميين وحدهم ، بل بعدتهم
أيضا الى دوابهم التى تحمل ماعهم فعصم كل بهبه داب طلف
كاتب سنجب لكل ما يؤمر به ، أما الطيور الصغيرة والصقور
المحلقة فى السماء فقد لعط أنعاسها . كما أن البزاة التى كان
النبلا يسمعون بها أنباء خروجهم للصيد والعص فقد ماتت هى
الأخرى فى أيدي أصحابها ، على الرغم من الرعاية القصوى التى
يحيطونها بها .

وأما الكلاب ذات حاسة الشم النافذة والمدرية على الصيد ،
والحيوانات الأليفة فقد هجرت أصحابها الذين تبعهم ، وراح
يسافط على طول الطريق وهى تلهب من الظما ، وكان أسد الأشياء
ايلاها للسادء وأوجعها لفوسهم ، هى أن جباههم الصافات - وهى
رفقهم فى حروبهم وكان عليها كل اعتمادهم فى طلبهم السلامة
لأنفسهم والى جمعت الفخر لنفسها بقوائمها الوثابة وأسنانها
الرافة - هوب هى الأخرى نافعة كما نفقت دواب الحمل العادية بحب
وطأه الحرارة والظما .

وأخيرا بفضل سع كل الرحمة ورب السلوى ، فأنقذ هؤلاء الحجاج
المعذبين الطماء اذ قادهم الى نهر كانوا أحوج ما يكونون اليه وقد
طال بحم عنه ، فتدافعوا الى مائه فى لهفة مجنونة ، وراح كل منهم
يراحم الآخر فى الوصول اليه . لكنهم بعمورهم على هذا الماء الذى
طال سوفهم اليه سقطوا فى خطر أكبر مما هم فيه ، حيب أنبلوا
يعون منه عبا ، ولا يستطيعون مسك أنفسهم عن السرب ، فكان
ذلك خطأ منهم فى هذه الحال ، اذ كانت كثرة الماء نحمل لهم الهلاك ،
الذى كانوا قد نجوا منه من قبل ، ولم يقف الأمر عند هلاك الآدميين
بل نفى كبر من دوابهم بنفس الأسلوب .

ثم شاعت عناية الرب أخيرا أن تنقذهم من هذه الإخطار فجاءوا

الى ناحية شديدة الخصب والسماء قرب أنطاكية الصغرى ، عاصمه
بسنديا ، وكانت من أجمل الواحي لما فيها من العنواب والمراعى ،
فضربوا مخيمائهم في حقولها الحصراء .

- ١٧ -

وحدث لأول مرة في هذا الموضع أن عبد بعض الرعماء الى
الانفصال بعوانهم عن الجيش الرئيسى . وكان أول من فعل ذلك
منهم بلدوين أخو الدوق ، وانضم اليه بطرس كونت سننناى وأخوه
رنتارد كونت تول ، وبلدوين دى بورج ، وحلبرت دى موب كلتر ،
واسمعيحيوا معهم ستمائة فارس وجماعة من الجند المشاه .

أما داني القاده الدين انفصلوا عن الجيش فكان ماكريد وفي
صحبه ريسارد من برسباس ، وروبر أوف اترى على رأس
فوه كبيرة قوامها خمسمائة فارس وبعض الجند المشاه .

كان يحرك هؤلاء الفرسان جميعا غرض واحد لا يخلفون فيه ،
ألا وهو استطلاع الطرق واستكشاف الاقلام المجاور . والبح
عما يجدونه ، وكان عليهم بعد ذلك أن يبعثوا الى الزعماء الذين
أرسلوهم جميعا بتقارير عن كل ما حدث بالنسبة للزمان والمكان ،
وأن الجيش يمكنه متابعة الزحف فى سلام وطماننة ، وكابوا فى
بدابة مغادرتهم المعسكر ملازمين للطريق الرئيسى فمروا ببعض المدن
المجاورة ومنها فونة وهرقلية ، ثم عرجوا بعدئذ يمس ، وأخذوا
يحتون الخطى ناحية الساحل .

فى هذه الأثناء استهوى الدوق والقاده الآخرين منى ظلوا فى
المعسكر حسن منظر البواهى المحطه بهم وبهاؤها ، وجذب انسابهم
قرب المكان من الغابات ، فانطلقوا الى واحدة عنها فى طلب الصيد
وذلك لانهم أحسوا وهم فى عمرة انفسالهم بالعمل المضى بحاجتهم
الى الرويح عن أنفسهم بعض السىء ، وودوا لو خلوا وراءهم - ولو
لفرة قصره - ما يشغل بالهم من أمور كانت تقلقهم على الدوام ،
فلما دخلوا القاهة استلقت انتباههم كبير من مباحجها ، ففرقت بهم
المسالك ، ولاقوا مخاطر حمة .

فأما الدوق الذى خرج للغابة التماسا للرياضة وللهو . فعند
واجه على غير انتظار دبا بشع المطر يأنهب ليعض على رجل من
المفراء الشجاع يعمل خطابا فاصدا اصراسه ، وعسا كانت
مجاهدة الرجل فى العثور على ملجأ يهرب اليه فراوا من الدب . فلم
يسعه الا الصراح بصوب عال يسأل المعوة فى محنه الخطيرة التى
هو فيها ، وشاء العدر أن يظهر فى هذه اللحظة الدوق الذى أسفوا
على رفيقه المكوب ، فاندفع لتجده ، فما كاد الدب يرى الدوق الذى
كان موشكا أن يرفع سيفه لضربه حتى انصرف عن فريسه الأولى
وألهم بنفسه على الخصم الشجاع ، مكسرا عن أنابه ، ومسددا
نحوه مخالفه ، فأصاب حصانه بجرح خطير وجد الدوق نفسه ازاءه
مضطرا للدول عن طهره ، مصلتا سيفه لمهاجمة الوحش الذى رمجر
زعمرة تربعد لها الفرائص ، وأقبل على الدوق فاغرا فاه ، مكسرا
عن أنابه . غير مكترت بسيف الدوق ، بل هم بالامساك بصاحبه
الذى رد هجمته بحسامه محاولا جهده أن يطعنه طعنة نجلاء ترديه ،
فتحاشى الحيوان السلاح ، وطوق الدوق بذراعه وطرحه أرضا ،
فلم يعد الدوق يملك دفاعا عن نفسه اذ علاه الوحش ، وأصبح من
السر عليه أن يمزقه اربا بمخالبه وأسنانه ، ولكن المحارب الباسل
استل حسامه ، واذا كان شديد الناس فقد احتضن الدب المهاجم

يسراه ، بينما أعمدت نساء سبعة حتى مقبضه في حبه فصرعه ،
وهكذا كسب الدوى الجولة بالدم وان حرح منها نحر حطر في
ساقه ارمى منه على الأرض وقد وهى بدنه وسرى الصعف في كبانه
اذ اسباب من دمه ما لم يعد معه قادرا على البىوض .

وبعالي صراح الرجل العفر الذى قدر له النجاه بفصل
مساعده الدوى له . فببه صياحه العسكر لما حرى ، فاطلقوا كلهم
صوب الناحية التى كان البطل السجاع - حامى الجبوس - مسحى
فيها ، وقد أنخسه حراجه فوضعه على محفة ، وحمله القادة الآخرون
الى المعسكر وسط نكاء الجميع . واستدعوا له المطسين الذين بدلوا
المحاولات السافه لانقاذ ، ووضعوا له من الأدوية المناسبة ما جعل
الأمم يداعب النفوس فى أن يسرد عافنه .

- ١٨ -

حدث فى هذا الوقت بالذات أن اعترى المرض السيد رسيود
كوب بولور ، ذلك المبجل الذائع الصب ، وحمل هو الآخر فى
محفه وقد أنهكه عنه وأثقله مرضه . حتى انهم لما وضعوه على
الأرض فى انتظار موته كانت أنفاسه شبه مقطوعة ، فقام ولم أسقف
أورايج الظاهر السلوك بأداء كل الشعائر التى تؤدى للمؤمنين ،
متلما يفعل ازاء رجل قد انتهى ولفظ أنفاسه .

واذا رأى العسكر أنهم قد حرموا - أو كادوا أن يحرموا -
من توجهات هذين الرحلين العظمين فقد ران عليهم من الناس

ما كاد ان يصرفهم عن متابعة رحله الحج الذى كانوا قد قطعوا العهد على أنفسهم للقيام به ، واستحرقوا جميعا فى البكاء لانسعال بالهم بحاله فائديهما ، وفام كل الحجاج أبناء نأديهم السعائر الديسة يرفع أكف الضراعة للرب عشاء يرد على هدين الزعميين عافسهما ، فأصغى اليهم الرب الرحم واسجباب لموسلاهم ودعائهم ، ورد على الرجان صحنهما ، وأصغت الرحمة لصلوب شعبة .



ولما انتهى العسكر الحجاج من اجبار ببسيدا دخلوا افلم ليكوبيا ، وجاءوا الى عاصمه قوبه ، وكانت هذه الناحية فاحله جرداء . فابيلوا فيها بمص كبير فى الطعام أدخل النأس الى قلوبهم ، وكان الترك قد علموا من قبل برحمتها عليهم . فاطلقوا بعسوس فسادا بى الافلم بأجمعه ، وبينوا جميع مدنه اعسادا منهم على عجز رجال أى مدينة عن المقاومة . وزادوا على ذلك بأن سبوا النساء ، واسرقوا الأطفال وبنهوا كل ما صادفوه من الماسه والأعنام ، ثم فررا الى الجبال المسعة متصممين بها . وكان أمأهم الوحيد هو أن ينادر الصليبسون الى مفادرة الاقلم حين بلغ الجهد منهم غايته بسمر حاجتهم للطعام ، ولم تكن الترك واهمين فى هذا الأمل ، اد فر الحجاج من هذه الناحية الفاحلة الى لا يستطيع اسعافهم بما يقدم أودهم وغادروها على حجاج السرعة .

فلما خلفوا هرقله وراءهم ، جاءوا الى مدينة مرعس ، فقصبوا معسكرهم بها ، وأقاموا بها ثلاثة أيام .

وفى أثناء وجودهم فى مدينة مرعس هذه فاضب روح [حودهيلد] روجه بلدوين - أخى حودفروى - الذى كان قد تركها فى رعاية أخويه حين سفره ، فرغبت فى الرب فى هدوء ، ولفظت

انفاسا بعد مرض عصال أمصها ، وكاتب «جودهلد» (١) هذه امرأة شريفة المولد ، عاشت حياة حميدة طاهرة ، وتخلقت بالخلق الكريم ، ودقنت حب مات ، بعد أن أقاموا لها شعائر الشرف الحديرة بها .

- ١٩ -

في هذه الأثناء قام مانكريد الفاضل ، وهو من هو في العصل بعرض الحصار على طوروس وهي أهم مدن تلك الولاية . وبحج اذ ساك أقصر الطرق فكان أول من بلغ صليفا إحدى ولايات الشرق ، وساء على ما بقوله القدماء فان ولاية « أنتوكينا » كانت تسمى بمسطه السرق .

رياحم صليفة من السرق ولاية كوابسريا ، « سموريه الشمالية » كما سماها من الغرب ايسوريا ، ويحدها من الشمال حبال طوروس ومن الجنوب بحر ايجة ، ويوجد بها مدينتان رئيسيتان هما طرسوس موطن معلم المبتدين ومهبط رأسه أما الأخرى تدعى « عين روبة » ولكل مدينا فراها النابعة ليا . ومن أجل هذا يقال أنه يوجد قمامقة الأولى وقلمقه السابعة .

والقول السائح أن مؤسس طرسوس كان يدعى « طارسيس » وهو ثاني أولاد « حافام » ابن يافث الذي نذهب الروايات القديمة الى أنه الابن الثالث لوح ، ويدللون على صحة هذا القول بأن المدينة تحمل اسم مؤسسها .

(١) أشارت الترجمة الانجليزية في تعليقها على حبر هذه السدة أنها عرنت أكثر من اسم ، ومع أن وليم أثر من هذه الأسماء كلمة « حوتيريا GUTEREA » إلا أنها بصل « جودهلد » ساء على المراجع الواردة في هذه الحاشية الانجليزية .

ومع ذلك فإن لسوليسوس رأيا مخالفا لهذا الرأي بشأن هذا
 المؤسس ، فبقول في الفصل الثالث والأربعين من كتابه «المذكرات»
 « وسبع فليقيا مدينة طرسوس التي هي أم المدن ، والتي أسسها
 برسموس ذاتى الشريف ، ويسمى نهر « كيندس » الذى يهول
 بعض النفاة انه ينبع من جبال طوروس ويحدر انحدارا عسفا
 مجبعا ، على حين يذهب آخرون للقول انه أحد روافد نهر
 « هند اسباس » .

وربما كان هناك سوء من الصحة فى كلا القولين من أن مؤسسها
 هو طارسيس ، ثم جاء من بعده برسموس فحصبها وزاد فيها .

أقام بانكريد ورجاله على حصار مدينه طوروس بصعبه ايام
 حتى أرغم أهلها - بالوعيد بانه والكلام المعسول ناره أخرى - أن
 يقبلوا ما رسمه من اذخال رايه ورفعها على أحد أبراجهم رمزا
 لاعترافهم بالحصوع له . فاستجابوا لطلبه هذا ، مشرطين عليه أن
 يظلم بحمايته حتى يحضر بوهيموند والجنس الرئيسى ، والا ... لهم
 - خلال الفترة الواقعة فيما بين دخوله وقدم بوهيموند - على معادرة
 دورهم أو ترك مزارعهم ، فان رضى بهذه الشروط قبلوا أن سلموا
 المدينة فى هدوء الى بوهيموند حين يصل ، ويبدو أن هذا العرض كان
 مرضيا لبانكريد . فقد قبله هو أيضا .

كان أهالى هذه المدينة مسيحيين مثل جميع بقية سكان
 الافليم ، وهم يتألفون من الأرمن والاغريق ، غير تلك قليلة من الترك
 الذين كانت لهم الغلبة الحربية لمهارتهم فى استعمال السلاح . والذين
 كانت حراسة الحصون موكولة اليهم ، ويقع على عاتقهم مهمة قمع
 الأهالى بالسدة ، أما المؤمنون فلم يكن مسموحا لهم بحمل السلاح
 ومن ثم صرفوا همتهم لممارسة البحارة والاشتغال بالزراعة .

فى هذه الأثناء كان بلدوين - أخو الدوق - ورفاقه الذين.

سلكوا مسالك لم تكن مألوفة - في ميسيس الحاجة للطعام ، لكن
سسى له أخيرا ، بعد جولات دائرية ، أن يصل بالصدفة الى قبه
جبل من الجبال استشرف منها منظرا يمتد حتى البحر الى قبليقيا
ومدنها المسارره بحب فدعيه .



ولما بين لبلدوين أن هناك معسكرا حول طرسوس . سرب
المحاور أن يكون قد ضل الطريق ، وأن تكون هذه الحيام حيام
عدوه ، بيد أن رعبه الملحه في الوقوف على هويه هذا الافلسم وعمن
يكون اصحاب هذا المعسكر الذي يراه على بعد دفعه للحروح على
رأس جماعه بما عرف عنه من الاقدام ، ونزل بهم الى السهل .

وكان نانكريد قد أقام لنفسه هو الآخر عبونا في نقاط مرتفعة ،
كما أخذ حدره توفعا لأى عدوان قد يقوم به العدو ، فاستدعى في
الحال الله رفاقه في الحرب وحملوا أسلحتهم لعينه بأن الدين
وأهم انما هم عسكر الحصم ، جاءوا نجدة للمدينة ، فصاح في رجاله
مسحعا اياهم . وخرج بهم رافعين راياتهم لصد القوات الراحفة ،
ولم نظر روجه شعاعا لايمانه بالله ، فلما اقترب المصافان بعضهما
من بعض ورأى كل واحد منهما الآخر رؤيا العين ، عرف أن لسمب
هذه أسلحة العدو ، فدنا اذ ذاك كل واحد من الآخر في اطمئنان
ونعائقا .

وبعد الفراغ من الأحاديب الرقيقة المألوفة انضم بعضهم الى
بعض واتبعوا زحفهم الى المدينة لاكمال الحصار ، فنلقاهم نانكريد
بالنرحاب والاكرام ، وأولم لهم لبتهم هذه وليمة قدم لهم فيها لحوم
الأغنام والماشية التى يهوها من النواحي الماخمة .

ولما أشرق الصباح وبجلى النهار ، رأى بلدوين ورفاقه رايه نانكريد يحق على أعلى برج بالمدينة ، فهسههم العيره فى الحال بأنسابها ، وسبوا أواصر الحب والأخوة اللى عمدوها صما بيهم أنباء رخصهم فى سلام ، وهى الأواصر اللى صمموا - أفرادا وجماعا - على أن يظل عراها مانتة لا انفصام لها ، لكن الذى جرى كان عكس ذلك ، اذ غضب رجال بلدوين من جراف نانكريد على رفع رايه فوق المدبنة ، فى الوقت الذى يوجد فيه كثيرون غيره من الأمراء الحاصرين ، وهم أكثر منه حدا ، وأكثف عسكريا .

كان نانكريد رجلا مواضعا فأراد صبه غضبهم ، فانكر أن يكون قد استهدف إهانتهم من وراء رفع رايته ، وقال انه انفق على رعيه مع أهل المدينة بسبب بسالته ، وذلك قبل وصول الزعماء . ودل أن بخامر الأمل أحدا فى قدومهم .

أما بلدوين الذى راح أصحابه يبيرونه بكل فواهم ، ويحيونه على سلوك هذا السبيل ، فلم يعبأ بما فعله نانكريد ، بل نهج عكس هذا النهج ، وكان مدفوعا فى ذلك بانفعالاته ، فجاوز حدود انعطنة. فطاول على نانكريد بكلماته السفهية ، وأدت عطرسه الى مارو أوشك فيه كل منهما أن يقاتل صاحبه ، ويفتك به ، وأخيرا استدعى بلدوين إليه أهل البلد ، وعددهم علانية بتخريب المدينة وما حاورها من النواحي غير عابى بما وعدهم به نانكريد من بسط حمايته عليهم ، ان لم يسادروا الى انزال راية نانكريد ونصب رايته هو مكانها .

ولما رأى الأهالى أن بلدوين أشد من نانكريد بأسا وأكثر منه حدا فقد أذعنوا له على نفس الشروط اللى سلف لهم اشترطها على

تاتكريد الذى أمرلوا رايته وروعوا مكايها علم بلدوين ، فلما رأى تاتكريد هذا الحيف الذى حاو به أحرقه العبط عن حق ، لكنه كظم غبطه بفصل ما طبع عليه من رحاحه العقل . ومن بعده الصبر على تحمل الآلام شفقة منه من حدود شقاق خطر بين قوات المؤمنين . لذلك نقض معسكره ، وأريد الى مدينة محاوره بدعويها « أدبه » ، فلما بلغها لم يأن له أهلها بدخولها لان شخصا معبه اسمه « حلف » من الأمة البرجندية كان قد استولى عليها ، وكان « حلف » هذا انفصل عن الحرس الأصلى مع ثلة من الآخرين ، وجمع اليه حسدا كسفا من الناس انخرطوا بحب رايه ، وشاء الصدفة أن يؤدى به الى أذنة حيث طرد منها الترك ، واستولى عليها قسرا .

ولما علم تاتكريد أن مسنه الرب قد أسفط هذه المدينة فى أيدي شعبا . بعث الرسل الى حلف بلمس منه فتح أبوابها لتدخلها حياعه وأعلمه أنه يبعي البرول بها وسراء ما يحتاجه عسكره من ضرورات العس . فاستجاب حلف للرسول ، وأمد تاتكريد وخيله بكل ما هو لازم لهم فى كمناب وفيرة جعل تصحيا اليه منه . والبعض الآخر تأمان معقولة ، وذلك لان حلف كان قد وجد المكان مليئا بالذهب والفضة وقطعان الماشية والأغنام والحبوب والنسذ والزيت ، وقصارى القول بكل شئ نافع .

- ٢١ -

حين طلع النهار رحل تاتكريد من المدينة بكل من معه وأغد السير فى الطريق الرئيسى المؤدى الى المصنعة ، الى كانت واحدة من أروع مدن هذا الاقليم ، والنسب نال حظا من السهرة بفضل

أسوارها وأبراجها وكثره سكانها ، كما زاد في قدرها موقعها
البهيج ، وحقولها الخصبة ، وأرضها العسة ، وما كاد تانكريد يعسكر
على معربة منها حتى أعار عليها وراوحها بسلسلة غير مقطوعة من
العازاب حتى نيكس من الاسسلاء عليها في مدى أيام فلائل بمعونة
الرب . وحكم السف في رقاب أهلها المارين .

ووجد بها تانكريد ثروات ضخمة وكميات كبيرة من الميرة من
كل صنف فوزع على أتباعه كل ما وجده ، في أنصبة يلائم كل منها
ما أذاه كل حاج من الخدمة ، ففاضب أيديهم بما ملكوا ، وعوضهم
الطعام الوفير عن أسام المسغه التي فاسوها من قبل ، كما
استسلموا في الوقت ذاته للراحة ، وأقبلوا على أكل ما يشتهون .
وأطلقوا ما عندهم من دواب النقل حرة برعى كيف شاءت .

- ٢٢ -

راح بلدوين - بعد رحيل تانكريد - يكثر من تأييب أهل
طرسوس ويهددهم بهديدا شديدا ويحذرهم مره بعد أخرى ، وأمرهم
أن يفتحوا الأبواب أمام عسكره لدخلوها ، اذ حيل اليه أن العار
لاخفه ان هو أصاع الوقت بلا عمل حتى يجيء الجيس ، فخاف
الأهالي منه أن يهاجم المدينة من قرب ان هم رفضوا اطاعة أمره ، لما
رأوا من عجز تانكريد عن مقاومته ، هذا الى جانب رعزعة تقهيم في
قدرتهم الذاتية ففعلوا من الضرورة فضلة ، وفتحوا الأبواب وأدخلوا
بلدوين وجميع عسكره ، وخصصوا برجين جعلوهما في وقتها
الراهن سكنا خاصا له .

أما بقية جنده فقد نفروا في بيوت المؤمنين من أهل المدينة .

وأما الابراج الأخرى فكانت في أيدي السرك الدين كانوا لا يزالون يحتلون المدينة ، وكانوا أكثر منهم عددا . هذا بالإضافة إلى أنهم كانوا يملكون بلا جندال معظم استحكامات البلد . ومع ذلك كانت الريية بخامر نفوسهم من ناحية طائفة الصاري الدين أدنوا [لعدوه] بدخول البلد ، واذ لم يكن لديهم ثم أمل في نجده بأنهم ، فقد كانوا يلتمسون الفرصة للسبل في الحفاء إلى حارجها مع زوحانهم وأبائهم وما ملك أيديهم .

وحدث في هذه الليلة بالذات ان وصل إلى طرسوس ثلاثمائة رجل من حملة بوهيموند كانوا في طريقهم للانضمام إلى نانكريد . فاصدر بلندوين أمره بعدم السماح لهم بدخول المدينة ، ولما كان طول السفر قد أرهقهم ، وفلس في أيديهم ضرورات العيس . فقد الحفوا في السؤال التماسا للسكن وعقد سوى لهم . فعطف عليهم في محتهم هذه رفاقهم من الحجاج الذين هم دونهم مكانة والذين كانوا في المدينة ، والحو في طلب الاذن لهم بالدخول لكنهم ردوا فاشلين ، لأبهم كانوا . كما قيل طائفة من رجال حملة بوهيموند الذين كانوا مغذين السير لمساندة نانكريد .

وعلى الرغم من عدم قدرة المسيحيين الموجودين في المدينة من الخروج إلا أنه لم تكن تنقصهم العواطف الأحرية فراحوا يدلون الحبال بالسلا من الأسوار ملأى بالخبز ، والروايا منوعة بالنبيذ . وهكذا أمكهم امداد الدين بالخارج بالطعام الكافي لهم في هذه الليلة ، ولما وجد هؤلاء الرجال ألا مناص لهم من البقاء خلف الأسوار فقد وطئوا أنفسهم على الإقامة أمام أبواب المدينة ، وتدبر حناهم جهد استطاعتهم .

فلما كان الليل استسلم للنوم العميق والراحة التامة من داخل المدينة وخارجها على السواء من المسيحيين ، وضرب السكون أطنابه

ولكنه كان سكونا مريبا ، فقد قام الترك وغيرهم من كفار طوروس بفتح الباب في هدوء تام ، وخرجوا منلصين مسصبين معهم نساءهم وأطفالهم وعبيدهم وكل ما ملكت أيديهم ، وذلك لأنهم لم يكونوا يشعرون بالهدوء في بلدهم الى جوار هؤلاء الصيوف الذين نزلوا بينهم على كره منهم ولكنهم خافوا مساكنتهم ، وأصبح هؤلاء الترك قادرين كل القدرة على مغادرة المدينة متى شاءوا ، اذ كان في أيديهم بوابة أو اثنتان من بواباتها ، وأبوا الا أن يخلفوا وراءهم انتصارا حمويا على عدوهم ، ذلك أنهم بعد أن فرغوا من ارسال أحبالهم وما ثقل من متاعهم أمامهم عادوا ففتكوا بكل الذين كانوا يظنون في سباتهم العميق .

- ٢٣ -

فلما كان اليوم السالى وقد ملأ النور الكون ، اسيعط مسبحو المدينة فوجدوها مهجورة ، فعجبوا كيف هرب العدو من غير صجة ، وانطلقوا الى الأسوار ومدخل المدينة عساهم يعرفون كيف تمكن هؤلاء من التسلل الى خارجها ، وبينما كانوا يتقصون الأمر في دقة وينقصون كل ركن وزاوية اذا بهم يطالعون آثار المذبحة التي أنزلها الترك الفارون بخدام المسيح فحزنوا أشد الحزن ، وتقطعت نفوسهم حشرات وأسلموا أنفسهم للبكاء .

ثم وقف رجال الطبقة الناسة على بعد من الآخرين وحمىوا السلاح ضد بلدين وغيره من الزعماء الذين يسأونه مكانة ، وذلك لأنهم اعتبروهم السبب في هلاك رفاقهم الحجاج ، حين أبوا أن يستضيفوهم ، وكانت هذه الاستضافة واجبا لا يصح التوصل

منه ، كما كانت حقا لكل دى حاجة ، ومن ثم فقد استبد بهم الحقن ،
فاندفعوا اندفاعا عدوانيا يعصدون النيل من زعمائهم الدين لولا
انسحابهم الى الأبراج العالية لقتل منهم مثل الذين قتلوا وراء
الأسوار .

ولما رأى بلدوين أخيرا أن الهرج الذى استولى على الناس بحق
أخذ من الزيادة ، راح يدبر فى لهمة كيف يبرر مسلكه ، وكيف
يعتذر عن نفسه عند فومه ، عسى أن يهدأ ثأرتهم ، ويركنوا الى
السكنة ، فتريث لحظة استرد فيها أنفاسه ، وسألهم الاصابات
فهدأت غاغة الرجال قليلا وان كانوا لا يزالون مشهرين أسلحتهم ،
وراح هو يبرىء ساحته عندهم ، مقسما لهم بأن السبب الوحيد الذى
حملة على اغلاق أبواب المدينة فى وجه الحجاج هو أنه كان قد وعد
وعدا لا حيث فيه الا يسمح لأحد بدخولها حتى يصل الدوق ، كما
أن كلماته المرائية ، والفاظ الاستعطاف التى كان لابد منها فى مثل
هذا الموقف والسى قالها وقالها بعض أشرافهم فعلت فعلها ، وأفلح
فهدأت من ثائرة الناس بعض الهدوء وتراضوا فيما بينهم .

وهكذا انتهى النزاع . ولبت العوم هناك فى سكون بضعة
أيام ، حتى رأوا أسطولا يبحر البحر على مسافة تقرب من ثلاثة أميال
من طرمسوس ، فما كاد الفرسان والمشاة يطالعون هذه السفن حتى
هبوا سراعا ناحيتها ، وحدثوا مع القادمين من البحر فعلوا منهم
أنهم نصارى ، ولما سألوهم من أى البلاد هم قالوا انهم من فلاندرز
وهولندة وفريزيا ، حيث ظلوا يمارسون القرصنة ثمانى سنوات ،
ثم صحت ضمايرهم فندموا على ما كان منهم ، وتابوا عن انهم
فركبوا هذا البحر فى طريقهم الى القدس للصلاة .

فلما عرف رجالنا أنهم مسيحيون مثلهم دعوهم لدخول الميناء ،

وصافح بعضهم بعضا ، وسادوا فيما بينهم قبلات السلام ، وبعد
أن أرسى السفن آمنة بالشعر قادوا رجالها الى طرسوس .

كان رعيم هؤلاء القوم يدعى « جينمار » من اقليم بولونيا ،
ومن مقاطعة كونت استاس ، والد جودفروي ، وما كاد جينمار يعلم
أن بلدوين هو ابن سيده حتى ترك الأسطول وتهايا لمرافقته الى
القدس ، وكان جينمار فاحش الثراء وزاد من ثرائه هذه الحرفة
الدنيئة التي مارسها ردحا طويلا من الزمن ، وكان في خدمته رهنط
كبير من الناس أبى معظمهم الا مصاحبته حين علموا بعزمه على اتباع
بلدوين ، واذاً ذلك انقضى انتقاء دقيقا خمسمائة من أنباع القائدين
لحماية المدينة ، أما كل من سواهم فقد راحوا يتهشون للخروج
للبحث عن حظوظهم .

- ٢٤ -

عاد الجيس طرسوس ممسا ووجه شطر المصيصة حتى بلغها ،
وكان تانكريد كما قلنا من قبل - قد احتلها عنوة منذ أمد قريب ،
وأحكم قبضته عليها فأنزل بلدوين جنده خارجها وفي البساتين
المحطة بها . ليقينه التام بأن تانكريد لن يسمح لهم قط بدخول
المدينة .

ولما ترامى الى سمع تانكريد خبر وصول بلدوين ، وانه نصب
معسكره على مقربة منه ، غلى مرجل غضبه ، وثارث ثائرته وتأججت
نيران سخطه اذ عاودته ذكرى المصائب التي صبها هذا الرجل ظلما

وعدوانا عليه ، ودعا رجاله وهو في سورة حنقه الى حمل السلاح
مجمعا العزم على رد الصاع صاعين ، وأن ينزل يبلدوين من الأذى
مثل الذي أنزله هو به من قبل ، ومن ثم أنهض فرقة من رعاة النساب
لرمي جياذ بلدوين التي سرحها في المراعي ، ولأخذها أو دفعها .
كما خرج تانكريد ذاته في خمسمائه فارس في دروعهم مهاجما بهم
معسكر بلدوين وأخذوا الحراس على غره منهم قبل أن يتمكنوا من
امتساق سيوفهم ، حتى كاد أن يفهم عن بكرة أنفسهم ، ولكنهم مع
ذلك هبوا الى أسلحتهم واستعدوا للمقاومة . وحوت في اثر ذاك
معركة عنيفة ، استبسل فيها كل من الجانبين استبسالا ضاريا كما
لو كان كل واحد منهم يحارب خصما لدودا ، فسقط من الجانبين
قتلى كثيرون ، وأسر كل فريق رجالا من رجال الفريق الآخر . غمر
أن عسكر تانكريد كان دون عسكر بلدوين بأسا ، وأقل منه عددا .
ثم ان القتال أجهد تانكريد اجهادا لم يعد قادرا معه على تحمل
شدته ، فاضطر الى ترك ساحة المعركة ، والارتداد الى المدينة .



كان الجسر الشديد الصيق الذي يعلو البهر الفاصل بين
معسكر بلدوين وبين المدينة يقف عقبة كاداء في وجه قوات تانكريد
وهي تسرع في الفرار الى المدينة ، حتى لقد هلك رهط غير قليل
من فرسانه ومشاته ، وإن أسعف الفرار ثلثة منهم هربوا الى داخل
البلد ، ولولا أن الليل أرخى سدوله مما أدى الى وقف القتال لكان
من الممكن أن تكون الخسائر أفدح مما هي عليه ، نظرا لما كان يكته
كل فريق من كراهية تضطرم كالنار في قلبه للفريق الآخر .

كان من بين أتباع تانكريد الذين وقعوا في الأسر رجال تباله
بارزون منهم واحد من ذوي قرباه اسمه ريتشارد دي برنسباني .

وآخر اسمه روبرت دانزى ، وكانت مشوره هدى الرجلين
وحريضا بهما هي السبب الرئيسى فى قيام نانكريد بحركة الانقام
التي ذكرناها .

كما وقع فى أسر نانكريد واحد من اتباع بلدوين ومن علة
القوم وأسماءهم مكانه ، هو جلبرت دى هونت كلر ، ونجم عن
غيب هؤلاء القادة أن شاع الاضطراب فى صفوف كلا الحاسين .
اعتقادا منهم بهلاكهم فى معركة اليوم .

وحين ذر قرن الفجر فى اليوم التالى أخذت أحاسيس الكراهية
فى التلاشى ، وخفت سورة الغضب ، وكان الفضل فى ذلك للرحمة
الالهية اذ تذكروا ما جاءوا من أجله ، فصفا تفكيرهم وعاد الى
هدوئه . ومن ثم مضت الرسل بين الجانبين تنشد اقرار السلام ،
ورجع كل أسير الى جماعته ، كما راحوا بتبادلون قبلات السلام
ارضاء لكلا الجيشين ، وعاد الوثام يرفرف من جديد بين الجمع
وأطلهم السلم بجناحه .

- ٢٥ -

نزل بلدوين على طلب رفاقه ، وعاد من المصبصة مضما بكل
عسكره الى الجيش الاصل الذى كان قد وصل - كما قلنا - الى
مرعش ، وكان بلدوين قد علم بالحادث الخطير الذى ألم بالدوق فى
بيسيدا أمام انطاكية فاشتد حزنه على سلامة جودفروى ، وأراد
أن يتأكد تماما عن واقع حاله .

كان نانكريد في هذه الأثناء قد زاد من بأس فوائه بمن صممهم اليها من الرجال الذين جاؤوا في صحبة الأسطول ، فكثير جيسه بهم كثرة بالغة ، مكثه من اجبياح كل ملقبا ، والاسيلاء فسرا على معاقل العدو انى وجدها فأضرم النار فيها حتى تهاوب الى الأرض ، واذا ذلك عرض من قبا على السيف فصلهم جميعا ، وكان آخر مكان عصف به جنده هو « الاسكندرية الصغرى » الى اسنولى عنها أيضا رغم مقاومتها اليائسة ، فمكث هذا النصر الأخير من أن يصبح مسطرا على الاقليم كله .

سرعان ما نواردت الاخبار تشير الى سام استيلاء نانكريد على كل المنطقة ، بفضل ما تجمع لديه من مختلف القوات ، فافضت فلوب الترك والأرمن الجليلين خوفا من أن يعوج نانكريد عليهم ، ويفتح مدنهم ، ويسرق أهلهم ، فراح كل ينافس الآخر في سرعة المبادرة بإرسال الرسل اليه ، محملين بالهدايا السنية من الذهب والفضة والبياد والحيول والأقمصة الحريرية ، مؤملين أن يهدي هذا الكرم حدة غضب ذلك الزعيم العظيم ، عساهم يكسبون وده ، ويعقدون وياه أواصر الصداقة .

هكذا كان النجاح حليف نانكريد في كل خطاه ، لأن الرب كان معه ، ولأن السند كان يوحه جميع أعماله لأنه خادم أمين .

هنا ينتهى الكتاب الثالث

الكتاب الرابع

اجتياح الصليبيين شمال الشام وشروعهم في حصار أنطاكية

فصول الكتاب الرابع :

- ١ - بولدوين أخو الدوق - يعود الى الجسس الأصلي
وينزل على اقتراح باكراد فيقود حمله برحف الى
الشمال ويحذل كل الاقلم حتى الفرات .
- ٢ - شهرة بلدوين تنتشر في كل ناحية ، فيستدعيه
أهل الرها فيسجيّب لهم ويسرع اليهم عابرا
الفرات ولكنه يقع في كمين نصب له في بعض
الطريق فيخرج المسبحون لمقابلته ويجعلون من
أنفسهم حرسا له ويدخلونه المدينة فرحس به .
- ٣ - الغيرة من نجاح بلدوين تدب في نفس حاكم

المدييه الذى يندم على قراره الذى اسخده ويرعب
فى شجب الاتفاق ، لكنه من أجل اسمرضاء الأهالى
يتبنى بلدوين ويتحذه ولدان وان أضمر الغدر به .

٤ - بلدوين يحاصر سمبساط استجابة لرجاء أهل
المديسه الذين يأمرؤن ضد حاكمها الضعيف
انتقاما منه للأضرار الجسيمة التى أنزلها بهم .

٥ - الأهالى يفتكون بحاكم الرها وينصبون بلدوين
واليا عليهم فيشترى سمبساط من حاكمها
« بلدك » بمبلغ كبير من المال .

٦ - بلدوين يحاصر بلدة « سروج » ويسولى عليها
بالقوة فيسكره أهلها سكرًا يعجز اللسان عن
وصفه .

٧ - ارسال طائفة معينة من رجال الجيش الأصيل
يحلون بالقوة مدينة « أرمياح » واذ ترامى أنباء
ذلك الى أهل أنطاكية يبادرون الى هناك بقوة
ضخمة وينصبون كمينًا لشعبنا ، ويهاجمون
مدينة « أرمياح » لكنهم يفشلون فى محاولتهم
هذه فيعودون الى ديارهم بعد تحصين الجسر .

٨ - الجيش الرئيسى يصل « أرمياح » ويرسل الكشافة
من هذا المكان لكشف الطريق ثم يقترب من
الجسر ويعبر النهر رغم ما بذله العدو من
محاولات كان يهدف من ورائها الى صده .

- ٩ - وصف مدينة أطاكية ، ومكانتها .
- ١٠ - القول في الاقليم الذي به المدينة ووصف موقعها .
- ١١ - من كان حاكم هذه المدينة التي هي أطاكية ، وكيف يادر هذا الحاكم - حين سماعه نبأ اقترابنا - الى حصينها ، ثم جلب الى داخلها العسكر الذين استقدمهم من المدن المجاورة .
- ١٢ - زعمائنا يتساورون فيما بينهم ويتقدم الجيش الى المدينة .
- ١٣ - القادة يأخذون مواضعهم حول أطاكية في أماكن استراتيجية ويسدون منافذ المدينة فيسيطر الخوف على نفوس الأهالي .
- ١٤ - المسيحيون يقيمون جسرا ختيميا على النهر حتى يساعدهم على توفير مزيد من حرية الحركة للبحث عن العلف ، كما يقوم الأهالي بنسج هجمات مفاجئة على معسكر كونت بولوز من أقرب البوابات اليهم .
- ١٥ - الكونت يقوم بكثير من المحاولات ضد العدو وينتهي الأمر أخيرا بسد البوابة باكوام من الأحجار يهلونها أمامها .
- ١٦ - العدو يهاجم الجماعات التي خرجت في التماس العلف وينسج عن ذلك قتال ضار بهلك فيه

الكثيرون من الجانبين ادّهلك بعضهم بالسيوف
ويبتلع النهر غيرهم فيموتون غرقى .

١٧ - الضعف يستولى على جميع الافاليم وتتفاقم
المجاعة وتزداد سوءا ويصبح الناس فى صراع
صد الجوع ، كما تؤدى الأمطار الغزيرة الى
الرطوبة التى تعمل على انتشار العفن فى الخيام
وهو عفن يهدد الجيش بالفناء .

١٨ - بوهيموند وكوت فلامرز يخرجان فى حملة
كبيرة سعيا وراء الكلا ، كما يقوم المواطنون فى
الوقت ذاته بتسليح هجوم فجائى على المسكر ،
ويؤسّى الصليبيون بحساسة كبرى ويكثر فيهم
الجرحى .

١٩ - الغرفة الباحثة عن الطعام تكشف العدو وتهزمه ،
ثم تعود بالغنمة والأسلاب الوفيرة .

٢٠ - مقتل « زفين » أحد أبناء ملك الدانمركين على
أيدي الأتراك قرب « فيلو ميليام » بينما كان
يفذ السير للانضمام الى الجيش .

٢١ - ناتيكوس الوغد يترك الجيش وليس فى نية
المودة اليه ويدعى ان ذهابه انما هو من أجل
عقد سوق يستبضعون فيها ، كما يزعم أنه ماض
الى الامبراطور لیسأله الحضور لمساعدتهم .

٢٢ - المجاعة تزداد تفتسيا والطاعون المهلك يصيب
الناس فيأمرهم الأساقفة بصيام ثلاثة أيام ،

ويسرد الدوى جود فروى صحه ساما ويفرح
الجيش بفافته .

٢٣ - نورى بوهيموند يقترح خطة حكيمة للمصاء على
ما سببه الكسافة الذين أرسلهم العدو من
الازعاج .

٢٤ - خليفة مصر يوفد رسلا من قبله الى الزعماء ويطلب
عهد معاهدة بينه وبينهم ويحاول كسب
هودهم .

هنا يسلم

الكتاب الرابع

اجتياح الصليبيين لشمال الشام ونشروعهم في حصار أنطاكية

- ١ -

ببمّا كان نانكريد يتابع احصاء كل ارجاء فيليبيا غير عياب ولا وجل ، كان الجيش الرئيسي قد وصل الى مرعش [يوم ١٣ أكتوبر ١٠٩٧] ، واذ ذاك اعتزم بلدوين رياره أخيه جود فروى ، فلما وجدته قد تماثل للنشفاء ثارت في نفسه نيران الغيرة من نانكريد مرة أخرى ، وأحفظه منه أن يجمع الكل على امتداح بساله الى طبق خبرها الآفاق ، ومن ثم دعا اليه أصدقاءه ، وأوصى ايهم بعزمه على معاودة القيام بمخاطرات جديدة وسألهم ان يكونوا عوناً له في تحقيق هذا الهدف . لكنهم كرهوا ان يصاحبوه في حروجه . لما سمعوه عن وقاحتها المتناهية حيال نانكريد أثناء وجودهما أمام أسوار طرسوس في قيليقيا ، اعتماداً منه على كسرة أتباعه . والحق انه لم يشد أحد منهم عن الاجماع على ان يسلكه كان اذ ذاك مسلكاً منسياً ، وهو اجماع استحقه عن حق جزاء جريمته الشنعاء ، وما كان لبوهيموند ورحاله ان يتركوا ما لحق بتانكريد دون عقاب .

ونم يجد بلدوين من يقبل مرافقته في حملته هذه غير شرملة قليلين ، كما عنفه أخوه خادم الرب - تعنيفاً قاسياً على عمله هذا ، ولما أدرك بلدوين شناعة ما اقترفه من جرم فقد أعلن بكل مدلة انه

مسعد لأن يقدم لماكريد النبيل الاعدار الواجب عما اقرفه من
اساءه في حقه .

ولما كان بلدوين قد أخطأ بناء على ما أشار به غيره عليه أكثر
من أن يكون حظوه نابعا من بلاء ذاته ، ولما كان هذا المسلك
بحريص من سواء ولبس من طبعه ، فقد سامحه الجميع واسرود
ثقتهم به . والحق انه كان رجلا موصع الاطراء من كل الوجوه كما
انه لم يؤخذ عليه قط بعدئذ سماعه نزرى به كهذه الشتاعة .

وكان لبلدوين صديق من اشراف الأرض يدعى « باكراد » يعرف
عليه في بيفيه بعد فتره من حبس الامبراطور ، وظل هذا الرجل
يلتزم بلدوين على الدوام في جميع رحله . ومع انه كان محاربا شديدا
الا انه كان شديد المكر . مفضو الوفاء ، وقد دأب على الالتحاح على
بلدوين واعرافه بشي السبل على جمع العسكر ، ووعد بأن ينضم
هو اليه في حملة يسها على النواحي المتاخمة الى قال انه من اليسر
اجتلالها بقوة صغيرة ، ونزل بلدوين أخيرا على الحاح « باكراد » ، وخرج
مسترشدا به على رأس مائتي فارس ، وحشد غير قليل من المتساة
وزحف بهم ممما وحده ناحية الشمال ، وسرعان ما دخل اقليما
شديد الخصب والراء . أغلب أملة مسيحيون صادقون في دينهم .
أما البقية من السكان ، وهم قلة كافرة ، فكانوا أصحاب القلاع ،
وكانوا يعاملون المؤمنين الصادقين كما يحلو لهم ، كما كانوا
يغزونها من الانحرط في الخدمة الحربية .

وكان فلاحو الاقليم من المسيحيين الكارهين لأن يتسود عليهم
قوم من غير ملتهم ، لذلك لم يكده بلدوين يدخل تلك الناحية حتى
أصلحوه « الأماكن الحصينة » ، وما غيرت أيام قلائل على ذلك الأمر حتى
كان بلدوين قد ملك من الناحية أغلبها ، بالغا في ذلك نهر الفرات

العظيم . وصار اسمه وحده كافيا لبب الرعب في ذلك الافلسم وما حوله ، وبلغ الخوف في نفوس الاعداء مه حدا غادروا معه قلاعهم من تلقاء أنفسهم ، وهاموا على وجوههم ، على الرغم من انه لم يرسل رجلا واحدا من رجاله لقتالهم .

وكان مجرد حضور بلدوين قد يب الشجاعة والقة في قلوب المخلصين الذين رحبوا به ، وتمت كلمات النبي (١) : « كب يطرد واحد ألعا ، ويهزم اثنان ربوة » .

لم يكن العامة وحدهم هم الذين يعلقوا ببلدوين ، بل حاله ايضا امراء تلك النواحي المسيحيون وأخلصوا الية في مصادفته ، وآزروه فما يفعله ، واملوه بالجند ، وبدلوا له الطاعة الصادقة .

- ٢ -

على أنه لم تمض بضعة أيام حتى كان اسم هذا الرجل العظيم يجرى على كل لسان ، وحتى كانت أعماله الجليلة مسهورة في كل مكان ، واستساع خبرها في كل الولايات المجاورة ، وراح الجميع يسون على بطولته ، ويمتدحون احلاصه ، ويشيدون بشجاعته ، وملا صيته الافاق ، فلم يبق أحد من أهل الرها الا وقد سمع به ، وسرعان ما راحت المدينة تنحدث بأن قائدا باسلا من الجيش الصليبي ، قادر على تحريرهم تماما من رق العبودية وردهم الى الحرية ، وترتب على ذلك أن جاءه وفادة ممن كان بيدهم أمر حراسة المدينة وكانوا من أصحاب النفوذ فيها ، يدعونه دعوة صادقة - بالكلمه المنطوقة والمكتوبة - أن يأبى الهم .

(١) تسمية ، ٣٢ ، ٣٠ .

وأوديسا هي إحدى مدن العراق الشهيرة أيضا باسم الرها وهي المدينة التي أرسل إليها نوبيب الكبير ولده نوبيب الساب . ليطلب من مربيه « جاييلوس » عشرة مكاييل من العصاة كان الآد قد اعاره إياها وهو طفل .

وكان أهالي الرها قد اعتنقوا المذهب المعلق بالحللص المسيحي على يد الرسول « تاديوس » ، وذلك في أعقاب أسبوع الآلام ، والحق أنهم كانوا من كل النواحي أهلا لما ينمى مع ما بسر به ذلك الرسول العظيم وبرساله محلصا إلى كنيها إلى ملكهم « أبجاز » ، وعدا ما نطالعه في الفصل الأول من التاريخ الكسسي الذي كسبه يوسيبوس القيصرى ، وقد ظل القوم محلصين في تمسكهم بهذه العقيدة ضد إيمانهم بها لأول مرة في زمن الرسل ، ثم قدر لهم أن يصعدوا تحت بر حصوم ملهم الذين أرغموهم على دفع الضرائب والاناوات سنويا ، كما اغضبوا منهم عمود كل ما في أيديهم من بساين الكروم والمزارع ، فلم يعد أحد يجزؤ على العيش داخل المدينة سوى من ملأ الإيمان قلبه ، فكانت مدينة الرها - دون غيرها من جميع مدن الناحية - هي التي احتفظت بحريتها الأصيلة ولم تلونها الجاهلية . ومع ان العدو كان قد استولى منذ أمد بعيد على جميع النواحي التي حولها إلا أنها ظلت بمنأى عن الحصوص له ، ولم تأذن لآى صاحب عقيدة أخرى أن يعيش في رحابها .

ولقد كابد أهل الرها الأمرين من أولئك الذين يعبسون في المدن والقللاع المجاورة لهم ، الذين لم يكونوا يأذنون لمواطني الرها بمغادرتها أو القيام بعمل خارجها .

كانت أمور المدينة بيد حاكم من بلاد الاغريق ، أرسله ليدير شئونها ويتولى الأمر فيها ، ومنذ أن أصبحت البلاد كلها تابعة لامبراطور القسطنطينة ، وكان هذا الوالى شسحا طاعنا في السن ،

واهن العوى ، ليس له من صلبه ولد ولا بنت ، ولما كان الترك قد وصلوا الى هناك قبل انتهاء فترة حكمه فقد اضطرنهم الضرورة لابقائه حيث هو ، فظلت له الحكومة في البلد ، وربما كان ذلك راجعا اما لمعجزه عن الرجوع الى بلده ، أو لان الناس لم يرغبوه على التخلي عن السلطة ، ومن ثم كان بلا نفع ولا جدوى ، عاجزا عن حمايه رعيه من الضرر يزل بهم ، أو دفع الشر عنهم أو يخفيف ما يلقيه من الصيق .

ولقد وفد على بلدوين - كما قلنا - مبعوثون من قبل المواطنين وبرضاء هذا الحاكم يلتمسون منه القدوم عليهم وتخفيف مصائبهم .

فلما اسمح بلدوين الى الناس العامة والخاصة ، اجمع عرمة على استجابة رجائهم بعد أن شاور أصدقائه في هذا الأمر ، فاعد العدة اذ ذاك للسير اليهم ، وخرج غير مستصحب معه سوى نمامين فارسا ، عبر بهم نهر الفرات ، ومخلعا بعية ألباعه وراه للقيام بحراسة القلاع والمدن الواقعة على ذلك الجانب من النهر ، وللمحافظة على الاملاك التي منحها الرب له ، فلما علم الاتراك الذين يعيسود على الجانب البعيد من النهر بخبر سيره اليهم نصبوا له الكمائن في طريقه الذي كانت به احصى المدن الحصينة وعليها وال أرمى . فانهاز اليها بلدوين تجنبيا للكمائن التي رصدوها له في الطريق فلما بلغها استعبله حاكمها استقبالا كريما وأحسن استضافته ، فاقام بها يومين لم يجرؤ خلالهما على السير قدما ، مما سرب الملل الى نفوس الترك الذين كانوا قد اعدوا له كمينا ، وضاقوا ذراعا من طول انتظارهم اياه ، فرفعوا بارقهم وظهروا فجأة في حشد كبير قوى أمام الناحية التي هو فيها وراحوا يسوقون امامهم قطعان الماشية من المراعى المجاورة ، ولما لم يكن المسيحيون مكافئين لخصومهم في البأس ولا في العدد فانهم لم يخاطروا بالخروج اليهم بل أقاموا في القلعة حيث هم ، حتى اذا كان اليوم الثالث رحل الأتراك .

حينئذ كان تابع سيره المتفطع الى مدينة الرها حيث استقبله حاكمها بالعظيم عند وصوله اليها ، وساركة الرحيب به جميع من فيها ، كما خف لاستقباله رجال الدين والناس عامة وقد ساروا امامه مسدين الاهازيج والراسل الديية على وقع الدفوف ودو الطبول .

- ٣ -

على أن الحاكم الذى كان السبب فى استدعاء بلدوين ، سرعان ما سرع بعصه الغيرة منهس قلبه منه ، فراح يستعرض فيما يبين وبين نفسه ، ما أظهره الناس من الحفاوة والرحيب بهذا القائد عند وصوله ، وتمنى لو نقض ما أبرمه معه من اتفاق كان يتضمن - حين وجه الدعوة اليه - أن ينافسه طول حياته كل ما تملكه المدينة من البضائع والضرائب وجميع دخلها من الأتاوات ، ثم يزول كل شيء . بعد ذلك الى بلدوين .

أما الآن فقد رعب الحاكم فى تقديم عرض مخالف لهذا العرض يلخص فى أن يبذل بلدوين المساعدة للمدينة ولأهلها ضد استبداد الترك ، وأن يدفع عنها ضرهم ، على أن يعوضه الحاكم ذاته مقابل ذلك بمويصا ماليا سنويا مجزيا مسرفا ، حسبما يراهى له كرحل عادل ، لكن بلدوين رفض هذا العرض وازدراه لأنه عَرَضَ ينزله منزله الجندى المرمى ، الذى يتناول أحرار لقاء خدماته ، لذلك أخذ يعد العدة للعودة من حب جاء ، فلما عرف الأهالى بعزمه على الرحيل ، بادورا بالذهاب الى الحاكم وأصرروا على الا يأذن بأى حال من الأحوال برحيل زعم جليل القدر كهذا الزعم عنهم ، فهو رجل لاغناء لهم عنه لتحقق حريتهم ، وطالبوه أن يضم بلدوين اليه وفقا لسروط

الانفاق ، حتى يعم هو والمدينة كلها بالسلام الذي هو عايه
ما ينسدون .

واراء هذه المطالب المجمع عليها . من عامه الناس وخاصيم .
وازاء المحبة العميقة التي بها بلدوين في نفوسهم شعر الحاكم بمدى
الخطر الذي يهدده ان لم يستجيب لرجائهم هذا ، ومن ثم رصخ ليهم
على مضض وأجابهم الى كل ما طلبوه منه ، وكان ذلك على كره منه ،
وزاد على ذلك فعند الى تحسين مسلكه السابق بأن يبني بلدوين في
حصرة أهل البلد ، وأعلن في احتفال مهيب يلاءم مع جلال الحدث
بأنه يأذن له أن يباصره كل شيء في حياته فان ما كان هو الحاكم
من بعده ، فعربدت الفرحة في قلوب الناس أجمعين لانهم كانوا يرون
أن بلدوين هو معقد آمالهم في النجاة ، وأخذوا منذ هذه اللحظة في
الاقدام على كل عمل يطلب الجرأة ، واطمئننا منهم الى حمايه سيدهم
الجديد لهم ، ولما راحوا يسترجعون ما نالهم من وصب على يد حاكمهم
فقد شرعوا يخططون للانتقام منه ، متى يسمح الزمان والمكان بذلك ،
وهذا مما اضح من مجرى الاحداث .

- ٤ -

وكانت تقع على مقربة من الرها مدينة سميساط الموغلة في
القدم والشهيرة باستحكاماتها الحصينة ، يحكمها تركي كافر اسمه
بلدوك ، وهو محارب مقدم ، ولكنه محادع لثيم ، وقد ابرل
كثيرا من المصائب بأهل الرها ، فضاغف عليهم الخراج والصرائب
التي فرضها على مزارعهم ، وأثقل كاهلهم بما كلفهم به من الأعمال .
وجرت عادته على أخذ أطفالهم رهائن لديه ، ضمانا للوفاء بهـذه

الامور ، وكان هؤلاء الرهائن يرفعون نحب ظروف بالعه المسوّه على العمل في خدمه كرفيق يحملون الطين والآجر ، ومن ثم فقد ركح كافة السكان عند قدمي بلودين بعيون باكية يسعطونه أن يعمل على حمايتهم من ظلم الطاغية ، وأن يعيد اليهم أبناهم الذين في جيسه فأصعى بلدوين بأعصاب الى أول رجاء لسعيه ، أملا منه في اكساب ودهم ، فدعاهم جميعا اليه ، ورودهم بالسلاح ، وخرج بطائعه منهم راحقا على سميساط .

وظل بلدوين بضعه أيام يراوح المدينة ويعاديها بالهجمات المالية ، لكنه صادف مقاومه شرسه من جانب من فيها من الترك ، به منهم في استحكامها القويه ، وسرعان ما ادرك بلدوين أنه غير مدرك منها أربه ولا بالغ منها غاية ، فانقلب راجعا الى الرها ، ناركا وراءه على مقربة من سميساط وفي مكان حصين ملائم - جماعة من العرسان ، أمرهم بمداومة الاغارة عليها ، وألا يذيقوا أهلها طعم الراحة .

سرعان ما تبين لمواطني الرها ما عليه بلدوين من النشاط . وما يلقاه من النجاح في كل ما ينهض به . وأدركوا ظلم الاجراء الذي حاق بمحرر المدينة وبمرسى دعائم السلام بها ، حين ساووه برجل لا انتفاع منه أبدا للمدينة ، وأيقنوا أن بلدوين عدا صين بأن يملك كل شيء ، وان ينخلص مما لا ينفق وهواه ، ومن ثم استدعوا واحدا من أشرافهم يدعى فسطططين ، وكان واسع النفوذ وصاحب عدة فلاح شديدة المنعة ، واقعة على جبل قريب منهم واقترحوا باجماع منهم أن يفتكوا بحاكمهم ، ويحلوا بلدوين مكانه ، ليكون وحده صاحب الأمر والنهي ، وقد دعاهم الى ذلك ما كانوا يضمرونه لحاكمهم من كراهية هو أهل لها ، فقد قيل انه سلبهم ما عندهم من الذهب والفضه وعبر ذلك من كل غال وثمين ، وظلمهم ظلما فاحسا ، وكان

إذا ما حاول أحد مقاومته أثار عداوته الترك ضدكم بما يصلهم به من الرشاوى ، حتى يصبح الرجل النعيس منهم لا يحاف فحسب قطع كرومه واهساد حقوله ومزروعاته وسلب قطعانه واعمامه ، بل إن حياته دأبها تصبح فى خطر .



أدرك مواطنو الرها الدين كانت فعال حاكمهم السريه مانله على الدوام فى ادهابهم ان قد واسهم العرصه ليل حريهم المنسوده مد رمس طويل على يد هذا الصيف ، ومن ثم فاتهم - وقعا للحطط التى لم اتفاهم عليها - اسرعوا لحمل السلاح وهاجموا البرج الذى احده حاكمهم مسهرا له هجوما عنيفا محاولين هدمه بعزم لا يسى ، فاستد خوف الوالى على حياته بسبب عصب الأهالى وسخطهم الذى هو أصل له والذى له ما يبرره . فاستدعى اليه بلدوين ، وسر امامه كل الأموال ، ونوسل اليه أن يكون واسطه له عند الناس .

وعلى الرغم من أن بلدوين سعى سعيا صادقا الى حمايه الحاكم ، وصرف كل أدى ينزل به على أيدي المواطنين ، ورغم أنه بذل قصارى جهده لتبئيم عما اعزموه الا أنه سرعان ما تبين له فشل محاولاته ودهابها أدراج الرياح . لأن غضبهم على واليهم كان يرداد عما وحده سيئا بعد سيء ، وحينئذ انكفأ بلدوين الى الحاكم . ومضته الصبيحه أن يتخذ من الاجراءات ما شاء لتأمين حياته وسلامها ، فلما أعيب الحاكم كل السبل فى التماس علاج للأمر تعلق بحبل دلاه من احدى النوافذ بيد أنه هلك قبل أن يبلغ الأرض ، اذ ناولته ألف سهم من سهام القوم الذين سحبهوه الى القصر جثمانا هامدا وقطعوا رأسه ، لكر ذلك كله لم يسف لهم غليلا .

فلما كان اليوم السالى نصبوا بلدوين حاكما عليهم رعم
اعتراضاته ، وقطعوا له يمين الولاء تم طلعوا به فى موكب بهى مهيب
الى قلعة المدينة ، وأعطوه كل ما اكسره واليهم السابق طوال سبب
عدة من الأموال والبروات الكبيرة ، ومن ثم عاد الهدوء يعرف على
المدينة .

ولما رأى « بلدوك » الذى كان كسا فلما حاكم سميساط -
نجاح بلدوين نجاحا لا جدال فيه ، وأنه محصع كل الأقاليم ، فقد
عرض عليه أن يبيعه مدينته بعشره آلاف قطعة ذهبية ، واد كان
بلدوين يدرك أن أخذ سميساط بالقوة ليس بالأمر اليسير فحصل
بخصيتها ، فقد دفع بعد مداوات طويلة - المبلغ الصخم الذى طلبه
صاحبها ، وتسلم البلدة - واسترد رهائن الرها ، مما زاد في عييه
فى العيون زيادة كبيرة .

ولما قدر له انجاز هذه المأثرة منذ اللحظة الأولى من حكمه .
فقد اكسب حب أهالى الرها العظيم ، الذين اعتبروه منذ هذه اللحظة
واليا عليهم وأبا لهم أيضا ، وكانوا على أم أهبة لبذل أرواحهم دفاعا
عن كل ما فيه صالحه ومجده .

- ٦ -

كان يوجد فى نفس الولاية قرب الرها مدينة يقال لها «سروح»
كانت هى الأخرى عاصمة بمن ليسوا على الملة ، وعليها نائب تركى
اسمه « بلاس » قد دأب على مضايقة الرها ، ومستنها منه البلايا
الضارة ، مما جعل بلدوين يستجيب لتوسلات الأهالى اليه ، فجمع
جيشا لغزو سروح ، حتى اذا وافى السوم الموعد زحف عليها
وحاصرها نزولا على ربة سبعة ، وضرب أولا معسكره حولها ووضع

آلانه على اكمل صورته واحسن هنئه . سرخ فى مهاجمتها فى عصف
 نب الخوف فى نفوس أهلها حين رأوا عرمة المطبق على تحقيق هدفه ،
 فى الوقت الذى كانوا يسكنون فيه فى مبلغ قوتهم الدانية فابلوا أن
 يسلموه المدينة ان صمم ليهم حياتهم وسلامتهم ، فلما وافق على هذه
 الشروط أسلموه المكان فأقام من رجاله جماعة رابطت بالمدينة لحايتها ،
 وجعل العناده فيهم لواحد من الذين ساركوا فى المفاوضات ، وفرص
 على أهل سروج جريه سنوية ، ثم رجع الى الرها موحا بالفخر .
 ولقد أدى احلال الصليبيين لسروج الى حريه الاتصال بين أنطاكية
 والرها ، اذ كان وقوعها فى منتصف الطريق بين الرها والعراق
 يعسر عقبه كأداء أمام الذين يودون الغدو والرواح بينهما .

والآن وقد قدمنا هذه البساتن عن عمل بلدوين فيما بنا عود
 الى قصة الجيس [الصليبي] الاصلى .

- ٧ -

بينما كان بلدوين مسعلا اسعالا كبيرا فى اعلم الرها فيما
 وراء الفرات ، كان الجيس الرئيسى قد وصل الى مرعس ، بعد أن
 اجتاز - كما قلنا - جبلا شديدة الانحدار ، وأودية منعرجه ، وكان
 سكان هذه المدينة - الا القليل منهم - نصارى ، وكاتب فلعبها فى
 يد الترك الذين يحكمون كنفها شاهوا فى الأهالى ، ولم يكد الترك
 يعلمون أن جيسا آخذ فى الافتراب منهم حتى فروا خفة وفى زعر
 شديد ، تاركين البلد كله فى قبضة المؤمنين .

ولما بلغ الجيس الخارج فى سبيل الرب هذا المكان ، عسكر
 أمام أسوار المدينة فى المراعى الخضراء ، وصدرت الأوامر الى المعسكر

ان يجنبوا الصف مع اهل البلد ، كما اتفقد في هذا المكان سوى حافلة . ثم جاء الى الصليبيين رهط من نواب اهل البلد ، يجبرونهم ان في يد الترك مدينة أخرى في ذلك الاقليم يسمى «أرياح» ، ويقع في اقليم اكثر حصبا ويقص بالعم الوفيرة ، فابعى الراى على ان يخرج في الحال روبرت كونت فلاندرز اليها على رأس ألف فارس عليهم ررد الحديد ، وصحبهم جماعة من الاشراف ، منهم روبرت دى روير ، وجوسيلون س كونون كونت موباس ، وما كادوا يبلعون ذلك الساجه حتى سرع روبرت في اعداد ترسيبات الحصار ، فعادى الترك المدينة واريدوا الى القلعة ليقنهم في منعها .

وما كاد الارض وعيهم من المؤمنين الصادقين السارلين أرياح يعلمون ان هؤلاء المحاربين - بأسلحتهم البراقة - قد جاءوا من الجيس الذى طال انتظارهم اياه وسوقوا اليه ، حتى اسعس الامل بالحركة في صدورهم فنبوا الى أسلحتهم وانقلبوا على الترك الذين احلوه رمنا طويلا فرصوا عليهم خلاله حكمهم العاسى ، وأعملوا فيهم العمل دون نراح ، فادفون برؤوسهم فيما وراء الأسوار ، كما فسحوا الابواب على مضاريعها ، ودعوا في اخلاص دى القوم الواقعين خارجها الى الدحول ، وسألوه ان يصربوا مخمباتهم بها ، أصف الى ذلك أنهم أوفوا بسروط الصافه ، فوفروا لهؤلاء المحاربين وجادهم على السواء ما يحتاجونه .

★★★

وتعرف أرياح أيضا باسم « سالسيس » وهى مثل مرعش التى أشرنا اليها من قبل فى انها تمثل احدى المدن الاسقفية التابعة لكرسى بطركه أنطاكية التى تبعد عنها خمسة عشر ميلا .

ولقد انتشر نأ هذا الحادث فى كل مكان فحرك ساكن اهل أنطاكية الذين تدافعوا متحمسين لنسليح أنفسهم ، واستعدوا للفتك

بالعراة الذين جعلوا من أنفسهم سادة لارباح بديهم مواطئها ،
واد ذاك تم اساءه عسره آلاف من تجمعوا في انطاكية للدفاع عنها ،
وجيهم سراعاً الى مدينة أرنح ، فلما صاروا على مربة منها أرسلوا
امامهم ربيثة منهم قوامها ثلاثون فارساً من حملة الأسلحة الخفيفة
وراكبي جياد الحرب الخفيفة ، أما بقية الفوة فقد كسب في ناحيه
من الغابه .

وأما الطليعة التي كانت تقوم بحراسة من في الكمين ، فقد طلب
على ظهور جيادها ، روح وبنو أمام المدينه حتى ليحسبها الرائي
أنها خرجت في طلب بعض الأسلاب والسائم ، فيغير اد ذاك
المستجبون ، ويدفعهم الطيس الى مهاجمتها دون بصر .

ولقد أدت سلاطة هذه الطليعة في عدوها ورواحها الى أن فقد
المؤمنون الذين كانوا داخل الأسوار صبرهم ، فهبوا سراعاً الى
سلاحهم ، واطلقوا في أس العدو دون أن يأخذوا حذرهم ، وأوعلوا
فطلعت عليهم الكمائن التي وضعها الأعداء لهم ، وخرجوا من مخابئهم
في الحال ، ووثبوا عليهم وفاموا بمحاولات يائسه لمقطع طريق العوده
على الصليبيين الذين لو قدر لهم النجاح في الوصول الى المدينه
لوجدوا فيها ملجأ يفيهم من القوات الكثيرة التي كانت قادمة في
اعماهم ، الا أن رجالنا استطاعوا بفصل من الله أن يمسدوا عليهم
حسبهم ، مما مكهم من الارنداد بمن معهم سالمين .

حينذاك أدرك العدو أن الاستيلاء على المدينه ليس بالأمر الهين ،
ومن ثم شرع في حصارها ، وظل يواليها بالرمي على مدى يوم كامل
دون أن ينال منها شيئاً ، بينما قام المسيحيون الذين بداخلها في
الدفاع المجيد عنها ، ولما جام الأخبار بأصراب حسنا الرئيسي
أدرك العدو ما وراء استمراره في البقاء من خطر عليه وأصاح للنصيحة
الملي ، وعاد الى أنطاكية تاركاً طائفة من الجند لحراسة الجسر

الموصل بين المدينتين ، وهكذا صلت الكونب وأصحابه يئاسيم
المدينة التي وهبها الرب لهم ، وحافظوا عليها الى حين وصول الحرس
الرئيسي .

وفي خلال هذا الوقت مرض « جوسلون » الشاب الموهوب بن
كونون كونب موساج الذي تكلمت عنه آنفا مرضا عسالا . أودى
بحياته ، فدفن في ذلك المكان بكل ما يليق به من مظاهر الاحرام .

- ٨ -

ما كاد الترك القادمون من أنطاكية يعادرون أرباج عند اسلح
النهار ، حتى جاء الخبر بأن الجيش الصليبي قد أصبح على مسارف
المدينة ، وأنه قد نصب مخيمه على مقربة منها ، وانصاع رعاء
الجيش للصبح فارسلوا خمسة عشر ألف فارس مدججين بالسلاح
لمساعدة من في « أرباج » من اخوانهم الذين جاءت الأنباء بما يعاونه
من أهوال الحصار المفروضة عليهم ، وكانت الأوامر ملخص في أنه
إذا وقع الحصار وأصبح الوصول الى المدينة أمرا ميسورا ، عباد
كونت فلاندرز وبعية الكبار الذين بصحبته الى الجيش ، بعد أن يكلوا
حراسة المكان الى حامية كافية ، كما صدرت مثل هذه التعليمات
الى مانكريد الذي كان قد رجع لتوه من قسطنطينية ، بعد أن صار الاعليم
كله ملك يمينه فعادوا ، وعاد جميع القادة الآخرين الذين كانوا قد
خرجوا الى نواح مختلفة حسبما أملت عليهم مصالحهم ، ولم يكن
ينقصهم سوى بلدوين الذي كان سلطانه فيما حول الرها يزداد
بمشيئة الرب قوة يوما بعد يوم ، وهكذا جمعت فرق الجيش المختلفة
وباسكت قواته مرة أخرى ، وإذ ذاك نودي في الجميع الا ينقصل
أحد ما عدا الجيش الرئيسي الا بأمر يصدر اليه .

حينذاك تقصوا حياتهم ، واخذوا فى الزحف على أنطاكيا من أقصر الطرق الموصلة اليها ، واعرضهم فى منتصف طريقهم بهشيم اقيم عليه جسر عرف بأنه منيع الحصين ، فرغب القوم فى ازالة كل عقبة فى هذه الماحية يمكن أن تعرقل الجيش ، فقدموا أمامهم روبرت كونت نورماندى على رأس رجاله ، وكلفوه بكشف الطريق ، فان توقع أية صعوبة أفضى بها الى الكنيسة الى حلقه ، وسرح لقادها الأمر تفصيلا ، وكان على رأس هذه الكنيسة الوجيهان افوار دى بويسيه وروجر دى بارنفيل البارعان فى استعمال السلاح ، وقد سرا أعلامهما .

ولما انفصل الكونت وأتباعه من الجيش الأصلي تقدموه حتى بلغوا الجسر المشار اليه وكان بناء حجريا شديد الضخامة ، يقوم على كل من طرفيه برج من الحصانة من نفس الحجر الصلد ، وكان فى كل برج مائة من المحاربين الأقوياء الشجعان البارعين فى الرمي بالنشاب وحسن استعمال الأقواس ، قد وكل اليهم حماية البرجين ومنع أى أحد من الاقتراب منهما عن طريق مخاضات النهر ، كما وصل من أنطاكية سعمائة فارس رابطوا على الشاطئ البعيد ، وسيطروا على المخاضات ليحولوا - تحت أى ظرف من الظروف - بين رجالنا وبين عبور هذا النهر المسمى بهر العاص ، ويطلق عليه الناس اسم النهر « العاصى » وهو ينطلق من هذا الجسر ويدر الى البحر مرورا بأنطاكية ، ويظن البعض أنه هو نهر دمشق المعروف باسم « مرقر » ، ولكن تأكد لدينا بما لا يخفى النقض خطأ أصحاب هذا القول ، ذلك أن نهرى قرقر والبيان ينبعان من حبال لبنان ، وبعد أن يشقا الاقليم الذى به مدينة دمشق ويجاوزانها - ينطلقان بسرعة ناحية الشرق ، حتى لخيّل للمرء أنهما ضاعا فى الصحراء .

أما نهر العاصى فعلى العكس من هذين النهرين ينبع من افلم

هليوبوليس ، المسمى أيضا ببعلبك ، ويجاز سيزر وأنطاكية حيث
يصب في البحر الأبيض المتوسط .

ولما بلغ كونت رمسدي بمواته هذا الجسر تكاف على الحيلولة
بينه وبين عبوره حراس برجى الجسر ، والمدافعون الذين وقفوا على
الساططى الآخر من النهر ، وترتب على ذلك قتال شديد الصراوة فى
هذه الناحية بين الفريقين ، يريد من عنده أن رجالا كانوا مسبيين
فى شق طريق لهم بالقوة وسط وابل هتان من السهام أمطرهم بها
العدو الذى راح يسذل أقصى طاقته لمنهم من الوصول ، ودعمهم
بعيدا عن المحاضات .

فى هذه الأثناء التى كان كل من الجانبين فيها يجهد نفسه
عاية الاجهاد من أجل عاينه كان الجيش الرئيسى يدو شيئا فشيئا ،
ذلك لأنه لما شاع أن الكونت وحرس المقدمة قد ردوا على اعابهم
من جزاء القتال عند الجسر ، يادر العسكر [الصليبيى] الى الاسراع
لمساعدة اخوانهم المحاربين ، فلما رأوا ارداد العدو راودهم الأمل
فى فتح الطريق ، عسى أن يتمكن الجيش من العبور من غير تأخير .

ولما تكامل وصول جميع الكناثب دعب الطبول ، وبودى
بحمل السلاح ، فاستجاب الجند للنداء بكل ما بهم من نأس ،
وسيطروا على الجسر بالقوة ، وأرغموا العدو على الفرار ، أما
الصليبيون الذين لم سعهفهم الظروف بوجود موضع لهم على الجسر
يحاربون منه ، فقد أمروا أن يظلوا فى أماكنهم بلا قتال ولكنهم
مصوا فاكسفوا المخاضة ، وعبروا الى الجانب الآخر ، ونجحوا فى
رحضة الأعداء من أماكنهم مما جعلهم لا يصادفون بعد ذلك أية
مماوكة فى احتلال الضفة الأخرى من النهر ، واد سم عبور كل الجيش

بمربانه الحربيه ومركبانه وما معهم من سبي صفوف الماع . نصبوا معسكرهم فى مراغ فسيحه حصراء على بعد حمسه أو سنه أميال من المدينه ، حتى اذا كان اليوم السالى تابعوا رجفهم فى الطريق الرئيسى الكبير الواقع بين النهر والجبال . فلما صاروا على بعد ميل واحد من اسوار المدينه نصبوا خيامهم .

- ٩ -

وأبطاليه مدينه عظيمه مجيده ، نبوا المربه الناله ان لم يكن السانيه بعد رومه دانها (سم احلاف كبير نجاه هذه المسأله) ، وهى تقف على رأس الجميع ، ولها الصداره على كل منطقه المرفى وكانت تدعى فى الأرمه المدينه «رييلانا» وهما كان قد جىء بصديا ملك يهوذا مع أبناؤه فى حضرة نابخذا نصر ملك بابل الذى أمر بقتل الابناء أمام ابيهم ، ثم سملت عيننا الأب دانه بعدئذ ، ولما مات الاسكندر المقدوسى خلفه فى حكم جره من هذا الافليم « اسيوخس » فاحاط المدينه بأبراج على سور سديد الاربعاع ، حتى صارت المدينه بفضل « اننيوكس » فى حال أحسن مما كانت عليه من قبل ، وأمر أن يسمى بأبطالية اشتقاقا من اسمه ، وانخذها عاصمة لمملكه ، وقرر أن تكون المقر الملكى له ولخلفائه على مدى العصور ، وكان فى هذه المدينه أبرشيه كهويه لكبير الحواريين الذى كان أول من تبوأ وظيفه الأسقف هماك ، لأن الموقر بوسلوس أحد مواطني أبطالية وذوى النفوذ القوى - كان قد أقام كنيسه فى بيته ، وهو الذى كتب له لوفا اتجيله وأعمال الرسل ، وكان هو الآخر من أهل أبطالية كما أنه خلف بطرس الطوباني فى نفس الكنيسه . وكان ربيبه السابغ فى ثيب من بولوا أسقفيتها .

وقد عقد في هذه المدينة أول مجمع للمؤمنين الذين اصططح
 على تسميتهم بالمسيحيين ، اشتقاقاً من كلمة المسيح . ولقد رجب
 هذه المدينة عن طوائعه وسوق بعاليه هذا الحواري واحندب كلها.
 مره واحده الى العميده المسيحية ، وكانت هي أول مدينه راحت بيسر
 بالاسم الذي كان كالعطر الطيب فاح سدهاء فطر جميع الأرحاء .
 ما حرب منها وما يعد ، ومن ثم اختير لها اسم جديد فسميت
 « بويبوليس » وهكذا فان المدينه التي كان يطلق عليها من قبل اسم
 رجل سرير كافر عادت فمحتها السيد منحة طيبه هي أهل لها ،
 وأصبح يعرف بأنها مدينه وموطن الذي دعاها للإيمان ، لانه كان
 لهذه المدينه في أيام خطئها السالعه السيطره على كبر من الافالم
 الخاصه لها ، حتى اذا ندم الرمن عاشب حناه طاهره بره . مسعه
 طرئ المسح ، واستبقت نفس الأساقفه .

ويعال انه كان يحب امره بطرك هذه المدينه - الجببيه الى الله -
 عسرون ولاية ، كان لأربع عسره منها أسافنها وكهنتها ، أما السب
 الباقيا فلها أسافنها المعروفون بالجاليق ، وكان احدهم يحص
 بأنى ، والآحر بهريوبوليس أو بغداد ولكل منهم مساوسه . وسدوح
 كل هذه الولايات يحب اسم واحد هو المشرق الذي ورد في تعريف
 مجمع القسطنطينية حب نقراً فيه ، فليكن لأسافه المشرق اداره
 المشرق وحده ، ولكن شرف النقدمه لكنسه أنطاكه حسيما هو
 واورد في قوانين مجمع بيقية المقدس « .

بمنار مدينة أطاكية بموقعها الرائع في ولاية كوليسيريا التي هي جزء من سورية الكبرى ، وهي تمتد عبر واد فريد في بهائنه وحصب تربة ومرارعه التي تسمى كلها في الواقع بالروادع والقنوات المائية ، ويقع هذا الوادي وسط جبال تنحدر ناحية المغرب كما يمتد مرابه أربعين ميلا طولا ، وأما عرصه فيسراوح بين أربعة وسنه امثال حسب الناحية التي هو بها ، وتوجد في القسم العلوي منه بحيره تكونت من تدفق المياه من الينابيع المجاورة التي تتجمع كلها هنا ، كما يوجد على مسيرة ميل منها النهر الذي يجري عبر الوادي ثم يحاور المدينة الى البحر .

وينبثق كذلك من البحيره جدول صغير يصب في نفس النهر هي انحداره قرب المدينة ، وعلى الرعم من سنده ارتفاع الجبال التي تكسف المدينة من جانبيها ، الا أنه يخرج منها مجرى ماء عذب يسير معرجا ، كما أن جوانبها المنحدرة حتى العمه صالحة تماما للزراعة ، ويعرف الجبل الواقع في الجنوب باسم العاصي (اورسس) كاسم النهر الذي يسمّى المدينة ، ويقول جيروم ان أطاكية تقع بين العاصي وبين الجبل الذي يحمل نفس الاسم وينحدر من هذا الجبل الذي يسير على طول البحر ثم يرتفع ارتفاعا شاهقا ويعبره بسمية خاصة به ذات دلالة معينة ، اذ يعرف عادة بجبل «بارليبه» ، ويظن بعض النعاب أنه هو جبل «برناسس» المكرس لباخوس وأبولو، ويبدو ان هذه الفكرة قائمة على وجود البع المعروف ببع «دافسي» القريب منه ، ويرى البعض أنه هو البع القسالي المذكور في الأساطير القديمة ، والذي كان مكرسا لآلهة العون والسعر والغناء ، الكرهه الورود في كتابات الفلاسفة ، ويقال انه يتبع من الناحية التي تعرف بملوجات بوهيموند قرب المدينة الموجودة في سفح جبل العاصي ،

غير أن هذه الفكرة بعيدة جدا عن الواقع ، اذ المؤكد ان جبل برناسس يقع في اقليم بوييسا الذى هو جزء من « ساليا » وقد وصفه «أوفيد» في القسم الاول من كتابه « ميامورفيورس » فقال بأن أرض فوكيس تفصل الحقول البوييسية عن حقول أليكا . وهي اقليم خصب عندما تجف الأرض ، ولكن حدث أن اندفقت المياه فجاءه بغزارة في ذلك الوقت البعيد . كما يوجد هناك جبل يرتفع الى غنان السماء العالية المعروفة باسم بارناسس والى سدو سامخة كماها تختوى السحاب .

ويسمى سولسوس في الفصل الحادى والأربعين من كتابه « بولى هسور » التاريخ العام هذا الجبل بجبل كاسيوس حيث يقول « وعلى معربه من أنطاكية وفى ملاصقة سلوقيا ، يوجد جبل كاسيوس الذى يمكن أن يرى المرء من قمته قرص الشمس حتى الساعة الرابعة من الليل ، فاذا استندار المرء قليلا - حين يبدد الضوء الظلام - أمكه أن يرى على هذا الجبل الليل ويرى من الجانب الآخر النهار » .

★ ★ ★

وحى لا يقع القارىء في حيرة من كلمة سلوديا الغامضة فيجب احبارة انه توجد مدينتان بهذا الاسم أولاها هي عاصمته ايسوريا ، وبعد عن أنطاكية مسيره تزيد على خمسة أميال .

أما الأخرى مجاورة لها ، ولا تبعد احدهما عن الأخرى أكثر من عسة أميال ، وهي تقع قرب منبع نهر العاصي ، وتسمى هذه المدينة الآن بمياء القديس سمعان ، أما النبع المذكور آنفا فيعرف بـ « دافن » أو النبع القسمالى ، ويقال انه كان في هذا المكان قديما معبد لابولو كان أقوام فى عقيدتهم الخرافة يقصدونه لسؤاله فما استخلق عليهم ادراكه ، وحدث أن استقر بها قرب

أبطاكية - فترة من الوقت - المارى جوليان بعد انفصاله من المسيح وردده عن تعاليم الدين الحق ، وكان في أثناء اعداده الحملة على الفرس يكسر من الترداد على معبد أبولو ، يفسره فيما هو قادم عليه ، ويسير ببودوريس الى هذه الحققة في الفصل الحادى والثلاثين من كتابه « التاريخ الثلاثى » بقوله :

« لما راح جوليان يلتبس جوابا من الهيكل البييسى في دافى حول مدى النجاح المحمل لحربه ضد الفرس ادا بالكاهن يهرء لأن جثمان الشهيد بابيلاس كان مدفونا على مقربة من هناك واد ذاك أمر جوليان بفعله » .

ومرد الاشارة الى نفس الحادث - ولكن في تفصيل اكر - في الكتاب العاشر من التاريخ الدينى حيب جاء فيه ان جوليان قدم دليلا آخر على حماقته ورعونته ، حين راح يسررضى أبولو في غابة دافى القريه من البيع العستالى بضاحية من ضواحي أبطاكية ، فلم يستطع الحصول على رد على سؤاله فتساءل ما الذى يعنيه هذا الصمت ، فاجابه كهنة الشيطان ان قبر الشهيد بابيلاس قريب من هناك . ومن ثم فانه لا يمكن الاجابه على سؤاله .

وعلى الرغم من أن هذا النبع معروف بالنبع العستالى . الا انه يجب الا يحتلط في الأذهان بالنبع العستالى الآخر الذى يسمى أيضا بنبع بيجاسوس ، أو رافد هيبوكرين وأجانيب ، اذ ان هذا الآخر موحد في بيوتنا بناء على ما يقوله سولنوس الذى يكتب فنقول .

« ويوجد قرب طبقة جبل هليكون وغابة كسرون ونهر اسمماس ، كنا يوجد هنا أيضا ينبوع اريوسا وهيبوديا وسالماس وديرسى ، وان كان أهمها جميعا ينبوع أجانيب وهيبوكرين » .

ولما كان ديموس مسدع الحروف هو أول من عر على هذه
البنابيع أثناء بجواله فى المطة بحا عن موضع يسمر فيه فسان
حال السعراء القوى أدى الى ظهور إسطوريين يقول احداهما ان السبع
يدفن من حفر حصانه ، وأن السرب منه كان ملهمه للفتون .

ويوجد فى الشمال من أنطاكية حصبه تعرف عاده باسم « الجبل
الأسود » تكرر بها الينابيع ونسقى من الروافد ، وكاتب ماره على
سكان المطة جمة ، ممثلة فى العايات والمراعى ، ويقال ان هذه
الماحيه كانت نزر فى قديم الزمن بكير من الاديره ، بل سوفر بها
فى وقتنا الحاضر أماكن طاهره كثيره ، مليئه بالمحبه وهى مساكن
أولئك الدين وهبوا أنفسهم لخدمه الرب .

ويجى وسط هذا الوادى النهر الذى يصب فى البحر . والذى
ذكرناه آنفا ، وقد سيدت المدينه على أقرب وأعق منحدر للجبل
باحه الجنوب بينه وبين النهر ، كما يبدأ السور من قمة المرتفع
ويسير على طول السفع منحدر الى النهر ، وتكتف محطها أرض
ساسة الاتساع تمتد من جانب الجبل والسهل .

ويوجد وراء السور أيضا قبان ناطحات السحاب . ومع
قلعة أنطاكية على ذروة أعلى هاتين القمتين ، وهى بناء شديد الحصانه
يعدونه موضعا لا يمكن افتحامه ، ويفصل هاتين القمتين بعضهما عن
بعض هو ضيق يحدر عبرها تار جارف منصب من الجبل ، كما
يجرى وسط المدينه هذا النهر الذى له أياذ جمة على السكان ، كذلك
توجد عدة يابيع أخرى بالمدينه أهمها بالباب السرى المعروف بباب

العديس بولس ، أما بيع دافى الذى يبعد حوالى ثلاثة أو اربعة أميال
بعد ثم حفره عن طريق امامه مجرى فوق العناطر ونفسوا فاحبالوا
حتى جعلوا الماء يندفق الى أماكن مغلقة كبره فى أوقات معسه .

ويحيط بالمدينة من أعاليها ومنحدراتها وسهولها أسوار من الحجر
الأصم ، السديد الضخامة ، العظيم الارتفاع ، ويطل على كل عدا
كبر من الأبراج التى أعدت للدفاع أحسن اعداد . وهى على ابعاد
مساوية بعضها من بعض ، ويجرى النهر الى الغرب فى الناحية
السفلى التى هى أحدث جزء من المدينة ، ويقرب مجراه كل الاضرار
من الأسوار ومن الجبل الذى يعبر بكلفة لسور المدينة وبوابتها
ويقول بعض الققات ان المدينة تمتد مسافة مبلين طولا ، ويقول عرش
بل ثلاثة ، وهى بعد عن البحر مسافة اثنى عشر ميلا .

- ١١ -

كان حاكم هذه المدينة الذائعة الصيت رجلا تركى الأصل
يدعى ياعى سيات ، وهو من اتباع عاهل عظم سديد الباس اسمه
ملكساه هو ساطان فارس الذى أسرا البه من قبل ، وقد استطاع
الأمير [ملكساه] بقوة السلاح أن يضم الى سطاها جميع هذه
الولايات وأن يدخلها تحت حكمه ، ثم رأى أخيرا أن يعود الى وطنه
بعد ان دانت له كل السعوب والقبائل . فعاد ووزع فوجاته بين أولاد
أخيه وأساعه . اعمادا منه أنهم كلماذكروا مآثره الحمه عليهم
اسد ارتباطهم به واخلاصهم له ، فكانت نبيقة وما جاورها من
الولايات . من نصيب قلح ارسلان فى هذا التقسيم ، كما أسرا
أنفسا .

أما دمسق وما يبيعها من المدن التي تدفع لها الجزية وكذلك
الافليم الذي هو حولها ، فكانت من نصيب ابن أخ آخر له اسمه
دقان .

وحلج ملكساه على هذين العاهلين مربية السلطنة ولقيها ، ولما
كانت مملكه فلج ارسلان وافعة على حدود اليونان فقد كانت في
نزاع دائم مع امبراطوريه القسطنطينية .

أما دفاعي - فكان بسبب ماملك - في حروب لا يحمد أوارها
مع المصريين ، والذي راح [ملك شاه] ينظر اليهم بعين الريبة الكسرة
للزيادة المطردة في قوتهم وبطشهم .

أما السابع الآخر من اتباع السلطان واسمه آي سنمر - وهو
والد [عماد الدين] زنكي ، وجد نور الدين [محمود] فكانت حلب
الساهرة من نصيبه .

وأعدق ملكساه فيض كرمه أيضا على باغي سيان الذي سلك
الآن عنه ، فوصله بمنزل ما وصل به هدين الرجلين ، اذ اقطعه أنطاكية
مع افليم صغير ، وقد حملة على هذا ما كان من احتلال خلعته مصر
كل البلاد حتى اللادقية بالسام .

ولما علم ياغي سيان أن جيشا كبيرا بعبادة قادة صليبيين في
طريقه اليه أنفذ كيرا من الرسائل - شفاها وكتابة - الى جميع
أمراء الشرق كله ، يطلب منهم مساعدته ، لاسبيا خليفه بغداد
وسلطان فارس العظيم ، وهو أقوى الحكام جميعا الذين استجابوا
لطلبه في يسر ، ولبوا نداءه على عجل ، وكان الحامل لهم على ذلك
ما يرامى الى أسماعهم منذ وقت بعيد من خبر تقدمنا ، وما يحمله

هذا الزحف من خطر حسبهم عليهم . ولما كان الب ارسلان يعام بحمره وكشاهد عيان بما عليه هذه الجيوش الصليبية من كره العدد والبطولة التي لا تفهر ، فقد بعث الى هذين العاهلين بتفصيل دوى عن هذه الجيوش .

وقد أرتب في هذين السلطانين الماسساته الحاره ودموعه المسكوبة ، فاستجابا له بارسال الجنده اليه ، وكان الساع لآحدهما على هذه الجنده رعبه في الكفر عن نصيره ، وأما الآخر فكانت استجابته ناجمة عن رعبه في ضمان سلامه بلده من عزوات الصليبيين . وحماية نفسه في الوقت ذاته من بطشهم .

وبعهد الملكان بارسال العوات المطلوبه اليه ومده بالمساعدة المنشودة ، وقد برهنت النتيجة فيما بعد على ابهما صدقا فيما عاهدا ، وأوفيا بما وعدا .

كان القلق الشديد من هجى الصليبيين مسببا بباغى سيان . ومن ثم دأب على حشد العسكر من الولايات والمدن المجاورة ، واد كان يوقع الحصار بين لحظه وأخرى فانه لم يدحر وسعا في جمع الكير من الميرة والسلاح ، وفى تشجيع أهل المدن وحهم على جلب كل ما يحتاجه صنع الآلات من الحديد والصلب وغير ذلك من المواد الأخرى انى لا غنى عنها فى العادة فى مثل هذه الظروف ، كما ان الأهالى أنفسهم كانوا منحمسين غاية الحماسة فى الحفاظ على سلامة المدينة وأمنها ، ويدلوا كل ما فى طاقهم لجلب كل ما يعنهم ان هم حوصروا ، فلم يدعوا ناحية من نواحي الاقليم الا جابوها وبهوا كل ما حاورهم ، وعادوا محملين بالحبوب والنبيد والزيت وشتى مستلزمات الحياة ، وساقوا امامهم قطعان الماسية والأعنام ، حتى املاّت المدينة بكل ما هو ضرورى من الميرة ، ومن نم استطاعوا

- بعد نظرهم وجهودهم الكثرة - أن يدعموا مركزهم أمام صراوة
الجنس الصليبي القادم عليهم .

أما البلاد التي مر بها الجنس الصليبي فقد هرب منها إلى
أنطاكية كيرون من ذوي المكانة والباسي ، ورازا من وجه فوايا
دون أن يدعوهم أحد لذلك ، وأما فعلوا هذا خوفا على سلامتهم
ورأوا في تحصينات مدينة أنطاكية وقونها ما يستحيل معه
اصحابها . ومن ثم زاد عدد سكانها زيادة عظيمة بهؤلاء الوافدين .
ويقال انه كان من بين الأهالي وجمعات المرتزقة حوالي سبعة أو
سبعة آلاف فارس ، وأكثر من خمسة عشر ألف أو عشرين ألفا
من المساه المدحجين بالسلاح بأهبا للحرب .

- ١٢ -

حين رأى رجالها أنهم قد صباروا فاب فوسين أو أدنى من
أنطاكية ، اجمعوا للساور فيما بينهم ، واقترح بعض الرعماء
- نظرا لغرب دحول النساء - أن يؤحوا حصار المذينة حتى «طاح
الربيع وبرروا هذا التأجيل بأنه سيكون من أصعب الأمور بجمع
العسكر قبل ذلك الوقت ، نظرا لتسبب الجند في الوقت الحالى
في المدن والقلاع المختلفة ، وزادوا على ذلك أنه يجب عليهم انتظار
ما اعززه امبراطور القسطنطينية من ارسال فرقة كبيرة من فوايه ،
كما أنه كان في الطريق اليهم كتائب جديدة قادمة من البلاد الواقعة
فيما وراء الألب ، وأن الحكمة تفضيهم انتظار وصول هذه الجيوش
التي سوف تؤدي إلى زيادة العسكر زيادة هائلة بمكثهم - كما
قالوا - من تحقيق هدفهم المنشود في أسر أكثر .

أما في المصرة التي لا تبارس فيها هذه القواب الحرب فانه
يمكن تسميتها أفساما نذهب كل واحد منها بمفرده دون الآخر
لفضاء النساء فيما حاوره من المناطق التي هي أقل تعريضا للجحوم ،
حتى اذا ما وافى الربيع عاد الجنس وانضم بعضه الى بعض مرة
أخرى ، ويكون رجاله قد اسردوا نساظيم ، وناعبوا للقيام بالأعمال
التي لابد لهم من القيام بها ، كما أن التحول سيكون أودر فوه بسبب
الغلب وما نعمت به من الراحة أثناء فصل الشتاء .

على أن عبرهم رأوا أن هناك ما هو أكثر من ذلك . إلا وهو
الإحداق بالمدينة في الحال في حركه مفاجئة وعلى عر دافع منها ،
وقالوا انه اذا أتيح للأهالي فترة من التقاط الأنفاس فسوف يوفرو
لهم ووب أطول يصرفون فيه لدعم وسائل دفاعهم . وندمج الكاتب
الكثيره التي استدعوها لمؤنهم .

ولقد غلب في هذا الاجتماع التيام رأى الفريق الثائل بوحرب
اشادره الى حصار المدينة وأن الخطر في ارجاء الصال . وأن القواب
التي ترسل للاستكشاف لا تسعى ان تفصل بعضيا عن بعض ،
وذلكما اتعب الآراء جميعا على الرحلة على المدينة في عدايات
الحصار في التو واللحظة .

ومن ثم فقد فوجئوا حينهم يوم ١٨ أكتوبر ورجعوا سطر
مدينة أنطاكية حتى صاروا أمامها ، وعلى الرغم مما قيل من أن
القوات الصليبية التي كانت تحسن اسمعالم السرب كانت تبلغ
ثلاثة آلاف شخص ليس بينهم امرأة ولا طفل . إلا أنه كان من
المستحيل على الجنس أن يحيط بالمدينة احاطه كامله . ذلك لأنه
بالإضافة الى قمم الجبال التي قلنا انها تقع في منطقة الأسوار والتي
لم نبدل أنة محاولة لمطويقها ، فإن هذا الجزء من المدينة مصد من

صفح الجبل الى النهر - وهو جزء أكثر انبساطا - لم يكن فى الامكان الاحداى به بحصار مستمر .

ولقد صحب وصول الجيش الصليبيى والعمل فى اقامه المعسكر كبير من الجلبة ، وكان يخيل للمسمع أن نفخ الأبواى ، وصهيل الخيل ، وقعقة السلاح ، وهى مختلطة بصحات الرجال ، قد بلقبت عنان السماء ، ومع ذلك فقد ساد المدينة صمت مطبق خلال ذلك اليوم بطوله والأبام النالبة لوصول حبشسا . ولم يردد فيها صوت أو تسمح نامة من أى نوع ، حتى لقد كان يخيل للمرء أن المدينة خلت تماما من كل مدافع عنها ، رغم أنه كان يقوم على حراستها أعداد كبيرة من الحرس ، ولديها الكثير من الميرة والمثونة .

- ١٣ -

كان فى هذا القسم من أطاقبه - الواقع فى السهل - خمس بوابات ، واحدة منها فى الموضع الأعلى من الناحية الشرقية - وتعرف الآن ببوابة العديس بولس ، نسبة الى أنه يوجد فى المنحدر الذى فى أعلاها دير مكرس للحوارى المسمى بهذا الاسم . كما يوجد أمامها مباشرة بوابة أخرى تعرف بالبوابة الغربية ويفصلها عنها منطمة تمتد بطول المدينة ، وهى المعروفة الآن ببوابة العديس جورج والتي هى على مقربة من موضع كنيسة هذا الشهيد .

أما من الجانب الشمالى فكانت هناك ثلاثة أبواب تطل جميعها على النهر ، وتعرف العليا منها بباب الكلب ، ويوجد أمامها مباشرة جسر يجتاز المشى ويكمل السور ، وأما الثانى فيعرف الآن باب

الدوق وبيعدان قدر ميل عن النهر ، ويطلق على الثالث اسم باب
الجسر اذ يوجد هنا الجسر الذى يعبر النهر ، وذلك لأن مياه النهر
تلطم الأسوار ولا تبرد عن المدينه فيما بين بوابه الدوق المسار اليها
حالا الواقعه فى المصنف . وبين آخر بوابه فى هذا الجانب .

ولما كان من المسحيل على الجيش الوصول الى هذه البوابه
أو بوابه القديس جورج الا عبر النهر فلم يصرب الحصار على هدير
البابيين وان أحيط بالأبواب الأخر العلويه ، فقام بوهيموند ومن
انضموا الى معسكره منذ البدايه بمحاصرة أعلى هذه البوابات .

وكان حوله - وان كان اسفل منه - عسكر روبرت دوق
نوماندى . وروبرت كوت فلاندرز ، وسبعين كوت بلوا . وهيج
العظيم ، وقد استمر هؤلاء القادة بمن معهم من جماعاتهم النورمانديه
والفرنحيه والبريطانيه فى حصار الناحيه المنتهه من معسكر
بوهيموند الى باب الكلب الذى أحلق به ريموند كوت بولور
وأسمع بوى وغيرهما من النبلاء الذين ساروا تحت قيادتهم مع
حشد كبير من الجاسكون والبروفنساليين والبرجنديين ، وكانت
جموعهم تشغل كافة المنطقه حنى البوابه السامه .

وقد أقام الدوق حودفروى معسكره فى تلك الناحيه الأخره ،
وكان معه أخوه أسماس ، وبلدوين دى هينول وريارد دى نول .
وكونون دى موناج ، وكلهم من الكونتات والمحاربين ذوى الشهرة
المدويه ، بالإضافة الى غيرهم من النبلاء الذين انخرطوا تحت رايه
الدوق منذ البدايه ، فشنغلوا بمن معهم من عساكرهم اللوبارجسين
والفريزيين والسوابيين والسكون والفرنجه والباقاريين كل ما بقى
من الناحيه تقريبا حنى باب الجسر ، وقد وضع هذه القواب على
هيئة مثل ، تمتد رعوسه بين المدينه وبين النهر الذى يفصل

أسوارها ، وبين معسكر العواد الآخرين ، وكانت توجد في هذه
الناحية الأبراج التي أحسبها خشبا عن آخرها وأبخذ مما حصل
عليه منيا مباربس بحمه ويحمي حوله .

كان أهل البلد يطلعون من خلال الفحات الموحدة في الأبراج
والأسوار إلى العسكر ، فأدهشهم يربى أسلحتهم الذي يخطف الأنظار
وأدهلهم نشاطهم في عماهم ساطا لا يعرف الكلل ، وطريقة إسكانهم
من معهم ، ورتيبهم ختام المعسكر . كما امتلأت نفوسهم خوفا مما
ساهدوه من كسرة الجنود وقوتهم ، ولما راوا بقاربون حاضرهم
بماصهم ، والاختار التي يبددهم حاليا بما كانوا يعمون به من
استتباب الأمن نملكهم الفزع على نسائهم وأولادهم وبيوتهم التي
دروا فيها ، وعلى حريتهم وهي أعلى ما يملكه الإنسان ، ورأوا أن
من اختطفهم الموت أسعد حظا منهم لأنهم لم يكابدوا الخطر الشديد
الذي يكابدونه هم من وجودهم في عمرة هذه المصائب ، وهكذا باتوا
يسربون بين يوم وآخر سقوط المدينة وهلاك أهلها ، وذلك لاعتمادهم
الحارم أن حصارا كهذا الحصار الشديد ، يصحبه مل هذه الشدة
والرحم ، لا يمكن أن تسمر بهايه إلا عن دمار المدينة وضبا
حربها .

- ١٤ -

كانت الحاجة إلى حصول من في المعسكر على العلف لخيولهم
والبرة اللازمة لأنفسهم حاملة إياهم على القيام بطلعات متعددة وراء
النهر ، وقد ذهب بهم السير في بعضها إلى مسافات قاصبة ، وكانوا

يرجعون بعد كل خروج سالمين عامين . بسبب استمرار بناء الاعالي داخل المدينة دون أن يجسروا على التجوال فيما حولها ، حتى ألف العسكر العبور عدة مرات في اليوم الواحد رغم أنه لم يكن من المنطاع الغيام بهذا العبور الا سباحه . وسرعان ما تجلب هذه الحقيقة للمحصورين ، فشرعوا من جانبهم في عبور النهر من فوق الجسر ، نازح جهرا ونازه خلسة ، مما أدى الى قدرتهم في أحيان كثيرة الى قتل عدد قليل من رجالنا . أو انجابتهم بالجراح ، لانهم اعتادوا التجول هنا وهناك دون أن يأخذوا حذرهم ، وكانوا يحرقون في أفراد فلال يحا عما يحتاجونه ، وقد استعاد العدو فائدة قصوى من أن النهر كان يصف حجر عرصة كبرى في طريق عودة الصليبيين ، كما أن هذه الصعوبة دأبها هي التي كانت تمنع أهل المعسكر من معاونة أصحابهم وهم يرونهم يفعون في يد العدو ، وأراد القادة التغلب على هذا الموقف فرأوا الخير في بناء برج من أي مادة سوف غتعم . لأنه ان بين مثل هذا البرج نكن مساعدتهم أكثر فعالية في القضاء على أحابيل العدو ، كما انه يساعد العسكر على النجاح في العودة الى مجسماتهم ، دون أن يكيدوا الا خسائر طفيفة ، يضاف الى ذلك أنه يفسح طريقا آمنا ملائما للمشاة اذا ما دعاهم داع الى الخروج لأمر عاجل ، لاسيما ما يتطلب منهم النزول الى الساحل .



كان هناك عدد من المراكب راسيا في النهر وعلى سطح البحيرة التي فوقهم . فربطوا هذه القوارب بعضها الى بعض ربطا محكما ، ثم يسطروا عليها ألواحا سميكة ، ومواد خشبية أخرى تصلح لهذا الغرض ، وأحكموا شدها بعضها الى بعض احكاما كبيرا بحبال مجدولة من الصفصاف ، وبذلك وجد جسر قوى كاف تماما لأن يسمح

في المره الواحده عدة أشخاص يعبرونه جسبا الى جنب ، فكان هذا البناء الخنسي ملائما كل الملاءمة لرحالتنا ، وكان منصوبا قرب معسكر الدوق في مواجهة البوابة التي خصصت له للمرافية ، وعلى مسافه غرب من ميل من الجسر الحجري المتصل بالمدينه ، ولا تزال هذه البوابة التي ذكرناها حالا تسمى ببوابة الدوق لارتباطه بها . اذ كان معسكره يشغل كل الناحية الواقعه بينها وبين الجسر الحديث البناء ، ولم يكن يشاركه في هذا الموضع مشارك .

لم يكن الخطر يهدد الصليبيين من هذا الجسر وحده أو من ناحيه البوابة المنصبة به فحسب ، بل كانت البوابة العليا التي كانت المألمة فيما وراء ذلك ، والمعروفة اليوم بباب الكلب . بعد مصدر خطر حسم يهدد فواننا ، لأنه كان في هذا الموضع - كما قلنا - جسر صخري يمتد فوق مسننعم ويخرج من المدينه ، وقد تكون هذا المستنقع من المياه المتدفقة بلا انقطاع من المنبع الموجود عند البوابة السرمه ، أو بوابة القديس بولس ، وكذلك من المياه الواصلة على الدوام من الروافد الأخرى ، وكثيرا ما جاء عن طريق هذا الجسر غارات جمة في منتصف الليل ، وأخرى فحائية بالنهار ، وكلها تستهدف معسكر كونت تولوز الموكل اليه حراسه نك البوابة ، وكان من عادة العدو أن يفتح البوابة ويصب وابل من السهام تنهاوى كالطر الدفاق ، مما يؤدي الى مصرع الكثيرين . مر رجال الكونت واصابتهم بالجراح ، وكان حل اعماذ الخصم على هذا النوع من الهجوم لأنه يمكنه خير تمكين من النجاة سالما عبر الجسر الى المدينه بعد اتمام غارته ، وقتله من قتل ، بينما لا يستطيع الصليبيون مطاردته الا من هذا الطريق ، ومن ثم فقد كانت الجياد والبغال التي فقدوها كونت تولوز وأسقف بوى وغرهما من الانلاء المرابطين في تلك الناحية تجاوز كثيرا ما فقدته عسكر القادة الآخرين .

أدب الحسائر التي وقعت في صفوف المحاربين الناجية عن هذا الوضع الى استيلاء الهم المقيم على الكونب والأسقف المعظم ، ومن ثم فقد استدعيا رجالهما ، ووجهاهم للحصول على مجنات وآلات حديدية ، وتوحيد جهدهم لتحطيم الجسر ، فلما كان اليوم المحدد لذلك الأمر قدم العرسان وعليهم رردياهم ودروعهم ، وقد عطاوا رؤوسهم بالمعافر ، وتجمعوا عند الجسر ، وحاولوا هدمه بكل ما في طوقهم من قدره لكن هذا البناء الأصم كان أقوى من كل حديد ، فقاومهم واسمعى عليهم ، كما راح الأهالي يعرفلون جهد المسكر اذ يرمونهم بالحجارة ويمطرونهم بوابل من السهام والشباب . فلما رأى الصليبيون فشل أنفسهم في محاولتهم هدمه سئلوا عنها الى أخرى مذكلة لها ، ففرروا اقامة آلة حربية في مواجئة الجسر مع وضع حراسة مسمرة من رجال مسلحين ، لس لهم من عمل سوى صد الهجمات التي يسنها المحاصرون . وجمعوا اذ ذلك كل ما تحتاجه هذه الحطة . كما جاءوا بالعمال ، ولم نكد تمقضى غير أيام فلائل حتى كان العمل قد أنجز تماما على أحسن ما يكون الانجار ، فقد نذل الأعمال جهدا شافا ، وواجهوا الأخطار في حرهم الآلة الى موضعها حتى قامت أمام الجسر كالصرح المرد ، وعمد بها الى حماية الكونت وملاحظته .

فلما رأى البلديون الآله منصوبه الى الاسوار . لم يحجموا عن المخاطره فصبوا آلات رميهم اليها ، وحاولوا اضعاف آلهما التي راحوا يصبون عليها وابلا غير منقطع من فداثهم الحجرية الضخمة ، كما شرع الذين فوق الأسوار والأبراج يعرفون ببالهم وسواها من أنواع السهام ، ويرمون بها رميا شديدا يبقون بها من هم حول الآلة لردوهم عن الجسر .

وهكذا استمر المدافعون الواقفون على الأسوار في سن عارابهم من كل ناحية ، وفي صب وابل من السهام والصخور يأخذ بعضهم بحجر البعص الآخر أملا منهم في رد الصائنين الى الوراء ، ولو قليلا ، على حين اندفع غيرهم لفتح البوابة في كفة تخفيفه اسلولوا فيها على الحرس عموه ، وسفوا طريقهم الى الآلة يقاومون من بعضهم . وسبواهم مسرعة في أيديهم ، وهزحجين من وكلب النهم حمايتها . ثم أسعلوا النار فيها حتى أقالوها رمادا ، حينذاك أدرك رجالنا أنهم لن يقدروا على التقدم ان هم انبعوا هذه الخطه في مواجهه المعائب التي تصادفهم عند الدرج ، ولذلك وما كاد اليوم التالي يطلع حتى كانوا قد اقاموا بواب آلات ، وراحوا يصبون منها وابلا موصولا من العدائف . مؤملين من وراء ذلك أن يضعفوا على الأقل الأسوار والبوابه لمنعوا الأهالي من سن عارابهم العدواني . وحتى لا يجرؤ أحد منهم على الخروج من تلك البوابة طالما أن الآلات مستمرة في عملها ، ولكن لم تكن هذه العمليات لتهدأ قليلا حتى يعاود المحصورون هجماتهم ، ويسببون كثيرا من الأذى لمن اقرب منهم من أهل المعسكر .

غير أن هذه الخطه برهت هي الأخرى على عدم جدواها ، فعند الصليبيون الى اتباع طريقة اقترحها عليهم واحد منهم ، ألا وهي أحد الاحجار الكبيرة وجدوع الاسجار الصلحة التي يعجز لائله من الرجال عن زحزحتها الا بسبق النفس وراحوا يدحرجونها ناحية البناية . وقام بهذا العمل ألف فارس مدرعين تحت الجيش بأجمعه . حيث حملوا هذه الأشياء فوق الجسر ، وجعلوها كومة كبيرة أمام البناية ، فبات إذ ذاك جميع محاولات الأهالي في دفعها بالفلس الذريع وقضت هذه الخطط على كل هجوم فجائي يسنه العدو من هذه البوابة .

وحدث في أحد تلك الأيام أن خرج طائفة من المشاة والفرسان من حينسما ، سلع البلاساته عدا ، وجاورت الجسر الى ما وراءه النماسا للعلف ، ونفروا حربا على عادتهم في ربوع تلك الناحية بحفا عن الأشياء الضرورية ، وكانت حاجتهم الملحة في العيش عن الطعام يضطرهم الى سلوك هذا الطريق الذي اعماهده ، وعادوا سالمين من عدوانهم التي خرجوا منها يبحون عن الميرة حتى وهم محملون بأحمال تقال مما يحاحونه ، ومن ثم اعتدوا ان الحظ سوف يسى في ركبهم على الدوام ، ولم يحظر على بالهم أبدا امكان وقوع حادث لهم ، كملك الأحداث التي بصاحب الخروج في طلب العلف زمن الحرب ، فحاسوا الحذر والاسباه الواحيين .

فلما رأى المواطنون هذه الجماعة أرسلوا منهم حشدا كبيرا لماغسها ، حتى اذا ما عبر الجسر الصحرى اطلقوا بكل ما أوتوا من قوة سطر الصليبين الذين كانوا يحولون هناك دون أن يأخذوا حذرهم ، فأغاروا عليهم ، وقتلوا أكبرهم ، وأما من قدرت لهم النجاة فقد لاذوا بأذيال الفرار .

هرب الصليبون الى الجسر المصنوع من القوارب رحاء الوصول الى المعسكر ، ولكن الجسر كان مزدحما بهم سببهم اليه ، واد ذاك حاول أكبرهم عبوره عن طريق المخاضة ، فابلهم الموح وكان نصيبهم الموت بعد أن كان يراودهم الأمل في النجاة ، وأما من سواهم فقد ندافعت حشودهم الكسفة وبراحوا فسقطوا من أعلى الجسر في البحر ، فصرعتهم الأمواج ، وقذفت بهم الى الأعماق التي فغرت لهم فاما وأبت أن تردهم .

حين سمع الجيش خبر هذه النكبة هب آلاف من الفرسان الى
أسلحتهم وعبروا النهر ، فاعترضهم العدو وهو عائد بعد قتله
الصلبيين فرحاً بما وقع في يده من العنائم ، فهاجمه رجالاً في
الحال ، وراحوا يعصون آثاره في عزم لا يلين ، حتى بلغوا بوابة
المدينة ، وكان الخطب حسماً . وحين رأى أهل البلد اخوانهم
الموطس في هذا الخطر الساعة على الأسى وهم يروحون ما بين مسل
وجريح بحركت قلوبهم عطفاً عليهم ففتحوا الباب ، وجمعوا عبر
الجسر الحجري ، في جموع كئيبه ليد المعونة الى أصدقائهم ، وشنوا
هجوماً شديداً - لم يؤلف منهم من قبل - على فؤادنا التي قاومت
في بداية الأمر مقاومه شديدة ، لكن ما لبس ان تعلبت عليها الجموع
الكئيبه ، فولوا على أدبارهم هاربين ، وجد الخصوم في اثرهم حتى
بلغوا الجسر المصنوع من العوارب ، ومات في هذا القتال كثير من
مشائسنا بحد السيف ، وابتلعت لجة النهر العديد غيرهم ، كما
اضطربت صفوف الفرسان وهم يهربون من العدو وراح بعضهم
يزاحم بعضاً ، فسمطوا هم أيضاً في النهر ، وقد أفلت منهم الدروع
والزرديات والخوذات التي عليهم ، فابلعهم اليم هم وخبولهم ، ولم
يعودوا قط للظهور .

وهكذا كابد رجالنا من الحصار أهوالاً لا نفل عما كان يكابده
من كانوا وراء الأسوار ، ولم يعودوا هادين على التخفي في خروجهم
الى النواحي التي حولهم بل أصبح أمرهم مكشوفاً لأهل البلد الذين
بذلوا من جانبهم كل محاولة لصدهم ، وحدث في نفس الوقت ان
أخذت قوات معادية أخرى تنربص بهم في الغابات وتترصد لهم في
الحقول ، وتنصب لنصيدهم الكمائن التي كثيراً ما صادفت النجاح ،
ونرتب على ذلك أن فقد رجالنا الجرأة على الخروج من معسكرهم ،
أو الذهاب بعيداً في طلب الطعام كما لم يعد المعسكر ذاته مكاناً

آمنا لأن الجميع صياروا في فرغ من ان ساعيتهم على عره القوه
الضحمة - التي قبل أن العدو قد أحد في جمعها من نواح معدده .

هنا قد يساءل الرجل العاقل : أى الحالين كانت أحسن من
غيرها ، وأيها كانت مبعث فرح « حالة الجنس المحاصر أم أولئك
الذين كان المعروض فيهم أن يكونوا محاصرين ؟ » .

- ١٧ -

لو حاولت ان أذكر بالتفصيل الاعوال التي كانت تبع عالما
كل يوم في الأماكن المختلفة بسبب هذا الحصار العنيف الطويل
الأمدة لكان أمرا يطول شرحه وليس موضعه في هذا الموحز البارحي
الذي أحاول أن أنجزه بكل الدقة ، فلنجاوز الأحداث الخاصة وسأج
مجرى الحوادث العامة .

حينما دخل الحصار شهره الثالث مع ثقل الحطوط في هذه
الحرب المستمرة أخذ الطعام في النقص في المعسكر وعانى الجيش
الأمري من قلة المتونة .

في البدء كانت هناك وفرة بالغه الضخامة في كل شيء تمس
الحاجة اليه من طعام الانسان وعلف الجياد ، ونوهم الناس - حريا
على عادة الجهال - أنهم سوف يظلون ناعمين بهذا الوضع السوى .
غير منوقعين أى عناء قد يلهم بهم ، ومن ثم لم يحسنوا التصرف فيما
بين أيديهم من خيرات ، مما نرب علمه ان أنوا في وقت وجيز على
ما لديهم من طعام كان المفروض فيه أن تكفيهم أناما طوالا لو أنهم
الزموا الاعتدال في استهلاكه ، لكن لم يكن هناك حد لاسراف

الجند ، ولم يلزموا العصد الذى هو سمه العلاء ، بل كان تم بدح
سبعه في كل ناحيه ، تعدى ضرورات عيش الأسان الى علف الجياد
ودواب النقل ، ولم يعرفوا الوسط في أى شئ مما نجم عنه أن أصبح
الجيش بأجمعه موشكا على العناء ، وذلك بسبب ما تربى على اشجار
المجاعة من صاؤل عدد المحاربين ، وحيداك نودى في الناس بعد
مجلس عام يصمم جميعا ، وفرروا ينسجم كل الغنائم التى يقع في
أيديهم فسمه عادلة ، وأكبدوا فرارهم هذا باليمن فطعوها على
أنفسهم ، وكونت لذلك عده كئائب فوام كل منها ثلاثمائة أو أربعمائه
رحل ، خرجوا معا وراحوا يدرعون الناحه بأكملها في محاوله مهم
للحصول على الطعام بأى وسيله يقدرون عليها .

واعساد هؤلاء الباحون عن الطعام ان يعودوا وفد فاضت أيديهم
بالأسلاب الكبره ، والغنائم الوفيره ، والمثونه الضخمة ، وكان ذلك
مثل أن يأخذ أهل البلد أنفسهم بمهاجمه هذه الجماعات ووضع
الكماثن لها ، وأيضا ابان الوقت الذى كان فيه الاقليم الذى حولهم
لا يزال غاصا بقطعان الماشيه والاغنام وأحمال الجبوب والشراب
وغير ذلك من العلات ، وكان هذا هو السبب فيما أنشربا اليه من
قبل من وفرة المثونه في المعسكر ، أما الآن فقد غاضت موارد الأراضى
المجاورة ، ونقصت غلاتها ، أضف الى ذلك أن الترك الذين كانت
شوكتهم قد ضعفت من جراء ما استولى عليهم من خوف أذل نفوسهم
عادوا فاستردوا بأسهم وشجاعتهم في الدفاع عما يملكون ، وأصبح
العلاقون يعودون [للمعسكر] صفر الأيدى ، وكثيرا ما كان يحدث
أن يقتل الخارجون عن بكرة أبيهم فلا يبقى منهم أحد يحدث عما
كان مصيرهم .

أخذت الذخائر تقل يوما بعد يوم ، وعمت المجاعة حتى لم
يعد من البسير الحصول بشلنين على الخبز الذى يكفى لوجبة الشخص

في يوم واحد ، وأصبح نيس المعرة أو العجلة ماركين بعد أن كانت
بباع من قبل بحمسة شللات ، ولا تكاد الساسة شللات تكفي لشراء
علف وجبة واحدة للحصان في ليلة واحدة ، وكان الجيش قد حلب
معه أكثر من سبعين ألف حصان لم يسق منها في المعسكر سوى
ألفين أو أقل ، أما البقية فقد هلك بردا ، ونفقت جوعا ، أما ما لزال
منها حيا فقد أخذ عدده في النفاص شسنا فقسنا . وأصابها الهزال
بسبب الجوع والبرد المهلك .

يضاف الى ذلك سرب الرطوبة والعفن الى العسايطط والمحم
حتى لقد هلك الكيرون ممن كانت لا يرال عندهم الأطعمة ، لأنهم
لم يعودوا قادرين على تحمل البرد الشديد ، وليس عندهم من غطاء
يدفع عنهم رمهريه ، وهطلت الأمطار الغريره فاسست الطعام ،
وبعنت الملابس ، ولم يعد مكان يستطيع الحجاج ان يسندوا
رؤوسهم اليه أو يكوموا حاجاتهم فيه .

وقد برىب على هذه الظروف ان نعشى الواء في كسائب
العسكر ، وكان وباء فانلا لم يحدوا معه مكابا يوارون فيه حلف
مواهم ، ولم يستطيعوا اقامة الشعائر الحنائية لهم .

أما الدين كانت دلائل الصحة لا يرال باديه عليهم فقد فروا
خفة حتى لا يفعلوا فريسة لهذا الطاعون المهلك ، فهرب بعضهم الى
لورد بلدوين في الرها ، وبعضهم الآخر الى صليقيا عند حكاممدنها ،
ومضى آخرون غير هؤلاء وهؤلاء الى الواحي التي كانت قد آلت الى
حكم الصليبيين ، ونجم عن رحيل هؤلاء ، وهلاك من قبله الجوع
وأفناهم المرض ، ومن قتلوا بالسيف ان نضال الحيس الى الحد
الذي قل معه عدد الأحماء منهم عن نصف ما كانوا عليه .

تدبر فادة الرب المخلصون ماران على الناس من الحزن ، وفكروا فيما شاهدوه من الأهوال التي ألمت بهم ، ففاضت نفوسهم حسرة ، وتشبعت أكبادهم أسى على هذا الجيش المكوب . فاجتمعوا كدأبهم للمشاور في إيجاد علاج يدفع هذه المصائب المهلكة واسعروضوا مختلف الاقتراحات ، حتى استقر الرأي بهم أخيرا على خروج أعظم قادتهم بطائفة من الجند لشن حملة على أرض العدو ، يسولون فيها على الماشية ، ويهبطون ما يهدرون عليه من الطعام اللام ، على أن نعيم البقية الباقي من الرجال في المعسكر أساء عياب هؤلاء الرجال ، وإن تبدل هذه البعثة الباقية غاية الجهد في حماية الجيش ، وانفقوا على أن يتكلموا مهمه جلب المثونة الى بوهيموند وكونت فلابندر ، وأن يبقى كونت بولوز وأسقف بوى لحراسة المعسكر ، وكان كونت نورماندى غائبا إذ ذاك ، كما كان جود مروى دوق اللورين ملارما للفراس لاصابه بمرض شديد ، فاستصحب القائدان معهما طائفة كافية من الفرسان والجوكر المشاة بعدد ما استطاع الجيش المنهوك امدادهما به ، ودخلوا أرض العدو .

ما كاد المحصورون يعلمون برحيل بوهيموند وكونت فلاندرز ، وبغياب كونت نورماندى ، وبمرض الدوق حتى دبّت فيهم الشجاعة على غير عادتهم ، واغتنموا الفرصة لمهاجمة معسكرنا ، يفسا منهم جميعا بأن نصب هؤلاء القادة انما هو فرصة لا يجوز أن نغلب من أيديهم ، فاستدعوا من المدينة حشدا كبيرا من شتى صنوف الناس واجتمعوا كلهم عند الجسر وكان مدخله مفتوحا . فراح كل واحد منهم يزاحم الآخر ويدافعون في اجتياز النهر : البعض منهم عن طريق الجسر ، والبعض الآخر عن طريق المخاضة السعلى في محاولة

منهم المهاجمة معسكرنا ، ولكن الكونت تصدى لهم بكبيبة من
الفرسان ، فاضطروهم الى الاربداد الى المدينة وقد قعدوا رجلين من
رجالهم .

وحدث في أثناء هذا الخروج أن حاول بعض فرساننا الاسلاء
على جواد كبا براكبه فسقط عنه ، فلما رأى الحشد العيس - الذى
لم يعد يحسن التفكير - هذا المطر خيل الوهم لهم أن الفرسان قد
فروا خوفا ، ومن ثم قعد لادوا هم أبصا بأذيال الفرار ، وزاحم
بعضهم بعضا عن كعب ، فكان في ذلك هلاكيم بأيديهم ، وسرعان
ما أدرك المواطنون أن الحجاج يولون الاديبار دون أن يدفعهم أحد ،
فاندفعوا مره أخرى فوق الحسر ، وهاموا اليارين بسيوفهم ،
ونلاحموا واياهم ، ففروا منهم فتنقبوهم من الحسر الصخرى حتى
بلعوا حسر المراكب ، وهنا كان الخطب جسيما ، فقد اندفع رجالنا
وزاحم بعضهم بعضا حتى سدوا الطريق على أنفسهم ، فهلك منهم
خمسة عشر فارسا وعشرون من الجند المشاة ، قد هيرت بعضهم
السيوف فصابوا بحددها ، وغرق البعض الآخر في النهر ، فملأ
الفرجة الكرى قلوب الأعداء بهذا النصر فانكفأوا الى المدينة قد
أسكرهم النصر .

- ١٩ -

في هذه الاناء خرج بوهيموند وكونت فلاندرر بموافقة الجميع
على رأس طائفة من الجند ، في حملة لجلب الطعام ، مؤملين أن
يعودوا بوفرة ضخمة من المتونة حتى يبددوا ما نزل بالمعسكر من
الضيق ، وقد أدت غدواهم الحسنة الطالع في أرض العدو لتقليل
تكتباتنا ، لأنهم اسولوا على منزل للعدو راخر تماما بكل ما هو نافع .

وأرسل بوهيموند جماعة من الكشافه الى مختلف النواحي ،
لفصلي أخبار الساحه ، ثم الرجوع اليه بالعزيمة ان نهيا لها العنور
على عسبه ، فلما رحعوا اليه أبأه بعضهم أن عددا كبيرا من الأراك
قد نصبوا خيامهم في تلك الضاحه ، فما كاد يسمع ذلك حتى يادر
فأرسل ضدهم كونت فلاندرز مع حرس قوى ، ثم ما لبث أن مضى
هو ذاته في أثرهم على رأس الجيش الأصلي لمساعدتهم ان كانت
ثمة حاجة الى مثل هذه المساعدة ، ولكن لما كان الكونت رجلا شجاعا
ومحاربا عظيما ، فقد استبسل في مهاجمة الأعداء ، ولم يعد الى
بوهيموند حتى كان قد أفضى من الكفار مائة ، فلدت فيهم بأذيال
الفرار ، وبينما كان راجعا الى الجيش الكبير مجللا بالنصر ، جاءه
الكشافه الآخرون وأخبروه أن حوه من العدو نزيد عن سابقها في
لفصلي أخبار الساحه ، ثم الرجوع اليه بالغنيمه ان نهيا لها العنور على
العدد والباس نقتدم من ناحية أخرى ، فبعث لصددهم طائفة مع
الكوت ، ثم مضى هو ببقية عسكره وراءه ليكون على أهبة ليجده
ان اسئلزم الأمر النجده ، وشاب رحمة الرب السى كاتب هدى
لقوانا - أن يتردى العدو في بعض الشعاب الصسقة فانكأ راجعا
هاربا ، اد أدرك ان لى بجدى الأفواس ولا السهام نعا في هذا
العنال ، ولكن سيكون السيف هو العصيل في هذا الصراع وجها
لوجه ، وهو نوع من القمال لسس بالمألوف عند العدو الذى ولى حسندا
على ادباره فارا فجد الصليبيون في نعقبه مسافة ميلين ، وأوردوا
الكثيرين من رجاله حنهم ، ثم عاد رجالنا الى معسكرهم سالمين
عانين ، وجاءوا معهم - كرمز لانتصارهم - بالكثير من الجبال والبغال
وغيرها من الأسلاب ، ومجمل العول أنهم عادوا بكل ضروب الغنائم
الى استولوا عليها من شتى نواحي الاقليم المحيط بهم :

ولقد بث نجاحهم الفرحة العظمى في نفوس اخوانهم الحجاج ،
وأناح لهم الفرصة للاستجمام وان كانت قصيرة يسنريحون فيها من

بعضهم ، على أن الغنم - مع هذا كله لم تكن صخمة جدا - بيد
أنها كانت على أنه حال كافة ليمون حيوعهم ولو لصنع أيام
فلائل ، ومن ثم فانه لم يهنا للجش أن يخلص تماما من مباعه .

- ٢٠ -

وحاء في هذا الوقت من أرض رومانيا (١) حبر محزون ملؤه السجو
والعزع ، فبب الذعر في أفئدة الحمص وزاد من قسوة وضعهم
الباعث على البأس .

لقد كان الحبر الذى ثبتت صحته كما يلى : -

كان هناك رجل شديد السطوة ربيع المكانة في قومه يدعى
رفين (وهو ابن ملك الدنركين) ، قد جمع الى كرم الحسب حسن
الحلق ، وبهاء الطلعة ، لكنه ، كان يتحرق شوقا للقيام بنفس هذا
الحج ، فأسرع ليساعد في حصار أطاكنة على رأس ألف وحسمائه
شباب من نفس الأمة خرجوا وعليهم من السلاح أحسنه ، واذ كانت
مفادربه مملكة أبيه بعد فترة من خروج الآخرين فقد راح يسرع
الخطى ما وسعه الاسراع ، عساه يمكن هو ومن تبعه من الانضمام
الى الكتائب التى سبقه ، غير أنه اشغل بأمور خاصة به عاقت
خطاه وعجز عن مقالبها ، وكان أملاه ان يغلب عليها متأخر ، فسار
وحده على رأس قواته الخاصة من غير حراسة من أى احد من القادة
الآخرين ، واقتفى أثر من سبقوه ، فبلغ القسطنطينة الى رحب

(١) لعل يقصد به حرافا آسيا الصغرى .

به امبراطورها أعظم ترحيب ، ثم تابع سيره حتى بلغ بيفيه سالما ، ثم أخذ المسير نحو الجيش فدخل أرض آسيا الصغرى في جميع خاصته ، وعسكر دون أن يأخذ حذره - بين مدينتي فيليو ميلنام و ديرما ، فخرج عليه قوة كبيرة من الأتراك ليلا وباعسه فحاه ، وأحده على عره فعليه في فسطاطه ، واسيعظ جماعته للأسف متأخرين على جلبه العدو المغرب ، فهبوا لحمل سلاحهم ولكن كان الوقت قد فاب اذ هاجبهم العدو قبل ان يأخذوا أهبثهم تماما لصدده وفك بهم جميعا وان كانوا رغم ذلك فاموه مقاومه بطوليه طويله ، وأحرز العدو النصر ، ولكنه نصر ملطخ بالدماء ، وبذلك لم يضع رجال [رعين] بأرواحهم هباء .

- ٢١ -

كان الامبراطور كما قلنا من قبل عين نانكيوس نائبا عنه ، ومرسدا للحجاج أساء رخصهم ، فطل حتى هذه اللحظة مصاحبا للعسكر الحجاج ، أما الآن وقد رأى المصاعب المحدقة بهم فقد صاوره الخوف - لجبن طبعه - الا يستمر القادة في حجهم .

وتوقع يوما يهلك فيه الجيش كله بسيوف الأعداء ، ومن ثم جاء الى مجلس اجتماع فيه القادة ، واجتهد غاية الاجتهاد ليجمعه على النخلي عن الحصار ، ونوجيه الجيش كله الى المدن واللاع القرية منهم لأنهم واجدون فيها المئونة بوفرة رائدة كما انهم يستطيعون هنا ان يسمروا في مضايقة أهل أنطاكية لأن الامبراطور كان قد جمع لمساعدتهم حشودا من أهم شتى بلغت آلاف لا يحصيها العد وأعدما كي تصلهم مع مطلع الربيع ، وأضاف تاتبكيوس الى ذلك

انه لما كان قد عزم منذ البدايه على أن يشاطرهم سابعهم ، وأن يكون معهم فى السراء والضراء ، وفى العسر واليسر فانه يريد أن يقوم بمهمة أكبر مما عهد القيام بها ، وسيسهدف الصالح العام ، فذكر لهم أن قصده هو أن يذهب لحطه الى الامبراطور لحت الجيش الامبراطورى على الاسراع ، وان يعد المثونه اللارمة من الطعام ليجملها معه من الساحية التى على هذا الجانب من المدينة فلم يعارضه أحد من قادسا ولم يرفضوا اقتراحه ، رغم أنهم كانوا يدركون منذ الوهلة الأولى مكر نابيكوس وخيائسه التى حاول سترها بما زعمه لهم من دعوى بحملهم على تصديقه ذلك أنه نرك معسكره وجاسا غير صئيل من اتناعه لم يئسصحبهم معه ، والحق أنه لم يفعل ذلك الا لأنه لم يكن نعا بما فيه سلامهم أو ربما لانه أوعز اليهم سرا أن يرحلوا فى أثره ، وحمل بسنه وبينهم موعدا يوما يلقاهم فبه عند مكان حدده لهم .

ورحل نابيكوس مدعيا أنه عائد اليهم عن قريب ، لكنه لم يأت بعد ذلك أبدا ، فدل ذلك على لؤم نفسه ، وخبث طويته ، وبكته لعنه وأنه بذلك يستحق الموت الأبدى .

لعد كان رحيله سابقه مؤذية فلم يعد القادرون على السئلى خلسه من المعسكر يعبأون بما قطعوه على أنفسهم من الإيمان ولا بكرنون بالعهود القوية التى أخذوها على أنفسهم منذ البداية .

وكانت المجاعة فى نفس الوقت تزداد افحاشا ونعسيا ، وعجز القاده عن ايجاد حل بات ينقذهم من هذا السر المستطير ، فنجحوا من بسهم جماعة انفعوا على أن يرحر منهم كل اثنين معا مرة بعد الأخرى بعوات كبيره الى أرض العدو ، وغالبا كانوا يعودون الى قومهم منصرين ، وان لم يغموا شئنا وليس معهم شئ من الميرة التى كانت حاجتهم اليها ملحة بل يعودون صعر الأيدي ، ذلك أنه كان قد نردد

بين العدو نبأ اعتياد خروج الصليبيين وشبهم الهجمات ، فبادر الأعداء
لنقل قطعاتهم ومواشيهم وغيرها مما يملكون من صوف الطيور الى
الجبال التي لم يكن ثم سبل لافئحامها ، ولم يكن الصليبيون قادرين
على التوغل في تلك النوحى البعيدة التي اعصم خصومهم بها ، وحس
لو قدر لهم أن يجحوا في الوصول اليها فانه لم يكن من الهين أن
يغنموا شيئا .

- ٢٢ -

كانت المجاعة اذ ذاك تزداد تفشيا وشدة في الجيش يوما بعد
يوم مما نجم عنها انتشار الطاعون وكثير من الأمراض الأخرى ،
ونسب أصحاب السن الكبيرة وأهل الحيرة الواسعة هذه الأموال
الى خطايا الناس ، وان الرب استنشاط غضبا منهم ، وحق له أن
يغضب ، فصب سوط عذابه على أطقاله المارقين لذلك اجتمعوا
فبما بينهم للساور فيما يفعلون ، وخافوا الله كأنه أمامهم يرويه
رؤيا العين ، وشرعوا يتحاورون فيما يجب عليهم ، قرأوا أن يبادروا
بالتكفير عن آثامهم واعلان نوبتهم الصدوق ، ولارحوع عن أخطاء
الماضى ، وتجنب الوقوع في مثلها في المستقبل ، مؤملين من وراء
ذلك أن يغفوا عصب الرب . واذ ذاك قام صاحب الشرع فيهم أسف
بوى نائب الكنيسة الرسولية وسواه من كبار رجال الدين أحباب
الرب ، واجمعوا الرأى على مطالبة الجيش كله وأمراته العلمانيين
بصيام ثلاثة أيام عسى أن يكون تعذيبهم الجسد مؤديا الى شدة
عزائمهم ، فلما فعلوا ذلك مخلصين صمموا على تطهير المعسكر من
كل عاهرة وامرأة كريمة السعة ، وجعلوا الاعدام عقوبة للفحشاء
والفجور بنسبى أنواعه ، وصدر قرار الحرمان على المجان والسكيرين،

ووقع تحت طائلة هذا العقاب شتى أنواع ألعاب العمار والفسم
بالأيمان الكاذبة والتطفيف في الكيل والعش في المفايس ، وكل
صروب الاحسال من سرقة العير ، ونهبهم ، وسلبهم .

ولما تقررت هذه العواعد ووفى عليها بالاحماع عينوا مصاه
وكلوا اليهم مراقبه هذه الآنام ، ومحوهم كل السلطة في الكشف
عن أصحابها ، وابرال العقاب بهم مما لبسوا أن وجدوا بعد قليل
جماعة شجبت هذه القواين ، فلما قامت البينة على هؤلاء الخطاه
سهر بهم شهيرا قاسيا ، وأدانهم الفضاة ، وحكموا عليهم بأقصى
ما يعصى به العاون تمعا لنوع الجريمة التي ارتكها الواحد منهم .
فارتدع سواهم وكفوا عن اضراف جرائم كهذه الحرائم .

وهكذا عاد الناس برضوان الله ورحمه يجنون ثمار الحياه
الطاهره وهذا عصب الرب عليهم ، وبجلى هذا في أن أحد اللورد
حود فروي - الذي كان وحده أشبه بدعامة الجيش كله - في المعافاة
واسرداد صحبه تاما ، ونعافى من وعكه الحاده التي آذبه طويلا
بسبب الجرح الذي أصابه من الدب في بسنديا من صواحي
أنطاكية ، وكان شفاؤه عزا كبيرا للمحاربين في محنتهم .

- ٢٣ -

ترددت في هذه الأثناء اشاعات وأخبار رن صداها قويا في
كافة أنحاء المشرق ، وجاورته حتى بلغت ممالك الجنوب والشعوب
الأخرى الخارجة مفادها أن قوات كبيرة من الصليبيين زحف حو
بلغت أبواب أنطاكية وأنهم كانوا يدا واحدة في حصارهم إياها

فخاف كل حاكم على بلده ، وباروا ، قاندهس الجواسيس يسئلون الى جيشنا الوافد للوقوف على التفاصيل الدقيقة حول أسلوب هذا مزودين بالنفاريير عن أحوال المعسكر الصليبي الى من دسوهم علينا ، ثم يحل سواهم مكانهم لنفس العرض ، ولم يكن دون أن يتعرف عليهم أحد لأنهم كانوا يعمون عده لغات ، فرعم البعض منهم أنهم اغريق ويزعم سواهم أنهم سريان ، ويدعى غيرهم أنهم من الأرمن ، ويصطنع جميعهم فى يسر وسهولة ما لهذه الأمم من خصائص فى لهجتها وعاداتها وزيتها .

لذلك اجتمع الفادة للنظر فيما ينبغى عليهم اخاذه لبايى السلامة العامة من هذه الناحية ، ولم يكن من اليسر اخراج هؤلاء الجواسيس من المعسكر لأنهم كانوا قل ان يختلفوا - الا نادرا - عن أهل هذه الأمم التى ذكرناها : لغة وعادات وتقاليده ، فرأى القادة أن يوقعوا ما يرون من عقاب على أفراد فلائذ فقط ، حتى يدفعوا تماما على الاجراءات التى يتم اخاذاها ضدهم جميعا .

كان هناك ما يدعو هؤلاء الزعماء الى النحوف من مغبة معرفه الكبريين بأخبارنا ، والى ما ينتخذونه حيال هؤلاء الناس فبنسامع بما اتخذوا من يفلونه الى العدو رعبه فى الاضرار بالصليبيين ، واذ بدا للزعماء صعوبة الوصول الى ما يمنع هذه المكائده منعا بانا فقد قام يوهيموند - ذو الذهن الباقب والعكر الوفاة خطيبا فى الزعماء قائلا لهم : -

« سادتى وأخوتى : خلوا مسئولية هذا الموضوع كلها على عاتقى ، وكلوها الى فائى بعون الله واجد لها العلاج الباجع » .

فوافقوه على ما سألهم وانفض سامرهم ، وعاد كل واحد منهم الى معسكره ، وما كاد الليل يرخى سدوله على المعسكر ويستعدون

لإعداد العشاء ، حتى قام بوهيموند - وهو ذاكر ما فعله على نفسه من عهد - وأمر بإحضار بعض الأسرى من الترك إلى مجلسه هذا ، وأسلمهم إلى الجلاد أمرا إياه بشيئهم ، ثم أوفد نارا عطيمه كما لو كان يهيئ العشاء ، وأمر بفصل هذه الأجساد ثم سبها على النار ، وألقى بمجلساته إلى رجاله أن لو سألهم سائل عن معنى الذي يرون أجابوه بأن الأمراء فرروا من الآن فصاعدا أن ترود موائد القادة بلحوم جميع الأعداء والحواسيس ، بعد طهيها على هذه الصورة .

وانشرت في جميع أرجاء الجيش أخبار هذه الإحرااء التي اتخذها بوهيموند في معسكره فسابق الجميع إلى فسطاطه في في دهشة ليشاهدوا هذه الحطة الجديدة . وبملك الفرع من كان بالمعسكر من الجواسيس ، وأيموا أن ما ظنوه أساعه صار واقعا ، وأدركوا ما سوف يؤول إليه مصيرهم فعادروا المعسكر في لحظتهم هذه ، وعادوا إلى بلادهم من حيب أنوا وأحبروا ساداتهم الدين كانوا قد بعوا بهم أن لنس لامة [الفرنجة] مبل في الوحسة بين الأمم بل ولا بين الحيوانات المعرسة ، فهم قوم لا يقنعون بإحلال مدر عدوهم وفلاعه ، ولا يكفهم أن يعنموا سى أنواع الماع والرمي بخصومهم في السجون أو نعدبهم أو فلهم ، بل أن هؤلاء الصليبيين يسعون كذلك لاء بطونهم بلحم عدوهم ، ولحق شحمه .

وانشرت هذه الشائعات وأمالها ، وتوغل حتى أقصى بلاد المشرق ، فلب الذعر في نفوس جميع الأمم ، يسنوى في ذلك من قرب منها ومن بعد ، كما استولى الخوف على كل مدينة أنطاكية وارتعدت أوصالها فرقا وفزعاً من وحشية هذه الإحرااء ، وهكذا أدت إحرااءات بوهيموند إلى التخلص من شر الحواسيس الذين كانوا طاعونا ، وأصبحت خططنا مصونة قل أن يعرف العدو شئنا عنها .

بصاف الى ذلك أن خليفة مصر - وهو أقوى السلاطين المارفين بسبب كثرة ما لديه من المال والرجال - كان قد أرسل رسله الى فاننا ، وبتلخص أسباب بعثه اياهم الى وجود عداوة متأصلة وعميقة الجذور منذ سنوات طويلة بين أهل المشرق والمصريين ، وهي عداوة ناجمة عن اختلاف معتقداتهم الدينية بعضها عن بعض ، ومنايه مذهب الواحد منهم للمذهب الآخر ، وطلب هذه الكراهية دون انقطاع حتى يوما هذا ، ومن ثم طلعت هاتان الملكتان بحارب كل منهما الأخرى حربا لا هوادة فيها ، وطلب المنافسة بينهما موصولة فكاتب كل منهما نفسه الى مد حدودها على حساب الأخرى ، كما بينا ذلك بدقة فى الكتاب الأول من هذا التاريخ ، ونأرجحت السادة بينهما على مدى الأيام ، فكانت تارة لهذه وتارة لتلك ، ونكون النتيجة أن ما يرداد فى رفعة أملاك واحد منهما ببعض ماله من أراضي الأخرى .

أما الآن فقد كانت جميع البلاد المسندة من مصر الى اللادوية الشام (ونقدر بمسيرة ثلاثين يوما) تحت حكم خليفة مصر ، ولكن حدث قبل ذلك أن قام سلطان فارس - كما ذكرنا آنفا - واسولى قبل مقدم الصليبيين على أنطاكية المناخمة لحدود المملكة المصرية - كما أحبل البلاد الممتدة حتى مضيق السفور ، وكان حاكم مصر ينظر بعين الريبة الى كل توسع من جانب الفرس أو الترك على السواء ومن ثم كانت مفرحة بالغة حين جاءته الأخبار بضياع نقبة من يد قلع أرسلان ، وبهزيمة جيشه فيها ، وأتلج صدره ما علمه من قيام الصليبيين بحصار أنطاكية ، وعد كل خسارة تصيب الأتراك مكسبا له ، ورأى أن المصائب التى تلم بهم نعمل على استنقاذ أمه وأمن رعاياه ، وخاف أن تؤدى أهوال طول الحصار الى فتل

رجالنا ، ومن ثم بعث بسفرائه ورجال من حاشيته الى رعماننا .
يحملون اليهم رجاءه فى أن يستمروا فى حصارهم الذى فرضوه على
أنطاكية ، وعهد الى مندوبيه أن يؤكدوا للصليبيين أن مولاهم السلطان
سوف يعينهم بالجند والذخيرة . كما حاول هؤلاء السعراء أيضا
كسب الزعماء وحملهم على عقد معاهدة صداقة بين الطرفين .

وأطاع الرسل أمر مولاهم طاعة صادقة وركبوا البحر فوصلوا
الى المعسكر الصليبي . وهم أحرص ما يكونون على أداء المهمة التى
حملوها ، فنلقاهم زعماء جيشنا بما يليق بهم من الحفاوة والنبجيل ،
وعقدوا معهم عدة اجتماعات ، ليسيحوا لهم العرصه لابلأغ رسالهم .

وأعجب المعونون بما رأوه من رجالنا وكثرة عددهم ووفره
سلاحهم وقوة صبرهم على تحمل الشدائد . كما املأت قلوبهم حمزا
من هذا الجيش ذى القوة المتين . لما أحسوه فى فرارة أنفسهم بذا
يمكن ان يحتب فى المستقبل مما قد سعرض له مولاهم من تجربة
مريرة وهو يحاول سرا نزع قوة واحلال أخرى مكانها .

ومجمل القول أنه بعد أن تمكن الصليبيون بفضل الله القدير
من فتح أنطاكية ، وردھا الى العقيدة المسيحية وحریتھا الأولى
أن تحررت كل البلاد الممتدة من تلك المدينة حتى حدود مصر القریة
من غزة ، وهى بلاد تقدر مساحتها بمسيرة خمسة عشر يوما ، وقد
أصبحت الآن فى أيدي الشعب المؤمن .

هنا ينتهى الكتاب الرابع

الكتاب الخامس

حصار أنطاكية واحتلالها

فصول الكتاب الخامس

- ١ - أهل أنطاكية يطلبون من جيرانهم مساعدتهم
فيسنجييون لندائهم ويعسكرون حول حارم .
- ٢ - فاده جيشا يركون الرجالة وراهم لحماية
المعسكر ويزحفون بالخالة ضد العدو
ويعودون منصرين .
- ٣ - ألفزع الأكبر يستولى على المواطنين لسماعهم
بنكبة حلفائهم .
- ٤ - زعماؤنا يشيدون حصنا لهم ، ويصل الى
الميناء سفن من جنسوة ، فيسرع الناس الى

الشاطيء فيقع بعضهم في كمين من الكمان
فيهلكون .

٥ - خطة رائعة للدوق ثارا لهذه التكة العادة .

٦ - العدو يعود مكللا بالصر ولكن سيوف
الصلبيين تنوشه عند مدخل المدينة فيهلك
الفان من رجاله ويوسط الدوق فارسا كافرا .

٧ - رجالنا يقيمون مناسا على رأس الجسر
ويرسلون الى السفن [الجنوية] ما يدل على
انتصارهم .

٨ - احاطة المدينة بقلعة جديده اقيمت في مواجهة
الباب الغربى .

٩ - العسكر الذين كانوا قد تشردوا هما وهناك
يعودون الى الجيش ، ويرسل بلدوين الهدايا
من الرها الى كل واحد من الزعماء .

١٠ - عندما ينشر فى المعسكر خبر اقتراب جيش
العدو يدعى سيفن كونت بلوا المرض ويمضى
الى الميناء معزما عدم العودة .

١١ - وصف حال أنطاكية ، ووصف الصداقه التي
قامت بين بوهيموند وبين [فيروز] أحد
مسيحيى المدينة .

١٢ - المؤامرة التي تمت على يد الرسل بين بوهيموند
وبين ذلك الرجل الوفى [فيروز] .

١٣ - بوهيموند يبذل جهودا سافه ليتسلم وحده
المدينة حين استسلامها فيوافق الزعماء
باستثناء كوث بولور .

١٤ - الحلفاء [المسلمون] يحاصرون الرها اساء
رحمهم لنجده أنطاكية لكنهم يضطرون ازا.
مقاومة بلدوين الشديدة الى الارتداد عمر
الفلوات دون ان يكتب لهم النجاح .

١٥ - المسيحيون يسعرون بالفرع الشديد بسبب
اقتراب العدو ويرسلون الكشافة للاستطلاع .

١٦ - الزعماء يجمعون لبادل الراى فيما بينهم
وبوهيموند يعلن السر الذى اسودعه اياه
صديقه فيروز .

١٧ - الزعماء يسألون عن المدينة لبوهيموند عن
طيب خاطر فيقوم هو بمفاوضة صديقه [فيروز]
فى السر بشأن تسليمها اليه .

١٨ - الاهالى يشكون فى فيروز فيعلن براءه ساحنه
امام والى المدينة .

١٩ - وصف ما كان يكابده مسيحيو أنطاكية من
الارهاب فى القيام بأعمال كبره يرو بها
كاهلهم وكيف فشلت المذبحة التى دبرت
للقضاء عليهم .

٢٠ - الجنود [الصليبيون] يغادر معسكرهم
تنفيذا لخطه فيروز مع عزيمهم على العودة
ليلا .

٢١ - بوهيموند يوسل الى صديقه كى يم ما بداه
فيعد فيروز الى قتل أخيه لمخالفه اياه ويدخل
الصلبيين الى المدينة بواسطة سلم من الجبال .

٢٢ - المهاجمون يسمولون على أحد المداحل ويفتحون
الأبواب ، ويندفع العسكر الذين شاركوا في
هذه الحطة الى داخل المدينة ، ويم الاسلاء
على أنطاكية عنوه .

٢٣ - الأهمالي يريدون الى القلعة اما ياعى سيان فيلامى
مصرعه خارج الأسوار أثناء محاوله الهرب
وهلاك الكيريين لسقوطهم من الجبل .

★★★

هنا يبدأ الكتاب الخامس حصار أنطاكية واحتلالها

- ١ -

فى نفس هذا الوقت كان أهل أنطاكية وواليتهم فى اقصى حالات الدعر بسبب الظروف التى يعيشون فيها . ولم يفهم سده سجر الحجاج من المشقة التى يحملوها . مع ما يربهم على ما بيدهم من عمل ، وعدم انصرافهم عن مسروعاتهم رغم وطاء الظروف العاسية من الجوع والبرد المارس ، بل لقد حرى العكس من ذلك اذ طل هؤلاء الصليبيون - رغم ما عيهم الجمة - ما يرين على السر قدما معزم ثابت نحو تحقيق الهدف الذى وضعوه نصب أعينهم .

وراح المواطنون - نظرا لما هم فيه من الشدة - سعيون بالكتب والرسائل . واحدة نلو الاخرى الى من حاورهم من الأمراء ، يسألونهم المادرة الى نجدة احوانهم . ويدلونهم على أجدى السبل لأداء هذه المساعدة ألا وهى أن يدعوا حلفاءهم يوجهون الى المدينة ويستخفون هم فى كمن حتى تشبك المواطنون - كعاديتهم - فى قتال العدو عند الجسر ثم يركوبهم منصرفين الى القتال فى هذا المكان ، وحين يكون من بداخل أنطاكية مسفرقين تماما فى تلك المواجهة . يخرج أهل الكنائس من كنائسهم ويبيعون الصليبيين الذين يكرهون من عر حرس بحرسهم ، فتقعون تحت وطأة الهجوم

عليهم من الأمام والحلف في آن واحد ، فلا ينسب لأحد منهم
الحياه من الموت .

ولبي هذه الاستغاثه جيش كيف من أهل حلب وشيرير
وحماه وحصن ومنبج وغيرها من المدن المجاوره ، وخرجوا
في سكون بالغ وصمت مطلق - حسب الأوامر التي صدرت اليهم -
حتى فاربوا مدينه « حارم » التي لا تبعد عن أنطاكية بأكثر من
أربعة عسر ميلا وضربوا معسكرانهم أنباء اشعالهم بالهجوم على
المدينه ، غير أن المحاصرين من سكان الناحية ، والذين طالما ساعدوا
شعبنا . أحبروا القاده بأمراب هذا العسكر ، وشرحوا لهم
أوضاعه . فلما بلغهم الدبر اجمعوا للنساور فيما يفعلون في هذا
الوضع . فانفق الرأي منهم أخيرا على أن يقتنموا فرصه دخول الليل
فيطلق سرا كل من بالجيش من الفرسان أصحاب الجياد الصالحة
للخده . وبربون صغودهم للفعال خلف أعلام قادتهم . على أن
يبقى الرجالة في الوقت ذاته لحمايه المعسكر حتى يعود رؤسائهم
الذين حرحوا امثالا لأمر الرب .

- ٢ -

لم يكد الليل يسدل طنبه على الكون حتى غادر الزعماء المدينه
حسب الاتفاق ، فساروا على الجسر المصنوع من القوارب ، ومعهم
سبعمائه فارس ، حتى صاروا قرب مكان تبعد ميلا من هنا ، وهو
واقع بين نهر العاص والبحيره التي أشرت اليها في وصفى المدينه ،
فأقام الجند هنا هذه الليله مستجمين ، دون أن يعلم العدو بخسر
تقدمنا هذا ، ولكن رجاله عبروا النهر هم أيضا في نفس الليله عن
طريق الحسر الأعلى .

★ ★ ★

على أنه لم نكد طلّاع نهار اليوم السّالّي بطهر في الامق حسي أعد
الصليسيون أسلحتهم وفسموا كائنهم سب فري جعلوا كل واحده
ميا تحت قيادة رئيس معين كانوا قد انعموا عليه من قبل .
وأما الترك فقد اتخذوا مكانهم في ناحية من الصحابه ، لأنهم علموا
من كسافهم أنّ جماعتنا راحه عليهم ، وقد أرسلوا أمامهم فرسين
من العسكر حرسا للجيش الرئيسى الذى كان يتبعهم .

لم يكن مع الصليبيين - كما دنا - الا فرابه سعمائه رجل
ونسأت الاراده الالهية أن يعسم هؤلاء أنفسهم الى كائب حسب
ما يقتضيه أصول الحرب ، فكان يحيل لرائهم أنهم آلاف مؤلفة
من فواب اضافيه قد بعنّها لهم السماء .

ولما أحد عسكر العدو في القدم والرحف جماعه نلو جماعه ،
شرع من كانوا في الصفوف الامامه في سس هجوم عسف على
خطوطنا ، وراحوا يرمونها بوابل هبان من السهام ، ثم يريدون في
الحال . فلم يعبأ حودنا بهجومهم . بل رجعوا عليهم . وفسربوا
منهم كل الاقرب ، وكروا عليهم مسرعين مسوقهم وشجاعين ،
فسعوا لأنفسهم طريقا الى عدو عبيدتهم . والصفوف مسرعه في
أيديهم فاضطرب صفوفهم وداح بعضهم بعضا . واحلظ حائلهم
ببابهم وأحبط بهم في بعة كات البحيره فيها على أحد حاسهم .
والنهر على الحاسب الآخر ، وفقد الترك حريه المحرك فمحروا عن
استعمال فنوبهم المألوفة من الرسق بالسهام فالارنداد لكنهم
بجمعوا خوفا من أن تنوشهم السيوف ولم يعودوا قادرين على
تحمل الضغط الذى مارسه الصليسيون عليهم . وسرعان ما أبعوا
أن أملهم الوحيد في السلامه انما يكون في فرارهم . فانقلبوا على
أعقابهم عاربين ، فجذ رجالنا في بعضهم وقد ملكهم الحماسه ،
حتى بلغوا مدينة « حارم » التى كات تعد عن سباحة المعركة
عشرة أميال ، واستمر القتل في العدو أثناء ارنداده .

ولما رأى أهل البلد أن الدائرة قد دارت على عسكرهم الذى هلك معظمه بسوف الصليبيين المنتصرين ، خافوا البقاء فى القلعة بعد هذه النكبة التى آلت بأصدها فائهم . فأشعلوا النار فى المكان ، ولادوا فرارا .

غير أن الأرض سكان هذه المنطفة ، وغيرهم من البصارى الذين كان الكيرون منهم يعطون تلك الناحية ، استولوا على المكان ، وأسلموه فى الحال الى فادنا قبل عودتهم الى المعسكر . ولقد هلك فى هذا اليوم فراه ألف من رجال العدو ، فكاتب بشوه الصليبيين عظمه بما جرى . وفرحتهم ظاهرة بما وقع من النصر المزدوج ، الذى بب فيه الشجاعة ، وحمدوا الله على ما آتاهم من فضله ، ثم عادوا الى محبتاتهم حاملين معهم حمسائة رأس من قتلى العدو ، وكميات ضخمة من الأسلاب ، من بينها ألف من الجناد القوية ، كانت ذاب جدوى عظمه لنا .

- ٣ -

ظل أهالى انطاكيه ذلك الليل فى انتظار الساعة المربعة ، وراحوا يسعجلون فى لهفه سروق الفجر بطلعا لهجوم من الخارج يقوم به حلفاؤهم على بصارى المدينه ، فان نم ذلك خرجوا هم من المدينه ملصصين وباعسوا الصليبيين على غفلة منهم ، وكانوا يؤملون أن يؤدى عصر الماعنه التى لم يسعد لها الصليبيون الى دمارهم .

وجاءت الساعة الأخيرة من الليل وقد أخذت السماء شرى بصوء دون أن يظهر أى شيء يدل على تقدم حلفائهم ، ومع ذلك

وقد ذكر كنيستهم أن بعض الرعاة الصليبيين خرجوا كما لو كانوا
ماصين لمواحيهم . ومن ثم جمع المواطنون هوائهم ، واندفعوا
اندفاعا عسقا من الابواب . وطلوا معظم هذا اليوم في مصادمات
سندته مع هؤلاء الصليبيين وأحرقوا أقدامهم حراسهم الذين كانوا
في مواضع عاليه بالمدينة أن هناك جيشا آخذ في الاقتراب ، ومن
ثم اريدوا الى ما وراء الأسوار . وربطوا في الأبراج حلف الممارس
في النواحي المرتفعة من البلد في انتظار الجماعات القادمة ، لأنهم
كانوا لا يدرون ان كان هؤلاء القادمون من الأعداء أم من الحلفاء ،
فلما دنا العسكر من المحاصرين رأوا ملابسهم الحربية وما معهم من
الضائم والأسلاب فعرفوا حقيقتهم . فاستد بهم الفرع منهم وقد
أدركوا أنها القوات الصليبيه عاتده بعد استصارها على الحلفاء
الذين كان المحاصرون يرقبون حضورهم في لهفة . فأسلموا
أنفسهم للبقاء ، فقد تلاشت آمالهم الحسام . ونعمد حيننا من
المدينة ، واطلقوا الى المعسكر ، ثم أمروا بطرح رؤوس مائتين من
الأتراك قبل ان الآلات قدفت بها الى داخل المدينة ، لكي يكون
شاهدا على ما أحرزوا من نصر ، وليريد في مصاعمة آلام العدو
المبرحة .

أما بقية رؤوس القلبي فقد رفعت على ساريات صبوها أمام
المدينة رامين من وراء ذلك أن تكون هذه المناظر المفجعة قذى في
عيون المحصورين فتضاعف همومهم البقلة ، وعرف من روايه
الأسرى الدفقة أن الحلفاء الذين كانوا يجمعون الحصور
لمساعدة أنطاكية قاربوا ثمانية وعشرين ألف مقاتل .

وقد جرى هذا الأمر في اليوم السابع من فبراير عام ١٠٩٧
من مولد السيد المسيح .

فى هذه الأثناء صدق عزم فادنا على تشييد حصص مريح .
أقاموه على رابية مسرفة على معسكر بوهيموند ، راجين من وراء
ذلك أن يفد هذا الحصص الحديد سبدا أمام الترك لو راودتهم
بعوسهم بالاعاره على فواصا مى ساءوا ، فلما فرغ رعمائنا من
تشييده أقاموا به حامية يفظه تمام اليفظه ، فاطمأنت جوانح العسكر
كلهم ، وأحسوا كأنهم داخل مدينة منبجة ، ذات قلعة تكفل أسوارها
لهم الحماية ، وتقهم عادية الهجوم عليهم .

كان هذا المعقل يمح سرمى الفلعه التى شيدت منذ أمد قريب .
كذلك كان يوجد الى الجنوب سور يجاوره مسنقع ، على حين
كان الى الغرب والشمال النهر الذى يجرى معرجا حول أنطاكيه .

وبعد خمسة أشهر من هذا الحصار دخل مصب النهر من
ناحية البحر سفن فادمه من جموة ، محملة بالحجاج والمثونه .
فلما أرسيت حيب وصلب أقامت ، ثم بعث جماعة منها الى المعسكر .
سأل مجيء بعض الزعماء الى الحنوية لتقودوهم فى أمان الى
المعسكر .

وكان العدو يعرف أن قومنا اعتادوا الخروج الى الشاطئ غير
حذرين ، كما كان يدرك ما عليه البحارة من لهفه سديدة للذهاب
الى المعسكر ، فسدد رجاله عليهم جميع الطرق والمسالك ، ونصبوا
الكمان لنصده السابلة الذين لم يحاطوا لأنفسهم ، مما أدى الى
مصرع الكثيرين منهم ، حتى لم يعد أحد يجرؤ بعدئذ على الذهاب
الى المعسكر الا أن يكون فى حراسة مشددة .

وصمم الزعماء في هذا الوقت ذاته على افامه حصص عند رأس
الجسر . مكان مسجد كان لخصومهم ، راجين أن يسد هذا الحصص
الطريق في وجه العدو بعض الشيء ان أراد الوصول الى الحسر .

وحدث أن أعدادا كبيرة من الصليبيين كانوا قد برلوا ناحية
الشاطيء لانجار بعض الأعمال التي كانت لهم هناك ، فلما فرعوا
منها عادوا الى مواضعهم .

وكان الاحبار قد وقع على كل من بوهيموند وكوب تولور
ومعهما لورد ايفراردى بوسيه وكوبت جارييه دى جراى من
الزعماء لمرافقة السفارة المصرية حتى الساحل . على أن يعوموا في
عودتهم بحراسة الحاج(١) الذين وفدوا منذ قريب . والحفاظ على من
خرجوا من معسكرنا ، فلما علم أهل أنطاكية بنزول هؤلاء السراة
من القوم الى الشاطيء بعوا ضدهم أربعة آلاف فارس مدحجين
بالأسلحة الحصفه وعهدوا اليهم بنصب الكمائن ، فاذا خاطر
الصليبيون بالعودة ولم يأخذوا الاحتياطات اللازمة كر عليهم هؤلاء
الفرسان كرة ضارية .

وحدث في اليوم الرابع أن كان الحراس عائدين مستصحبين
معهم عددا كبيرا من الناس ، وكثيرا من دواب الحمل عليها شتى
أنواع الدخيرة دون أن يكون معهم سلاح ، فلم يشعروا الا والعدو
يباغتتهم في بعض الشعاب الضيقة ويسدها عليهم ، وكان
كونت تولوز يسير في المقدمة مع حرس الطليعة ، أما المؤخرة فقد
ركلت حمايتها الى لورد بوهيموند .

(١) المصون بهؤلاء الجماع ، الحرية .

وعلى الرغم من بسالة هؤلاء العاده الجديرين بكل احسرام ،
 الا أنهم لم يستطيعوا - كما أرادوا - السيطرة على من معهم من
 جموع راح بعضا يزاحم بعضا ، كما عجزوا عن مد يد المعونة لهم
 لكن ذلك لم يمنعهم من الصمود طويلا حفاظا على شرفهم وحمايه
 لرفاقهم ، فلما تبين لهم أحيرا عدم جدوى أى مجهود يبذلونه فى
 هذا السبيل وأن هلاك أرواحهم انما يكمن فى ابطائهم تخلوا - بدافع
 من حرصهم على سلامتهم - عن هذا الصراع الذى هو بين طرفين عرب
 متكافئين ، وانقلبوا الى المعسكر بمن استطاع اللحاق بهم ، واذاً ذلك
 بخلى الناس عن دوابهم وماعهم وفروا على وجوعهم الى نواح
 مختلهه ، فانطلق بعضهم الى الغابات ، وهرب البعض الآخر الى
 السلال أما من لم يستعففهم الفرار فقد ساووسهم سوف
 العدو ، فكانت الكبة التى حلت بعواننا فى هذا الموضع حسيمة ،
 وفد وصلتني معلومات شتى عن عدد من هلكوا فى هذا الحادث ،
 وان قالت الأغلبية أنهم كانوا مرابه نلاساته من الجسسين ومن
 مختلف الأعمار .

- ٥ -

فى هذه الاثناء وصل الحبر الى المعسكر بأن القوم الذين كانوا
 راجعين من ناحية البحر قد وقعوا فى كمين نصبه العدو لهم ،
 وأنهم قتلوا جميعا عن بكره أبيهم فى هجمه لم يكونوا يوقعونها ،
 ولم يستطع احد ما أن يخبر عما اذا كان العاده مازلوا أحياء أم أنهم
 صاروا فى عداد الهلكى .

واذا كان القوم جود فروى رجلا جم النشاط ، سريع المبادرة
 الى حمل السلاح ، فقد تفجرت نفسه عطفاً على شعب الرب ،

ونفطر قلبه رحمة بهم حتى لكأنهم أولاد صغار له . ومن ثم اسندعى الرعاء والجند وأمرهم بحمل السلاح في لحطهم هذه ، ثم يعب المادى ينادى في الناس ألا يعيب أحد عن هذا الموقف الخطير والا اسحق الموت . بل يحتم على الجميع ان يتهبوا لأسلحتهم انعاما لدماء احوالهم ، فجميع كافة الجند وكانهم رجل واحد ، ولم يوانوا عن عبسور الجسر المصنوع من العوارب ، ثم فسبهم الدوف الى مجموعات . ورأس عليهم جمعا روبرت كوت بورماندى وكوت فلاندر . وصحح الكبير . وأحاه اساس . وحدد لكل طائفة مكانا لا ينساركها فيه غيرها ، ولا نعداه هي الى سواء . وأمر أن تقف كل جماعة بقياده قائدها .

ثم أخذ الدوف بشرح لهم الوصح بأعصارهم رجالا مدركي لمسئوليتهم ، وأثار حميمهم بكلماته الملهمة اد قال لهم : « لو صح ما فعل اليما من أن أعداء النصرانية . اسما وعبيدا . قد أظهرهم الرب على سادتنا واحونا بسبب آناما ، فالراى عندي أيها الرجال الأمجاد أنه لم يبق لنا الا أن نمحو العار الكبير الذى ألحقوه بسيدنا المسيح . أو بهلك مع من هلكوا . وصدفوى أن لسبب الحياه ولا السلامه أحلى مدافا من الموت او آى ألم من الآلام ان نذهب دم هؤلاء السادة هدرنا فى البرى . ومحال أن نمر هذه المديحه المروعة التى جرت على شعب وهب نفسه للرب دون أن نواجه بانعام عاجل . ويبعدو لي أن أعداء الملة سوف يظفرهم انتصارهم فلا يحتاجون لانفسهم كما حرت عادتهم ، لذلك فابهم لن يترددوا - اعسادا منهم على بأسهم - فى أن يشفوا طريقتهم بين صفوفنا أثناء عودتهم بالاسلاب والغنائم ، واعلموا أن ما نحن فيه من موقف محزن دام حرى بأن يحملنا على مزيد من الحذر . أما المكاسل فبغرى صاحبه بالاهمال .

« فان رأيتم الصواب فيما أقول فهيا بنا نسعد لهم ، وطالما
 كنا على حق فاننا نطمح ان نحرر النصر بواسطة الواحد القوي الذي
 نؤمن به ، ونحارب في سبيله ، فاذا تراءى للعدو أن يعود فيقتحم
 صفوقنا فلنتقابه سطبي سيفونا ، ولتكن ذكرى ما صممه علينا من
 المصائب مذكية مما ما كان عليه آباؤنا من الشجاعة » .



ووقع خطبه [الدوي حودفروي] هذه موقع الرضا من
 نفوسهم واستصوبوها كلهم ، وبينما هم يتدارسون كلامه هذا اذا
 ببوهبوند يطالعهم عائدا من النساطي الى معسكره ، وفي ابره
 الكونت لم يغب دونه الا قليلا .

ورحب الناس برعيهم ترحيبا صادقا لم يستطيعوا سعه أن
 يجسبوا دموعهم من الانهار ، اذ أدركوا أنهم كانوا على وشك أن
 يبعدوا هؤلاء القادة ، ولم يكن الزعماء يعلمون بخطة اللوق حتى
 واقعوه على فكره وصرخوا بوحوب نفعدها .



كان ياعى سيان في هذه الأثناء - رغم علمه بانصار قوايه -
 مشغول الخاطر ، قلق المال بشأن سلامة عودتهم ، لاسيما منذ أن
 عرف أن الجند الذين تركوا المعسكر كانوا أكثر عددا مما جرت
 العادة به ، ومن ثم تودي في الناس جمعا أن يخرج في الحال من
 في المدينة من أهل الخبرة بالحرب والقاديين على حمل السلاح ،
 وأن يجتمعوا عند البوابة القائمة عند الحسر لنجدة أهل البلد
 العائدين ، ان دعت الضرورة الى مل هذه النجدة .

كما أن قوادنا بعوا من ناحيتهم كسافة سقفة الطريق الذي يحمل أن يسلكه العدو في إياه ، إيماناً من هؤلاء النواد بأن الرب لابد أن يمتحنهم النصر .

- ٦ -

لم يوان الصليبيون لحظه في سظيم صفوقهم وروع أعلامهم ، وسما هم يرقبون طلائع الجسس الركي اذا برسلهم قد جاوهم مسرعين ، ينبؤونهم بأن العدو قد رابط على معربه منهم ، فعالت صرخابهم المجنونة نحب ناسا على حمل السلاح والرحف لصدده ، ومن ثم تقدمت الكنائب ما وسعها التندم ضارعة الى السماء أن يعبها ، وزاح كل واحد منهم يشجع رفيقه ، وقام الصاصيون - وفي ذهنهم شهره بطولهم - بهزون الرياح في أيديهم ، وكروا على حصصهم كرة رجل واحد وكفوا ضعتلهم عليه - كملأوف عادتهم - يعالوبه بالسف وجها لوجه ، دون أن يدعوا له فرصه يلفظ فيها أنفاسه انغاما للمصائب التي أنزلها بهم والتي لا رالت عاقفه بأدهابهم ، فما لب العدو أن دارومه سجاعه ، وطار قلبه سعاغا ، وأدبر موليا وجهه سطر الجسر المؤدى الى المدينة ، يسابق كل واحد من رجاله الآخر في الهروب .

على أن دوق اللورين كان قد جابه كثيرا من أسال هذه الأرامب . وكان عسكره قد احلوا موقعا أمام الجسر يقوم بجاهه ربوة عاليه بعض الشيء ، وكان الترك في فرارهم أمام زعمائنا الموقرين أحد رجلين : اما رجل يتعصر فيسقط وهو يحاول بلوع الجسر النماسا للنجاة له هناك ، واما رجل لامحصى له من العودة الى موب مؤكد يلقاه في ساحة المعركة التي كان قد لاذ منها فرارا .

(الحروب الصليبية ج ١) - ٣٢١

واذ كان كونت فلاندر محاربا صديدا ، بارعا كل البراعة
في استعمال السلاح ، فقد خرج بعسكره مصعبا أثر الأعداء في يرم
لاهل شبابه ، ففرق صفوفهم ، وأثرل بهم من الأحوال مثل الذي
أثرلوه من قبل بعسكرنا ، ولم يكن كونت نورماندى أقل سجاعة من
آبائه ، فأبلى البلاء الحسن في هذه الموقعة .

وكان هنا كونت تولوز المحمس لربه ، والى جانبه هيج
العظيم الفخور بما يجرى في عروقه من دم ملكي ، والذي لم يشن
نسب أسره الخريق بأى شين ، وكذلك كونت اوسماس أحو
الدو ، وبلدوين كونت هينولت ، وهيج كوت سب بزل ،
وغيرهم من اهل المكاة - فحملوا جميعهم على العدو حملة صدق ،
وأظهروا من أعمال البطولة ما أزعق قوة المعادين ، فدبحوهم دبح
الحراف ، وكان باغى سبان لما أرسل فوانه للحرب أمر باغلاق
أبواب المدينة من خلفهم ، ليقطع عليهم كل خطة للارتداد ، ساعيا
من وراء ذلك الى مصاعفة ضراوتهم ، وحملهم على المزيد من السند
فى القتال ، معصدا أنه بذلك يسلك أحسن المسالك وأجداها ،
عر أن الخائنه جاءت على غير ما كان يرحوه ، فقد هلك رجاله
الدين لما رأوا احداثنا بهم لم تعد لهم قدرة على صد هجومنا ،
أو الفكاك من ضغط رجالنا عليهم ، فالتمسوا خلاصهم فى الفرار الذى
لا خلاص لهم سواه ، ولكن خانهم هذا الأمل اذ كان الموت لهم
المرصاد ، فتناوش سيوفنا الفارين منهم ، وفرفتهم شر ممزق .

وتردد فى أنحاء المعسكر فرع الأسلحة ، وقعقة السبوف
البراقة ، وصهيل الحمل ، وصراخ الرجال ، واختلط الحابل بالنابل ،
ولولا اختلاف سلاح كل فريق عن الآخر لكانت اقمه غلطة مؤذية
الى الخطر الداهم الذى يحمل فى طياته الهلاك .

ويجمع على أسوار انطاكية وبنو أنراجيا ، بناء المدينة
وبناهي وصغارهم وسبوح البلد ، وكل من ليس عنده قدره على
الدفاع عن نفسه ، شساعدون - من مكابهم الذي يقعون فيه -
المديحة التي بحرى من بحيم ، وعلا بكأؤهم وراحوا نندبون مصارع
أصحابهم ولسان حالهم يقول « ما أسعد من برقى بهم الموت ففص
أرواحهم قبل أن تمسهم هذه الخطوب » .

أما الأمهات اللاتي كن يفاحرن بكنه أولادهن ، فقد أصبحن
موضع الرثاء وصارت العافر مبنى أسعد من كل داب ولد .

ولما رأى ياعى سبان أن الدائرة قد دارت على نومه ، وأن
البقية الباقية منهم لابد سالتة في هذه المديحة التي بترى على
قرب منه ، أمر بسرعة فتح الأبواب حتى يمكن الباقون من جيسه
من دخول المدينة سالمين ، لكنهم تراحموا على الأبواب التي أزيلت
متأريسيها تراحما شديدا . رتعالى ضحججهم وصراخهم ، ذلك لأن
الفارين الذين كان الحصم يمتد بهم حاولوا عبور الجسر ، فكابرت
جموعهم ، وندافعوا فزعبن يدفع بعضهم بعضا مما أدى الى سقوط
الكثيرين منهم في البحر فغرقوا في لجنه .

ولقد صال دوق الناورين أبدع صوله في هذا الاسنادك
فبرهن على أنه مسعر حرب وخواض غمرات ، وشاعده المساء
اذ اقترب وهو يقاتل حول الجسر ، وقد جاء بالدليل البين على
بأسه الذي ميزه عن سواء ، وكان ما قام به من العمل أدرا بأعرا
خالدا ، ومأثرة زادته اجلالا في بظر الجنش كله ، اذ اندفع بما
طبع عليه من جراه فكان يصرب الضربة الواحدة يقطع بها رؤوس
أكثر من فارس مدرع ، ثم قص بشجاعة فارسا آخر لم يمنعه
ما عليه من زرد الحديد من أن يصيبه بضربة قطعه نصفين ،
فتدحرج أعلاهما على الأرض ، وأما أسفلهما فقد دفعوا به الى المدسة

محمولا على فرسه ، فبت هذا المنظر العجيب الخوف والدهشة في نفوس كل من شاهدوه ، ولم يعد خبر هذا الأمر العجيب حافيا على أحد ما ، وتناقله الألسن ، فشرق وعرب .

ويقال ان خساره العدو يومذاك فاربت الفى رجل : ولولا دخول الليل الذى حسدنا على أمجادنا وانتصارنا لانتهى حصار أنطاكية من غير شك فى هذا الوقت ، وكانت آثار المذبحة واضحة كل الوضوح حول الجسر والنهر الذى تبدل لون مائه ، وراح يصب فى البحر سيلا جارفا من السماء . ولقد صل ان اننى عسر من الحكام الأتراك لعوا مصرعهم فى هذا القتال ، فكابوا خساره ثلثيه لا تعوض ، وأكد هذا الخبر فيما بعد تأكيداً قاطعا المواطنين المسيحيون الذين قدموا من أنطاكية الى معسكرنا .

- ٧ -

حين طلع النهار على الدنيا عاود القادة اجتماعهم ، ساكرين الله العذر على ما آتاهم من البصر ، ثم عقدوا - فيما بينهم - مجلسا لمناقشة الوضع فانفقوا بلا استثناء على تنفيذ خطتهم الأصلية بحذافيرها ، ألا وهى إقامة حصن على رأس الجسر لمنع المواطنين من مغادرة المدينة ، ولييسر فى الوقت ذاته على رجالنا حركتهم ويزيد من سلامتهم اذا ما رغبوا فى النجوال هيا وهناك .

وكان فى ذلك المكان - كما قلنا سابقا - مسجد يؤدى الشرك فيه شعائرتهم الدينية ، وقد جعلوا ناحية منه موزعا لدفن موتاهم . فلما كانت الليلة السالفة ، وصدر من اليوم النالى ظلوا ينقلون

جئت موتاهم الى ذلك الموضع ، فلما تأكد رجالنا من صدق هذا الخبر ، اندفعوا اندفاعا شديدا الى ذلك المكان ، يحدوهم اليأس في العود به على غنائم تكون مدفونة مع الموتى ، فنبشوا العصور وأخرجوا الجثث ، ولم يقتصروا على أخذ ما وجدوه من الذهب والفضة والأقمشة الغالية بل امتدت أيديهم حتى الى الحب دابها فعضوا بها .

ولما فشا هذا الخبر أيقن الجميع مدى ما أصاب العدو من خسائر كانت في نأى الأمر موضع شك ، لان المال اسبى أسلا ، فأغبط الصليبيون بهذا النبا عبطة حاوز عبطهم بالبصر الذي أحرزوه في يومهم السابق ، ولقد وحدوا في تلك المقبرة أسما وخمسائة جنة سوى من ابلهم النهر في مرات كيرة حاف فيها الخسارة بهم ، وسوى الذين قبروا في المدينة اضافة الى من أنقاهم حراحتهم القائلة قصاروا معها على شفا الموت ، وأرسل الصليبيون ما يقرب من ثلاثمائة رأس من رؤوس القتلى الى من كانوا موجودين بالميناء ، فتضاعف سرور رجالنا الذين كانوا قد ذهبوا الى هناك بعد معركة اليوم السالف ، وكان هذا تحذيرا نافعا للسفراء المصريين الذين كانوا لا يزالون في المناء ولم يفادروه .



كان الصليبيون الكثيرون الذين فروا من أخطار اليوم الغابر مختفين في كهوف الجبال وأعماق الغابات ، فلما سمعوا بخبر انتصارنا بادروا في الحال الى الرجوع الى المعسكر ، وهكذا شاب ارادة الرب أن يعود الى الحش كثير من الجند الذين اعتقد الناس أنهم هلكوا في المعركة ، لكن ما هم الآن يعودون الى الجيش سالمين ، معافين من كل أذى بفضل الرب .

لم يكن يرجع هؤلاء الذين كانوا قد فروا الى مخلف الجهات حتى أقيم على رأس الجسر متراس من الأحجار التي حملوها من

المغابر ، وأخذ الموم يتبارون فى مساعده بعضهم البعض ومعاونته كل منهم زميله فى تشبيد المعقل الذى حصن بسور قوى وأحيط بخندق عميق .

ثم أخذ الزعماء بعد ذلك فى التشاور عنى يقوم بحراسة هذا المكان ، ولم يكن أى واحد منهم مستعدا لحمل مسئولية ثقيلة كهذه المسئولية ، وراح كل منهم يقدم هذا العذر أو ذاك ، غر أن كونت دولوز - وهو المرضى عنه من الله - نطوخ لحمل المسئولية ، وبمعه من أحل الصالح العام أن يقوم بحراسة هذا البناء الجديد ، فاستعاد نماما حب كل رجال الحملة له ، وهو حب كان قد فعهه مده عام لوقوعه فريسة لمرض عطله عن الحركة والفعالية على مدى الصف الماضى وطول الشتاء التالى له ، ففى الوقت الذى كان بقية التماذه اياهه يتحملون مسئولية الجبش بعزيمة لا تقهر كان هو د، نهم كأنما لا يضمنه من الأمر شىء ، وكانت تنقصه البشاشة ، ولم يظهر الود تحاه كائن من كان ، وتجلي هذا واضحا غاية الوضوح لكل ذى عينين، فعزوا ذلك الى أنه كان أكسر القوم مالا وأعظمهم ثروة بصورة ينوقون معها أن تحمله على بذل الكثر من أجلهم ، ولقد أراد أن بعوض ما كان من تراخيه وعدم اكترائه فقام من نلقاء دانه وتحمل عبء هذه المهمة ، وقبل أيضا انه وضع نحت تصرف أسعف بوى وبعض النبلاء الآخرين خمسمائة مارك فضة وزنا ، تعويضا لأصحابها عن الخبل النى هلكت لهم فى هذه المعركة .

فلما عرف أتباعه أنهم عوضوا خيرا عن جيادهم التى فقدوها أظهروا من ضروب الشجاعة والتفنن فى محاربة العدو ما لم يظهروه من قبل فهذات حدة الشعور ضد الكونت ، وسماء الجبع بأبى الجيش ورابعه .

لقد سدت بوابة الجسر بالقلعة الجديده الى امام بها الكوب
حسمائة من الرجال الأشداء ، مما جعل مرور المواطنين من خلالها
لا يسمى الا بشق النفس وبالعرض للخطر البالغ ، لكنها من ناحية
أخرى جعلت قومنا أكثر قدره على الخروج من أجل فضاء مصالحهم
الضرورية ، أما العدو فلم يعد قادرا على مغادرة أنطاكية الا عن طريق
البوابة الغربية الواقعة بين سفح الجبل والنهر ، ويظهر أن تمسح
العدو بالقدرة على الخروج من تلك البوابة لم يحرص قوائنا لكسر من
الخطر ، إذ كانت جميع خيامنا منصوبة على الحائط الآخر من النهر ،
ومع ذلك فقد سحر الكل أن المحصورين كانوا يسمعون دكك من
البحرية في البحار ، لأن حاجات المدد الصرودة كانت لا تزل تـ
يبدأ الطريق ، لذلك عقد القاده الشجعان الحائز الذكر مرة أخرى
مؤتمرا من بينهم للتداول في شأن هذه المشكلة التي رأوا دواجنها
نافذة بعض النقصات في موضع ملائم على الحائط الآخر من النهر ،
وقرروا أن يقيم بها بعض هؤلاء الزعماء ، لرصدوا العدو ان أراد
الخروج منها أو الدخول اليها فحولون بنه وبين ما يريد ، وعلى
الرغم من انعقاد اجماعهم على وحب تسييد ذلك الحصن ، الا انه
لم يتقدم قط أحد منهم فتنطوع ونهض بحراسه ، وترددوا كايـ
تحاه هذه الصعوبة ، ولم يدروا أى سبيل يسلكونه فيها ، وطلال
برددهم ، ثم استقر الراى منهم فى النهاية على اختيار تانكريد الحم
النشاط لأداء هذه المهمة ، وكان على وشك الاعذار غنيا لقلة ما مده
من المال ، لولا أن نهض كوب تولوز وقدم اليه مائة مارك من الفضة
لتشدد الحصن ، ضاف الى ذلك تخصيص مبالغ مناسبة قدره أربعون
ماركا شهريا يقطع من المال العام يدفع للذين سوف يعملون مع
تانكريد .

ولقد ترتب على كل ذلك أن شيد حصن ملاصق لملك البوابة
يقوم على أحد اللال ، حيث كان موضعه في السابق أحد الأديرة ،
وعهد بحراسته الى رهط من أهل الحجى الأشداء فبقي هذا الحصن
سليما حتى نهاية الحصار بفصل جهود نانكريد الناجحة .

وكان يوجد على بعد ثلاثة أميال أو أربعة تحت أنطاكية ، وعلى
امداد نهر العاصى مكان للتعبد ، يتمتع بموقع رائع بين الجبال وبن
النهر ، حيث كانت قطعان الأغنام سرح هناك فى المراعى الخضراء
القسة ، التى كان العدو قد نقل إليها معظم جناده لقله ما فى المدنه
من العلف ، فما كاد الصليبيون يسمون هذه الحقيقة حتى حمعوا
فى هدوء بضع سرايا من الفرسان الذين أسرعوا الى تلك البقعة ،
وسلكوا إليها طرعا مهجوره حتى لا ينكشف أمرهم ، فلما صاروا
هناك وثبوا على رهط من الفرسان القوامين بحراسة المناسبة ،
وداؤهم ، واستولوا على ألقى حصان من الحمل الصافيات ، ناهك
عما أخذوه من القتال وانائها ، وعادوا بكل ذلك الى المعسكر ، ولم
يكن ثم عتائم من أى نوع أكثر أهمية من هذه الغنائم عند الصليبيين
فى ذلك الحين ، لأن جميع حيادهم كانت قد هلكت تقريبا فى
المعركة ، أو نفقت من الجوع أو البرد أو غير ذلك من الكوارث .

- ٩ -

أحيط بالمدينة من كل جانب ، وعجز سكانها عن معاورة
أسوارها لمزاولة أعمالهم ، وهكذا أهدقت بهم الصعاب الجمة من كل
ناحية ، كما بدأت تهدم أيضا مسكلات أخرى كنقص الطعام الذى

واحبتهم نجاة وأصبح سمحه يحشهم بصورة نصب اليافع السديد في
طوب المراطيين . كما أصبح الطل نادر نادرا بده نالعة ، فهرب
الخول ، وعجزب عن القمام بما كانت تقوم به من فعل .

أما رجالنا فقد أصبحوا أكثر حرية في الذهاب الى ساطىء
البحر ، أو حينما ندعوهم الضرورة الملحة ، ورال الى حد يعد
ما كان يكابده الجيس كله خلال الساء من هم مقم بسبب قلة
المثوبة ، نعد ولى الساء ، وجاء الربيع الطاق ، وهذا البحر ، ولم
يعد الأسطول الراسى بالمياء يلقي مسعة فى الدخول أو الحروح دى
شاء ، عدا الى جانب أن الطرق غدت سهلة المسالك بفصل الدفء
المزاييد . فاستنطاع كل ذى مصلحة أن يخرج لانجاز مصلحه من
غير عسر .

كذلك رجع الى الجبس الصلسون الذين كانوا مصوا لفضاء
وقهم فى الفلاع والمدن المجاورة ، فرارا من شطف الحاء وقسوتها
فى المعسكر ، وجهزوا أسلحتهم وقويت عزائمهم ، وأعدوا عدتهم
للقتال .

★ ★ ★

على أنه فى هذا الوقت بالدات جاء الأحبار الى بلدوين - أخى
الدوق - بأن الجيس فى صراع مرير ضد المجاعة ، فتفطر وابه
بالأسى الصادق ، وعزم على امدادهم بضرورات العيس من فائض
أمواله الخاصة التى أنعم الله بها عليه ، فكانت عطاياه السخية من
الذهب والفضة والامسية الحريرية والحياد الصافى وغير ذلك من
كل غال وثمان بلسم داوى ظروف كل زعم ، ولم يعصر كرمه على
كبارهم فحسب ، بل تعداهم الى الكثير من عامة الناس ، مما أكسبه
ميل الجميع اليه وحبهم اياه ، وزيادة على ذلك فان سخاه لم يقل

عن هذا نجاح مولاه وأخيه الأكبر ، فأمر بأن يحول الى حودفروى
جميع ما تملكه الاملاك الخاصة الواقعة على ذلك الجانب من نهر الفرات
حول نل باشر والافليم المجاور له ، فأمره بالحبوب والسمير والزيت
والنبتة ، الى حاسب خمسين ألف قطعة ذهبية وصله بها .

★★★

كان هناك عظم من عطاء الأرض شديد البأس اسمه
« نيكوسيسوس » تربطه ببلدوين وشائج المودة الصادقة ، وقد قام
من تلقاء ذاته وبدافع من تقديره لبلدوين ، بإرسال طائفة من رجاله
يحملون الى الدوق قسطا كبيرا الحجم ، بديع الصنع هدية منه
إليه ، الا أن باكراد نصب كميناً لاصطاد الحدم الموكل بالنهم حراسه
هذه الهدية ، وأمر باغتنصاب هذا القسطاط ، وأن يحيل الى
بوهيموند ، كأنه هدية منه هو ذاته إليه ، فوصل الى سمع الدوق
بأن هذا العمل السبع مع تفصيل شامل للحادث كما رواه خدم
نيكوسيسوس ، وحنداك خرج جودفروى مستصحباً معه كوت
فلاندرز الذى نوبس به وبسه وشائج الصداقة الصنفة طوال
الرحلة وذهب الى بوهيموند طالبا إليه أن يرد عليه الهدية التى
كانت مرسلة إليه هو ذاته ، ولكنه اغتصبها لنفسه ، غير أن
بوهيموند ادعى أنها مهداة إليه هو ذاته من النبيل «باكراد» ، وزعم أن
من حقه السرى الاحتفاظ لنفسه بما يطلبه منه الدوق ، فلما خف
أخيراً من وقوع شقاق فى صفوف الناس ، أو حدوث نزاع بين
القادة ، استجاب [بوهيموند] لالتماسات الزعماء ورد الى
[حودفروى] القسطاط الذى كان مهدى إليه ، ومن ثم عادت المياه
الى مجاريها مرة أخرى بين القائدين ، على أحسن ما تكون العلاقات .

ويجبل الى أنه من المستغرب جداً أن يصر رجل كالدوق يمتاز
بمناة الخلق وحسن الطبع هذا الاصرار الشديد على المطالبة بشئ

ناه غير هام كهذا السئ ، ولا اسطيع حيال ذلك الا أن أقول ما جاء
 في المل « ومن ذا الذي يرضيك سجاياه كلها » وما جاء في مل
 آخر « لكل جواد كبوة » ، كما ان هناك مثلا غير عدين يقول « يجوز
 للمرء في المهمة الساقة أن يفر لحظة » . ذلك لأنه كثيرا ما يرى
 في أنفسنا انحرافا عن حادة الصواب يقضى به قوانين الطبيعة
 البشرية .

- ١٥ -

سرب في هذه الآونة سائنه عنت كل المواحي يقول أن أحد
 أمراء الفرس الأقوياء استجاب لمطالب الأبطالين الخاصة - ولإصلاح
 قومه المنحمر ، فأمر بحشد الصكر من كافة أرجاء مملكته ، وأرسالهم
 وحدة الى المدينة ، وقد أداع مرسوما تالبا يأمر فيه بزحف حسن
 بركي قوي على بلاد السام ، اصطفى لقادته جماعة خاصة من الأمراء
 وكل البهيمة هذه المهجة ، ولم سر هذه السائنة في العالم الخارجي
 وحده فحسب ، ولا عرفت هناك فقط ، بل لقد تحجب بها أيضا حصح
 اللاجئين من المدينة الذين فروا الى معسكرنا وأكدوا صدقها الذي
 أخذ نزداد يوما بعد يوم ، حتى قيل ان هذا الجيش أصبح على أبواب
 المدينة ، فاستبد الذعر بجيئنا واستولى عليه الفرع .

في هذه الأزمة قام ستيفن كونت شارترز ، وهو رجل نسل
 واسع النفوذ ، نصبه الزعماء رئيسا لمجالسهم يستشيرونه ، وينزلونه
 منزلة الوالد لرجاحة عقله التي لا تجارى ، وحسن حكمه على
 الأمور ، أقول قام هذا الكونت يسأل اخوانه أن يأذنوا له - وقد تعطل
 بالمرض - أن يفارغهم ليذهب الى الساحل ، مستصحبا معه خدمه
 وأتباعه وكل ما يملك ، وكان ما أخذه معه شيئا كثيرا للغاية ، أما

عذره الذى قدمه بين أيديهم نهر ورغبته فى الإقامة بعض الوقت فى الاسكندرية حتى يسرد صحته ويده شانه بعينه على العوده اليهم .

وتقع الاسكندرية على شاطئ البحر ، ولا بعد كيرا عن المناء ، وعبر المدخل الى صليها .

وصحب [سببى] فى مبادرته هذه أربعة آلاف رجل كانوا قد جاءوا فى معيته ، فلما بلغ الساحل مضى الى الاسكندرية فى انتظار ما تمنخص عنه الأحباب ، ورسم خطله على أن يعود الى الحس ان أحرزت فوانا النصر الذى يسده بحجة أنه نقه بما من وعكبه ، أما ان حرت الأحداث على العكس من ذلك فسوف يرجع الى مقاطعه الخاصة فى السفن التى كان قد جهزها لتكون على أهبة الاستعداد لذلك ، فانطوى هذا المسلك من جانبه على العار المقم وضاع همه الى الأبد .

ولقد أزعج فعله المشين هذا الفاده الذين خلهم فى المعسكر ، وراوا - وكان حقا ما راوا - أن ما فعله ان هو الا سبة لا يحى عارها ، ولا يذهب شئارها ، وأحسوا فى الوقت ذاته بحزن تنفطر له المرائر على هذا الرجل النابه الذكر ، الذى لطف بمسلكه هذا شرف به وحط من شهره ، فراحوا يننافسون - وكلهم فزع - كبف يواجهون هذا الحادث الذى لم يكن موقعا قط ، لما يحمل فى طياته من خطر يتمثل فى أن قد يقنقى خطاه سواء ممن لا زالوا معهم فى المعسكر فيجروون على القيام بمثل ما قام به ، ومن ثم انفقوا أخبارا على أمر لم يشذ عنه أحد منهم الا وهو أن يبعثوا من ينادى بمنع أى شخص كائنا من كان هذا الشخص من مغادرة المدينة ، فان ترك أحد ما المعسكر خلسة من غير اذن الزعماء ، لم تنفع له قط وظيفته الرسمية ، ولا خدماته التى يكون قد أداها ، من أن يصدر ضده قرار

الحرمان ، وأن يحكم عليه بالمار الأبدي ، كما لو كان قد قبل نفسا من غير دنس ، أو أنفس قدس دسسا ، تبدأ ال حاب انزال أقسى أنواع العقاب به ، ويرتب على هذا الفرار بما تضمنه من الزجر والخوف من العقوبة أن أصبح الكل مد ذلك الحس عن ترك المعسكر ، حتى ولو لفترة وحيزة ، وأطاع كل واحد منهم القرار كما لو كان هذا الواحد دبريا يستحب للأمر طوعية ومن غير معارضة .

- ١١ -

اعتنقت أنطاكية - مدينة الله الحبيبة - مله المسيح زمن الحواريين ، حين بسر بها أميرهم - كما فلنا - وظلت وفية لها ماهرة بها حتى وفتنا الحاضر .

وسنما كانت أقاليم السرق كله تدخل تحت حكم خلفاء محمد [صلى الله عليه وسلم] ، وتنتشر فيها عقيدتهم ، أبت هذه المدينة أن لا تظن عليها أنه أدت بعض ثمر ما نصفه هي ، وعلى الرغم من بسط سيطره [المسلمين] على جميع البلاد الممتدة من الخليج الفارسي حتى السفور ، ومن الهند الى أرض الاسمان الا أن مدسه أنطاكية هذه افردت دون غيرها من المدن المحافظة على إيمانها سليما غير مضمور ، وحرصت على حرسها وهي بسط وسط أمم مخالفه لها .

غير أن ما كابدته [المدينة] من كرة الحصار على مدى أرمه طويلة فل في ساعد مواطنيها الفضلاء ، كما أرقنهم صدمات العدو التي لم تعد محتملة ، فما لبثوا - قبل أربعة عشر عاما من الوقت الذي نكلم عنه الآن - أن تلاشي صمودهم ، واضطروا لتسليم بلدهم

أنطاكية الى عدوهم ، وحدث أنه لما بليت جيوسنا اسوارها كان جل سكانها من المؤمنين الصادقين ، ولكن لم يكن لهم أى حول أو قوة فى المدينة ، وقد احترف معظمهم التجاره ، واشتاعوا بالحرى البدويه أجراء عند غيرهم ، ولم يكن مسموحا لهم ولا لأهل المال الأخرى غير الترك بمزاولة الأعمال الحربية أو شغل الوظائف الهامة .

وحرم على الصليبيين احرار السلاح ، أو ممارسة أى سىء بمب بأى صلة لستون الحرب ، لذلك ما كاد الحبر باعتراب الحجاج القادمين من الغرب يصل الى مسمع كبار رجال أنطاكية ، حتى ازدادت ريبتهم فى المؤمنين(١) عن ذى قبل ، ومنعهم - لاسيما بعد حصار المدينة - من مغادرة بيوتهم ، فكانوا لا يخرجون منها الا فى ساعات فرضوها لهم .

☆ ☆ ☆

كان بين أهل المدينة بعض أسرات معسة شريفة الأصل كريمة المحتد ، توارثت المجد القديم عن الفضلاء ، وكان من بينها أسرة بارزة بسبب أصلها العريق تدعى بمسى «زردة» ، التى تعنى فى اللغة اللاسية أبناء صناع الزرديات ، ولهذا سمي بنوها بهذا الاسم ، وربما كان ذلك نسبة الى اشتغال جدهم الأكبر بهذه الحرفة ، أو لأنهم هم أنفسهم استمروا فيها ، ومن المحتمل أن بعض رجال من هذه الأسرة كانوا لا يزالون هذه الصنعة ، ويعملون فى هذا الفن الذى ظل على مدى أحوال متعاقبة وقفا عليهم ، حتى أورثهم هذا القالب .

(١) يعنى المؤلف بهم المسيحيين من سكان أنطاكية .

وكان هناك برج يعرفه الناس ببرج الأحبس يقع في الجانب العربي من المدينة ، ومجاورا للبوابة التي تعرف اليوم باسم سبت جورج ، وقد خصص هذا المرح لسلك العائلة حتى يمكنهم مراقبة عملياتهم في طمأنينة في هذه الحرفة التي كانت ذات أهمية قصوى لكل من المدينة ووالديها .

وكان من هذه الأسرة شقيقان يدعى أكبرهما بفروز ، وهو رجل قوي النفوذ ، عظيم الجاه ، إلى جانب أنه كان كبير عسكرو وأسرته ، وكانت تربطه أواصر صداقة مينة العري بوالى أنشاكه [باغى سيان المسلم] الذى أهدق عليه نصبا كثيرة سرفه بنا ، فكان فروز كام السر فى القصر ، إلى جانب تقلده غير ذلك من الوظائف السامية .

وسمع فروز بأن « بوهيموند » أمير كبير دائع الصب ، رله صلح بارز فى كل ما هو جار فى الخارج ، ومن ثم ما كاد الحصار يبدأ حتى نجح فيروز فى كسب ود بوهيموند بواسطة الحجاب المرادفة بينهما ، كما ظل فروز طوال استمرار الحصار حريصا على هذه الصداقة ، فلا تنقصى يرم حتى يرافى بوهيموند يستكمل ما يجرى بالمدينة ، ويبعث إليه بخطط باغى سبان ، واذا كان فروز رجلا داهية ، فطبا ، يقط الفؤاد ، فقد حرص كل الحرص على أن يتل خير اتصاله بوهيموند سرا مكشوما بسهما ، ويحج فى ذلك غابة السجاح ، لانه كان يخاف أن يحدث الخطر الكبير به هو وأسرته من كل جانب ، ان وقف سواهما على هذا السر .

وكان بوهيموند هو الآخر شديد الكتمان لما بينه وبين هذا الرجل من صداقة فطواها فى أعماق قلبه ، ولم يعلم أحد بشئ قط عن صلة الواحد منهما بالآخر ، ولا بالرسل المستمرة بينهما ، بل لقد خفى أمر ذلك عن الجميع ، حتى عن خلفهما وأهل سنتهما .

اسمى التفاهم السرى بين هذين الرجلين - والذى أسرى الله حالا - قرابة سبعة أشهر ، زخرت بالانصال الودى بينهما بسأى الطريقة التى يمكن أن يتم بها إعادة المدينة الى المسيحيين ، وطالما ذكر بوهيموند فيروز بهذه المسألة حتى انتهى الأمر أخيرا بغيرور - كما قبل - بأن يعث إليه بالرد التالى على يد ولده الذى كان يحمل الرسائل المتبادلة بينهما :

« اعلم يا أحسن الرجال ، ويا من هو أغلى على من الحصة داتها ، أننى قد أحببتك حبا حالصا منذ اللحظة التى شاءت فيها إرادة الله أن تقوم بيننا هذه الرابطة من الصداقة المتبادلة ، ودعنى أدرك أكرم من هذا أننى وجدت فى كلمانك صادق العزم الذى لا سوفر الا فى الرجل الصالح ، ومن ثم فإن حبك آخذ بزداد رسوحا فى فؤادى يوما بعد يوم ويعظم قدرك عندى . أما عن الأمر الذى كبر نذكرك لى به فقد أمعنت فيه النظر مليا ، وعنبت ببحه مرارا ، وقلبت على شتى جوانبه ، فأيقنت يفينا جازما أننى اذا استطعت ، أن أعيد بلدى الى حريته السالفة ، وطردت هذه الكلاب القذرة التى تعاني تحكمها فىنا ، وأحللت بدلا منها شعبا يحب الله ، فإن بضع أخرى يوم الحساب ، وسوف أنعم بصحبة القديسين المساكن الى الأبد .

« ومن ناحية أخرى ، فلو قمت أنا بهذه المهمة الشاقة الخطرة ، ولم يكسب لى النجاح فيها ، فلن يشك أحد فى أن سيكون ذلك «بإانة بيتى وانهار سمعة عشيرتى الطيبة تمام الانهيار ، ولن يجرى على اللسان اسمنا أبدا ، غير أن الأمل فى النصر لا يزال يراود النفس فى القيام بهذه المخاطرة ، ومع ذلك فأننى مستعد للتهوض بهذه العمل ان وافق رفاقك على أن تؤول اليك أنت وحدك دون سواك

عده المدينه حين استسلامها بعصل جنودى القويه ، وبعون الرب
الذى ربط بيننا برباط الصداقه الوثيق ، وساقوم بالمهمه مهما كانت
صعوبها ، وسيكون قيامى بها بسبب حتى لصغارى الذين ارجو
لهم ولك كل الخير » .

« وساسلم اليك من غير عائق هذا البرج السديد الحصانه .
الذى يعرف أنه فى حوزتى ، وحينذاك نستطيع أب ومن معك دخول
المدينه آمين سالمين » .

« أما ان رأيت انكم جميعا مساوون فما سكم ورأي أب
أن نقسم وايامهم المدينه حين يؤخذ على هذه الصوره فاسى لى أرج
بنمسي فى هذا المازق الخطير ، ومن أجل خاطر يوم ليس لى هوى
فيهم » .

« وانه لينحتم عليك - من أجل الصالح العام وسلامة الجمع -
أن يبذل قصارى جهنك للحصول على هذه الموافقه من القاده المرتبطين
بك ، وكن واثقا كل البقه أننى حالما آتسلم بك الخبر البين بأنكم
وفيم بهذا العهد ، فلن أنوائى فى فتح باب المدينه لكم لدخلوها .
وهذه هى الغايه التى تلج على من أحلها » .

« وأزيدك علما بأنك ان لم تتحرك بأسرع ما يمكن ، فلن
تدخلوها بعد ذلك أبدا ، لان حاكم هذه المدينه قصله الرسائل ،
وتنوالى عليه الكتب كل يوم ، مقسرة الى أن الامدادات التى تجمع
من كافة أرحاء الشرق لمساعدته قد عسكرت حول نهر الفرات ، فى
قوه بلغت مائتى ألف فارس ، فاذا وحدتكم هذه الجيوش لا زلنم
خارج المدينه فلن تكونوا قادرين بعد ذلك أبدا على مقاومه قوه الأهالى
وحوش حلفائهم القادمه » .

شروع بوهيموند مد ملك اللحظة في بذل أقصى جهده لاسسكاه مساعري كل شخص من القادة ، ومعرفة ما يدور بفكر كل منهم على حدة ، والوقوف على الخطأ المنوفع اتخاذها بشأن المدينة المحاصرة حين يتم الاستيلاء عليها ، ويرع كل البراعة في اخفاء مسرعه . الا عمن اعتقد أنهم موافقوه على رغبانه ، وكان اذا رأى الأمل صعبا في نجاحه لدى بعض القادة أرجأ الموضوع الى وقت آخر يكون أكثر ملاءمة . ومع ذلك فقد وافقه على مطالبه كل من دوق حودمروى . وكونت نورماندى ، وكونت فلاندرز ، وهيج العظم ، وصارحوه بأيديهم لما يريد ، واستصوبوا سر الرجل النبيل [فيروز] وأنشوا على فطنته . وكنشوا عزمه في صدورهم كمنهم لأمر لا سعى أن يعلم به أحد قط .

اما كونت بولوز فكان الوحيد الذى شذ عنهم فيما يتعلق بهذا الموضوع . وترتب على موقفه هذا ارجاء المسألة ارجاء كاد أن يفسر ما اتفق عليه ، لان صديق بوهيموند الحميم [أعني فيروز] . كان رافضا كل الرفض أن يقوم بعمل فيه كثير من الخطر عليه من أجل خاطر الآخرين ، كما ان بوهيموند لم يكن بالشخص الذى يجهده نفسه في عمل للصالح العام ان لم يعد عليه بالجدوى ، لكنه استمر مع ذلك في الحفاظ على مودته الصداقة مع فيروز فحافظ على الدوام بهداياه وملاطفاته ، كما ظلت الرسائل موصولة ومتراصة بينهما ، وأخذ كل منهما يرمى ما بينه وبين صاحبه من الصداقة ونتمها .

عاد في هذه الأساء الى أنطاكية المبعوثون الذين كان باغي سباز
وأهل أنطاكية قد أرسلوهم الى فارس بغية اسجدها العون ، وقد
نجحوا في انجاز سفارهم ، وبحققت مطالبهم ، ذلك لان أمير فارس
العظيم كان قد سمع بما تلفاه أنطاكية من الأهوال فتحرك فليه عطفا
عليها ، وكان من صالحه صد محاولات الصليبيين والعمل على سل
قويهم حتى لا يطلعوا لفتح بعض أجراء من مملكه ضد السف
ومن ثم بعث الى بلاد الشام حشودا لا يحصىها العدد من الفرس
والترك والأكراد ، بقيادة واحد من أصدقائه المقربين ، كان يستطيع
أن يعتمد على شجاعه وإخلاصه وهمه كل الاعساد ، وألقى اليه
بالقيادة ، وجعل تحت امرته أمراء سنين وفودا وأمراء خمسين
وصابطا آخرين دونهم مرنية ، يطعون أمره وينفذون كل ما يقضى
به ، كما روده يكتب لها قوة القانون وجهها الى ولاية جميع الأقاليم
الباية له ، والخاضعة لسلطانه متضمنة أمره الى كافة الناس والأمم
والقبائل والشعوب على اختلاف السننها ، أن ينبغيوا - من غير تردد -
ابنه المحبوب وكريوغاه الذي وكل اليه قيادة جيوشه بسبب خدماته،
وأمرهم بالامتثال لسلطان هذا الرجل ، والزمهم بطاعته في كل
ما يأمرهم به ، وأن يكونوا وفق مشيئته فلا يعارضه فيها معارض .

رأس كريوغا - بأمر مولاه - الجيوش التي ذكرناها حالا ،
وزادها عددا بمن ضمه اليهم من العسكر الذين جمعهم خلال زحفه
في البلاد ، فدخل العراق بمائتي ألف رجل ، وعسكر في ناحية
الرها ، حيث حادته الأخبار المختلفة وهو بها يوقوع هذه المدينة وكل
الادليم المحيط بها في قبضة أحد قادة الفرنجة الذي كان زاحقا ضده
فأجمع النية اذ ذاك على مهاجمة هذه المدينة - قبل عبوره الفرات -
وعزم على الاستيلاء عليها قسرا .

ببد أن بلدوين كان قد علم بمقدم [ياغي سيان] فجلب أناسا شجعانا من كل النواحي الى حول [الرها] لمساعدته ، كما عيى بتوفير كل ما يحتاجه مدينته من الطعام والسلاح ، لذلك لم يزعجه كثيرا تهديدات كربوغا السديده له ، حين أمر الأخير أن ينادى المنادون بأن الجيوش موشكة أن تغير على الرها ، وأن تضرب الحصار عليها بكل ما أوتيت من قوة ، ولكن المدينة قاومتها فى عناد . وسرعان ما نحل للعساكر انه لن يجنى كثيرا من هذه المحاولة ، ولن يكون تقدمه فيها ملحوظا ، مما حمل فى النهاية جماعة من أهل الحجى على الذهاب الى قائدهم ، وطال بينه وبينهم الجدل ، حتى انتهى به الأمر الى نبذ هذه المحاولة وعدوها محاولة عارضة ، انصرف ياغي سيان اثرها لتابعة خطته الأصلية ، التى تنلخص فى عبور الفرات والاسراع لنجدة أنطاكية ، وهو الهدف الذى جاء من أجله ، وذكر له هؤلاء الرجال أن أخذه الرها وأسره بلدوين لن يستغرق منه أكثر من يوم واحد ، وذلك فى طريق عودته من أنطاكية بعد رفعه الحصار عنها .

★★★

ظل كربوغا محاصرا الرها ثلاثة أسابيع (١) ، أضاع فيها وقته سدى وبدد جهوده عبثا ، ثم بدا له أن يأمر فوانه بعد ذلك بعبور النهر فأمرها فاجنارته فسار خلفها محاذ الحطى فى همة كبيرة الى هدفه الذى خرج من أجله ، وكان توقف جيش الأعداء أمام الرها ، هو السبب فى عدم استطاعة بلدوين أن يكون حاضرا أثناء حصار أنطاكية ، كما كان السبب فى خلاص قوما الذين كان لابد أن يتخرج موقفهم - كما تنبأ فيروز صديق بوهيموند - لو أن كربوغا زحف مباشرة على أنطاكية ، وأخذها قبل اسنلاء الصليبيين عليها ولكن شامت نعمة الرب أن تقع أنطاكية قبل وصول المارقين ، والا كان من الصعب على الصليبيين أن يقفوا فى طريق كربوغا .

(١) ذكرت الترجمة الانجليزية انها من ٤ الى ٢٥ مايو .

عبت التوائحه أرجاء المعسكر في نفس الوقت بتقدم هذه
الحشود الكثيفة وأكد الكثيرون صدق هذا الخبر ، فأبقى المعسكر
أن العدو قد وصل الى اطراف انطاكية ، فاستبد الدعر بهم استبداداً
كبيراً ، واذا ذلك قام القادة فبعثوا في اتجاهات مخرقة رجالاً من
دوى الخبرة لا يسك أحد أبداً في اخلاصهم وساطتهم ، وطلبوا اليهم
أن يقانلوا وجهها لوجه أساساً لا يضر ولا يؤرم حتى يمكن الحكم الصحيح
عن مدى صدق ما أذيع من الأنباء ، وقد اخبر لهذه المهمة محاربون
سجعان من ذوى الرتب العالية هم « دروحو دى سرل » و « كلاريبولد
دى فديل » و « جيرارد دى سيريزى » ، و « رينالد كونت نول »
وعيرهم ممن عاب عما أسماؤهم فانتسروا مع أبايعهم في بواح محلهم .
وبدلوا همهم في التقصى الدقيق فأرسلوا من صلهم وبدورهم
الكسافه الى النواحي القاصية ، فصارت بين أيديهم بهذه الطرقة
اخبار موثوق بها تؤكد بجمع المعسكر [الاسلامى] من سسى النواحي
واصمامهم بعضهم الى بعض في جيش واحد ، كأنهم الأنهار تنجم
لتصب في البحر ، فلما فرغ الزعماء من ذلك عادوا مؤكدين للعاده
الدين كانوا قد بعثوا بهم أنه لا موضع للشك في الأنباء التى بلغهم .
وبذلك أخذ كبار تادة المجلس الصلبي حذرهم قبل سبعة أيام
من وصول كربوعا بعواته أمام انطاكية . فأوصوا الحواسس أن
يعملوا جهدهم على بقاء هذا الحمر طى الكمان ، فلا يسمع به أحد
من الناس ، خوفاً من استيلاء الدعر على حموع العامة التى أضاعها
الجوع ، وأرهمها الشدائد التى استمرت طويلاً مما قد يدفعها الى
تدبير خطة للهرب الذى كان طريقاً سلكه في الواقع منذ وقت قريب
بعض الزعماء الكبار .

وحينذاك نجتمع الزعماء لنبادل الراى حول الموقف الذى أصبح يكرب الحملة بأجمعها ، ويهدد بمأزى يذهب ريحها ، فسرعوا بروج مواضعه وعلوب حـسـسه بدبرون الاحراءات السى بدعى عليهم اتحاذاها فى مثل هذه الحال الطارئة ، فافترح بعضهم أن يحرح كل القوة المشتركة فى الحصار ، فننصدى للجموع القادمة على بعد مئـلـس أو ثلاثة أميال من المدينة ، وهناك - بعد رفعهم أكف الصراعة الى السماء أن نمدهم بالعون - يحاولون مقابلة ذلك القائد المتغطرس ، المسفحة أوداحه بما نرى معه من الآلوف المؤلمة .

على أن فريقا منهم فضلوا أن يخلعوا وراهم فى المعسكر فسمما من الجيش ، لمنع الأهالى من التسلل والانضمام الى العسكر الوافد اليهم ، وأما ذلك القسم من الجيش الصليبيى الذى يساو هؤلاء فوه وكان أخبر منهم بفن الحرب فعله - حسب الاقتراح الأول - الخروج لصد الكفار على بعد مبلين ، فان رضى الله التقدير بما فعلوا فابلوهم بعون منه .

وبينما كانوا يناقشون هذا الموضوع مناقشته دقيقه ، ويبادلون الراى فيما بينهم تبادلا حرا ، نسلل بوهيموند فى هدوء وانمحي جانبا بطائفة من كبار القادة هم : جودفروى ، وروبرت كوف فلاندرز ، وروبرت كونت نورماندى ، وريموند كونت نولوز ، حنى اذا أصبحوا وحدهم فى ناحية منعزلة ، وعلى مبعده من الآخرين خاطبهم قائلا :

« انسى أرى أنها الاحوه الاحباء العاملين فى خدمة الرب ، انكم قد انزعجتم فرعا من دنو هذا الزعم ، والذى يقال انه أصبح قريبا منكم كل القرب ، ولقد كان لكل منكم - أثناء المؤتمر الذى انعقد

منه قليل - رأيه الذي يخالف رأى سواه ، والذي يصدر عن رعاياه الخاصة . ومع ذلك فلس نمر اصرح من الموضوع من حدوده . نسوا حرجا حرجا معا كما اصرح بعضكم ، او امام فريق من الجند في المعسكر ، فالواضح أن جنودنا الكثيره مهما طال استمرارها ، لن نجدى فضلا ولن يؤتى ثمرتها ، ذلك لأن في حروجا جميعا معا نهاية للحصار . وفصاء على أهدافنا ، اد يعود المواطنون احرادا لس علىهم رقيب ، وحسناك قد يصمون الى العذر أو يدخلون معسكر حلفائهم الى المدينة .

« كما أنه لا محيص من حدود نفس السيجة لو بقى قسم من الجنود في المعسكر ، ذلك لان جميع قواتنا المتحدة حتى الآن لن تكون قادرة على كبح جماح المواطنين رغم ما هم فيه من ضيق يعب على الناس . ورغم أنهم لا يأملون قط في نجده نأبيهم معيهم ، فكيف ينسى اذن لجزء ضئيل من جيشنا أن يلزمهم بالبقاء داخل الأسوار ان وصل حلفاؤهم ؟ ويبدو لي أنهم اذ ذاك سيعملون واحدا من اثنين : اما أن ينصموا الى حلفائهم وحينذاك نسد شوكة قوانين المتحدة في الهجوم علينا بأعداد تفوق أعدادنا . واما أن يحالوا بطريقة أو أخرى لادخال جند الحلفاء المدينة ، مع نذلهم الجند في مرور أنطاكية بالسلاح والمبره مما يسد من ساعدها . وفي هذه الحالة لن يكون عددا ما يؤكد لنا القالب على المدينة حتى واو أعانا الله فهزمنا العدو خارجها ، لذلك يبدو لي أننا الساده العظام الموقرون أن الواجب نقرض علينا أن نسعى السعى كله للاستلاء على أنطاكية قبل وصول هذا القوائد الكبير ، فان سألهموني وما وسيلتك الى ذلك ، وكف يمكن نطبق خطة كهذه الخطة . فاني أقرر لكم - حتى لا أبدو وكأنني أقترح عليكم مشروعا بسجل انجازة - أنني قادر على أن أفصح لكم طريقا ، نستطيع منه أن نحقق عددا المنشود نحققا سرعا وسهلا . ذلك أن لي بأنطاكية صديقا

صدوقا ، عافلا كل المعمل ، بعدر ما برى عين الانسان العقل ، وأعمد
أننى قد بينت للبعض منكم منذ قليل أن تحت امرة هذا الرجل برحا
منيعا شديد الحصانة ، وأنه قد رضى عن طيب خاطر أن يسامه
لى تحت شروط خاصة ، وكنت قد التمسيت منه مرارا أن يفعل ذلك
فاستجاب لى بعد الحاح طويل ، والتزمت له - ردا لهذا الحميل -
أن أصله بقدر كبير من المال ، وأن أصمن له ولذريته من بعده أملاكاً
شاسعة ، وامميزات سسى نمنا يكافىء ما قام به ، ان جرت الأمور
وفقى ما بهوى

« فان رصيم أيها الساده الأعزاء أن تصبح مدينه أنطاكية
تحت حكمى - ان تم الاستيلاء عليها بجهودى الكبيرة - وفلم أن
تكون ورائه فى بيسى الى الأبد ، فأننى مسعد جيداك أن أخرج
الى حير الوجود ما اتفقت عليه أنا وصديقى (١) هذا ، أما اذا أبسم
ذلك ، فلتحاول كل واحد منكم أن يلمس طريقا أحسن مما ذكره ،
يمكنه من الاستيلاء على المدينه بنفسه ، فان نجح فى ذلك كانت
ملكاً خالصاً له لا يسافقه فيها أحد ولا ينازعه ملكيتها صارع ،
وسوف أذعن أنا لما فيه صالحه ، كما أننى مسعد لأن أتنازل له
عن أى نصيب يكون لى فى الأمور الحالية » .

- ١٧ -

أصغى الزعماء جميعاً لكلمات بوهيموند هذه بقلوب بمرها
الفرحة ، واستجابوا لرجائه ، معترفين بجميله ، ولم يشذ عنهم
سوى كوت نولوز ، الذى أعلن فى اصرار أنه لن يخلى عن نصحه

(١) التصود به « فيور » .

كائن من كان ، على حين قطع الآخرون على أنفسهم العهد ان يمسحوا
المدسة بملحقاتها لموسموه . لتكون ورائه في بسه الى الأبد .
وأقسم كل رجل منهم - وقد سقط بيماء - أن يبيع الأمر سرا
مكسوما لا يحضر به احدا قط ، ثم أخذوا كلهم في الوفاء دانه بلحون
على الأمير بوهسموند أن سادر لحسم هذا الموضوع بما عهد منه من
الشباط . حتى لا يؤدي الإبطاء الى حدود خطر ما . ثم انقص
الاجتماع . فقام بوهسموند بما أنزعه من طبع لا يعرف الإبطاء ، وهو
بحرق لتسعد مشروعه . فاتصل في لحظة تصدقه فيروز بواسطة
الرسول الذي اعاد ان يكون الواسطة بينهما . وأخبره أن الزعماء
سمحوا له بكل ما سألهم اياه ، وراح يلح على فيروز ، ونسجائه
بما يسهما من الايمان الصادق ، أن يقوم في الليلة التالية حو
الله بسعيد الحطة التي اتفقا عليها . فابلح ذلك الحر نفس سامعه
الوفى . وغلبت عليه نشوة السرور فوى كل ما يصور .

★★★

على أنه جرت حادثة قرب هذا الوقت سدد من عزم [فيروز]
على السير فلما في المؤامره التي دبرها ، ذلك أنه بينما كان مسعولا
أنشد الاستعجال بأداء ما بفرصه عليه واحبانه الكثيرة التي
يعتصمها وضعه في بيت مولا . بل وفي البلد كله ، اذا تأمر عاجل
لا ندره يجد أثر ارساله ولده الشاب الى داره ، اذ ما كان الغنى
يلفها حتى طالع منطرا مشييا فاضحا . حين ساهد أمه بين ذراعي
أحد كبار الأبرار في وضع مزر أسحطه غايه السطح . والتمس
مه أوصاله فرعا . وتغزب له نفسه . فانكأ سرعا الى آبه
وأخبره بالفصحة . فحق فيروز حق الزوج المعلوم في سرفه ،
المهان في كرامه ، وقيل انه قال في مرارة ، ألم تكف هذه الكلاب
القدرة أنيا تعرض علينا رقها الظالم ، وتهب أملاكنا بما سنزله منا

بوما بعد يوم حتى تسهين بالنعماء الأسرية ، و يقطع الروابط الزوجية ؟ والله لأضعن - ان عسب - نهايه لهذا العجور ، ولأحارسهم يعون الرب الجزاء الأوفى الذى هم أهل له .

قال فرور هذه الكلمات وقد كم حواشيه على ما يحسه من شعور بالاهانة التي لحقت به ، ثم أرسل الى بوهيموند - كما جرت العادة - ولده الذى بشاركه أسرارته ، والذى كان هذا الانم الذى نزل بأمره قد اسورى غضبه ، وأضرم غيظه ، وأمره أبوه - ادعه الى الفائد بيهيموند - أن يطلب اليه أن يستعد لكل شيء يستلزمه العمل الذى بين أيديهم استعدادا دافعا ، وان يخبره أنه لن يقصر فى شيء من جانبه ، بل انه موف بما عاهد به ، وموعدهما اللامعة التالية .

كما أشار عليه أن يفادر الزعماء جميعا المعسكر ووراء كل منهم أتباعه ، وأن تكون مغادرتهم المعسكر حرب الساعة التاسعة ، حتى لحسبهم الرائي وكأنهم قاصدون الزحف على عدوهم . فاذا قرب موعد الحراسة الليلية الأولى عادوا سرا وفي سكون مطلق ، ونهاوا قرب منتصف الليل للعمل حسب تعليماته ، فاستصحب بوهيموند هذا الشاب فى السر الى القواد العالمين بنخب المؤامرة ، وذكر لهم كل تفاصيل ما رتب حسبما اتفق عليه مع قيروز بمساعدة ولده « فتملك العجب نفوسهم جميعا من خطة الرجل وصداق اخلاصه ، وأقروا ما رسمه ، واتفقوا على تنفيذه حسبما رتب » .

عبر أنه كبيرا ما يجد حدث من الاحداث لم يكن موقعا في معرض مساريع لها مثل هذه الحطوره . اد ساورب الريبه - التي يعورها البرهان - نفوس مواطلى أنطاكيه لاسبما من نفع على أكابهم المسئولية المباشرة عن أمن المدينة . واحك الشك في نفوسهم اكبر من اليمين بأن هناك مفاوصات تجري في الحفاء درمى الى تسليم أنطاكية ، وما لبث هذا الشك أن أصبح موضوعا عاما بلوكة جمع الألسنة . مما دفع كبار المواطنين للاجتماع . وساروا الى الوالى للتشاور معه فى حمر هذا الخالج الذى يضطرب به نفوسهم ، والذى بدى محتملا كل الاحمال ، ونقوم الدلائل الكبره على ترجحه .

وكان بأنطاكيه - كما قلنا - رجيل كبير من المسيحيين نحوم حولهم الريب رغم براءتهم براءة نامة من هذه المؤامرة . وكان من يسهم ذلك الرجل النبيل الذى نتحدث عنه الآن ، والذي رغم اعتماده على سيان على احلاصه الصادق اعتمادا كبيرا . الا أن الرجال البارزين الآخرين كانوا يربابون فيه أكبر من عمره ريبة لم يجعله موضح ثقتهم .

لذلك عقد اجتماع منير بشأن هذا الموضوع فى حصره ياعى سنان . تردد فى أثنائه اسم « فيروز » مع أسماء بصعه أفراد آخرين كانوا مزار التشكك ، وكان هناك على ما يبدو كثير من الأسباب التى تجعل على عدم تصديق ما ابهم به ، لأنه كان رجلا جم النشاط وصاحب نفوذ فى المدينة يفوق نفوذ سواء من المسحيين . وأخيرا رضح ياعى سنان لالحاج مسنساريه فأمر باحضار فيروز ، فأحضره . وبعد الموجودون إثارة نفس الموضوع فى وجوده ليسمعوا ماذا يكون قوله ، لتكونوا فادرين على أن يقرروا - بناء على ما يعوله - اذا كان ما يثار حوله من شك حقيقة أو منيا .

ولكن فرور كان رجلا شديد الذكاء حاضر البديهة فأدرك في لحظه ان هذا الاجتماع انما عقد من أجله هو وحده ، وانه هو ذاته موضع الاتهام ، ولذلك أخذ يراوغهم في اخفاء سره ، واطهار براءته أمامهم ، ويقال انه رد على أولئك الذين اجتمعوا لتقصي أمره بقوله « ان تشكككم أيها الرجال المحترمون ، وأنتم كبار رجال هذه المدينة وسراتها ، لأمر يسحق أعظم الشناء ، ولا يوفر مثله الا عند دوى العطب ، لأنه من الحكمة الخدس بما يمكن وقوعه ، كما ان شدة الحذر في الأمر الجليل ليس بضاره ، لذلك يجبل الى انكم قد صدرتم عن وافع ليس بالمافه في أمر يتعلق بحياتكم وحريةكم ونسائكم وابنائكم ، ومع ذلك فان قبلتم نصيحتي فان هناك طريقه عادله عاجلة تؤدي الى العلاج الساجع والشفاء العمال لهذا البلاء الذي يهددكم ، فالخيانة الملعونة التي يبعثكم بعد نظركم على النحوف منها لا يفكر لها النجاح الا بواسطة الموكول اليهم حراسة الأبراج والاسوار والعوامين على حفظ الأبواب ، فان ظنتم ظن السوء بولاء هؤلاء الناس فاعمدوا الى مداومة اسئدالهم بغيرهم ، حتى لا يطل الواحد منهم أمدا طويلا في مكان واحد ، يمكنه من أن يوثق مع العدو وشائج صداقه مدمرة ، لأنه ليس من السهل اعداد مؤامره من هذا القفل في سرعه ، بل يحتاج في الواقع الى زمن طويل ، كما أنه لا يسهى لشخص ما بمفرده أن ينجز عملا خطيرا كهذا العمل الذي لابد ان يساهم فيه معه مواطنون يسعلون مما أصب ربيعة قد أفسدتهم الرشوه حتى صاروا شركاء في الجريمة ، لكن اذا عمدتم الى القيام بتغصيرات فجائية لهؤلاء الناس على غير توقع منهم لها تكونون قد قضيتهم على كل فرصة لمفاوضات مهلكة من هذا القفل » ، ثم أمسك فيروز عن الكلام عندما بنف هذا الحد من القول . وكان للاحاطه وقعها الطيب في نفوس الذين سمعوها فاستصوبوها ، واتضح لهم انه قدم الدليل القاطع والبرهان الجلي على براءته ، وأنه مضى الى حد بعيد على ما خاومهم من السك في أمه .

وكان من الممكن ان يبادروا فى لحظتهم هذه بسعيد ما أوصى به . لولا أن النهار كان موشكا على الانصرام ، واللبل موشكك على الدخول ، مما يسمحيل معه القيام - فى ساعه متأخرة كهذه الساعة - بإجراء مثل هذا التعدير الرئيسى فى حراسة المدينة . لكن الذى استطاعوا عمله هو اصدارهم الأوامر بشديد الحراسه . تشديدا صارما لحماية البلد ، غير أنهم كانوا جميعا فى جهل بما دبره ذلك الرجل من تدابير فى الحفاء ، واذ كان على يديه من أن الموقف سيبدل حالا ببدلا كبيرا . فقد بذل عاية حنئه فى السر فدما مؤامرنه . وفى عجلة قبل وقوع أى شىء بحول دون تنفيذها .

- ١٩ -

ما كاد حسنا يعف أمام أسوار مدينه أطاكة ، ويعرض عليها الحصار ، حتى ساور الشك الأهالى فى الاعريق والسريان والأرمن وغيرهم من معتنقى المسيحية ، دون النظر الى الجنس الذى يهتمون اليه ، ومن ثم أخرجوا منها جميع المعزة . ومن لا يملكون المواد الضرورية لاعالة أنفسهم وأسرهم الصغيرة ، وقد فعل الأهالى ذلك حتى لا يكون هؤلاء عمنا يتنقل كاهل المدسه الى لم يؤذن لانفاء فيها الا الأبرياء ، ومن املائ معارنهم بالثونة ووسائل العيش الكيرة التى توفر الحياة لهم ولذويهم . وان كان هؤلاء لم سلموا من ارغاهيم على أداء خدمات كيرة فرضت عليهم فرضا . الى جانب ما يكلفون به من أعمال جرت العاده على تكليفهم بها . وكان ذلك سببنا ثقلا بدا معه أن المنفيين الذين أخرجوا من المدينه كانوا أسعد طالعا ممن أذن لهم بالبقاء فيها ، فقد ضوعف عليهم الغرامات النقدية التى أخذت منهم اغتصابا حتى لم يبق فى أيديهم

من المال سوى النزر اليسير الذى لم يسلم هو أيضا من استعمال
السدة فى ابتزازه منهم .

ولم يكثر أولو الأمر باحتجاجات هؤلاء ، اذ فرصوا عليهم
الغبام بارذل الأعمال وأسقها فى المدينة ، فاذا أريد تشييد الآلات ،
أو نقل حذوع الشجر الضخمة البعيلة ، كلهمهم بذلك فى لحظهم ،
كما أجبروا البعض منهم على حمل الحجارة والأسمنت وكل مواد
الباء ، وألزموا سواهم بجلب الأحجار الكبيرة التى اعتادوا دائما
وضعها وراء الأسوار بالآلات وربطها بالحبال التى سد بها .
وما كان لهؤلاء الناس الا الامسال وطاعة رؤساء القعدة الذين ام
يكونوا يسمعون لهم بقسط من الراحة ، ثم بلغت هذه الشدة القظية
ذروتها حين عقد مضطهدوهم اجتماعا سرىا قبل سمانية أيام من
الجلسة التى استدعوا اليها فيروز المشكوك فى ولائه وفرروا من
هذا الاجتماع الفتك سرا - وتحت جبح الظلام - بجمع المسيحيين
الذين يعيشون فى أنطاكية . على أنه كان بالمدينة زعيم عاقل قوى
التفوذ ، لا يكف عن اظهار صداقته للمسيحيين فى كل الأحوال ،
فسعى سعيًا حثيثا حتى تمكن - بعد لئى ورغم معارضة الآخرين
له - من أن يؤجل تنفيذ القرار العاصى بقتلهم مدة ثمانية أيام ،
ولولا محهم هذه المهلة لكان من المؤكد ارسال الجلادين لتنفذه
هذا الحكم القظ ، ولهلك المسيحيون عن بكرة أبيهم بالسيف فى
نلك الليلة ذاتها .

كان الغرض من السماح بهذه الأيام الثمانية أن يثبت عندهم
باليقين الجازم عما اذا كان فى الامكان رفع الحصار عن المدينة ،
فان تأكد لديهم عزم رجالنا على الاستمرار فى الحصار فتكوا
بالمسيحيين ذبعا ، اما ان ثبت عكس ذلك مواء بالحباة على الأهالى
الذين سبقوا أن قضوا عليهم بالموت .

فلما انتهت فترة تأجيل الحكم ، وحانت الليلة الأخيرة منه صدر الأمر سرا بسعيد ما فصولا به ، وكانت المدبرة على وشك أن تم في نفس الليلة التي حددها زعمائنا لتنفيذ الحطة التي زعموا بوهيموند وفيروز منذ أمد طويل . والتي تمت بعون الرب . لذلك وفي اللحظة التي شرع الصليبيون فيها في إحلال المدبرة لم يشعر كبارها بالخوف من الصحة التي سمعوها ، فقد ذهب بهم الظن إلى أن ما سمعوه لا يعدو أن يكون السروع في تطبيق الأوامر التي فصولا سعادتها في مواطنهم البصري .

لذلك فإنه حين تم لرحالها الاستلاء على المدينة بلك الطريقة ، عتروا في دور بصارها على كبر من حصوم ملهم الذين كانوا دعاؤها مأمورين بالفتك بالمؤمنين الصادقين .

- ٢٠ -

ولما كانت الساعة التاسعة سمع صوب المادى ينادى في شتى أرجاء المعسكر بخروج جميع كنانب العرسان في كامل عددهم وراء فوادهم ، وألا يوانوا عن تنفيذ الأوامر التي سوف تلقى إليهم . ولم تكن العامة هي وحدها التي تجهل ههنا بما دبر في الخفاء . إذ الواقع أنه لم يكن يعرف السر سوى ثلة ضئيلة من كبار الرعماء .

ومن ثم فإنه تمعا لتربيئات فيروز الحكيمه ، عادت كنانب العرسان بأجمعها المعسكر ، ومنحت كل كتية منها وراء علم قائدها وساروا حتى ليطنهم الناظر إليهم أنهم ماضون لجهة بعيدة . لكن

الحقيقة هي أنهم كانوا يسطرون أن يسدل الليل سدوله على الكون
ويظلم الدنيا فيعودون الى المعسكر في صمت تام .

كان لفيروز - رجل الرب هذا - الذي أدى للمسيحيين هذه
الخدمة الجلي الجليلة - أقول كان له أح يخلب عنه كل الاخلاف ،
سواء في مساعره أو عرضه . ومن ثم لم يكن فيروز يس في اخلاص
هذا الأخ ولذلك لم يفض اليه بالسر لعدم ائيمانه عنه . بل انه
بدل عابه جهده لاجراء حططه عه اخفاء داما .

وحلت في الساعة التاسعة من نفس ذلك الموم ، وقد أحدث
كنايسا في معادره المعسكر أن وقف الشفقان معا على احدى شرفات
البرج . يطلان على المعسكر ، فشاهدا الجند يفادرونه .

وأراد الأخ الاكر أن يسبر عور أخيه ، ويعرف ما يدور في
باله ، فحاطبه فاثلا . -

« لكم أرى يا أخي لهذا السعب الذي يدين بعفس العفيدة
الى يدين بها أنا وأنت ، وكم تحزنى الميه الى سوف يلقاها
عاجلا . فها هم عسكره يفادرون مخيمانهم في بقة وسكبنة ،
لا يخافون سنا كان أوصاعهم آمه ، لكنهم لو عرفوا ما نصب لهم
من السراك وما يسطرهم من الدمار السامل ، فلربما اخذوا احراءات
أخرى تضمن لهم السلامة » .

فأجابه أخوه : « انه لحق منك أن تحمل نفسك هما لا مبرر له ،
فانه لا محل لعطفك عليهم ، الا لبتهم جميعا هلكوا بسوف المرك
منذ أول يوم مست أقدام الترك هذه الأرض . . . اذن لما

ازدادت أحوالنا سوءاً ، وما كان من المستطاع أن تنكأ الفوائد التي
نعنيها من جهودهم مع المساكين التي نحملها بسببهم » .



لم يكن فيروز حتى هذه اللحظة قد فرر ما إذا كان يقضي
بهذه إلى أخيه أم يكتفه عنه ، غير أنه لما سمع هذه الكلمات التي
قاه بها شقيقه ، فزع فرع الشخص من الطاعون ، وراح يلعه في
سره . ويدبر حطة للقضاء عليه حتى لا نقب أعماله عمه في طريق
طاعة المسيح ، وهكذا وضع فيروز سلامة المسيحيين فوق عاطفة
الآخوة .

- ٢١ -

في هذه الأثناء راح بوهيموند يذل غاية وسعه لاحتاز
مشروعه ، وبلوغ غايته التي يسعى إليها سعياً حسناً ، وكذلك خوفه
من أن يؤخرها أي تراخ من جانبه . . . أقول دفعه ذلك إلى زيارة
الزعماء : فردا فردا ، راجياً منهم أن يكونوا متأهبين للعمل .

وكان يحمل في يده سلماً مجدولاً على أحسن ما تكون الصنعة
من حبال القنب ليعلقه بأعلى جدران السور ، وليثبت به من أذناه
بكالليب حديدية .

وما كاد الليل يؤذن بالانصراف حتى كان جميع سكان المدينة
قد هجموا للراحة وعطوا في سبات عميق بسبب سهرهم المستمر ،

(الحروب الصليبية - ١) - ٣٥٣

ومواصلتهم العمل ، وحيداك بعث بوهيموند الى فيروز بواحد من
أصدقائه من خاصة حاشيته وأخلص الناس اليه ، وعهد الى هذا
المترجم أن يستوثق من فيروز تمام الاستيلاء عما اذا كان الوقت
ملائما لينبهم رفاق مولا .

فلما وصل الرسول الى فيروز وجده يطل من كوه صغيره في
السور . يرقب منها ما يجري وراءه ، فأقصى اليه في صوب حافت
برسالة سنده ، فقال له فيروز احلس مكانك ساكنا ، ولد
بالصمت حتى يمر من هنا كبير الحراس الذي هو في جولانه المعتاد
وفي صحنه طائفة كبيرة من أساعه ، وفي أيديهم المشاعل المضيئة .

ذلك أن نقاليد المدينة حرب - بالاضافة الى الحرس الموجودين
في كل برج - أن يدور كبار الحراس كل ليلة ثلاث مرات أو أربعا
بالسور ، ويدور معه في كل دورة نلة كبيرة من العسس يحملون
المشاعل المضيئة ، فان صادف أحدا فد غلبه النوم ، أو مراخيا في
أداء واجبه ، أنزل به القصاص الجدير به .

وسرعان ما وصل الصابط المكلف بهذه المهمة . فالتقى فيروز
برامب الأمور ويؤدي واجبه بمم الأداء ، فأثنى على نشاطه ، وانصرف
مطمئن البال هادئ الخاطر .

حينذاك رأى فيروز أن قد حلب اللحظة الملائمة للعمل . فجاء
الى رسول بوهيموند الذي كان مواريا حتى الآن حتى لا يراه أحد
وقال له : « هما عجل بالذهاب الى مولاك واطلب اليه الحضور برحاله
المختارين على جناح السرعة » ، فانكفا الرسول عجلان الى سنده ،
فوجده على أتم أهبة ، فاستدعى بوهيموند اليه القادة الآخرين سرا ،
فاستجابوا له سراعاً ، ثم انطلق كل واحد منهم بمن ينسعه
من رحاله حسبما اتفقوا عليه ، وما انقضت لحظات قلائل حتى

كانوا جميعا واقفين أسفل البرج وفعلة رجل واحد ، دون أن يسمع
أحد لقدمهم صونا ، أو يحدوا جللة .



في حلال تلك العمره القصيره كان فيروز قد دخل البرج .
فوجد أحاه يفظ مي دومه ، ولما كان قد تأكد لديه حمقة مشاعره
وانها ضد المشروع الذى دبره واسعد لتنفيذه ، فقد خشى أن يقوم
شقيقه هندا بما من شأنه عرقله بتحقيقه ، بعد أن أوسك على
احراجه . ومن ثم طعنه بسيفه طعنه نافذه ، فكادت ضربة طيبة
ودنيئة فى الوقت ذاته . ثم عاد فأطل من الكوة الموحدة بالأسوار ،
فطالع بحيا حلماه . محيا كل منهما الآخر بحبة منها الرخاء سلامة
كل حائمه ، ثم دلى فيروز حبلا حذب به السلم من أسفل السور .

لكن على الرغم من رفع السلم وتسييه تنبيها محكما من ناحيتى
العمره والقاع الا أن الجراء لم يوات أحدا على سلقه . ولم يوجد
من يخاطر بحياته فيسقله . نزولا على أمر رئيسه ، أو حتى
انصاعا لأمر بوهيموند نفسه الذى لم يكده يبين ذلك الاحجام منهم
حتى بادر وأقدم هو ذاته على ارتقاء السلم غير هياب ولا وجل .
فلما بلغ القمة وعلق بحدار الشرفة امندب يد فيروز من الداخل
وأمسكت باليد المعلقة بالسور ، فلما عرف فيروز فيها يد بوهيموند
نفسه ، قيل انه هتف « عشت يدا ، وسلمت » .

وأراد فيروز أن يرفع قدره فى نظره بوهيموند وفى عون
المسيحيين الآخرين حين يعلمون بما جرى من اغياله شقيقه الذى
لر يقبل مشاركته فى عمل مقدس كهذا العمل ، فأخذ بيد
بوهيموند القائد ، وسار به داخل البرج ، وأراه جة أخيه
الهامة غارقة فى دمها ، فما كان من بوهيموند الا أن احتضن

هذا الرجل الصادق في اخلاصه ، والباب على عهده ، وقد فاضر قلبه بالحب ، ثم عاد الى الشرفة مطلا برأسه قليلا من خلال احدى الفتحات ، ونادى برجاله في صوت هامس آمرا اياهم بالصعود ، لكنهم كانوا مترددين اذ لم يجرؤ أحدهم على تلبية أمره ، لأنهم كانوا لا يزالون في شك فيما سمعوه من الشرفة ، فلما أدرك يوهيموند ذلك الأمر من أصحابه نزل اليهم عن طريق السلم ، فكان ذلك برهانا لا ريب فيه على سلامه ، وسرعان ما أخذ كل واحد منهم يزاحم رفيقه ويدافعه بغية الوصول الى السور ، حتى اذا تكامل جمعهم لم يستولوا على ذلك البرج وحده ، بل وضعت في أيديهم أيضا أبراج كثيرة غيره على كلا جانبيه ، ولقد سمعنا أنه كان من بين الذين تسلقوا السور ، كوت فلاندرز ولورد تانكريد .
اضفى غيرهما أثرهما .

- ٢٢ -

لما رأى الزعماء الآخرون وصول الرجال الاتمءاء الى سرفات الأسوار في أعداد كبيرة مما أدى الى فتح أكبر من بوابة لهم ، عادوا سراعا الى المعسكر ليستعد أتباعهم لتلبية الإشارة باقمحام المدينة حين يرسلها لهم رفاقهم الموحودون بها ، وأحس الذن نسلقوا الأسوار كأنما سرت فيهم حماسة علوية ، فقادهم فيروز بنفسه الى داخل المدينة ، فاستولوا على عشرة أبراج في ضواحبها ، بعد أن فكوا بحراسها ، وقد سم ذلك كله والمدينة يلفها السكون المطبق ، فلم يسمع أحد لهم صوتا .

كان في ناحية السور الذي صعد منه الصليبون باب سرى
فترلوا اليه ، وحطروا قصاده ، ونقصوا أفعاله ، وسحروه وأدخلوا
من خلاله العسكر المسطر في الخارج ، وأرداد عدد المهاجمين خلف
الأسوار زياده ضخمة ، وأندفع هؤلاء وهؤلاء جميعا الى المكان المعروف
بباب الحسر ، وأعملوا الذبح في الحراس في هجوم سرس عليهم .
ففتحوا هذا المدخل أيضا .

في هذه الأناء حمل بعض أسباع يوهنود رايه الى تل
مسرف على المدينة ، وركروها في مكان بارد للعدن على مربع قرب
القلعة العليا .

ثم للآلات السماء مؤدنه بطلوع الشمس . فصح في الأبواق
لتكون اشاره لرجالنا الدين أحدثوا ضجة صاحبة عند مدخل المدينة
ولمحملوا الجند الذين لا زالوا في المعسكر على التحرك . فلما فهم
الزعماء معنى هذه الاشارة - التي كان ميقفا عليها من قبل - همروا
الى صفوفهم وأسرعوا يأخذون فرسهم كلها . وانظلموا على عجل الى
المدينة ، واستولوا على منافذها وأبوابها .

وحينذاك تحرك العامة [اللاتين] الذين ظلوا حتى هذه الساءه
على جهل بما دبر من خطط في الخفاء ، فلما أدركوا أن المعسكر
شبه خال قد غادره جل من كانوا فيه انطلقوا هم أيضا في أعقاب
الآخرين وشقوا طريقهم - وقد تملكتهم الحماسة - الى داخل المدينة
الى استسقط أهلها على الضجة العالمة ، ولم يستطيعوا أن يبينوا
بأدى دى بدء حفيظة هذا الصباح العالي الذي لم يألوه من قبل .
لكهم طالعوا منظر العرسان العجيب وهم في دروعهم وزرديانهم
سدافعون خلال المدينة ، كما شاهدوا آثار الدمار في كل ركن وناحيه
في السوارع والمادين ، حينذاك أدركوا حقيقة الأمر ، ففروا من
بيوتهم وهاموا على وجوههم ، محاولين الهرب بسائهم وأبنائهم .

واطلعوا على عر هدى قد ضل صوابهم ، فى محاولات مجنونه
للتخلص من عصابات الجند المسلحين ، بحا عن مكان آمن يلوذون
به ، فاندفعوا وهم لا يدرون أس منضون وقعوا فى طريق المحاربين
الآحرين .

أما من كان يسكن المدينه من المسيحيين والسريان والأرمن
ومؤمنى الشعوب الأخرى فقد جاورت فرحهم كل فرحة لما جرى ،
وبادروا الى امتشاح السلاح وانصموا الى الجيش ، واذ كانوا على
دراية تامة بكل ركن فى المدينه فقد كانوا نعم المرشدين لغيرهم عبر
مسالك البلد المتشابكة المعوجة ، وكانوا اذا وجدوا بوابة لازالت
مغلقة ونسوا على حراسها ونكوا بهم ، وشقوا الطريق بكسر الأقفال ،
ثم أدخلوا رفاقهم ، وخيل اليهم أن هذا النفر المدهش قد جاء
من الرب .



أما أولئك الذين كانوا يفاسون شدة نير الرق من تلك الكلاب
التجسة ، والذين كابدوا وطأة ثقل الخدمات والمعذيبه دون أن
يرحمهم أحد فقد أصبحوا قادرين على أن يصبوا على أعدائهم مثل
الذى صبوه عليهم من الأهوال ويعملوا على تدميرهم .

فى هذه الأثناء تمكن جيشنا كله من دخول المدينه بعد أن
استولى على أبوابها وأبراجها وأسوارها من غير مشقة ولا كلفة ،
وأخذت رايات الزعماء ورنوكهم المعروفة للمجمع تحق من أعلى
الأماكى رمزا للنصر الذى أحرزوه . فانى أنفت قسم مذبحه وآلام
مبرحة وعمويل نساء ، وأرباب بيوت يجرى عليهم القمل هم وأهلهم ،
وراح الصليبيون يشقون طريقهم الى البيوت ، محطبين كل الأدوات
المنزلة ، وصارت جميع حاحات العدو بها مسنناحا لأول من
يسعه حظه أن يصل إليها ، وحاس المنصرون حينما شعوا .

فأصبحوا الأماكس التي كان دحوليم البيا محرما عليهم ، وطعمى عليهم
حنون العسل والنهب فلم يراعوا ذكرا ولا أنثى ، ولم يوفروا كثيرا
لسنة ثم راحوا يستفسرون من كل غابر لسوارع المدينة ومبانيها
أين تكون بيوت سراء الأهالي وأن يسكن أثراهم ، وكونوا من بسيم
المجادع . وتعمل السيوف في الأمهات وأطفال البلاء ، ثم راحوا
يتقاسمون فيما بينهم ما بالبيوت من أثاث وذهب وفضة وثياب
غالية .

ويقال انه قتل ذبحا في هذا اليوم ما يربو على عشرة آلاف
من الأهالي ، واكظت الشوارع في كل مكان بحف القلى التي لم
تجد أحدا يوارىها ، فبقيت حب هي .

- ٢٣ -

حين رأى ناعى سكان آن المدينة قد استسلمت خصمه الذي
تملك جميع أبراجها وحصونها ، وحين شاهد الساحين من الهلاك
يرتدون الى القلعة على عجل ، بدأ الخوف يسرب الى نفسه من أن
ينعمه المسيحيون الى حب هو وافف ، ويحدوا به هو أيضا ،
فاندفع - كأنما قد أصابه مس من الحنن - نحو بوابة خلعه ،
وهرب وحده من غير رفيق ، ولم يكن يعبه سوى الانقاء على
مهجنه ، وببسا كان يخبط لها وهناك في حرع قابل ويهيم على
وجهه من غير هدف واضح اذا بطائفة من الأرمن يصادفونه معروفه
في لحظتهم ، فاقربوا منه حتى لكأنهم يهيمون بعظمه ، فاذن لهم
بالدنو منه وهو جزع ، فلما بينوه وحده عرفوا أنه هارب ، وأدركوا

فى ساعهم أن المدينة قد سقطت فوبوا عليه وطرحوه أرضا فى غلظة ، وأخذوا سيفه وقطعوا به رأسه وحملوها الى المدينة ، ودموها هديه الى العاده وعلى مرأى من الناس جميعا .

ووجدوا أيضا بمدينة أنطاكية جماعة من الأشراف كانوا قد وفدوا اليها من أماكن قاصبة لنجدتها ولاظهار جرأهم ، فلما بببها سقطها فى أيدي المسيحيين أجمعوا العزم على الارتداد الى الفلعه العليا دون معرفتهم بالناحه ، واسمبدهم الذعر والخوف على أنفسهم فانطلقوا هائس على وحوهم ، لاثنين بأذيال العراء ، لكنهم وحدوا أنفسهم وقد أحدى بهم فى مكان سدد الصبق أعجزهم النزول فيه لشدة انحدار الل تحتهم ، و لايسطيعون الصعود الى أعلى لتكاثر رجالنا عليهم هناك ، وبينما هم يلمسون فى يأس أى سبيل للنجاة اذا بلانمائه واحد منهم على جباههم يسقطون من أعلى الل ومعهم رنوكهم التى تميز الواحد منهم عن الآخر ، فدقت أعناقهم وبهشت عظامهم ، حتى لم يكده يبقى منهم شئ يدل عليهم .

أما الذين يسكنون المدينة وما حاورها ويلمون بدروها وشعابها فكانوا أسعد حظا من هؤلاء ، اذ ما كادوا يعلمون بخبر سقوط أنطاكية حتى نجعوا وانطلقوا مع الفجر الوليد هاربين الى اللال من خلال أبواب أنطاكية التى بدأت تغلق من جديد . لكن فواتنا تعقتهم ، فردت البعض منهم ، وأمسكت بهم وقيدتهم بالسلاسل ، أما من أسعفهم حسادهم بالوصول الى اللال فقد انحدا من الاجراءات ما حفظ عليهم حياتهم ، وضمن لهم السلامة .

واذ بلغت الساعة الخامسة عادت قواتنا المطاردة ، فلما نجع كل من كانوا قد انشروا فى المدينة أجرى استقصاء دقق دل على أنه لم بعد بها شئ من المئونة ، ولم يكن ذلك بالأمر المستغرب لأن الحصار ظل مسمرا بغير انقطاع ما يهرب من سعة شهور متتالية .

علما أنه وجدت كميات ضخمة من الذهب والعصه الخواهر
والأواني الثمينة والسيوط والأقمشة الحريرة فاستولى عليها الناس ،
وفاضت بها أبدى من كانوا حتى الآن حاسا مسئولين بآثارها فجاءه
وصارت لديهم وفرة من كل شيء .

على أنه لم يوجد في كافة أرجاء المدينة أكثر من جسمائه
حصان من جياد الحرب ، ولكنها كانت حيويا ضامره عزيمته تكاد
تموت جوعا .

وكان الاسيلاء على مدينة أنطاكية في اليوم الثالث من شهر
يونيو من سنة ١٠٩٨ من ميلاد المسيح .

هنا ينتهي الكتاب الخامس

هنا يبدأ الكتاب السادس

محاصرة الصليبيين : النصر المعجزة

فصول الكتاب السادس :

- ١ - وصف الجبل المشرف على المدينة والذي لا يزال بعضه في يد العدو الذي أقام حراسا هناك ، وارسال رسل الى الساحل الشامي وحصن المدينة تحصينا فويا .
- ٢ - مقدمة من حتنس كربوعا قوامها ثلاثمائة رجل يحظر أمام المدينة ويحرج لقاتلها روجردى بار نفيل غير أنه يلقي مصرعه مدبوحا .
- ٣ - الأمير الكبير يتقدم الى الأمام ويصرب معسكره على

المرتفعات المسرفة على القلعة ، والتخليق على الدوق
عند الباب الشرقي وهلاك مائتين من رجالنا .

٤ - الصليبيون يحمرون خنادق داخل المدينة يمتد
على طول سفح النبل ، وهناك تنسب معركة تدور
الدائرة فيها على العدو الذي ينزل قائده من الجبل
ويحاصر القسم الأسفل من المدينة .

٥ - الصليبيون بأطباكه يكابفون مرارة الجوع
فيسلل بعض السبلاء خلسة ، وتوضع القيادة
العليا في يد بوهيموند .

٦ - كوث فلاندرر يصرم النار من نلقاء داته في
الحصن المواجه لباب الجسر حين يجد نفسه
عاجزا عن استخلاصه ثم يغادره ، كما أن القائد
العام لقوات العدو يبعث الى فارس وهطام من
أسراه الصليبيين .

٧ - اضطرار الشعب لآكل الطعام القذر - وإن كان
على مضض - أمام استفحال المجاعة .

٨ - العدو يكاد أن يستولى خلسة على أحد الأبراج ،
لكن هنرى دس نفاومه مقاومة بأسلة وينجح
بعد قتله لكثير من الأتراك - في الاستحواذ على
البرج بقوة السلاح .

٩ - العدو ينزل الى الساحل ويحرق المراكب ويقتل
الكثيرين من رجالنا على طول الطريق .

١٠ - سنيين كويت سارنرر يرور امبراطور
القسطنطينية .

١١ - حديث سيفن الكاذب الى الامبراطور مما يعود
بأوخم العواقب على الصليبيين .

١٢ - الامبراطور يعود الى بلاده ثمة منه في كلام الكويت
ثقة حملته على وقف الحملة التي كان قد أعدها
لمساعدتها .

١٣ - أنباء اسحاب الامبراطور سجع العدو على
كثيف صعطه على الصليبيين الذين يحملهم اليأس
على رفض القيام بواجبهم ، فيضرم بوميموند النار
في المدينة ليحملهم على الخروج من مخائبهم
ويدبر الزعماء خطة للهرب ، ولكن الدوق يعسد
عليهم خطتهم .

١٤ - الرؤيا التي رآها سحس اسمه بطرس [بارليميو]
والكشف عن حرية المسيح وعودة السكينة الى
نفوس الناس من حديد .

١٥ - الزعماء يجمعون الرأي على بعث بطرس الناسك
رسولا من قبلهم الى العدو فمضى ويؤدي
المفارقة بشجاعة .

١٦ - بطرس الناسك يعود الى الزعماء ويعصل لهم
الحبر عن وجهة نظر العدو المعجرفة ، فتعلن
الحرب .

١٧ - الصليبيون يعادرون أنطاكية بعد اغتداء صفوفهم
للقِتال ويتركون كونت تولوز لحراسة المدينة .

١٨ - كربوعا يستعد المسح الصليبيين من معادرة
المدينة ، ولكن رجالها يسفون لهم طريقا بالقوة .

١٩ - بينما الصليبيون يعمدون أخذت السماء فساقط
عليهم الندى فنزلت السكينة عليهم جميعا .

٢٠ - كربوعا يربب عسكره للحرب ويشب القتال في
الأحياء المجاورة ، كما يسر فلج أرسلان الهجوم
على الصليبيين الموجودين في المؤخرة ويكتف
الصفط على صفوف بلدوين فيسرع الزعماء
الآخرون لسجده وبعلمون الترك الذين يضرمون
النار لمكويين سائر دخاني .

٢١ - فائد قوات العدو يهر ويهلك عسكره . أما
الذين فدرت لهم النجاء فيلودون بأذيال القرار .

٢٢ - بعد أن يهرع رجالا من فيكمهم في العدو يعودون
الى المعسكر محملين بكميات وفيرة من الأسلاب .

٢٣ - الهدوء والنظام يعودان الى أنطاكية ، ويأخذ
الصليبيون في نظيف الكنائس وترميمها ،
ويعود رجال الدين للاشراف عليها .

هنا يبدأ
الكتاب السادس
محاصرة الصليبيين : النصر المعجزه

- ١ -

هدأت الجلبه أخيرا ، واستعادت المدينه هدوءها . وكلت سبوف
العاليين التي اربوب بالدماء من المداخل التي لا نهايه لها . واذ ذاك
السقى الرعاء للساور فيما بينهم . ادراكا منهم أنه لا زال هناك
عمل كبير أمامهم حتى يكتمل الفتح . لذلك أقاموا حراسا على الابواب
والأسوار وعزموا على ارضاء الجبل ونهاجمه القلعة . وبعضوا المادى
يأمر جميع القتال العسكرى بصعود التل المسار الى . فلما صاروا
على المرتفعات اصبح لهم صعوبة اصحاب القلعه بسبب حصانها ،
وانه لا سبيل الى الاستلاء عليها الا ان احاطوها . واذ كان هذا
الأمر بطلب انما طولته فقد أدرك الرعاء صاع كل ما سدلونه
من الجهود . وأنه لا بد لهم من سلوك سبيل أخرى غير هذه .

كان الجبل المشرف على المدينه يسعه من وسطه واد عميق .
له حابيان شديدا الانحدار . وكان انحداره المواحه للسرى أعصى
المحدرين ولكنه يبسط من اعلاه لسنهى الى سهل فسح راحر
ببساطين العشب وبالمراعى . وكانت المسافه بين سقى هذا الوادى
العميق شديده الاسراع حتى لئيل للباطر أن هناك حبل وليس
جلا واحدا مسطورا الى سطرين .

أما المنحدر المواجه للعرب فكان أعلى من الآخر ، وهو يصرب
بمنته في العلاء حتى تكاد الجوراء ، كما يقوم القلعة على أعلى نقطة
فيه ، وهي محصنة بالأسوار العوية والأبراج الضخمة .

ومند من السرى الى العرب هو سحيقه العمق مما يستحيل
مهما تصور مدى الخطر الذى يتعرض له من يحاول الوصول الى
القلعة من أحد هذين الجانبين .

كما توجد الى العرب بل أقل ارتفاعا ، ويفصل بينه وبين
القلعة واد متوسط الاسماع . وان كان أمبل الى الضيق ، وبعده
منحدرات يسيره . ويشقه طريق واحد يخرج من القلعة وينحدر الى
المدينة . وهو طريق يصل في داه خطوره حتى ولو لم يكن هناك من
يهاجمها . ورأى فوادنا أن الحكمة تقتضيهما الاستبلاء على هذا الل ،
حتى لا تناح للعدو فرصه الوصول الى المدينة ان خرج من باب القلعة
لمهاجمة موانئنا . ولذلك تم وضع طائفة من الرجال الشجعان في ذلك
الكان ، وزودوا بما يلزمهم من الطعام والسلاح . كما تم بناء سور
به ماريص حربية ، ثم نصب فوق هذا كله الآلات وأعدت في
وضع اسمرانجى لرد العدو على أعقابيه .



ونزل الرؤساء مرة أخرى الى المدينة للتشاور في أمور أهم مما
سبق لهم التشاور فيها ، وعقدوا العزم على الرجوع حالما يفرغون
من بحثها . وكانوا قد أزمعوا على البقاء جميعا - ما عدا اللوق - في
هذه الناحية حتى يتم الاسيلاء على القلعة .

كما اتفق اجمعهم على أن يقوم جودفروى بحراسته الباب الشرقى
والطابية الواقعة خارج المدينة ، وذلك لما عهدوه فيه من علو الهمة ،
وكانت هذه الطابية في أول انساؤها موكولة الى بوهيموند .

وحاص الاحبار الى القاده ان كربوغا الرعم الكبير المسار
اليه سابقا سوف يصل قريبا جدا ، اد أنه دخل أرض أنطاكية وبعث
بالالوف المؤلفة من عسكره في البلاد ، فكان خير ما يسمى عمله في
هذا الطرف هو ارسال أحد زعمائنا الى جهة الساحل ، لاسدعاء
الاحوه الذين ذهبوا الى هناك لحسب المتوهم اللازمه التي يمكن العور
عليها هناك .

وفي خلال اليومين السابقين لوصول جيش كربوغا الكبير ،
لم يترك الصليبيون سبيرا من اراض المحطة بالبلد الا ذرعوه
وفسوه بميسا دميكا ، ثم عادوا بكل ما صادفهم من طعام وعلف
أيا كان مصدره ، وبذلوا جهودا مصنية لتكوين المدينة . كما أن
الاهالي والفلاحين الذين يعيشون في ريف البلاد جاءوا بكل ما استطاعوه
من طعام حين أدركوا اسسلام أنطاكية للصليبيين ، بيد أن كل
ما جرى به من شتى النواحي لم يكن شيئا مذكورا ، ان لم يكن
شيئا أبدا يكفى ما تروى على الحصار الطويل الذي اسرف في
هدى شتوره التسعة المسالية موارد الاقليم بأجمعها ، ولم يحلف
شيئا يمكن الاعتماد به لمساعدة رجالها حتى ولو بضعة أيام .

- ٢ -

فلما كان اليوم التالي للاستيلاء على أنطاكية وبمما كان
الصليبيون باذلين غاية الهمه في حراسه المدينة ونزويدها بالمتوهم .
إذا بلائمائة من فارسى جيش كربوغا مدججين بالسلاح من معه

(الحروب الصليبية ج ١) - ٣٦٩

رؤوسهم الى أخمص أقدامهم قد امطوا الجناد الصافيات واحضروا في
 كمين قريب من المدينة ، وكانوا قد جاءوا طليعة لأمر عاجل هو
 القبض على أى جماعه من رجالها يكون قد عادت موضع حراسها
 خارج الأسوار ثم بعد بها السير دون أن سجد الحيطه لحمايه نفسها .
 وكان ملايون من هؤلاء اللامثائى على حبول سريعه الركض قد أخذوا
 بروحون وبحشون أمام المدببه مطاهرس بعدم الاكراب بأى خطر
 بدهمهم ، فلما رأهم المسحون الذين وراء الأسوار يحون بيده
 الصورة بفجر مرجل غضبهم عليهم . أو لعلهم أحسوا العار السديده
 ان هم كفوا عن مهاجمهم ، واد ذاك نحرك « روجر دى بارنيل » وهو
 من أنساع روبرت كرت نورماندى ، وكان محارباً بأسلا أنجز كثيرا
 من الأعمال الباهره فى هذه الحمله ، وأسرع باصطاء فرسه وخرج
 من السوابه واطلق يعى مهاجمهم ، واستتصحب معه ثله قوامها
 حمسه عشر رجلا من أنساعه ، وعزم على أن يبحر - كدانه - عملا
 من أعمال البطوله . وعدا عدوا سريعا مهاجما هؤلاء القوم بسحاعه
 عظيمه ، فطاهروا بالعرار هربا منه ، وظلوا مبعين فى الراحه
 حتى بلغوا الموضع الذى يحتفى فيه رفاقهم الذين برروا من مكمنهم .
 ورايت أعدادهم بكنره ، وانضم بعضهم الى بعض فى مهاجمه
 « بارنيل » ورهطه هجوما عسفا لم يجدوا ازاءه بدا من الهرب . وأم
 يكن روجر ورجاله فى جمعهم يعادلون العدو فى جمعه وبأسه .
 لذلك حاولوا الرجوع الى المدينه ، غير أنه حال بينهم وبين مايتسلطونه
 سرعه عدو حباد الخصم الذى رمى روجر بسهم قاتل أصاب قلبه ،
 فأوقعه من على ظهر حواده وأرداه قسلا ، فحزن عليه رفاقه أشد
 الحزن ، لأنه كان قد أخلص النية ، فأبحر أهداف الحجاج
 الصليبيين .

ونجح رفاقه فى الوصول الى المدينه ، أما هو - وهو الرجل
 البارز - فقد حز الاعداء رأسه على سراج جميع من على الأسوار

والأبراج العاجرين - واسفاه - عن اسفاه ، ورجع العدو لم يلحظه ادى .

لم يكند [المهاجمون] يعودون من حيث جاءوا حتى خرج الصليبيون يدفعون الدمع السحين على روجر وببكونه ، وحملوا جسمانه الى المدينة في احفال يلقي به ، ثم أقاموا المراسم الاخيرة للميت الراحل في حضرة العاده والناس أجمعين ، ووسدوه الترى في احفال رائع أسم في ظله كسسه أمير الرسل [العديس بطرس] .

- ٣ -

ما كاد يطلع فجر اليوم التالى ، وهو التالى بعد استخلاص المدينة ، ثم ما كاد الشمس بدر فربنا حتى كان اقوى الامراء الذى أسرنا الله مرارا قد احتل القطر بأجمعه الى آخر ما يمكن أن يراه عن المظل من القسم الأعلى بالمدينة ، واستطاع بجموعه الغيرة - التى يريد رباه أكثر مما تذكره الأحبار - أن يعبر البحر العلوى ، ويصرب بحمه فيما بين البحيرة والبحر ، وكان كل منهما يبعد عن الآخر مسافة ميل واحد ، وكانت حملته تسفل مساحه كبيرة وعسكره كبيرين جدا حتى ضاق بهم السهل العسبح الذى يقع فيه أنطاكية ، فتصنت مخيمات أخرى غطت اللال المجاورة .

٣١٩

ولما كان اليوم الثالث من نصبه معسكره أمام أنطاكية نبين له شدة بعده عن المدينة ، فبحث الأمر مع رجاله ، وسن ليم أنه يريد أن يكون على مقربة ممن يحتلون القلعة ، لسنظيم نعدته ان

٣٧١

سعت الضرورة الى التجده ، كما أنه أراد أن يدخل فوانه الى أنطاكية عبر البوابة الموحودة أسفل القلعة ، ومن ثم فوض معسكره ، وارهق المرتفعات ، وأحرق بكل الجانب الجنوبي الشرقي للمدينة ، محنلاً المظلة الواصلة بين البوابتين السريه والغريه .

كان هناك طائفة أقيمت في البداية لحماية العامة . وهي وافته على تل مرتفع بعض الشيء قرب الباب السري ، وقد عهد بهذا المكان أولاً الى رعايه بوهبهوند الذي شرع - بعد أن تم الاسيلاء على أنطاكية - في نصريف الاداره العامه للمدينه ، كما عهد بالطائفة المسار اليها والبوابه الغريه منها الى الدوق ليعوم بحراسهها . وكان الأعداء قد صربوا أحد معسكراتهم حول هذه الطائفة ، ودأبوا من هناك على س هجماتهم الموصوله على من بداخلها ، وسرعان ما ضاق الدوق درعا بعربدهم التي استحال عليه تحملها أكثر من ذلك ، ومن ثم كر عليهم برجاله لاسعاف المدافعين عن الحصن ، الذين كانوا على وسك الاسنسلام ، كما راوده الأمل في أن يتمكن من التغلب على المعسكر المصروب أمام البوابة ، لكنه بينما كان ماضياً لتجده رجاله ، اذا بمعسكر من الانراك يهاجمونه ، وكانوا أشد منه بأساً وأكثر عدداً ، فأدرك عجزه التام عن الصمود أمامهم . ونجح بعد لآي في النجاة من سيوفهم ، فانقلب على ععبه مرثدا الى المدينه ، ومضى الترك في انره يطاردونه بعزم كبير ، غير أن العوغا من الحجاج الذين لا يعرفون النظام تكاثروا وراح بعضهم يزاحم بعضاً في هروبهم البائس ، فسند المدخل وحال كل واحد منهم بين صاحبه وبين الدحول ، مما أدى الى سقوط الكثيرين ، فوطأتهم أقدام الآخرين ، وأتخبت بعضهم جراحهم ، وأسر سواهم ، وقد قدر عدد القتلى منهم بدائتي فنيل هلكوا عن بكرة أبيهم .

كان الأتراك يعدون الدوى الرعيم الأكبر للجنس الصليبي .
وفد أدخلت هزيمته الفرحة في قلوبهم حتى انهم طمعوا في القيام
بأعمال أكثر جرأة ، لذلك نزلوا الى المدينة عبر باب القلعة الأعلى ،
سالكين طرفاً حاسه معروفة لهم تمام المعرفة . وبأغوا رجالاً
بالهجوم عليهم ، وأدركوهم وليس عندهم حراسه . فمكوا بالكبيرين
منهم ضرباً بالسيوف ورمياً بالسهام . ومع ذلك فانه لما حاول
الصليبيون مطاردتهم ارتدوا سريعاً الى النواحي المربعة . واسولوا
على القلعة هناك ، لانه كانت لديهم طرق أكثر من تلك الطرق التي
كانت بالسل ، والتي كان رجالاً قد اسولوا عليها وأحسوا
بخصيتها .

وتكرر حصول هذا الأمر ، وهلك الكثيرون من أهل المدينة من
حراء هذه المناورات المحيرة ، حتى أدب بالزعماء الى اجماعهم الأمر
على وجوب إيجاد علاج لهذا الشر المستطير . فانفقوا برصاء نام على
قيام بوهيموند وكونت تولور بحفر خندق عميق عظم الانساع ،
يكون عند سفح اسل بأسفل المدينة . مما لانه أن يؤدي الى الحد
من غارات البرك الممالة في نزلهم من أعلى المدينة ، ولقد ترنّب
على حفر هذا الخندق أن نعم أهل البلد بعثره من الهدوء .

كذلك رأى الصليبيون أن يشيدوا هناك أيضاً طائفة لرداد
فعالبة هذا العمل في حماية الأهالي ، وشارك في بناء هذه الطائفة
جميع القوات مصاركة صادقة مخلصه ، كما انهم يعجبونها من أجل
سلامتهم هم انفسهم . أما البرك - سواء من كان منهم بالقلعة في
نلك الباحة أو من كان منهم يحاصر المديسه من الخارج - فقد
استمروا ينزلون من خلال البوابة العليا . عن طريق ممراب سرية .

واكبروا من هجماتهم على هذا العمل الجديد بعنه بدميره . مسخدمين
من أجل ذلك سبي الوسائل المتاحة لهم .

ثم جاء يوم من الأيام خرجت فيه طائفة من الترك أكبر مما
أجرت العادة به كل مرة ، وكروا عبر المسالك المعروفة لهم ، ثم
اندفعوا نحو هذه القلعة الحديثة البناء ، وسرعوا يهاجمون من
بداخلها هجوما عسفا ، مما كان لابد ان يؤدي الى وقوع من كانوا
في تلك الطائفة اسرى في أيدي الترك ، لولا أن هب لتجندهم العاد
الذين كان قد وكل اليهم الدفاع عن نواح أخرى من المدينة الى جانب
كل منهم المبصرين في ابطاكنه ، وكان هؤلاء العاد هم . بوهيموند ،
وامرار دى بوبسه ، ورالف دى موسى ، ورسالد كرينون ،
وبطرس بن حسنا ، والبريكوس ، وايهو .

ولقد كره الدوق وكونت فلاندرز وامير نورماندى كره صادفه على
لكل الناحية مما أدى الى فشل محاولات العدو ، وهلاك الكبريين من
الاتراك ذبحا ، ووقع بعضهم فى الاسر ، أما البقية فقد حملها
فرعها على الهرب ، لس من الطايفة وحدها ، بل من المدينة كلها :

وانقلب هؤلاء الفارون الى مولاهم وهم معجبون بسدة بأس
الصلبيين ، والسسهم بسيد سجعهم العجبة ، كأنما قد تمت
فيهم النبوءة القائلة : « ارجع لكى تصبح رحلك بالدم . السس كلايك
من الأعداء تصيبهم » ، لأن الجميع - حتى من اضطهدوهم - كانوا
لسان مدح وتناء على هذا السعبد المخلص .

أقام كربوعا أربعة أيام فى الجبال كما قلنا ، حتى اذا فقد كل
أمل له فى النجاح ، وأدرك أيضا أن علف حوله قد نفذ أو كاد
فوض معسكره ، ودرل الى السهل مرة أخرى بكل جسمه عابرا بهم
النهر من مخاضة عند صاة موجودة هناك ، وعهد الى فواده بجنده

الذين ربهم على شكل دائره وحملهم على مسافات مسائيه ، ثم راح
يحاصر أنطاكيه .

فلما كان البرم السالى انفصل بعض الأبرك عن بقية الجيش ،
وراحوا يتحدثون رجالا للرجال ، ويرحلوا عن حيدهم ، واستند
حرأبهم فى الهجوم على المدافعين المرحودين على السور حراة اخضت الى
هلاك بعضهم ، ذلك لأن نائكريند قام يهجم فحائى عند الباب السرمي
ويأغب البرك وهم على هذا الوضع الذى لم يستطيعوا معه معاوده
امطاء حصادهم ، فدخل منهم سته ولاذ الباقون نادال الفرار بم أمر
يقطع رؤوس ضحاهاء وحملها الى المدييه عراء لاهليا وسلوى ليهم .
ومسحا للحرز المفض الذى كان يقطع بساط علوب المؤمنين لمصرح
« روجر دى بارنفل » الذى قتل هناك .

- ٥ -

فى هذه الأساء كان السعب الصليبي الذى قام بحصار
أنطاكيه والاسيلاء عليها عتوة ونفوه السلاح قبل ذلك بوقت قصير
- قد أصبح الآن يعانى سده الحصار . وهو يعر كسر الحدود فى
حياء الانسان ، وريادة على ذلك فقد أنهك الصعاب الصليبيين انهاكا
لم يعد معه فى مقدورهم احتماله ، كما كاندوا سطف العس بسبب
المحاعة التى حاوزت كل حد ، وهكذا وقعوا من حطس السيف من
الخارج ، والفرع فى الداخل ، ثم انه كان من الطسعى أن يسمد بهم
الخوف من حسود العسكر الكيرين المحاصرين للمدينة من الخارج
هذا بالاضافة الى أن الأبرك كانوا لايرالون يحكمون قضيتهم على
العلمه ، حتى راحوا يسمون منها - كما قلنا - هجانبهم الآخذ بعضنا

بحجز البعض الآخر ، فلم بعد المؤمنون يعرفون مصي للراحة ، وبماك
الناس الكثيرين منهم عدنا لهم على خطاياهم ، حتى أن معظمهم
ساسوا مهمتهم والعهد الحمة التي قطعوها على أنفسهم فانفصلوا عن
رفاههم ، وبرلوا نلسه من الأسوار مسعين بالسلاسل والحبال ،
منحعين وحدهم هربا ناحية الساحل ، وسقط بعض هؤلاء في أيدي
العدو فضرب عليهم الرق الدائم ، أما الذين نجحوا في الوصول الى
البحر فعد أزعمو أهل السعى الراسية هناك على قطع حبالها والابحار
في لخطهم هذه ، وصاحوا فيهم « ان هذا الأمير الكبير [يعنى كربوعا]
الذى جاء بعسكره الدين لا يحصيهم العدو ، قد استولى بالقوة على
المدينة التى كانت منذ قليل في أيدينا ، ولم ينج من فكه أحد من
رجالنا ، ودبح فوادنا ، ولكن شاءت ارادة الرب أن ننجو وحدنا
دونهم ... فها أسرعوا لفك الحبال والابحار قبل أن يبلغنا [كربوعا]
ويلحق بنا عند الشاطئ ويصيبكم ما أصاب قومنا » .

ثم اعلوا سطح السفن مع من كانوا عليها ، ولادوا بأذيال
الفرار المسين ، الذى لم يقتصر على الفوغاء وحدهم ، ولا على طغام
الناس منهم فحسب ، بل كان بين الهاربين رجال بارزون ، من دوى
المراتب الساميه ، واطلهم « ولم دى جراند سنيل » وهو من وجوه
أهل « أبوليا » المعروفين ، زوج أخت بوهيموند ، وأخوه « البريكرس »
ووليم البحار ، وجى دى بروسيل ، ولا مبرت الفقير وغيرهم ممن
لا يذكر اسماءهم التى لا ينبغي أن يتضمنها هذا الكتاب ، منذ أن
محيت هذه الأسماء من كتاب الحياة .

وكان هناك غير هؤلاء وهؤلاء جماعات قد أزعجها التفكير في
الأخطار الجسمة ، وعجرت عن تحمل المجاعة والمصائب ، فلبجات
الى العدو ، وكان ذلك من حائهم أكثر ما ارتكبه من المونقات ، لأنهم
بذلك أنكروا في لؤم نعاليم المسيح وعقيدته ، فكان هؤلاء المردون

يعلمون الى السرك احوال الجيس الصليبي ، مما ادى الى وصح الصليبيين في أسد المآزى حطوره ، كما أن الكبريين من طلوا مقيمين بالمدينه كاتب برادهم سرا الآمال في أن يعرفوا هم أيضا ، ونوسع أسعف بوى الموفر والعائد العظيم بوهيموند هذه المحاولات من جانب هؤلاء ، ومن تم حاربوا الى رجال من أهل العطه الذين دلت التجربة على أحلاصهم ، والمتوق بهم ، وعهد اليهم بحفظ الأبواب ، كما عهد بحراسه الابراج الى رعاء لم يفصروا في رعايتها بلا كلل : ليلا او نهارا ، ومن ثم لم يعد أحد ما - بارعا كان أم مراوعا - بقادر على الهرب ، وأراد القوم أن يكون لهؤلاء الحراس - صغيرهم وكبيرهم على السواء - حق ممارسة السلطة الكاملة فجعلوهم يقطعون البسج على أن يطيعوا أوامر بوهيموند بكل الصدق والوفاء حتى ينتهي حصار أنطاكية ، وحتى تقع المعركة التي كانوا في انتظارها ، ولما أصبح بوهيموند محاطا ، بباعه وحراسه وأصدقائه ، وكل من له ثقة تامة فيهم أحد غاية الحذر ، فلم يحظ قط - ليلا أو نهارا - بنسب من الراحة ، إذ كان يستغل وقته بالجول في السوارع والميادين ، والفنيش على الابراج والحصون ، لتطمئن نفسه ويهدأ باله من أنه ليس هناك من أحد منهاونا في مهمه ، ولما أكد من عدم وجود أي فرصة للعدو لدخول المدينه عن طريق الحناة .

وكانت هناك أربع فلاع تتطلب حراسها رعايه خاصة تلك هي الطابية العليا التي شددت في مواجهة القلعة العليا مباشرة ثم تليها ثالثة نفع دونهما داخل المدينه ووراء الخندق الذي حفر لصد الهجمات الى ثاني من بوابة المعسكر العالي .

وأما نالسا فكانت خارج الباب السرفى ، وكانت قد أقيمت لحماية المعسكر قبل احلال المدينه .

وأما رابع هذه الطوابي فضع على رأس الجسر وهي التي
تمكن الصليبيون بفضلها مد فريب من مهاجمة بوابة الجسر ، وقد
عهد في بداية الأمر بحراسة هذا الحصن الأخير الى كونت بولوز .
لكنه تحلى عن هذه الحراسة حين تم الاسيلاء على أنطاكية ، ودخل
المدينة مع الآخرين .

وحدث بعد الاسيلاء على أنطاكية أن قام كونت فلاندر مع
خمسمائه من الأبطال الأساس بحراسه هذه القلعة وكف من
استعداداتها الدفاعية ، محافة الا يستطيع سعيها الرواح والمجيء
عن طريق الجسر ان سقطت القلعة في يد العدو ، الأمر الذي لابد
أن يؤدي الى وصع أسد سوءا .

- ٦ -

لاحظ كريبوغا أن رجالها أصبحوا الآن أكثر حريه في القدره
على الخروج والرحوع دون عائق . كما رأى أن الحصن القائم عند
الجسر يصل عليه كداء أمام خطته ، لذلك أصدر أمره - في يوم
من الأيام - الى كسبة مؤلفة من ألفين من الفرسان المدرعين أن يحمل
السلاح وتشن هجوما عنيفا على ذلك الموضع ، فأطاعوه في لحظتهم ،
وبحروا لأنفسهم مواقع حصينة حول حائط الطابية التي أسرنا إليها
حالا ، وقسموا أنفسهم جماعات راحب تتناوب فيما بينها فدف الطابية
بسهل لا ينقطع من السهام ، منذ الساعة الأولى من النهار ، حتى
الحادية عشرة منه ، ولكن الكونت ورجاله استنبسوا في صيدهم ، ولم
ينحروا وسعا في الدفاع عن المكان الذي عهد الى الكونت حمايته .

ولما فاربث الشمس العروب ، وأخذ الليل يسر علانته على الكون .
بين للمهاجمين أنهم لم يقدموا الا قليلا ، فحلوا عن هجومهم وعادوا
الى معسكرهم ، غير أن الكوب حسي أن يعاود الاعداء الكره في اليوم
التالى بغوات أضخم من فواته التى تحب يده الآن . فلا يعود فى
استطاعته أبدا حمايه القلعه ضد حسود العدو الكبيه . لذلك دم
فى سكون الليل وأصرم النار فى هذا الموضع وبركها برعى كل
ما به ، ثم انكفأ الى المدينة من خرجوا معه سعياً وراء هذا الامل
الصائع .

ولما أسرف الصباح رجع عسكر الأمس المهاجمون يعاودون
هجومهم مرة أخرى ، وقد انصم اليهم العان ، فما بلعوا هذه الناحية
حتى وجدوها خاوية على عروشها ، وقد بهدم أكرها . فاضطروا
للموده من حب حاءوا دون أن ينجزوا مهمتهم .

وفى خلال هذه الايام التى كانت قوات العدو فيها بهاجمها
جلسة ، حدث أن صادفوا بعض الصليبيين من القراء المدميين الذين
خرجوا دون أن يأخذوا حذرهم . فأمسكهم وساروا بهم الى امبرهم ،
هدية منهم اليه كأول عبيد أسعر عنها بجاحهم ، غير أن سلاح الأسرى
الضعيف ، وما عليهم من رب النياب أنار استمزاز الأمير ، اذ لم
يكفى معهم سوى أقواس حسبة ، وسبوف باليه علاها الصدا . كما
سئر أجسامهم ملابس مرفه من حراء عملهم الدائم وبسبب قدم
هذه النياب لأنه لم يكن لدى قراء الحجاج ما يندرون به غير
هذه الأسمال ، ويعال انه ما كاد هذا الأمير يعرفهم حتى صاح
قائلا : « أبطل هؤلاء الناس يديب الدعوى فى قلوب الأمم الأجبية » وهل
يحق لقوم كهؤلاء أن يعيروا أنفسهم أبرياء وما هم الا كأفقر المرتزقة
يخود الناس عليهم بلعة الخبز ؟ .. ألا قانطروا الى ما يمين أسراف
أهل السرى من سلاح ... أما هؤلاء فان الصربه من سلاحهم ظل أن

بؤدى عصمورا أو سسقله على الأرض ، وعلكم أن نونوا هؤلاء الرجال ، وسوفوهم مكبلين بالأصفاد ومعهم أسلحتهم هذه ، وعليهم ثيابهم الملهلة ، ونخدوهم الى مولاي الذى أرسلنى فيعرف من مطهر هؤلاء الأسعاء أن العلبه على رجال كهؤلاء الرجال لا تسعرو من الوقت الا قليلا . . . ودعوه يفكر : أى صيت لمن هذا السعب النعس فى نفاخره بما يفتح !! واطلبوا اليه أن ينام فريز العين ويلقى بالبعه على أنا وحدى ، لأنه لن يمضى وقت فقصير حى لا يكون نم وجود لهذه الكلاب القذرة ، ولن يحسب لهم حساب بعد ذلك بين الأمم .

وأمرهم بهذه الكلمات أن يسلموهم الى رجال عنّهم لهم ، كى يسوموهم الى الساطان نارس ، وأن يفصوا اليه بما قاله هو الآن ، ذلك لأنه كان على نعه نامة من قدره فى يسر على فخر رجال هؤلاء الرجل وان لم يحرب بأسهم بعد ، غير عالم بأن هذه الكلمات التى ظن أنه يحط بها من دهر هذا السعب عند مولاه ، وأنها تجلب له المجد ، سوف تكون فى النهاية سببا لنكبته ، ولأنه حين تحيق به الهزيمة الكراء ، ويفوص فى حماً القوصى على يد هذا السعب الحفير ، فان العار الذى يلحق به اذ ذاك سوف يكون أشنع عار ، ذلك لان القاعدة العامة هى ان الهزيمة تكون أيسر احتمالا ان لقيها المعلوم من رجال سجعان أفويا ، أما اذا أحرز النصر عليه فوم لا اعتداد بهم ، ولا سطوة لهم فان شوار الهزيمة يكون أبلغ ، وعارها أفدح عليه .

أصبحت المدينة الآن محاصره من كل جانب ، وقد نعام وضع الصليبيين سواء لانهم أصبحوا عاجزين عن منازحتها لقضاء مآلهم من أعمال حارجها ، كما سدد المسالك أمامهم في دخولها ، مما نرب عليه عدم قدرتهم على جلب الطعام إليها ، فعص الجوع بابا أكرهم . واخذت المنون في الساقص وانعدم توفر مصائب الحياه الضرورية مما حبل الجوعى على سلوك سبل مججلة لسد هذا النقص ، ولم يعد م مجال لاختيار نوع الطعام حتى عند أكر القوم بأنها في أمورهم ، ولم يعودوا يأنهون بنطاقه اللحم الذى يجدونه أو قذاره ، ولا كيف جرى به ، سواء أكان مسترى أم مسروفا ، ذلك لأن المعدة الحاويه بصرخ عاليا فى طلب أى نوع من الطعام يسد جوعها .

كذلك فارق النبلاء وفارهم ، ولم يردد الأحرار فى فرض أنفسهم على موائد من لا يعرفونهم ، من غير دعوة يكون قد وجهت اليهم ، وناهفوا على الصدقة وجود غيرهم بها عليهم ، ولا يكفون عن الإلحاح فى استجدائها من ايدى غرباء لا يعرفونهم ، وكان هذا العمل أمرا مرفوضا عندهم من قبل .

كما تخلت العقائل عما كن عليه من الحسة التى كن قد طبعن عليها ، أما العذارى فد عدن يأنهن بالحجل الذى كان سمة لهن ، ونسبن أنوثتهن ، وطلعن بوجوه عليها غبرة ، وأصواب حرية تحرك أقصى الفلوب ، ورحن يلمسن الطعام أى وجدنه لا يسهن خوف من أن يراهن أحد .

لكن كان هناك آخرون لم تستطع المجاعة حملهم على التحلى عن وفارهم ، فانكفؤوا بوجوه حامدة الى جهات قاصبة ، يمشهم الأسى .

لأنهم كانوا يؤثرون الموت على الميى بين الناس يسألونهم لعمه نعيم
أودهم .

أما الرجال الذين كانوا من قبل أسداء العزم ، أصحاء البسه ،
دوى بأس سديد ، والدين لم يكن أحد يجهل قدرهم فقد بدوا وكأنهم
أنصاف موسى ، يوكأون فى ضعف على عصيهم ، ويجرون أنفسهم
فى السوارع والمبادين جرا ، وعلى الرغم من أنهم لم يصرخوا بكلمه
الا ان وجوههم المكثيه كانت تعصع عن أنهم يلتمسون احسانا وجود
به عليهم العابرون .

كما أن الأطفال الباكين ، والرصح على أنداء أمهاتهم كنت تراهم
فى كل مكان وفى مفرق الطرق ، يلتمسون اللعنه بسد رفقهم ورمق
من جاءوا بهم الى هذه الدنيا ، لكن يعجزهم الحصول على القدر اليسير
من الطعام لأنفسهم ولا يقول لأمهاتهم .

وفى خضم هذا الزحام الكبير فل أن وجد أحد عنده من
الطعام ما يمكن أن يكفه هو وحده ، اذ نضب فى الواقع جميع
الموارد ، فلم يعد أحد الا وهو يسجدى الآخرين ، وادا شاء الصدقه
أن يكون هناك فرد كان قد بلغ من السراء مبلغا كبيرا وبغى عنده
من هذا المال الخاص شيء ، فما كان لهذا المال أن ينفعه قليلا ،
اد لم يعد يكفه لسراء ضرورات الحياة التى لم تعد متوفرة .

كما أن الأشخاص الذين كانوا معدودين أسحي الناس يدا
وأكرمهم ضباة ، أصبحوا الآن يلتمسون الأماكن الثائنه التى فل
أن يغساها أحد فلتنقون منها ما يقبضون به أودهم ، ويسكالبون فى
نهم على الطعام - أيا كان هذا الطعام - الذى استطاعوا الحصول
عليه من مصادر مختلفة ، ثم يابون أن يكون لهم فيه شريك .
أثرى من الضرورى أن أقول ، أكرم من هذا ؟

لقد أصبح لحم الجمال والحمير والخلل والبغال وغيرها من الحيوانات
الدينا وكأنها استهتت ما تكون ان وجدوها ، وانه لمى المؤسى ان يقول
انهم كانوا يبتسون الأرض ويخرجون منها حطب الحيوانات المحفوظه
أو التي ماتت بالطاعون ويقبلون على النفايات .

هكذا كانت أنواع الاطعمة التي راوها يدعون بها عن انفسهم
عائلة الجوع المذموم وبطلون حناهم المعصه قدر طاقتهم .

لم يصب هذه الذكوره الرهبه - واعى بها المجاعه - العامه
وصغار الناس وحدهم فحسب ، بل جاورهم أهوالها فمسب كمار
الرعماء الذين عندها حطباً لا يمكنهم احماله ، اد كانوا أكر من
سواهم اعاله للكثيرين من الناس ، ولا يستطيعون ان يكونوا رفهم
عن جاءهم يلتمسه منهم .

وان ابناء هذه الحفبه من الرمن لا ترال محفوره في اذهان
السيوخ والكهول وصالح الى مؤلف خاص يروى ما جرى لكل واحد
من هؤلاء الرعماء ، ويضمن اخبار العمه والصعاب التي عمل فيها
هؤلاء العادة الانبياء من أجل خاطر المسيح ، على أنه يمكن القول
ان رجالا كهؤلاء الرجال العظام وجيسا كبيرا كهذا الجيس . انما
نحملو ذلك كله صابرين غير منتمرين .

- ٨ -

كان من جراء ما أبداه كربوعا وبسعيه من حماسه فويه أن
أصبحت أنطاكية محاطة من كل نواحيها بصورة لم يستطيع الصليبيون
المحصورون داخل أسوارها مقادرتها ، كما أعجزت من كان خارجها

عن دخولها والوصول اليهم ، أوصف الى ذلك ان الانسباك
الموصولة - داخلها وحارجها - قد أنهكت قوى الصليبيين انها كما في
كل احتمال . هذا الى جانب أن المصائب الجمة التي نزلت بشعبنا ،
وما أبلى به من سوء المجاعة قد عملت كلها على فل عزيمة ، فأظهر
النراخي في حراسته .

اما الذين لم يعد يستغل بالهم سوى البحت عن كسره الجبر
يمسكون بها ومعهم فقد كانوا أكثر نهاونا بالسبة للأمور الأخرى .
مما سيج عنه نجاح العدو في دخول المدينة في أحد الأيام ، وذلك
بسبب عدم توفر الحراسة لبرج كان مجاورا للبرج الذي اصحم منه
الصليبيون المدينة .

وكان بعض الأتراك قد طمعوا في اسلاك هذا البرج ، معتصمين
سكون الليل ، فعلقوا السلالم الى الأسوار ، وفكروا في النزول بعدئذ
الى المدينة كما فعلنا من قبل ، فلما بسط الليل طنبه ، وسكنت كل
نائمة في الكون ، أقدم ما يقرب من ثلاثين رجلا وفسلوا السلم واصلوا
السور ، مستهدفين الاستيلاء على البرج الذي وجدوه خالبا من كل
مدافع عنه ، وبينما كانوا عنهمكين في عملهم هذا اذا برئيس العسس
يصل الى المكان الذي كانوا يعملون به ، وكان هذا الرجل يقوم اد
ذاك بها اعتاده من المرور حول السور ، فاكشف المؤامرة ، فأخذ
يصيح محذرا من بالأبراج المجاورة ويعلن اليهم أن العدو قد استولى
بالمدينة على البرج ، فأيقظ صاحبه جميع الحراس في تلك الناحية
من المدينة ، وكان بينهم الشجاع المرموق « هنري ديش » فامرغ لثوه
الى تلك الجهة مع فارسين آخرين ، هما « فرانكو » و« زيجمار » ،
وكانا من ذوي قرباء ومن أهل البلدة المسماة « مالن » الواقعة على نهر
« الموز » ، وخاف ثلاثتهم أن تكون الرشوة قد استغوت البعض
فاستسلموا للخيانة وغدروا بالمدينة .

كذلك هم لمساعدته جماعات من الابراج المجاورة . فباحم بهم
العدو في عصف كدابة السبط . فابدى الترك مقاومه سديده . لكن
هرى دس ما لبث الا فاشلا حتى نتجح في طردهم من المرح . وحمل
سبع اربعة افعس . أما البقة - وكانوا سبع وعشرين رجلا - فقد
القي بهم من الاسوار . فسقطوا على أم راسيم ، فدس عطائهم
وساروا أسلاء مرفه .

وكان هؤلاء الرجال الباذنون الذين صعدوا البرج قد عزموا
على ادخال بعيه رفاههم .

ولعد نكب الرعيم البطل [هرى ديس] في هذا الصدام ، شد
صديقه « ريجمار » الذي احترطه السيوف فهلك ، كما اصعب
« فرانكر » بجرح قاتل حملوه معه الى داره وهو يكاد يلفظ أنفاسه .

- ٩ -

مزايدت الحاجة للطعام يوما بعد يوم ، وبرايدت معها مصايده
المحتصورين ، كما صاعقت المجاعة آلام الصليبين . فصحروا من هذه
الايام العسره بالهوال التي نزل بهم كل يوم ، فداحلهم الناس
حتى لم يعودوا حريصين على حياتهم وسلامتهم ، فانسوا من المديه
لا يعلم بهم أحد ، ولم يكرثوا بما كان يكتنفهم من آف الاخطار .
فراحوا يسعون طريقتهم وسط صغوف العدو كي يتسبر لهم الوصول
الى السساطي حيث كانت ترسو هناك بعض السفن الموانيه
واللاينييه ، وكانوا ييغون من وراء ذلك شراء الطعام وجلبه الى المديه
عبر أن الطمع في النجاء من هذه الاخطار الجسيمه حمل بعضهم على

الرجل . عافدين العرم على الا يرجعوا ابدا ، ولم يوقعوا أن منه
ربما ينحس موقف من حلفوهم وراءهم ، أو أن تناح لهم فرصة
التجاه من سيوف العدو .

في هذه الاساء كسف للترك أن بعضا من رجالنا يخرجون
جلسه تحت جبع الظلام الى البحر ، ويتجولون هنا وهناك فرب
المدينة سعيا وراء الطعام ، فبعوا في الحال بعضا من رجالهم العارفين
بدروب تلك الواحي وسعابها ليصبوا الكمائن لهؤلاء الساس
ويصلوهم كما فعلوا اخوه لهم من قبل ، فخالف البجاج الترك في
كثير من هذه المحاولات مخالفة حرائهم أخيرا على ارسال ألعين من
فرسانهم المختارين ، وكلفوهم بامساك البحارة والبجار وحرى
السفن ، مؤملي من وراء ذلك استئصال هذا النوع من البحارة
واداك يحال بين الصليبيين وبين كل أنواع المثونه ويعقدون كل
امل في السلامة .

وصح ما نودعه الترك ، اد تعد فرسانهم الأوامر الصادرة البهم
سعيدا دفعا ، فاضرموا النار في بعض السفن ، وأمسكوا طائفة من
ملاحبها الذين خرجوا من عبر حراسة ، ففتكوا بالحاب الأكبر منهم .
مما حمل الباقين على الهروب .

ولما ذاع خبر الكب ، وساغ ببؤها وبجاوز هذه الناحية الى
ما وراءها ببلبل حواطر التجار الذين كانوا يحصرون الى هنا في
رحلات تجارية من فرص ورودس وغيرها من الجزر ، كذلك من
سلوابة وابسوريا وبامقيلية ، وسواها من الأقطار البحرية ، وتسلطهم
الفرع من هذه الأحوال السائدة حتى انهم خافوا أن يعودوا الى هنا
أو بجلدوا سلعهم . ولم يجرؤوا على الاقتراب من تلك الناحية ،
ونرنب على ذلك أن الم السلل الكامل بالمناجرة وتوقف الاستبضاع ،
وبدهور موقف الصليبيين تدهورا أخطر مما كان عليه من ذي قبل .

وعلى الرغم من صآله كعبه السلع الى آحضرها البجار صآله لا تكفى
ابدا لسد احماجات الناس العديدين ، الا أن بقاء الاتصال البحرى
موصولا أعطى بصصا من الانقاذ للصليبيين .

ولقد صادف العدو فى طريق عودته من ناحية البحر طائفة
من المؤمنين عرضهم جميعا على السيف الا سردمة قللى عاية القله
تمكوا من السسل عبر الغابات ، والأدغال ، ولجأوا الى الكهوف
واستخفوا بها .

ولقد ادى حشر هذه الطامة الكبرى والمصيبة العاتقة الى حرره
موسا حرنا لا يقل عما أرتله بهم المجاعة القاسية ، ويجدد همهم اد
طرق سمعهم خبر النكبة التى حلب برفافهم وما يتعرض له أصحابهم
كل يوم من هلاك ، فنسرب لنفوسهم الناس حتى من الماء ذائبا
ولم يعودوا يتسمون بالحرص عليها ، وفل احياطهم على أنفسهم .
ونصا لب طاعهم لزعمائهم .

- ١٠ -

فى هذه الأثناء وصل الى الاسكندرونه « ولم دى حرامد ميربيل »
ومن فروا قعه ، ووجدوا بها ستيفن كونت شاربرر وبلوا الذى كان
العاده وكل الناس يرحون عودته بين يوم وآخر ، لكنه كان مقصا
هناك منذرعا بالمرض ، فأجبره ذلك الرهط بكل ما حرى بأطاقةه ،
وحملهم الرعبة فى الا يظهروا أنهم فارقوا رفاقهم جسا سب نافه
عز ذى موضوع ، فانهم راحوا يبالغون فى وصف الأحوال والسماء ،

'نُسَيرين هُناكَ ، والحق أن الموقف كان قد بلغ من السوء حدا يصفو الوصف ، غير أنهم بالعدا أسد المبالغة فأظهروه بصورة أسد اسودادا وصفاه وزادوا في ذكر الظروف السيئة السائدة . ولم يكن «سفس» في حاجة الى سماع مزيد من مثل هذا الكلام حتى يصاعف جبهه . لانه لم بهجر صحابه ولم يفر عنهم الا لنفس هذه الأسباب ، وان ادعى المرض .

وبعد ان قليوا الأمر فيما بينهم على سبي وحوهه ركبوا السفى التى كانت فى الميناء معه لهم ، وطلوا مبحرين حتى أرسوا احيرا بعد رحله استعربت بضعه أيام عند احدى المدن الساحلية ، حب راحوا ببعضون أين يكون الامبراطور وما ينوى أن يعمله . وبلغوا عددا من الاحمر عن ذلك الأمر - يحلف بعضهم عن بعض فى المسمون المسمون والصدق معادها أنه سد الرجال الى أبطاكه على رأس طائفة كبيرة من العسكر اللابن والاعريق لمد يد المعونة الى الصليبين وفاء منه بانعاده معهم ، وأنه الآن معسكر بسى معه فى « فوا مينيوم » .

وكان قد انضم الى الامبراطور ما يقرب من أربعين ألف من اللابن ، زياده عن الجيوس التى جمعها من سبي السعوب وكان رأيه أن يخلعهم وراءه فى بلاده مع الكتائب التى عنده ، وما كان يركه اباهم الا لفرهم المدفع أو لنعسى المرض فيهم ، أو لغير هذا أو ذلك من الأسباب القوية ، اما الآن فقد زال عنهم ما يسكونه من وصب ، واستندب عزائمهم بحضور الامبراطور وحشوده الكسفة ، واسردوا معهم فى الزحف ، وأصبحوا يلهفون قلبا وروحا على الانضمام الى رفادهم الحجاج .

حين علم كونت ستيفن والذين فى صحبته بأن الامبراطور مرابط فى تلك الناحية فى انتظار امدادات أخرى كثيرة ، وأنه يقوم

يعمل استعدادات اضافيه للزحف ، أقول انه حين علم بذلك يادر فسللك أقصر الطرق المؤدية الى الحيش الامبراطورى ، فلما وصل الى هناك فوبل بأعظم آيات الرجيب المروجه بالدهسة البالعه . وكان الامبراطور قد عهد اوامر الصداقه مند بداية الحملة مع اسيعس حين جاء مع بقيه الرعماء الآخرين ، ولما راح الامبراطور يستفسر منه استفسارا دفيعا عن احوال العادة الآخرين وسلامهم وأوصاعهم ، وعما دعاه لنركهم وراده ، أجابه ستيغس بقوله :

- ١١ -

« أيها الامبراطور الذى يسير الطغر فى ركابه أنى مسار . ان رعاياك المحلصين الدين أدنت لهم بالمرور عبر امبراطوريك منذ أمد قصير ، وشملهم بفيض جودك ، قد اسولوا - أول ما اسولوا - على بيعيه ، ثم وصلوا بعد مسيرة ناجحة الى مدينة أنطاكية فحاصروها تسعة أشهر سويا ، حصارا لم يرفعوه عنها حتى أحدها عنوة بتوقيق من الرب . ولم يعرف عليهم سوى فلعها السى كان اقحامها صربا من المحال . فاستعصت عليهم بسبب وقوعها على جبل شاهق . وبفضل أبراجها المشرفة على المدينة التى يبدو وكأنها وكر العقاب ، وكان الطن عند شعبا أن قد انتهى الحصار ، وانهم نخلصوا من كل خطر بعد استسلام المدينة ، بيد أنه ظهر أنهم قد نردوا الآن فى خطر أبلع هولا من سابقه . وأبهم وفعوا نى صعوبه نهوى كل صعوبة واجهوها من قبل » .

« ذلك انه لم تكد تنقضى غير ثلاثة أيام بعد احتلال المدينة حى جاء فائد فارسى شديد المراس اسمه « كربتوتا » على رأس حواصل من

السرف يجاوز عندها كل تقدير ، فاحذق بالمدينة من كل جانب ، ولم يدع مدخلا من مداخلها أو مخرجا من مخرجها الا سده . وحاف المحن بالفادة والعامه على السواء بصورة أيأسهم من كل شيء حتى من حنائهم .

« وفل أن يمكن العفل من تصور ما عليه هذا الجيس المحاصر من كره هائله في العدد . وموخر العول ان عامه عسكرهم غطوا كل ما حول المدينة ، وانسروا كاسراب الجراد ، حتى ضاقت الأرض بما رحبت فلم تسع كل خيامهم .

« أما رجالها فكن أمرهم على النقص من ذلك ، اد أخذوا بساقصون ساقصا ممرعا بسبب الجوع الذي برل بهم ، ومن جراء البرد والحر اللذين فاسوهما ، وبسبب ما ابتلوا به من قتل وموت . حتى أن كل ما نبقي بعد ذلك من الجيس في أنطاكية لم يبعد كافسا للدفاع عنها .

« أضف الى هذا أن المعونة التي كانت تجلبها لهم السفن من مملكتكم والمراكب القادمة من الجرر والمدن الساحله قد انقطع ورودها نهائيا - كما تعلمون - بسبب العسكر الذين أرسلهم العدو ، فلم يدعوا سبرا من الأرض بين أنطاكيه والبحر الا احتلوه ، كما دمروا الاسطول نعميرا يكاد أن يكون تاما ، وحكموا السيف في البحاره والسجار مما حال بالفعل بين شعبنا وبين كل أمل في شراء الطعام .

« ولعد جاء الخبر بأن الطعام الموجود الآن في أنطاكية لا يكفي الناس الا يوما واحدا فقط ، ومما يضاعف مناعبهم خلو المدينة من مكان أمين يلجأون اليه لكثرة سلل المرك الى المدينة عبر العلعه التي سرف عليها ، فببسون هجماتهم على قلب البلد ، ويهاجمون المسيحيين في الشوارع والبيادين ، وهكذا فان ما يقاسيه رجالنا خلف الأسوار لا يقل هولا عما يكابدونه من غارات يواليههم بها العدو من الخارج .

« لذلك فاقبى ومن معى الآن من العاده وسراه العموم - قد ايضا تمام البقى أن ما يقوم به احواسنا انما هو جهد صائح ، وطالما سدينا اليهم سبب الامر وسدينا الصبح الاحوى للعمل على ما فيه سلامتهم ، وأن لا يسببوا بأمر يستحيل بحقيقه ، لاسيما وقد نحل عيهم العناية الرياسه ، فلما وجدنا أننا عاجزون عن ربحهم عن هدفهم رحنا نلمس الوسيلة لما فيه نجاحا حتى لا يؤدى بنا الطيس الى الفاء انفسنا بأيدينا الى الهلكه ، ففعل مملا فعلوا »

« والآن فلعل حلالتمك ترون - اسم ومن حولكم من السلا المجايين - أن الخير كل الخير فى الرجوع عما كنتم قد اعزمتموه من الزحف الى انطاكيه ، حتى لا يحق نفس الاخطار من عودوهم من عسكركم المطهر ... وان العقل ليسأندكم ان تعودوا من حب جنه دون أن تلمح فوائكم بالقوات الكسفه الى بعب بها السرى . وذلك أمر أجدى عليكم من الاندفاع من غير رويه لتجريب قوتكم مع هذه الاعداد الضخمه من العسكر الأشداء مادامت السحبه غير مؤكده تماما »

« وان هؤلاء الرجال البارزين الموحدين الآن بحضرتكم قد نالهم نفس هذا التصيب ، ويستطيعون أن يؤكدوا لكم صدق ما أقول . كما يعرف ذلك أيضا « تاتيكبوس » الألعى الحضيف الذى أرسله حلالكم معنا ، لأنه رأى بعض رأسه مدى ضعف رحالتنا . فسار على هدى العقل فانسحب من العمل معهم ، وانه لعادر أن يحل الموقف أمام جلائنكم »

وكان منى حسن الامراطور أح للورد بوهيموند من أبه - اسمه «جيدو » ، فلما سمع ما قاله « سسفى كوت ساربرز » من حيوته ، واستخرط فى المكاه حربا على مصر أخيه ورفاقه . ورغب

في نادي الامر أن يعارض روايه الكوب ، ورمه بالجبن لهوره
الاستحاب من صغوف هؤلاء الرعاء الأحلاء ، ولكن أحقهم واسمه
ولم دى حراند دمرل ~ وكان سريف المولد لا الخلق - وهو صير
بوهمويد بمكى من اسكات « جندو » .

- ١٢ -

بعد أن سمع الامبراطور هذه الكلمات ، استدعى اليه جميع
نبلاته للساور فيما اذا كان يجب عليه الرحف الى أنطاكية ، او
النوم والرجوع الى مملكته ، وبعد أن علموا الأمر على سسى وحوه
انتهوا الى أن الحكمة تعنى العوده بالجيش سالما ، بدلا من اثاره
ممالك السرى كله والتعرض لقلبات الحرب .

★★★

لقد وقع الامبراطور كل البه بكلمات سبعين ، فاعتقد أن
كل شيء سيجرى كما قال اعتقادا جعل الحوف يمتلك قلبه من كربوعا
الدى زعموا أنه دمر قواتنا ، فخسى الكسيسوس من صام كربوعا
بمهاجمة الامبراطورية بما تحب يده من الجيوش الكنفة التي آكدت
الأخبار أنه يعودها في زحفه ، واذا ذاك تصع من يد الامبراطور مره
ثانيه نقة وجميع سسا الى اسرديها جهود القادة الصليبين
السيطة ، ورأى - نجنا منه لهذا الخطر - أن يأمر بحرق
ونهب جميع الأراضي الواقعه على طول خط ارناداده ، سواء
ما كان منها على يمينه أو على يساره ، بدءا من قونه وانتهاء بنيقية ،
وكان طمع أن تفس هذه الأراضي بعد تخريبها - وفد حبرها أهلا

يرفضت موارد العس فنيا - عائثا في طريق الأعداء ان حملتهم
الظروف على التفكير في بوجه فوائهم ضد مملكتهم .

★★★

ولقد أدى مسلك سسمن هذا الى حرمان الصليبيين من
المساعدة التي كانوا في مسس الحاجة اليها والتي كان
الامبراطور بأصب لامدادهم بها وفاء بعهده معهم .

وإذا معنى المرء تمعنا دفقا في كلمته الكوت هذه وفي حماقتها
الجوهريّة ، تبين له أنها عمل لا يمكن عفرانه أبدا ، وأنه صادر عن
برعة سريره ياباها السرف .

عر أن رعاية الله القادر - ولا قادر سواه - والحكم ولا حكم
غيره - فصب الا أن بجى أحسن النصار من أكر الأمور سرا .
وأفصت الى ما فيه مجد شعب الله وقاده ، وواء بحق أولئك الذين
يحملوا حمارة العبط ، وبركوا ساءهم وأطفالهم ، كى يحاربوا
كحجاج للسيد ، رجاء أن يكلل حيودهم بالمجد الدائم مما كان لابد
أن يحرروا منه حرمانا تاما لو كان الامبراطور ح'صرا ، اد أن وحوده
هو وحده حينذاك في هذا الموقع كان لابد أن يؤدى - بلا مساحة -
الى أن يصدر أمره برفع الحصار ساء على سلطانه الأعلى وقوانه
الصخمة ، ويكون له السرف كل السرف له وحده دون غيره .

على أنه يجب على المرء أن يؤمن أن السيد نفسه هو الذى جاء
بهذا السرف ، وحاد به على من أخلصوا البية في العمل وأدوه بأمانة
وصمدوا تحت الظروف القاسية التي لا يحصها العد . حتى يجنوا
ثمار نعمهم . ونعتقد لهم راية النصر .

اطلعت الألسن فى هذه الأثناء سناعه عمت أرجاء المدينة ،
نفول برحوق الامراطور الى بلاده ، فصاعف هذا السبا من فطاعة
الأهوال التى يعابها الصليبيون ، وملأ قلوبهم بأسا ونقررت
بفوسهم استئزازا من مجرد ذكرهم كونه ستيعن ، ووصموه
الفجور الأبدى ، كما راحوا يلعبون ولسم دى حراند منزل
وكانه من ساركوا نى هذه الحانة الماعونة ، وراحوا يبنهلون الى
الرب أن يزح فى النار الأبدية مع يهوذا الخائن كل من انسحبوا من
هذه الأهوال الطامة ، والذين حددوا سعب الرب فحرموه من
المساعدة الكبرى التى كان الله قد أعدها لهم .



ولما علم كربوغا وكمار حواده - عن طريق جواسيسهم - أن
الامراطور راحف عليهم اسمد اضطرابهم ، وعظم كربهم ، وحق
لهم أن يعزعوا من قواته المؤلفة من زهرة المحاربين فى امبراطوريه .
فلما حاصم هؤلاء الجواسيس أنفسهم مرة ثانية بخبر تراجع
الاغريق عن زحفهم ، أخذت كربوغا العزة بالاثم فازداد عتوا وصفا
وحمل اليه أنه قد ضمن النصر وحاره ، فبالغ فى الضمبيق على
رجالها مماله سرسه ، واستند فى الاحداق بهم مما ترتب عليه أن
اكتسب العاسه كل المؤمنين الموجودين داخل المدينة ، وخاب كل
امل لهم فى النجاة ، كما فقدوا الرجاء فى أن يصلهم أى نجدة من
أى جهة كانت ، ولف اليأس المطلق الناس أجمعين ، وراح الشعور به
برداد يوما بعد يوم .

وألقت المسئولية العامة لكل الجسس على عاتق بوهيموند .
الذى سس له - وهو يدور حول المدينة - أنه يسحيل عليه باللبن

او السند - ان يحمل ولو فردا واحدا من الناس على الخروح من
حب يحبىء ، ولم يعد يوحد ثم رحل واحد يقوم بالحراسه أو يقابل
العدو داخل البلد أو حدره ، على الرغم من أن الجمع كانوا يصجون
من الأحوال الى أربلها بهم الأعداء .

ثم جاء يوم عاد فيه المادون والعمال منهوكن العوى من محاولاتهم
هذه العسلة في استدعاء الناس ، فلما ساعد بوهيموند ذلك
المظر أيقن الا حذوى من بدل محاولات جديده لارغامهم على الخروح
من مخابئهم ، ومن ثم أمر معاونه باضرام النار في أماكن معقده من
المدينه ، عسى أن يحسف البران هؤلاء الذين علط فلونهم ورفضت
الامسال للارادة الربانية ، فحملتهم على البروز الى العراء ، ويحب
مناورة هذه وآت أكاثا ، فعد أن كان عاجزا عجزا تاما قبل هذه
اللحظة عن أن يجمع الرجال للقيام بواجبات الخدمة العامة ، اذا بهم
يعلون رراوات بقلوب ماؤها الحماس السديد يندفعون لأدائها .

ويقال ايضا ان الناس من الحناه دفع بعضا من رجوه الرجال
الى عقد اجتماع خاص ، فرروا فيه أن يعمسوا هذه الليلة بالذات
للقرار خلسه الى الساطىء ، تاركين وراءهم الشعب وحيس الحجاج
تأكمله ، عر أن حبر تدبرهم هذا بلغ سمع الدوى وأسقف بوى
الموفر فاستدعيا اليهما هؤلاء المذنبين وأسرفا في تانيهم التائب
المر ، وذكرهم أن وصيه العار الأبدية سسطيعهم هم ودراريهم
بميسمها ، ان هم خرجوا على ما يفرسه عليهم سرفهم وكريم
أصولهم ، أو اذا انسحبوا من هذا الحشد الكبير من المؤمنين
بالمسيح .

في وسط هذه الصائقة كان هناك نعص بسن في الطعام بين
شعب الله سبب أهوال المجاعة المهلكة ، وما يمارسه العدو من

الضعفوط ، سواء من الداخل أو الخارج ، حتى لم يعد ثم علاج لما هم فيه ولا أمل لهم فى نجدة تأبهم من أية ناحية ، وعمت البلوى صغيرهم وكبيرهم على السواء ، وعجز كل واحد عن مساعدة الآخر .

وكانوا اذا نذكروا نساءهم وفكروا فى صغارهم الذين خلعوهم فى بلادهم ، وأملأهم الساسعة التى ورنوها عن أسلافهم ، وكيف هجروها حيا فى المسيح ، أسلموهم أنفسهم للتسكوى من عدم مجازاة الرب إياهم ، لأنه لم ينظر بعين الشفقة الى المتساقى التى يحملوها ، ولا الى صدق إخلاصهم ، بل ابلاهم بدلا من ذلك بالبلانا كما لو كانوا شعبا غريبا معه فأسلمهم الى أبدى الأعداء .

- ١٤ -

بينما كان سعب الرب يعاسى النلاء على هذه الصورة ، اذا بالسيد يعطف عليهم ويسمع الى أنسهم ويرسل السكوى من كبرسه السماوى ، فيقال ان قسيسا اسمه [يارتلميو] من المقاطعة المعروفة باسم « بروفس » جاء الى أسقف بوى وكوت بواوز زاعما لهما أن الحارارى المبارك أندروز كان قد طهر له فى الميام ثلاث أو أربع مرات منالبة وأمره أن يبادر ما وسعه البدار الى اخبار القادة أن الحربة التى طعن بها سيدنا عيسى المسيح فى جنبه مدفونة فى كيسة أمر الحواريين ، وعليهم أن ينسطوا كل النشاط فى النفس عنها فى البععة التى بنىها له الحوارى بعلامات مميزة .

ومن ثم مضى بطرس الى خادمى الرب هذين المحبوبين ، وفصل

لهما الأمر الذي أقسم أنه حمله . وبين أن الرسول [أندور] ارعاه على ذلك مهددا إياه بذكر من المناعب . بيد أنه رفض أكثر من مره اداء هذه الرساله ، لأنه لا يريد أن يكون رجلا فقرا جاهلا ، غير أنه لم يستطع في النهاية أن يجيب نعتد أمر الرسول العاجل أكثر من هذا . حتى ولو تعرضت حياته للخطر .

وبوسلوا بالسره الساء ، في نقل هذا الخبر الى القاده الآخرين ، الذين جئء أمامهم ببطرس [بارتليميو] لسمعوا منه حقيقه الأمر وعصوبه فصدفوا زواياه . ثم اجمعوا في المكان الذي سباه لهم في ارباض الكنسه المسار السب . آنفا . وحرروا الأرض هناك الى عمى معين . فوجدوا الحرية كما قال بطرس [بارتليميو] تماما .

ولما سمع الناس هذا البأ اندفعوا الى الكنسه كأنهم رجل واحد . لأنهم شعروا أن السماء أرسلت لهم العزاء . وانثالت اليادانا والمح مجددا لاكساف هذه السعه العاليه . وطرحوا عنهم ما كان بهم من الفزع ، ونفسوا الصعداء ، وأحسوا أن قد عاودهم ناسهم من حديد لسعد الأوامر الماركه . وكان هناك البعض الذين ادعوا أنهم رأوا رؤيا العين اسباح الملائكه والرسل الطوبائيين ، وكان ادعاؤهم هذا نعريرا لقوة ايمانهم بحام بطرس فاربععت بعينه الناس العابطه الحائرة ارباعا عجبنا .

وحينذاك استجاب جميع الزعماء لافراح الرجال الموقرين الذين يخسسون الرب وحددوا ايمانهم . وقطعوا على أنفسهم العهد بأن يحصل كل منهم النية للآخر ، وبعاقدوا - لش ندادركهم رحمة الرب مما هم فيه الآن من وضع حرج . ومحبهم الصبر الذي يرحونه وطهرا على عدوهم .. ألا يفارق بعضهم بعضا . حتى يستعدوا بعون الله المدية المقدسه والقبر المقدس ، ويرودهما للإيمان المسيحي وحرتهما القديمة .

ظل الناس يعدسون هذه الظروف غير المحتملة ستة وعشرين يوما مساليه اطمأنت بعدها فلوبهم بعد طول وجيب ، وراحوا بسمرور عن سواعدهم فى شجاعة لم تكن لديهم من قبل ، وأحسوا بالراحة بعد طول عذاب ، وكأنها أمل جاءهم من السماء ، وانفق الجميع صغرهم وكبيرهم على أن لا بد لكل هذه المساء من نهاية ، وأنه لابد لهم من يوم قريب جدا يقالون فيه الحسم ويستطيعون صد أعدائهم الذين يعدون كثيرا بهويهم الكبيرة ، فتنحدر يومذاك المدينة التى وهبها الله لهم ، ومن ثم راوا الحذر فى الصام بمحاولة حوص الحرب مرة أخرى ، بدلا من أن يتركوا أنفسهم نهب الصياع يوما بعد يوم ، وهم فى عمره المدعة التى استمررت طويلا وأنه أجلى عليهم أن يحاولوا الصال بدلا من أن يتركوا أنفسهم للناس ينهوه عنهم بكلكلة الذى لا نهاية له فيمصهم ارهاقا .

كانت هذه هى أحاسيس الجمع الذين لم يعد ثم معر أمامهم من الحروب من المدينة لمعالجة العدو ، ولم تعمر هذه الرعية على البلاء وحدهم ، بل كانت تلتهم فى نفوس العامة أيضا البهابة حملهم على انهام فادبهم بالراخى ، وكرهوا كل نزيه من جانبهم .

ورأى القادة أن حماسة الناس انما هى أمر علوى ، فاجتمعوا للنساور ، واتفق اجماعهم على أن يرسلوا وفادة الى الفائد العام لعسكر العدو بفرح عله الأخذ بواحد من اثنين :

١ . اما أن يرسل وينترك المدينة للصليبين لتكون ملكا لهم الى الأبد . وهى المدينة التى عادت الآن اليهم بإرادة الرب ، واما أن يسعد للصل ، ويكون السيف هو الحكم بين الفريقين .

واحذر لهذه البعثة الرجل الطاهر الذيل ، الذى ورد الكثير

عنه في الصفحات السابعة ، وأعطى به بطرس الباسك ، وأسروا معه رفيقه العادل القطن « هيرلوي » (١) الذي كان ملهما بعض الألمان باللغة الفارسية ومكننا من لسان الباريين ، وعهد انهم الى هذين الرجلين بسلبهم العدو الاسراخ الذي ذكرناه . على انهم اصافوا الى ذلك شوطا آخر هو انه اذا آثر الأمير الحرب فله أن يحسار : اما المبارزة الفردية مع أحد الرعاء الصليبيين . أو أن يخرج عدد معين من رجاله ضد عدد مساو لهم من رجالنا . فيبارر بعضهم بعضا . واما أن يلنعي الحسان وحيا لوحه في معركة عامه .

ويهادن الطرفان هدنه امان لارسال الوثاده ، فاطلق الرجلان اللذان أسرنا اليهما الى معسكر الأمير [كربوغا] مع الحرس الذي حصص مهما . فوحدا كربوغا محاطا بكبار رجاله وبواه .

وعلى الرغم من ان بطرس الباسك كان رجلا فطنا الا انه كان يسمع بروح عالية ، فأدى المهمة التي وكلت اليه في صدق وحماسه ، واستطاع سنوكة الرصص ونبا طمع غلبه من حراه لا يعرف الخوف ، أن يقرب من البساط الفارسي دون أن يندى أي حضوع ، وسلم الانذار مثلا :

« لقد أرسلني مجمع الرعاء المقدس أحباب الله الموحدين في أنطاكية ، يبنون الى سموكم أن تكف عن مصايهم . ويرفع الحصار عن المدينة التي أعادها الرحمة الالهية الى أيديهم . والى طيرعا

(١) يصحاح من هذا أن « هيرلوي » هذا كان يعرف اللسان الفارسي والعربي الى جانب لغة ذلك العصر وهي اللاتينية ، وربما كان هناك مثلا كيمون اصطفيهم الصليبيون من يعرفون لغات هذه البلاد الشرقية وان كان عددهم قليلا . أو كانوا معنودين دون الصليبيين مكانة لانهم لم يكونوا محاربين ولكن أزعهم الأوصاف أن يكونوا في صفوف المقاتلين . انظر الرحمة الانجليزية ، ص ٢٨١ . حاشية رقم ٨ والمراجع الواردة بها .

من الوسع بطرس أمير الحواريين العاقل المكمل لايماننا ، والذي
اهتدب أنطاكيه بهديه الى دين المسيح ، وصارت حقا لنا بفضل
قوه معجزاته وكلماته الكريمة المنطوية على الصبح والارصاد ، ثم
فدّر لبّ ان ينصبّ ما عدوانا وظلما ، فاعادها البنا السد الموى
ذو البأس السديد •

« وعلى ذلك فان العادة الصليبية بعرضون عليك بما ينهى
واحساسهم العميق بالمسئولية الموروثة من آباءنا خدام المسيح
المخلصين ان نحار واحدا من هذه افراحات تضعها أمامك ، وهي
أن رفع الحصار وسحب وكف عن مضاهة الصليبيين ، فان لم
تفعل أنترباك بحرب بعد ثلاثة أيام تكون الحكم فيها المسبف بسكم
وبسب ، وريادة على ذلك فان أردت نحب الصدام بتعديم عذر
مقبول فانهم يحرونك بين هذه أمور بخار منها واحدا ، وهي اما أن
تلقى نفسك وحها لوحه مع واحد من فوادنا فى مبارزه لا يكون
فيها سواكما ، فان تلبس فيها عليه ملكت كل شيء ، وان هزمك
رحلت وتركنا آمنين ، وأما الافراح البانى فهو أن يخرج بضعة
من فرسانك بفادون بضعة من فرساننا بماناوبهم عددا نحب نفس
السروط والا تعادل الجيسان بأجمعهما من الجانبين فى معركة تقرر
المصير » •



لكن الأمير [كربوغا] ازدرى هذه العروض المقدمه اليه .
وفى انه قد « ما أظن يا بطرسى العزير أن وصح رعمائك الذين
أرسلوك الى يسمح لهم بافتراح اختيارات يعرضونها علىّ ، أو أن
يعرضوا علىّ اخسارا معيننا حسب أهوائهم ، ذلك لأن بسالسا
أحربهم على أن يكونوا فى حال لا يملكون معها حرية الاختيار ، بل

معرض عليهم اما أن يغادروا البلاد ، واما أن سخلوا عن رعبائهم بما
يتفق وهوأى أنا .

« فاذهب الآن الى هؤلاء الغناده الأعباء الذين أوفدوك ، - وقد
عم عامهم الآن الوضع الذى هم فيه - وقل لهم انى سوف أستبقى
عندى منهم كل من هم فى رهره السباب من الحسين لكونوا فى
خدمة مولاي [السلطان] ، أما من سواهم فسوف أجعلهم يهب
السيوف كأوراق السحر المسدقة حتى لا يبقى منهم من يذكر
بهم ، ولولا أنى آترب أن أتركهم يلافون الموت بالجوع العاسى بدلا
من صلهم بالسيف لدكتت الأسوار عندهم منذ زمن بعيد
ولاسولت على المدينة عنوه ، فنجون نمره مسلكتهم نحت صرنا
السيف المسعم » .

- ١٦ -

بعد أن عرف بطرس غفلة الأمير كربوعا الذى أرساوه الله ،
وأدرك مدى سلوكه المنعطرس الناحم عن اعداده بما لديه من ثروات
لا سانها أية ثروات أخرى ، وكف عربه كثره حله ، أقول بعد أن
عرف بطرس ذلك كله اسأذه فى الانصراف وعاد الى جماعه .
فلما بلغ المدينة أراد أن يعصى الى الرعاء الذى بعوه بالرد الذى
حملة النهم ، وكانت الجموع كلها من الكمار والسعب نناهعون على
مناع فحوى الرد وسبجه السعارة .

وعزم بطرس [الناسك] على أن يقدم فى حصره الناس جميعا
بفريرا مفصلا بكل ما جرى خلال اجتماعه بكربوعا ، وعن مسلكت
هذا الأمير المنعطرس ، كما قرر أن يسر الى تهديداته وكبريائه

وعروده ، لكن جودفروى العظم حاف أثر ذلك على العامة ان هم
أثروا بجميع تفاصيل الموضوع ، ذلك أن العامة وفد أنهكتها السدائد
المستمرة ، وضعضع بسببها تراكم الأحوال عليها ، ود يسبب بها
الفرع السديد فنكب على وجهها خوفا ، لذلك قام [جودفروى]
فأطفا حماسه بطرس ومنعه من الاسنرسال وسرد كل ما عنده ،
وجذبه بعيدا عن الناس الذين دراحوا عليه لسماع ما يقول .
واقترح عليه ألا يفصل كل ماحدث ، بل عليه أن يقتصر على موجز
رد كربوغا ألا وهو تصميم العدو على القتال ، وأنه يسغى على
الصليبيين أن صرفوا كل اهتمامهم للاستعداد للحرب .

ومن ثم لم يعرف الناس مما حكاه بطرس الا أن العدو يطلب
الصال ، فاحسب الجميع صغرهم وكبرهم رغبة عارمة ولهفة ملحة
للحرب ، واعتبطوا أسد العبطة اذ تلفوا هذا الخبر ، وكانت عليه
فرحهم هى ثقتهم بالنصر ، حتى كان يخيّل للناسظر اليهم أنهم
سوا تماما ما كانوا فيه من الصراع ضد الأحوال التى كانوا
بكابدونها ، وأفصح وجوههم جمعا على انفاق كلمتهم بأن يكونوا
فلما واحدا وفكرا واحدا ، فودى فهم أن المعركة واقعة غدا ،
فعدوا بحواش قد ملأها الفرحة حتى لقد انقصى الليل دون أن
يغمض لهم عين . سوا للمعركة ، وجهزوا أسلحتهم ، وأعدوا
حيادهم ، وراحوا ينظفون صديراتهم الحديدية ومقارهم . وهأوا
دروعهم ، وشعدوا سيوفهم ، ومن ثم لم يكن عندهم وقت للنوم
أو الركون الى الراحة ، ونادى المادى بن الجميع أن يخرج كل ذى
سلاح وقادر على القتال عند نباسير الفجر وقبل شروق الشمس
وينصم الى كتبته ويغف خلف راية قائده المعين له ، فلما بزغ فجر
اليوم النالى أقام القسس ورجال الدين الخدمة الدينية فى كل
الكنائس ، وقدموا الفرائين ، ثم دعوا الناس الى الاعتراف بنفس
ملؤها التواضع والمذلة كالعادة وحضوهم على التوبة وتحسين أنفسهم

صد رذائل الدنيا بنناول الفريان الذى هو دم المسيح ولحمه ، فلما
عفروا لهم خطاياهم وبمعصوهم الى نفوسهم وعاصب القلوب بمريد من
الحب الصادق ، مضى القوم الى العسال وهم أكثر ثقة من قبل كلاميد
وابباع المائل (١) : « أنا أعطيتكم أن تحبوا بعضكم بعضا ، كما
أحببكم أنا بحبوا انتم أيضا بعضكم بعضا . بهذا يعرف الجميع أنكم
بلامدى ان كان لكم حب بعض لبعض » .

بعد أن تلقى جميع الكنائس الخدمة الدينية ، وغمر اليهود ،
القلوب ، انبأبال عليهم السعة من السماء انبأبالا عجيبا .

كما ان أولئك الذين كانوا بالأمس واليوم الذى قبله مطروحين
كان قد فارقتهم الحياه ، وقد بلغ الضعف منهم مبلغا عجزوا معه عن
أى شيء حتى عن تحريك خفونهم أو رؤوسهم ، وباخت عليهم الغافة
بكللها ، وأمضهم الجوع . حتى راحوا بلمسون الأماكن الخفية عن
عابئين بمكانهم الذى كانوا عليها من قبل ، أقول انهم برزوا فى هذه
اللحظة من ملء أنفسهم للعان ، وتخلصوا من كل خوف وامشقوا
أسلحتهم فى بطوأة كما لو كانت الفوه دب فى أوصالهم من حديد
واستردوا اقدامهم الذى اعتادوه وراحوا يستعدون للحرب وكلهم
أمل فى النصر ، وقل ان وجد فى هذا الحشد الكثيف شخص أيا كان
عمره أو ظروفه لم يهين نفسه للاضطلاع لكل عمل مجيد ، وحملوا
كلهم سلاحهم ، وتنأ الجمع بانتصار الصليبيين .

وراج القسيس بطوفون بين صفوف العسكر ، وحيث يتجمع
الناس ، وعليهم ثيابهم الكهنوتية حاملين الصلبان وصور القديسين
فى أيديهم ، واعدى القوم بغفران الذنوب ومحو جميع آثام الخطاة
ان هم استمسكوا فى القتال فى المعركة كحماة للعقدة المسيحية التى

(١) يوحنا ، ١٣ . ٣٥ .

ورثوها عن آبائهم ، كما قام الأساقفة بأرجاء الصبح لأمراء الجيش وفواده أفرادا وجماعات ، وحثوهم على النضال ما أسمعتهم البلاغة التي أعتقد عليها عليهم السماء ، ومسحوا الدُسُ مركاتهم ، واسودعوهم في رعايته الله ، وكان في مقدمة هؤلاء الأساقفة حادم المسيح الطوباني أسقف بوى الذي دأب على اسداء الصبح والمداومة على الصوم وملازمة الصلاة ، وبر الجمع كرما في احراج الصدقات ، وكان مسعدا على الدوام للمصحبه ، غسه من أجل خاطر السيد .

- ١٧ -

تجمع الجمع كأنهم رجل واحد أمام باب الجسر وذلك ساعه اسراق صباح الثامن والعشرين من يومه ، بعد أن اسهلوا الى السماء أن نمدهم بالعون ، وأعدوا صعوفهم للمعركة بعد أن سموا للقيام بطام السر وأسلوبه ، وذلك قبل مغادرتهم المدينة ، وبولى هبح العظيم - أخو ملك فرنسا - أمر العلق الأول كفاء له وحامل لرايته ، وجعلوا معه أنسلم دى ريمونب الجدير بالبناء على كل ما يفعل ، وأشركوا معه أشرفا آخرين نعجز عن ذكر أسمائهم وعددهم .

وعهدوا بالفريق الثاني الى روبرت الملقب بالهررياني كوت فلاندر ، ومعه من ضمهم معسكره من البدايه ، أما روبرت دوى بورماندى فقد وكلوا اليه قيادة العسكر الثالث ، وكان معه ابن أخيه الفاضل مسفن كوت أو مال وغره ممن كانوا في بطانته من النبلاء .

أما المبحل أدیمار أسف نوى ، دو الذکر الغالی ، فقد تاد
المجموعة الرابعة الی کانف سسمل علی حاصه أنباعه وأناع کونف
بولوز ، وکان [أدیمار] یحمل حربه السج المسج .

وأما رینارد کونف نول فقد کلعهو بأن یعود العیقین الرابع
والخامس ، وکان معه أخوه بطرس دى سنیمای ، وکونف جارسیه
دى حرای ، وهیری دس ، ورینولد فون آمررباخ . وولتر دومدارد

وأمر الزعماء أن یكون علی العلق السادس رینبالد کرب
أورانج ، ولدفع دى موسون . ولامبرب بن کوبون دى موساج .
أما جودفروى دوى اللورین ذلك الأمر العظم المبحل ، وأخوه
الموهر لورد اساس . فکانا علی الکسه الساعه ، الی ربها وفق
السطم الحربى .

وأما القسم السامن [من الجنس] فکان بقاده نانکرید
الفارس المعلم فى نمل حلهه وبراعه فى استعمال السلاح .

وأما القسم التاسع فکان فیه هیچ کونف سب نول ، وابیه
احراند ، ویوماس دى لاهر . وبلنوس دى بورج ، وروبرب بن
حیرادر ، ورینو دى بوفیه ، وجالو دى شومونت .

وأما الفیلق العاشر فقد عهدوا به الی روبرو کونف بیرش .
وایفرارد دى بویسیه ، ودروجو دى مونسی ورالت ابن جودفروى
وکنونون روتو .

وقاد الفیلق الحادى عشر کل من ایزورد کونف دیمى ،
وریمونده ببلیه ، وجاسنون دى بزییه وجیرارد دى روسیلون
وولسم دى مونبلیه وولیم امانجو .

أما الفيليني الثاني عشر وهو أكبر الفصالي جميعا فؤلف مؤخره
الجيش ، وقد عهدوا به الى لورد بوهيموند رعيما وقائدا ، ووكلوا
اليه أمر هذه المؤخره كى يساعد القواب الأماميه فى اللحظاب
الخرجه ، كما عهدوا اليه أن يرعى من فد يشهد عليهم صفط
العدو .

واشدت وطأة المرض بكونت بولوز فى هذا الوقت ، فخلوه
وراهم لحماية المدينة ، اذ لازالت فلعها فى قبضة الترك الذين
خيف على المدينة منهم أن يظفوها بلا مدافع بسبب غياب الزعماء ،
فيحاولون الاعارة عليها ، ومباغنة من بها من الشيوخ العجرة
والساء وغيرهم من أهلها الذين ليس هناك من أحد بحمبهم .

ولقد أمام الصليبيون على النل المواجه للقلعة سورا فويا من
الأسمنت والحجر ، الى جانب اسحكامات اضافية تصبت عليها
بعض آلات الرمى ، كما تركوا بها مائنين من الشجعان الأشاوس
المسججين بالسلاح للحفاظ عليها .

- ١٨ -

حين رست قواما نفسها على هذه الصورة وهأوا صفوفهم
للقبال ، قرر الزعماء بانفاق الآراء أن يسر أمام الجيش بأجمعه
وينقدمه كل من هيچ العظيم [أخو ملك فرنسا] . وكونت فلاندرز
ودوى نورماندى . أما البقبة فعلمهم مراعاة الترتيب المفق عليه ،
وجامت المشاة أولا ومن بعدهم مباشره الخبالة كحراس لهم ،
وأعلن نداء عام يحذر تحذيرا قاطعا أى شخص من النجرؤ
على مد ناظره الى الغنائم والاسلاب ، بل يكون الاهتمام منصبا
على كل ما فيه تحطيم الأعداء ، حتى اذا ما تم النصر للصليبيين ،

ودارت الدائرة على العدو . امكنهم العودة بنفس راحته لجميع الغنيمة .

توقع كربوغا منذ اللحظة الأولى - لا سيما بعد رياره بطرس [الناسك] له - أن لابد من قيام الصليبيين بسن عاره فحانه على معسكره ، ومن ثم فانه اتفق مع الأنراك الموجودين في القلعة أنه اذا لاحظ أحدهم حراسة الصليبيين وهم يستعدون للخروج من أية ساعة من ساعات يومهم فعلى اهل البلد المبادرة بمواعيد معسكره بإشارة اتفق عليها من قبل .

شرع رجالنا منذ أول ساعة من النهار في تنظيم صفوفهم . فلما لاحظ أنراك القلعة بحركاتهم بادروا فاعطوا الاشارة لمن في معسكرهم ، فعزم كربوغا على التقدم والحيولة دون ما يريد ، وأرسل في الحال نحو ألفى فارس ليصرف نظر قواتنا الموجودة عند الجسر ويمسها من مفادده المدينة ، ثم رجّل هؤلاء الرجال ونزلوا عن ظهور جيادهم ليكون هجومهم اشد عنفا . ولكي يجدوا مجالا أوسع لاستعمال أقواسهم ، فأمكنهم الاسيلاء على الطريق البعيد من الجسر ، وأما الصليبيون فقد رهبوا صفوفهم . وورعوا رجالهم وفق قواعد علم القتال ، ثم قاموا بعد ذلك بفتح البوابة ، وزحفت فبالهم وحادا بعد آخر ، وكانت لا تزال مرابطه في مواضعها على نفس المسافات التي يفصل بين بعضها والبعض الآخر .

وبينما كانت كنانة العدو التي قدمت لمنع جماعنا من الهجوم تتجهدهم نفسها أشد الاجهاد لبلوغ هذه القاية . عمد هج العظيم الذي يولى - كما قلنا - قيادة الميقل الأول بإرسال كوكبه من المشاة ورماة الأقواس ، فشنت هجوما عنيفا على البرك الذين حاولوا المقاومة في بداية الأمر ، لكنهم ما لبوا أن عجزوا أخيرا عن صد قواسا ، واضطروا الى الفرار على غير نظام ، فاصفى هج أثرهم في

عنف لم يستطيعوا معه الوصول الى جسادهم وامتطائها الا بعد
 لأى وجهه ، وبسبب كانوا لا يذب نادبال الهرب اسسبيل في
 مهاجمتهم اسبيل دى ريموب الذائع الصيت الذى كان واقفا في
 الصف الأول ، وقدم الدليل الناصح على شجاعه ، واندفع
 غير عابئ سلامه حتى صار في وسطهم وقد كسوه من كل
 ناحيه ولكنه صمد مردبا بعضهم وطعما بسيفه ناوب البعض
 الآخر ، وأبدى في الفئك بهم كثيرا من البسالة التى دلت على قدره
 واستلعت اليه الأنظار ، وحذب اليه اعجاب جميع المحاربين ،
 فحف لجسده حج العظيم ، وروبرت كوت فلاندر ، وروبرت
 كوت بوماندى ، وبالدوين كوت هسول ، واساس أحو الدول ،
 وقد املأت نفوسهم اعجابا بطولته فضموا مواهبهم بعضها الى
 بعض ، وكروا على العدو كره اسماصلوا بها سافة من لزال هناك
 من عسكره ، ثم تابعوا انقضاء أنره الى محييه وكندوا المارفين خساره
 بعجز اللسان عن وصفها .

- ١٩ -

سما كانت فواننا تغادر المدينة جرى أمر يستحق السجل ،
 ذلك أنه فى اللحظة التى أخذوا فيها ينهاون للعمل ، وقد صاروا
 بعسكرهم خارج الباب ، اذا ببعض من رجال العدو الذين دبوا
 أمر منعهم من الخروج يحرون صرعى ، ويلوذ غرهم بالفرار ،
 وحدث فى هذه اللحظة بالذات أن أخذ حبسات الندى اللذيد
 تنساقط على الجيش الصليبى ، وكان رذاذا خفيفا لكنسه أتمش
 رجالنا كل الانعاش ، ونزل عليهم بردا وسلاما ، حتى لكأن السند
 ذاته هو الذى بمنحهم بركاته وعطفه .

وما كان هذا الندى العاوى المعطر يصبب أحداً الا وندب
الفرحة فى نديه . ونسسى روحه . وسبرد فوهه بمام الاسترداد ،
حتى لكأنه لم يشك قط مشعبه ولم يابى صعوبه طوال رحاة الحج .
ولم يعنصر ذلك على الرجال وحدهم . بل ان الحصاد دانياً عادب -
بقوه الله - الى ما كانت عليه من النشاط . على الرغم من انيسا
ظلب لبضعة أيام سألته لهذا الحديث لا يجد علماً عادب به .
ولم يكن لها من طعام سوى ورق الأسجار ولحائها ، أما اليوم فقد
حاوزت سرعتها وصبرها سرعه خذل العدو مع أن علف حناده كان
من السعير والسس .

أدى هذا الأمر الى أن باب الأمل فى البصر فويا . وبعد هذا
الندى فى حدودنا قوة احتمال طاغية فكأنه هو المراد بقول المعاني (١)

« اللهم عند حروك ٠٠٠ الأرض اربعى . السموات احيا
وطرت ٠٠٠ مطرا غريرا أنضجى يا الله ٠٠٠ مراك وعرو دعى أنت
أصلحنه »

والواقع أن حدودنا لم يخامرهم أدنى سك فى أن الذى بالهم
انما هو رحمة الروح القدس قد نزلت عليهم .



ولما أصبح جميع الكنائس خارج المدينة صمم الرعاة على
نشر العسكر حتى الجبال التى تبعد عن أنطاكية فراه ميلين ،
واحتلال السهل بأكمله مخافة أن يحول العدو - بأعداده الضخمة -
جلسه - او غنوه - بين فواصا وبين المدينة . فيكون فى ذلك الخطر
علنا ، كما أنه يستطيع بهذه الطريقة - كما هى عادته - الإحداى

(١) مزامير ، ٦٨ ، ٩ - ١٠ .

رجالنا من كل جانب - فمقطع حط الرحمة على المتسلسلين الى المدسة . واحد الرسايون يقدمون سبط حتى لا يحاط صغوفهم بعضها ببعض ، او يخلط نظامها . وقد ساءت الارادة الالهية أن الصليسيين الذين كان بخيل لرائيهم - وهم وراء الأسوار - أنهم دون خصمهم عددا . أو بفول أدق أنهم لا شيء مطلقا بالنسبة اليه - قد صاروا وهم خارجها يوارونه عددا ان لم يكونوا أكثر منه جمعا ، وهكذا فان « الواحد الذي بارك الأرغفة الخمسة فراد في يقاناها زيادة جمة بعد أن أكل الجميع حتى سبغوا قد جاء بمعجزه ليست دون هذه المعجزه حين راد عدد هؤلاء الناس ، الذين وهبوا أنفسهم للعمل الصالح في نظره . وكان ذلك منه مجندا لاسمه » .

وكان القسيس واللاويون الذين وهبوا أنفسهم للرب يسبرون في ركبي من خرجوا للفتال متسربلين بمسوحهم البيضساء ، ورافعين بأيديهم الصليب المجند ، كما ظل بالمدينة طائفة من الكهنه وكانوا كأمالهم مديرين بمسوحهم الكهنوسه ، واعلوا الاسوار ورفعوا أيديهم الى السماء لا يكلون عن الابتهال الى السيد بدموعهم وصلواتهم أن يخلص شعبه الوفي ولا يأذن لمنكريه أن يرثوه .

- ٢٠ -

فهم كربوغا من الاشارة التي ظهرت على الملعه ومن مطالعته الهاربين المهزومين من أنطاكية عند زحف رجالنا ان الصليسيين أخذوا في التقدم ، فدعا الى اجتماع عاجل حضره كبار الرجال في السن وقواد عسكريه ، للنشاور في الوضع الذي كان ينظر اليه بازدداء ، ولكنه أصبح يشكل أمرا خطرا حمّله على أن يحوف

من هؤلاء العوم النافعين ، الذين سحر مند فليل جدا من معداتهم
وعدهم الضئيل ، ومن ثم سرع في برسب قوائمه ، ونظم صفوفه
استعدادا للصال ونرولا على بصيحه مسساريه . واحده بجره
الأنطاكيين بعين الاعبار واستطاع يكبر من انهائه نظم قوائمه
وبرسب صفوفها للصال ، وأقام جدا فاصلا بارزا بين الصانق انسى
يتألف منها حرس مقدمه وبين السائرين خلفهم . وكان من بين
نظامه الصارمه ما يلى .

هو أنه ارسل ناحيه الساحل كسيه امنازت بكفاءه رجالها
وسجاعتهم ، وقد فعل ذلك قبل أن يشغل الصليبيون كل السهل
الواصل بين المدينه والجبال ، ويقال ان هذه الكتيبة كانت بقيادة
قلج أرسلان أمير نيقية المشهور الذى تردد ذكره كثيرا فيما سبق ،
وكان الهدف من هذه المناورة هو أنه اذا دارت الدائره على سعب
الرب ، واضطروا للهروب ، وجدوا أنفسهم وقد سدت سبل الجاه
من خلفهم وقدامهم ، سواء كانوا يريدون العرار الى البحر أو الى
المدينه ، وبذلك يقعون بين القوات الى بطاردهم . وبين الذين
يحاولون منعهم من التقدم فتنطحهم رعى القنال بين سعبها .

ثم أقام كربوغا بقية عسكره على اليمين وعلى الشمال ، واصفا
كل جماعة تحت قيادة قائدها الخاص . ونادى في عسكره أنهم
ان أرادوا كسب عطفه عليهم ، فعليهم أن يذكروا ما عرفوا به
على الدوام من الشجاعة الفائقة ، وأن يحاربوا خصومهم حربا
لا هواة فيها ، ولا يلقوا بالا الى مجهودات قوم لا يدرون ما الحرب ،
ولا يزيدون عن أنهم رعا انهم أنهمكتهم المجاعة ، وأعوزهم السلاح ، وفى
فى يدهم المال .

ولما احلبت حواس كل السهل احللا أموا معه أن يحدو بهم أى حطر أمروا ندق الطبول ايذانا بالزحف ، وسرع العسكر فى التقدم شيئا فشيئا نحو صفوف العدو ، بنعدهم حاملو الرباب ، حتى اذا صاروا قريبين من المارقن قريبا أعجز الأخيرين عن رميهم بالسهم ، اندفعت الى الامام فى آن واحد صفوفنا الثلاثة الأولى ، وقابل رجالها العدو بالسيوف والرماح فى الأحياء القريبة . أما مشاننا وهم رماء الأقواس والمجسج ، فقد سموا كائب الفرسان ، وراح الجمع ينافس بعضهم بعضا ، وسوا من الهجوم أعنفه .

ثم جاء الفرسان فى أعقاب المشاء ، بادلين أقصى الجهد لحماية الطليعة ، وبينما كانت الصفوف الأولى نبذل قصارى جهدها فى القتال ، صب لمعاونتهم من كانوا وراءهم مسلسلين فى الهجوم ، فأثاروا الطليعة للقيام بأعمال أكبر شجاعة وأعظم جرأ ، وهجمت جميع العواب الصلبة باستثناء المؤخرة - التى بقيادة بوهيموند - على العدو وحاربه فى بطولة ، واستمر العبل فى كثير من البرك ، ودبت القوضى فى صفوف الباقين فركبوا الى الفرار ، وصلى الدوى ووحده فضاء مبرما على أقرب وحدات العدو اليه ، غير أنه جذب فى هذه اللحظة أن عاد فليج أرسلان بعيلقه الذى كان - كما قلنا من قبل - قد فاده منجها ناحية الشاطئ - وكر به كره عسفه من الخلف على كتيبة بوهيموند ، وراح برشقها بوابل من السهم التى راحت تتساقط مدارا حنى غطتهم جميعا ، ثم نجح قواب قلع أرسلان الأقواس جابيا ومجنبت نكنكاتها المألوفة ، وهاجمت بوهيموند بالهراوات والسيوف وكانت الكرة عليه أضرى ما تكون ، حتى لم تعد صفوفه قادرة على تحمل ضغط هذا الهجوم الشرس ، فدب الاضطراب فى صفوف كتيبته على الرغم من صموده للعدو .

هو وبله صئيله من رفاقه ، كما أبدى من البسالة العائقه ما هو
مبين به كعائده ، على أنه فى هذه اللحظة الحرجة استسجابه الدوق
جودفروى لما نودى عليه ، وأصرع بعوانه لمساعدته بوهيموند ، وكان
ممن جاء مع الدوق من الرجال تنكريد القائد المقدام ، ومربى على
مجيء هؤلاء الرجال خير كبير ، نسل فى نوارن فوانهم مع فوات
العدو الذى نلاشى بأسه مما شجع الصليبيين على ملاحقه ، غير
عابئين أن يصابوا فنجرحون أو يملون ، فلما رأى الحصم أن
فونه ليست معادله لعواننا ، وأدرك أنه لن يستطيع بحمل بأس
حصونه أكثر من هذا عهد عسكره الى حيل أخرى ، وكان منها
رجوعهم الى مألوف عادتهم ، فأصرموا النار فى الروع ، فأجبت
لوجود كميات وفيره من الحسائش الجافه وآكوام العش التى
سرعان ما أمسكت بها البيران ، وساعدت على اتساع مدى الحريق ،
وعلى الرعم من أن اللهب كان بسيطا الا أنه أسفر عن دحان كيف
حائق ، فحالب هذه القمامة بين حيشنا وبين مطاردته العدو بشده ،
ذلك لأن ما أثاره أقدام كثير من الرجال والجسود من العير
والتراب ، أزاغت أبصارهم وكادت أن يعميها ، حتى لم تكدر ترى
شيئا ، فاغنم العدو وحود هذا الدخان ، واتخذ منه سيارا استخدمه
بمهارة فى تحقيق غرضه ، فهاجم فواننا وفك بطاقة من مشاننا ،
غير أن سرعه عدو جباد العرسان ساعدتهم على تجنب أخطار الدخان
الكثيف ، فكروا عائدين الى ساحة المعركة ، وجاءهم القوت من
السماء ، فاسمروا فى القتال حتى نجحوا آخر الأمر بفضل تجدد
نشاطهم ، فى ارغام العدو المارق على الهروب أمام صفوفهم الظامئة
للانتقام ، ولم يكفوا عن مطاردته ، حتى حملوه - وقد اضطرت
'صفوفه أشد الاضطراب - على الارتداد الى حيز يوجد اخوانهم .

كان على معربه من ساحة المعركة واد صغير ، اذا حل الشناء غمره السيل المتدفق من فحة الجبل العالية ، وقد مكث فواننا من طرد العدو الى ما وراء هذا المجرى المائي ، ولم يتوان رجاله عن بذل أقصى جهدهم في سبب أقدامهم فوق نل يعلو هذا السهل قليلا ، وراحوا ينفخون في الأبواق ، ويدقون الطبول في محاولة منهم لاستدعاء عساكرهم المشتتة هنا وهناك ، ولكن زعماءنا انطلقوا بتعقبهم دون أن يوقفوا ولو لحظة واحدة ، وسرعان ما أدركوهم ، وبينما كانت المعركة الكبرى دائرة اد أحبل من المؤخرة الدوى جودفروى وبوهيموند وتانكريد وغيرهم من أشرف الرجال ، وقتلوا كتاب قليج أرسلان واسناصلوا شأفتهم بمعونه الرب .

فى هذه الأثناء تمكنت الطليعة المؤلفة من هيج الكبير ، وروبرت كونت فلاندرز ، وروبرت كونت نورماندى مع الكثيرين ممن يستحقون الذكر الأبدى ، من حمل العسكر المعادى لهم على الهرب ، واجتاز هؤلاء المحاربون الوادى ، وأزاحوا العدو عنوة من على الجبل ، وأرغموه مرة أخرى على الفرار ، وقد صربت الفوضى أجرائها عليه ، ولم يعد قادرا على احتمال الضغط الذى مارسه القوات الصليبية عليه .

ظل كروبغا منذ بدء القتال بعيدا عن ساحة المعركة مرابطا على تل معين ، وكانت الرسل موصولة العدو والروح حاملة له أخبار المعركة ، وبينما كان يترقب فى لهفة نتيجة هذا الصراع العام ، اذا به يطالع - فجأة - اختلال نظام قواته وتفرقها ، وفرار عسكره على وجوههم فى شتى النواحي على غير هدى ، وتفرقهم أيدي سبأ ، فغمزه الحزن المضر حين أدرك مدى النكبة التى حلت بهم فنصحهم

أبعاه بالعمل بكل الوسائل على ما فيه سلامه ، فغادر المعسكر على عجل لائذا بأذيال الفرار غير عابئ بمطلما برجاله ، ولا مسطرا أحدا منهم ، وأحد يتبدل على الدوام الجياد على طول الطريق لسهل هروبه ، حتى بلغ نهر الفرات ، فعبره وهو في حال من العزع الشديد ، فلما بلغ شاطئه الآخر لم يصدق أنه بلغه سالما .

حين ساهدت فواب العدو تخلي فائدها عنها وحرمانها من مساعدته أياها ، زائلتها شجاعتها وبلاشي عزمها ، فأسولى رجالها على كل ما عمروا عليه من الحبل ، وحدوا خذو كبيرهم فأمعوا في الهروب حتى لا يكونوا طعما لسوف مطاردتهم .

ولم يكف رجالها عن مطاردتهم إلا لحوقهم من أن سبق جباذهم بحهم من طول المطاردة ، بيد أن تانكريد وشرمة صئلين معه قصوهم مسافة ثلاثة أو أربعة أميال ، حتى حانت ساعة العروب فرجعوا بعد أن أوقعوا الفرع الأكبر في فلوبهم .

ابتلت القوة الإلهية نفوس هؤلاء الفارين بالهوف ، حتى أنهم لم يستطيعوا الصمود لهجمات المعدن عليهم ولا صدها ، إذ يخالون العشرة من رجالنا آلافا مؤلفه ، كما أنهم لم يجدوا أحدا يهديهم ويأخذ بيدهم أثناء هروبهم أماما ، وتوضح هذه الحقيقة أنه ظهر صديق المبل القائل (١) .

« ليس حكمة ولا فطنة ولا مشورة نجاة الرب » .

وظهر جليا في هذه التجربة ذانها أن فوما أهل مربة تكاد المجاعة نقضى عليهم يصبحون ذوى بأس شديد ، فادريين بمعونه الرب على هزيمة مثل هذا الجيش الكبير من المحاربين الأقوياء وأن

(١) أمثال ، ٢١ . ٢٠ .

ينحقق لهم في معركة واحدة فوق كل ما كانوا يأملون ، اذ يتمكنون
من دحر جميع قوة المسرف الذي لا يعرف الرب . .

- ٢٢ -

حين فرغ رجالنا من المعركة ومحتهم السماء النصر ، انفلتوا
الى مخيمات العدو فوجدوها راحية بكل ما هو ضروري وما لا غنى
لهم عنه ، وعبروا على أحمال كبيرة من الأمعة الشرقية الغالية التي
بلغت من الصحابة ندرا كان من المسنجيل معه عدها وتقديرها ،
وهي غنائم من الذهب والفضة والجواهر والحريز والملايس الغالية،
الى جانب الأدوات المرلبة الرائعة الصبغة ، النفيسة الماددة ،
كما وجلس هناك أعداد ضخمة من الجياد وفتعان الماشية وأسراب
الأغنام . بالإضافة الى مفادير هائلة من الأطعمة والجبوب ،
وكان ما عتموه شيئا عظيم الوفرة ، حتى لقد سحر من كانوا حتى
الآن مسلمين أشد الاملاى ماذا يأخذون وماذا يتركون ، واستولوا
على خيام العدو وفساطيطه التي كانوا في حاجة ملحة اليها ،
لأن ما كان لديهم منها من قبل قد قدم المهد به ورت ، وأبلاه
هطول المطر الغزير عليه ، مما جعله في الواقع غير صالح
للاستعمال .

ثم عادوا الى أنطاكية وفد فاضت أيديهم بالغنائم الجمة ،
فكان مما عادوا به مما خلفه الأتراك وراءهم حين فرارهم الاماء
والأطفال ، كما استولوا على مخيم القائد الصام ، وهو قطعة من
الابداع في الصبغة فد سيج أغلبه من أحسن أنواع الحريز المتعدد
الألوان ، وكان هذا القسطنط مؤلفا من حجرات تمتد الى جهات

بعيدة ، ويفصلها بعضها عن بعض الشوارع ، وعيل ان هذه الحيمة كانت تسبح لآلعين من الرجال لايراحم الواحد منهم فيها الآخر ولا يصايعه .

رجع الصليبيون الى المدينة محملين بكل ما أصابوه من الغنائم والأسلاب ، وعدوا يومهم هذا يوم فرحة عامرة بسبب النصر الذي أحرروه ، وعادوا ساكرين من جاد يده عليهم بالغبلة الى واصلهم بعد طول انتظار ، وبعدما فاسوه من الكوارث ، وما نزل بهم من المصائب العديدة .

أما الترك الذين لازال القلعة في أيديهم فقد أدركوا الآن أن قد حاصب الهزيمة بحلفائهم ، ودارت عليهم الدائرة ، ففقدوا كل أمل كان براودهم في بجده ثأنيهم من أي مصدر ، وحينذاك أسلموا القلعة لعاديا الدين خفقت أعلامهم على ضائق أبراجها ، غبر أن الترك استرطوا عليهم أن بادنوا لهم بالخروج سمالين ، لايعرض لهم أحد بسوء في أنفسهم ، ولا في أولادهم ، ولا فيما ملكت أيديهم .

ومن ثم تم نصر الصليبيين ، واستحوذوا على القلعة فرحة الرب الكبيرة الساملة ، وأصبح من كانوا بالأمس الدابر في شدة الاملاق والخور : أغنياء كل الغنى اليوم بما ملكته أيديهم من كل طبب .

لقد مرت عليهم أيام عجاف صار فيها أصلب الحجاج عودا من أصحاب الأسماء الرنانة وذوى الصبب الذائع - ولا تذكر العامة أقول مرت أيام صار فيها هؤلاء وقد ضاقت بهم الحياة ضيقا اضطروا معه الى الاستجداء ومد أيديهم بالسؤال ، وحسبنا أن نذكر منهم كونت هارتمان - أحد نبلاء المملكة التيوتونية - فقد صحا ذات يوم ليجد نفسه في فقر مدقع ، وأصبح هذا النبيل

العظيم يرى المنة الكبرى أن يصدق عليه الدوى كل يوم بحبر
يجود به عليه من مائدته .

ونسأله أبصاء هنرى ديش ، وكان رجلا فاضلا مرموقا ،
اذ كاد - من غير مبالغة - أن يهلك جوعا ، لو لم يستضعفه الدوى
على مائدته .

ومى أثناء هذا الحصار كابد الدوى دانه مشقة كبيرة قبل
المركة لعدم وجود حيل لديه ، لكنه استطاع بعد لآى ومشقة ،
وبعد ان قدم ما قدم من المساسات جمة الى كورت بولور ، أن
يحصل منه على حواد واحد يضى به الى المركة ، وكان جود فروى
وسواء من الزعماء الآخرين قد أنفقوا هم أيضا كل ما كانوا قد
حاءوا به من المال ، اذ بذلوه فى أعمال البر والرحمة ، لاسيما
ما كان منها متعلقا بالنفقة العامة .

وهكذا شهدت ساحة المركة - يوم نشبت المركة - رجالا
ابطالا دوى حسب يصون البها منشاء ليس عندهم ظهر يركبونه ،
وبعضهم يسطى الحمر وأمالها من دواب العمل ، ذلك لأنهم كانوا قد
أفنوا كل ما معهم من المال ، وأصبحوا اليوم مملقين لسى لديهم
خبل .

غير أن الله كلأهم برحمته قبل غروب شمس ذلك اليوم ،
فأنزل الهزيمة بالاعداء ، وأعدى على أساءه المحتاجين من النروة
فوق الذى يشنهنون وفوق ما يصورون ، ومن الواضح ان هذا كان
تكرارا لقصة السامرة القديمة حين بلغ ثمن بيع المكمل من الدقيق
الطحين والسعير قطعة واحدة من النقود (١) ، ولكن لم يمس المساء

(١) هذه اشارة الى ما جاء فى البوراء من حر سوء الشح بالرحم فى
السامرة ، اذ ورد فى الملوك الثامى ١/٧ « وقال الشح اسمعوا كلام الرب ،
هكذا قال الرب فى مثل هذا الوقت . عدا تكون كيلة الدقيق بشاقل ، وكيلة
القمح بشاقل فى باب السامرة » .

على من لم يكن عنده غير ما يمسك رُمقه الا وود يوفر له منه ما راد
عن حاجته وما يكفى أن يقيم أود الكسرين معه .

ولقد وقعت هذه الواقعة في اليوم الثامن والعشرين من شهر
يونيو ١٠٩٨ من ميلاد المسيح .

- ٢٣ -

لم يكد القادة يعودون من ساحة القتال ويسبب شيء من
السلام والنظام حتى انصرفت همه الجميع للمعايه بالكنايس . وكان
أشد القوم احساسا بالمسئولية تجاه هذا الأهمام [أديمار دي موبل]
أسقف بوى المعظم . باعتباره راعي الجيوش . وعاونته بقيه من في
الجيوش من القسيس معاونه صادقة مخلصه ، كما أقبل الناس يبدون
بد المساعدة عن طلب حاطر ، وبهذا عادت الكنيسة الرئيسة المتدهاه
الى أمير الحواريين وبقيهم كنائس أنطاكية الى مكائسها التي كانت
عليها في الاصل ، وأقام فيها المساواة الذين وهبوا انفسهم على
الدوام للقيام بالخدمات الدينية .

كان الترك قد دنسوا الأماكن الطاهرة وأخرجوا منها من كان
بها من أهل النجوى ، واستخدموا الكنائس اسجدا لما سُناتنا .
فحولوا بعض هذه الأماكن المقدسه الى اسطبلات للخيول ولغيرها
من ذواب البتل . وممارسوا في غيرها أعمالا دسة ، وطمسوا صور
العديسين المجليين التي كانت على جدران هذه المواضع ، زاروا
الرموز التي كانت تقوم مقام الكتب والعراة لعباد الرب المسحوقين .
وكان ما طمسوه أشياء نبعت القوي في نفوس البسطاء ، نصب

(الحروب الصليبية ح ١) - ٤١٩

الترك عصبهم على هذه الانبياء كما لو كانت أحياء يسمعون ، فراحوا يسامون عبوبهم ، ويحذعون أنوفها ، ويطمسوا هذه الصور بالطين . ويلوبونها بالعادورات ، ويهدمون المذابح ، ويدسون هبكل الرب بفعاظهم المسكرة ، فابعى الأجماع حينذاك على أن يعود رجال الدين في لحظتهم لممارسة الأعمال التي كانت صاظة بهم من قبل في الكنائس . وأن يجمع المال ليعموا به المحاربين في سبيل الرب ، وأن يؤججه ما عموا من ذهب العنبر وفصنه ومصبعون من ذلك السعداناب والصلبان وكؤوس القرايين ، ويرسم عليها صور مسمومة من الكتاب المقدس . وسنخدم في كل ما هو ضروري ولازم للحياة في الكنيسة ، كما قدموا الأقمصة الحريرية لصنع الملابس الكهوتية وأغطيه المذابح .

وأعد البطرك «يوحنا» الصادق الإيمان الى أبرسيه ، وكان قد كابد من العذاب على أيدي الترك منذ مسمدم الصليبيين ما يعجز اللسان عن وصفه .

أما المدن المجاورة التي كانت تسمع بوجود كنائس كندرائيه بها فقد نصبوا أساقفة يرعونها ، كما وجدوا - من ناحية أخرى - أنه ليس من اللائق اختيار أو رسم بطرك لاسنى في الوف الذي كان . ساعل هذا المكان الموفر لا يزال على قد الحياة ، وذلك تحاشيا من وجود النبن يشغلان نفس الكرسي في وقت واحد ، مما يعتبر مخالفة صريحة لقوانين الآباء المقدسين وفراراهم النظامية . على أنه قبل انقضاء عامين غادر البطرك يوحنا بمحض ارادته أنطاكية ، ومضى الى القسطنطينية ، وذلك ادراكا منه أنه لن يكون قادرا - كبونامي - على أن يحكم فعالة على اللاتين ؛ فلما غادرها اضمع رجال الدين والشعب واخبروا بطركا آخر لهم هو برنارد أسقف « أرناح » من أهل فالنسيا وهو الذي صاحب أسقف بوى في هذه الحملة كاشمين له .

ثم امنل الجميع للمعهد الذى قطعوه على أنفسهم فى البدايه
الا وهو أن تكون السلطه والحكم فى أوطاكيه لبوهيموند ، ففعلوا
ما افعوا عليه ، ولم يقيد عنهم سوى كوت بولور ، الذى احفظ
البوابه الملاصقه للجسر وبجميع الأبراج المتصله بها ، وأقام فيها
حاميه من رجاله تتولى أمر حراستها .

على أنه بعد معادرة الكونت لأطاكية عمد بوهيموند الى طرد
حمد [ريموند] من هناك ، وأحل حاميه من رجاله محلهم لحراسها ،
واسمولى على المكان كما سرى خبر ذلك فما بعد .

ولقد حلق خاصه رجال بوهيموند عليه لعبا بعظيما الا وهو
« الأمير » ، الذى أصبح مد هذه اللحظه لقباً لصاحب أوطاكيه
لا يشاركه فيه أحد غيره .



هنا ينتهى الكتاب السادس

● ● بهذا يشتهى الجزء الأول من الترجمة العربية لكتاب
الاعمال التى تم انجازها فيما وراء البحار أو تاريخ الحروب
الصليبية تأليف وليم الصورى ، ويليه الجزء الثانى متضمنا الكتاب
السابع حتى الثانى عشر .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
مقدمه المرجم	٩
مؤلفات وليم الصوري	٢٧
ماريخه الكبير	٢٢
كامة سكر	٥٥
التمهيد	٥٧
الكتاب الأول : المسحة ذهب لاسخلاص بيت المقدس ،	
وبطرس الماسك بدأ في الزحف مع جماعات	
أخرى	٥٧
الكتاب الثاني : جهوش الحملة الصليبية الأولى تزحف الى	
القسطنطينية	١٢٩
الكتاب الثالث : الاسيلاء على نيقية والزحف عبر آسيا	
الصغرى	١٩٣
الكتاب الرابع : اجتياح الصليبيين شمال الشام وتروعهم	
في حصار أنطاكية	٢٤٩
الكتاب الخامس : حصار أنطاكية واحلالها	
الكتاب السادس : محاصرة الصليبيين - النصر المعجزة	٢٦٣
	٤٢٣

● صدر من هذه السلسلة :

- ١ - مصطفى كامل فى محكمة التاريخ
د. عبد العظيم رمضان
- ٢ - على ماهر
اعداد : رشوان محمود جاب الله
- ٣ - توره يولبو والطبقة العاملة
اعداد : عبد السلام عبد الحليم عامر
- ٤ - النشارات الفكرية فى مصر المعاصرة
د. محمد نعمان جلال
- ٥ - غاراب اوربا على النسواطى، المصريه فى العصور الوسطى
عليه عبد السميع
- ٦ - هؤلاء الرجال من مصر ج ١
لمعى الطيعى
- ٧ - صلاح الدين الايوبى
د. عبد المنعم ماجد
د. محمد أنيس
- ٨ - رؤيه الجبرسى لازمة الحياه الفكرية
د. على بركات
- ٩ - صفحات مطويه من تاريخ الرعيم مصطفى كامل
- ١٠ - نوفسق دباب ملحمة الصحافه الحزبية
محمود فوزى

- ١١ - مائه شخصه مصرينه وشخصية
سكري القاضي
- ١٢ - هدى شعراوى وعصر النوير
د. نبيل داغب
- ١٣ - اكدوبه الاسماعيل المصرى للسودان
د. عبد العظيم رمضان
- ١٤ - مصر فى عصر الولاة
د. سميرة اسماعيل كاسف
- ١٥ - المستشرقون والتاريخ الاسلامى
د. على حسن الحريوطي
- ١٦ - فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر
د. حلمى احمد شلبى
- ١٧ - القضاء السرى فى مصر فى العصر العثمانى
د. هتتمه نصر فى متنب
- ١٨ - الماوارى فى مجسم الماضى المعاكه
د. على السيد محمود
- ١٩ - مصر المتدنة وقصة توحيد الفطرس
د. احمد محمود صابون
- ٢٠ - المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فيمى
د. محمد أنس
- ٢١ - النصارى فى مصر ابان العصر العثمانى ح ١
توفيق الطويل
- ٢٢ - بطراى فى تاريخ مصر
جمال بدوى

- ٢٢ - النصوص في مصر ايان العصر العثماني ج٢
 بوفيق الطويل
- ٢٣ - الصحافة الوفدية
 د . نجوى كامل
- ٢٤ - المصباح الاسلامي
 ترجمة : د . عبد الرحيم مصطفى
- ٢٥ - تاريخ الفكر الربوي في مصر الحديثة
 د . سعيد اسماعيل علي
- ٢٦ - فتح العرب لمصر ج ١
 ترجمة : محمد فريد أبو حديد
- ٢٧ - فتح العرب لمصر ج ٢
 ترجمة : محمد فريد أبو حديد
- ٢٨ - مصر في عصر الاحمديين
 د . سيدة اسماعيل كاشف
- ٢٩ - الموطعون في مصر
 د . حلمي احمد نسلي
- ٣٠ - خمسون شخصنة وشخصنة
 شكري القاضي
- ٣١ - عؤلاء الرجال من مصر ج٢
 لمي الطيعي
- ٣٢ - مصر وقضايا الجنوب الاقربى
 د . خالد الكومى
- ٣٣ - تاريخ العلاقات المصرية العربية
 د . يونان لبيب رزق

- ٣٥ - اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة
عبد الحميد توفيق زكي
- ٣٦ - المجتمع الاسلامى والعرب ح ٢
ترجمة : د. احمد عبد الرحيم مصطفى
- ٣٧ - النسخ على يوسف
تأليف : د. سليمان صالح
- ٣٨ - فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى
العصر العثمانى
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم
- ٣٩ - قصة احلال محمد على لليونان
د. جهيل عبيد
- ٤٠ - الاسلحة الفاسدة
د. عبد المنعم الدسوقي الجهمي
- ٤١ - محمد فريد الموقف والمأساة
رفعت السعيد
- ٤٢ - تكوين مصر عبر العصور
محمد شفيق غبريال
- ٤٣ - رحلة فى عقول مصرية
ابراهيم عبد العزيز
- ٤٤ - الأوقاف والحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر
العثمانى
د. محمد عفيفى

هذا الكتاب ، تاريخ الحروب الصليبية ، عمل علمي
كبير لويليم المصوري الذي يعرفه طلاب الدراسات
التاريخية كأحد أعظم المصادر في تاريخ هذه الحروب ،
وهو يعالج الفترة التي امتدت من عام ١٠٩٤ - ١٩٨٤
والفترة التي تلتها أي على مدى قرن ونصف من الزمان
والتي أخذت تندلق فيها الهجرات الشعبية المسلحة
المسماة بمسوح الدين والصليب ، وهي التي عرفت
باسم الحملات الصليبية .

وهذه الترجمة سوف تصدر في أربعة مجلدات - هذا
أولها - ألّبت فيها الأستاذ الدكتور حسن حبشي مكانته
العلمية وتفرد بقدر عظيم من الدقة التي ترسم للجيل
الجديد من المؤرخين الطريق للوصول إلى الاستاذية
بمعناها الصحيح .